

القسم الثاني

العراق

obeikandi.com

الفصل الأول

السياسة والمجتمع

١

البويهون والسلاجقة والخلفاء العباسيون

البويهون^(١) أسرة فارسية تُنسب إلى بويه ، وهو فارسي ديلمى ، ويقال إنه كان صَيَّاداً على بحر قزوين ، وكان أبناؤه على والحسن وأحمد من حوله يَحْتَضِرُونَ . ونراهم حين صار إليهم الملك ينسبهم المؤرخون - ملقأهم فيما يبدو- إلى الملك الساساني بهرام جور . ومهما يكن فقد التحق بويه وأبناؤه بخدمه ما كان بن كاكي ، حتى إذا انتصر عليه مرداويج الزبيري صاحب جرجان تحولوا إليه ، وأيدوه في حروبه ضد الدولة العلوية الزيدية بطبرستان ، فولَّى عليا الكَرَج في الجنوب الشرق من هَمَدان سنة ٣٢٠ للهجرة ، ولم يلبث على أن استولى على فارس وأرجان واتخذ شيراز مقراً له . وقُتِل مرداويج في سنة ٣٢٣ فاستولى هو وأخوه الحسن على أصفهان والرِّي اللتين كانتا تابعتين له وتولى الحسن شئونهما وشئون بلاد الجبل ، واستولى أخوهما أحمد على كرمان ، وظل يتقدم تدريجاً نحو الغرب حتى استولى على الأهواز سنة ٣٢٦ ومضى يتقدم حتى استولى على واسط : وفي هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد ، وكان الجند الأتراك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم ، فوجد أحمد الأبواب جميعها مفتوحة إلى بغداد فدخلها في جمادى الأولى سنة ٣٣٤ . ورحَّب به الخليفة المستكفي منقداً ومخلصاً ، ومنحه إمرة الأمراء ولقَّبه معز الدولة ، ولقَّب أخاه عليا صاحب فارس وشيراز عماد الدولة والحسن صاحب بلاد

القرن الرابع الهجري لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ص ٢٧ وما بعدها وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٤٤ وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي ومادة بن بويه في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في الدولة البويهية تجارب الأمم لمسكويه وذيله لأبي شجاع والمتظم لابن الجوزي وتاريخ ابن الأثير وابن خلدون والنجوم الزاهرة لابن تغري بردي وأحسن التقاسم للمقدسي في مواضع متفرقة وابن خلكان في تراجم أمرائها وكذلك الجزء الثاني من كتاب البيعة للثعالبي وابن طباطبا (الفخرى في الآداب السلطانية) والحضارة الإسلامية في

الجيل ركن الدولة ، وضربت ألقابهم على السكّة ، ودُكرت أسماؤهم وألقابهم مع الخليفة في خطبة الجمعة . ومن حينئذ بالغ البويهيون في الألقاب الفخمة يُضفونها على أنفسهم وعلى وزراءهم . . ولم يكد الشهر التالي لدخول معز الدولة بغداد يتقدم حتى خلع المستكني وسُملت عيناه ، وولى الخلافة بعده ابن عمه المطيع لله ، ولم يكن له ولا لمن تلاه من الخلفاء العباسيين في عهد البويهيين حَوْل ولا طَوْن ولا سلطان إلا ما كان من ذكر أسمائهم في خطبة الجمعة وعلى السكّة المضروبة . وكأنما أصبحوا مجرد صنائع في أيدي البويهيين يسبقون عليهم الرواتب بالمقدار الذي يريدون .

وظل معز الدولة يلي شئون بغداد والعراق والأهواز وكرمان إلى أن توفي سنة ٣٥٦ وخلفه ابنه عز الدولة بِخْتِيار ، وكان شديد البأس شجاعاً يمسك الثور العظيم بقرنيه فلا يتحرك ، وتزوج الخليفة الطائع ابنته شاه زمان في سنة ٣٦٤ على صداق قدره مائة ألف دينار . وكانت ولاية فارس قد صارت إلى ابن عمه عضد الدولة ابن ركن الدولة منذ وفاة عمه عماد الدولة سنة ٣٣٨ للهجرة إذ لم يترك ولداً . فألت ولايته إلى أخيه ركن الدولة ، ففتحها ابنه عضد الدولة . وتوفى ركن الدولة سنة ٣٦٥ وجعل لعضد الدولة أقاليم فارس وكرمان وأرجان وشيراز ، ولأخيه مؤيد الدولة الري وأصفهان ، ولأخيهما فخر الدولة همذان والدينبور ، وجعل لعضد الدولة الرياسة على أخويه ، ولم تلبث الأمور أن ساءت بينه وبين بختيار ابن عمه معز الدولة ، فاشتبكا في حروب ، قُتِل فيها بختيار في شوان سنة ٣٦٧ . وبذلك دخلت بغداد وما تبعها من العراق في حوزة عضد الدولة منذ هذا التاريخ .

وعضد الدولة هو أعظم ملوك بني بويه ، إذ بلغ سلطانه من سعة الملك ما لم يبلغه أحد من أمرته وهو أول من خُطب له - فيما يقال - على منابر بغداد بعد الخلفاء وأول من لُقّب بشاهنشاه (ملك الملوك) في الإسلام وأصبح البويهيون بعده يلقَّبون بهذا اللقب ، وكانت فيه قسوة شديدة ، ومما يصور ذلك رمية بابن بقية الوزير تحت أرجل الفيلة حين سلّمه إليه بختيار لأمر ساءته ، فقتلته بأرجلها شرقتلة . وقد قضى على لصوص الطرق قضاء مبرما وأعاد الأمن إلى نصابه في صحراء كرمان وصحراء جزيرة العرب ، ورفع عن قوافل الحجاج الجباية واحفر لهم الآبار في سُبْنهم إلى مكة وأدار على مدينة الرسول ﷺ سوراً حصيناً ، وأمر بعمارة منازل بغداد وأسواقها وابتدأ بعمارة المساجد ، وألزم أصحاب العقارات تشييد بيوتهم وأقرض من قصرته يده من بيت المال وخاصة من كانت بيوتهم تقع على شاطئ دجلة ، وعنى بالبساتين فامتألت خرابات بغداد بالزهر والخضرة . وجلب

إلى بغداد الغروس في سائر البلاد ، وعُنى بمجداؤها وجسورها ، وأنشأ سوقاً
للبرّازين . وبنى مارستاناً كبيراً ببغداد ، وأجرى الرواتب على العلماء من كل صنف ، وكان
عادلاً سيّوساً يحسن اختيار ولايته وعمله ، وكانت جريباته متصلة على الفقراء والمساكين .
غير أن مدة حكمه لبغداد والعراق لم تطل ، فقد توفى سنة ٣٧٢ ، وكأنها لم تنعماً بحكمه إلا
خمس سنوات متصلة . وكان قد قسم مملكته بين أبنائه الثلاثة : شرف الدولة وصمصام
الدولة وبهاء الدولة ، وهو تقسيم أثبت الأيام دائماً أنه نذير بضياع الدولة واختلال
شؤونها . وتولى شتون بغداد والعراق صمصام الدولة يعاونه وزيره أبو عبد الله بن سعدان
صاحب أبي حيان ، ولم ينبجج أمر صمصام الدولة وغلب عليه أخوه شرف الدولة سنة
٣٧٦ وقهره وجبسه وأخذ بغداد منه ، ويتوفى شرف الدولة سنة ٣٧٩ بعد أن عهد بالملك
لأخيه بهاء الدولة وضيء الملة الذي ظل حاكماً لبغداد والعراق حتى وفاته سنة ٤٠٣
وكان - كما يقول المؤرخون - ظالماً غشوماً سفاكاً للدماء ، وقد قبض على الخليفة الطائع
سنة ٣٨١ وحنعه من الخلافة ، وولاها القادر بالله ، ولم يكن في ملوك بني بويه أظلم منه
ولا أقيح سيرة ، ويقال إنه جمع من المال ما لم يجمعه أحد . وتوزعت الدولة بعده بين
أبنائه الأربعة : مشرف الدولة وقوام الدولة وجلال الدولة وأبي شجاع سلطان الدولة
وهو الذي ولي بغداد بعد أبيه بعهد منه ، وظل يلى شتون ولايته حتى سنة ٤١٢ حين عظم
أمر أخيه مشرف الدولة وعلت كفتّه ، فخطب له ببغداد في المحرم وخوطف بشاهنشاه .
ويدور العام ، فيتم الصلح بين الأخوين ، ويعود ذكر سلطان الدولة إلى الخطبة ، ويتوفى
سلطان الدولة في سنة ٤١٥ ولا يلبث أخوه مشرف الدولة أن يتوفى بعده في سنة ٤١٦
وتصبح بغداد خالصة هي والعراق لأخيها جلال الدولة ، ويستوزر أباسعيد بن ماكولا ،
وينقبه علم الدين سعد الدولة أمين الملة شرف الملك ، مما يصور مدى تغالى البويهيين في
الأنقاب . وبطول حكم جلال الدولة حتى وفاته سنة ٤٣٥ ويختل الحكم في أيامه ويختل
السلطان حتى يبلغ من ذلك أن يستولى العيارون واللصوص على بغداد سنة ٤٢٦ ويفعلون
بها أفعالاً قبيحة ، واختلت الشؤون المالية ، وبلغ من سوء اختلالها أن باع جلال
الدولة ثيابه وماعون بينه وآلاته في الأسواق ، وختل داره - كما يقول ابن الجوزي - من
الحجاب والفراشين والبوابين . وخلفه أبو كاليجار بن سلطان الدولة حاكم فارس
والأهواز ، وكان شجاعاً فاتكاً مشغولاً باللهو ، وفي عهده أخذ المد السلجوقي يزداد حتى
شمل أكثر إيران . مما جعله يموت غماً سنة ٤٤٠ ويخلفه ابنه أبو نصر الملقب بالملك
الرحيم ، وبلغ من ضعفه أن جرّده أحد قواده الأتراك ، ويسمى البساسيري ، من سلطانه

كله ، وأحسن الخليفة العباسي القائم بأمر الله بنحوه ، وعرف أنه يكتب سراً الخليفة المستنصر الفاطمي بمصر ، وأنه يدبر أمرا خطيرا . وكانت الدولة السلجوقية قد أخذ يعظم شأنها في خراسان بقيادة طغرل بك ودانت لها خراسان وشطر كبير من إيران ، فكتب إليه الخليفة يستنهضه إلى المسير إلى بغداد سنة ٤٤٦ ، وأمر أن يذكر اسم طغرل في الخطبة وعلى النقود قبل اسم الملك الرحيم . ولم يلبث أن دخل بغداد وقضى نهائياً على الدولة البيهسية . والسلاجقة^(١) شعبة من الأتراك الغز الذين أخذوا يُغيرون بقيادة زعيمهم سلجوق منذ سنة ٤٢٠ للهجرة على حدود إيران الشمالية والشرقية ، جاءوا من التركستان إلى بلاد ما وراء النهر ، وكانوا يقضون مشاتهم بالقرب من بخارى ومصنفهم بالقرب من سمرقند . وقد اعتنق سلجوق الإسلام السني وتبعته قبيلته . ويقال إن السلطان محمود الغزنوي دعاهم إلى الإقامة في الأقاليم المحيطة ببخارى ، غير أنه عاد فتوجس منهم شراً ، مما جعله يأمر بالقبض على إسرائيل بن سلجوق ، وحسبه في قلعة ببلاد الهند ، ظل بها حتى مات . وتوفي محمود . وفكر السلاجقة في الثأر فانقضوا على بخارى . وهزموا جيوش مسعود بن محمود . وأعلن طغرل بك نفسه ملكاً على خراسان في صيف سنة ٤٣٠ للهجرة ، ودانت له مرو ونيسابور ، ولم يلبث مسعود أن توفي سنة ٤٣٢ فتمكنوا من الاستيلاء على بقية خراسان واستولوا على طبرستان وسجستان وهراة وبُست وأخذ طغرل يولّي أبناء أسرته وعمومته على البلاد ، واتخذ الرّى حاضرة له . واستنجد به الخليفة القائم بأمر الله كي يضبط بغداد على نحو ما أسلفنا ، فدخلها في سنة ٤٤٧ وهرب منها البساسيري ، وخلع عليه الخليفة خلعة سنوية وأجلسه على العرش إلى جواره ، وألبسه حلة فاخرة ، وكان البساسيري قد فرّ إلى الشمال فتعقبه طغرل بك حتى الموصل ، واضطر أن يتركه إلى حرب أخ لأمه يسمى إبراهيم بن ينال خرج عليه في همدان ، وعرف البساسيري كيف يستغل الفرصة ، فوضع يده في يد أحد أمراء بني عَمِيل ، وهو قریش بن بدران ، واستوليا على بغداد وأمر الخطباء على منابرها بذكر اسم المستنصر الخليفة الفاطمي في خطبة الجمعة ، وكذلك صنعوا بما استوليا عليه من

لابن خلكان في تراجم سلاطينهم وتاريخ الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي (ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي) وسلاجقة إيران والعراق للدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص ٢٧١ ومادة السلاجقة في دائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في السلاجقة تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن خلدون وابن تفرى بردى في مواضع متفرقة وكتاب راحة الصدور في تاريخ الدولة السلجوقية للراوندى ترجمة الدكتور إبراهيم أمين الشواربي والدكتور عبد النعم حسن (طبع القاهرة) ومجموعة النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة نشر هوتسا بليدن وتاريخ دولة آل سلجوق للهاد الأصهباني (مختصر البنداري) ووفيات الأعيان

المدن . وأخرج البساسيري الخليفة من بغداد إلى عانة من مدن الجزيرة ، ولكن طغرل لم يلبث أن عاد إلى بغداد وأعاد إليها الخليفة وقضى على هذه الفتنة قضاء مبرماً ، مما جعل الخليفة يلقبه بلقب ملك الشرق والغرب .

وطغرل هو أول ملوك الدولة السلجوقية العظام ، وكان شجاعاً مقداماً كريماً حليماً حازماً حريصاً على أداء واجباته الدينية ، وتوفى بمدينة الرى سنة ٤٥٥ فحلفه ابن أخيه ألب أرسلان بن جُغرى بك ، كان اسمه بالعربية محمداً ، ولُقّب بالملك العادل ، ويقال إنه أول من لُقّب بالسلطان من بنى سلجوق ، وذُكر على منابر بغداد ، وكان شجاعاً مطاعاً ، وهو أعدل بنى سلجوق في الرعية ، وقد وسع حدود مملكته من الصين شرقاً إلى الشام غرباً ، وقد استولى على ما بيد الفاطميين من البلاد حتى دمشق ، وقاد حملات مظفرة ضد دولة الروم الشرقية وأسر إمبراطورها « رومانوس ديوجين » سنة ٤٦٢ في موقعة دمر فيها الجيش الرومي تدميراً . ويقال إن جيشه لم يكن يزيد على خمسة عشر ألف محارب بينما كان الجيش الرومي في تلك الموقعة يتألف من مائتي ألف رجل من يونان وأرمين وقوقاز وروس وغيرهم . وقُدِيَ الإمبراطور نفسه بمليون دينار ، وعقد معه ألب أرسلان معاهدة لمدة خمسين سنة ، على أن تلبية جنود الروم إذا طلبها ، وأن تُردَّ إلى أسرى المسلمين حرياتهم . وكان مدبر مملكته وزيره نظام الملك ، وكان حصيماً وافر العقل ، وسياسياً حكيماً بصيراً بتدبير الأمور ، محبا للعلم ، وقد بعث في دولته نهضة علمية أسس لها مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية ، أقامها في كثير من البلدان ، وعُني خاصة بمدركسته النظامية ببغداد واستقدم لها العلماء من نيسابور وغيرها وفي مقدمتهم أبو إسحق الشيرازي والغزالي وغيرها من كبار العلماء . وخلف ألب أرسلان حين توفي سنة ٤٦٥ ملكشاه ابنه ، وكان شاباً في الثامنة عشرة من عمره ، فأحكم له نظام الملك شئون دولته وفرّق البلاد على أولاده ، وجعل مرجعهم إلى ملكشاه . وكان مظفراً ، استولت جيوشه على كثير من البلاد ، حتى قيل إنه ملك من الأقاليم ما لم يملكه أحد من السلاطين ، فكانت مملكته تشمل على جميع بلاد ماوراء النهر وإيران والعراق وبلاد الروم والجزيرة والشام ، وكان ملكه يمتد من مدينة كاشغر - وهي أقصى مدينة للترك - إلى بيت المقدس طولاً - كما يقول ابن تغرى بردى - ومن بحر قزوين والقسطنطينية إلى بحر الهند عرضاً .

وكان من أحسن الملوك سيرة ، وبالمثل كان وزيره نظام الملك ، ويروى أنه لما تسلطن خرج عليه عمه « قاورد بك » صاحب كَرمان ، فنحاربه وأخذه أسيراً فلما مثل بين يديه قال له : أمراؤك كاتبوني وأبرز له مكاتبات ، فأخذها ملكشاه وأعطاهما إلى وزيره نظام

الملك ، فتناولها منه وألقاها في موقد نار كان بين يدي ملكشاه فاحترقت . فسكنت قلوب الأمراء وبذلوا الطاعة ، وثبت ملكه بهذا الصنيع الجميل لنظام الملك . وكان ملكشاه مولعاً بالعمائر ، فعمّر الأسوار والقناطر وحفر الأنهار ، وأبطل المكوس في جميع بلاده ، وأقام مصانع الماء بطريق مكة وأنفق عليها أموالاً طائلة ، وهو الذي عمّر جامع السلطان ببغداد سنة ٤٨٥ وكانت الطرق في أيامه آمنة ، تسير القوافل من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في مملكته وليس معها خفير .

وتزوج الخليفة المقتدى بابتته سنة ٤٨٠ . ويقول ابن خلكان : كان اليمن والبركة مقرونين بناصيته ، وكان إذا دخل بغداد أو أصبهان أو أى بلد من البلاد دخل مع عدد لا يحصى لكثرتة ، فيرخص السعر وتنحط أثمان الأشياء عما كانت عليه قبله . ويتكسب المتعشون مع عسكره الكسب الكثير . وكان ينفق الأموال الكثيرة على المدارس والرباطات . وتوفى ببغداد في شوال سنة ٤٨٥ وحُمل تابوته إلى أصبهان ودفن في مدرسة موقوفة على الشافعية والحنفية . وبه ينتهى عهد السلاجقة العظام ، وخلفه ابنه بركياروق ، وكان أخوه السلطان سنجر نائبه على خراسان ، ودخل في حروب مع أخيه محمد صاحب أذربيجان ، وكانت كفته دائماً الراجحة ، وحاربه عمه تثنش صاحب دمشق ، وقُتل في بعض المعارك . ودوَّخ الإسماعيلية الباطنية في إيران ، وقتل منهم كثيرين ، وكان على الهمة إلا أنه كان مولعاً بالشراب والإدمان عليه وتوفى سنة ٤٩٨ . وخلفه أخوه محمد ، وله وقائع مع الإسماعيلية وانتصارات متوالية استولى فيها على بعض حصونهم ، ويقول ابن خلكان : « له الآثار الجميلة والسيرة الحسنة والمعدلة الشاملة والبر بالفقراء والأيتام والحرب للطائفة الملحدة (يريد الإسماعيلية) والنظر في أمور الرعية » . وتوفى سنة ٥١١ . وقام بالملك بعده ابنه محمود وهو يومئذ في سن الحلم ، وكان قوى المعرفة بالعربية حافظاً للأشعار والأمثال عارفاً بالتواريخ والسير شديداً الميل إلى أهل العلم والخير ، وهو ممدوح حيّص بيّص الشاعر المشهور ، ويقول ابن خلكان إن السلطنة ضعفت في أواخر أيامه وقلت أموالها حتى عمجزوا عن إقامة وظيفة الفقاعى أو الشراى ، فدفعوا له يوماً بعض صناديق الخزانة حتى باعها وصرف ثمنها في حاجته .

وتوفى سنة ٥٢٥ بعد أن عهد لابنه داود وهو صغير في المهدي ، ولما كان لا يصلح لصغره تولى السلطنة عمه طغرل ، وتوفى سنة ٥٢٧ فصارت إلى أخيه مسعود . وكان قد سلمه أبوه إلى أتابكة الموصل : مودود ثم آق سنقر ثم جوش بك ، وكان شجاعاً ، غير أنه أقبل على

الاشتغال باللذات ، وطالت أيامه حتى سنة ٥٤٧ هـ وقتل من الأمراء خلقاً كثيراً ، ومن قتلهم الخليفةان لعهد المسترشد بالله والراشد . وفي هذا ما يدل على أن السلاجقة استهانوا بخلفاء بني العباس ولم يدعوا لهم حولا ولا طولا ، إذ استخلصوا منهم كل شيء حتى حق الحياة . ويقول ابن خلكان لم تقم للسلاجقة بعد مسعود راية ، وكأنه يختم دولتهم في العراق ، أو قل كأن قتله للخليفين المسترشد والراشد كان إيذانا بانتهاء الدولة السلجوقية ، وأقيم بعده في الملك ابن أخيه ملكشاه بن محمود ، ولم يلبث أن توفي بعد خمسة أشهر من حكمه .

ولابد أن نلاحظ أنه منذ انتهاء عهد السلاجقة العظام بموت ملكشاه سنة ٤٨٥ أخذ البيت السلجوقي يضعف لصغر السلاطين الذين كانوا يعتلون العرش وهم أحداث . وابتدع السلاجقة نظام الأتابكة ، وهم قواد يتولون تربية أبنائهم ، وكانوا يجعلونهم معهم حين يولونهم بعض الإمارات فيضبحون هم الحكام الحقيقيين ، وليس ذلك فحسب ، فكثيراً ما تنافسوا فيما بينهم ، فكان كل منهم يريد أن يفوز لأمره الذي في رعايته بالسلطنة ، وبذلك حمل الإخوة وأبناء الأعمام السيوف وشهرها بعضهم في وجه بعض ، مما جعل عهود بركياروق ومحمد وابنه محمود ومسعود حروباً متصلة ، وبذلك ضعفت الدولة أو أخذت في الضعف سريعاً .

وكانت تُمنحُ لبعض هؤلاء الأتابكة بلدان وإقطاعات تقطعها الدولة لهم ، حتى يساعدها بما تحتاج إليه من مال وجُند . وانتهز بعض هؤلاء الأتابكة الفرصة فاستقلوا ببلدانهم وجعلوها وراثية في أسرهم . نذكر منهم الأرتقيين أو الدولة الأرتقية في ديار بكر والجزيرة وبلدانها ميفارقين وآمد وحصن كيفا وحران وماردين ، كما نذكر منهم بني زنكي في الموصل ولهم الفضل الأكبر في القضاء على الصليبيين فإن « زنكي » الملقب بعماد الدين هو الذي افتتح سلسلة دحرهم وطردهم من ديارنا باستيلائه على « الرها » من جوسلين الصليبي ، وبذلك سقطت أولى ممالكهم ، وتبعه ابنه نور الدين بمحققهم محققاً في الشام ، وحين علا نجم صلاح الدين وتبعته الشام ترك للأسرة الموصل وبلدانها سنجار وغيرها .

على كل حال كان طبيعياً أن تهبط الدولة السلجوقية بعد صعود ويأفل نجمها ، وقد حاول محمد شاه بن محمود الساجوق في سنة ٥٥٢ هـ الاستيلاء على بغداد غير أنه أرغم على فك الحصار ، أرغمه الخليفة المقتدى وجنوده ، ولم يستطع السلاجقة بعد ذلك العودة إلى بغداد ، بل انحازوا إلى همدان حيث توالى فيها سلاطينهم إلى حين . وعاد إلى بغداد وما يتبعها من البلدان جنوبي الموصل استقلالها ، وردت إلى الخلفاء حرياتهم وسلطانهم

وللمقتنى^(١) (٥٣٢ - ٥٥٥ هـ) الفضل في عودة صولجان الحكم إلى أيدي الخلفاء العباسيين . وظلوا قابضين عليه حتى الغزو المغولي أو التتارى سنة ٦٥٦ وكان المتقى عالماً أديباً دمث الأخلاق .

وخلفه ابنه المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وكان عادلاً محبوباً في الرعية أزال المظالم والمكوس . وولى الخلافة بعده ابنه المستضى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) وكان حسن السيرة أسقط المكوس والضرائب في أيام خلافته . وفي أيامه أعاد صلاح الدين الخطبة باسمه في مصر والثغور الشامية ، وانقطعت دولة الفاطميين من مصر وأعمالها ، وبذلك عاد للأمة اجتماعها على خليفة واحد . وخلفه ابنه الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وفي عهده سحق صلاح الدين الصليبيين في الشام واستولى منهم على بيت المقدس وغيره من البلدان والحصون . واستطاع عبد الجبار البغدادي في أيامه أن يحول جماعة الفتناء الذين كانوا يرهبون الناس في بغداد وينهبون الأموال إلى جماعة كبيرة للفتوة والبسالة ، واتخذ لهم سراويل مخصوصة ، وبذلك أحالهم إلى جماعة حربية ، واستنفر فئات منهم كثيرة للجهاد الصليبيين في الشام مع الأيوبيين ، ورعى الناصر الجماعة خير رعاية ، وانضم إليها ولبس سراويلها ، وأرسل بها إلى ولاته كي يلبسوها ويصبحوا من فتيان الأمة المجاهدين . ومن أرسلها إليهم الملك العادل أخو صلاح الدين وأبناؤه ، فلبسوها ، ولبسها شهاب الدين صاحب غزته والهند .

ويتولى الخلافة بعد الناصر ابنه الظاهر ، ولا يدور العام حتى يتوفى ، ويخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) وكان شغوفاً بالعلم فأسس مدرسته المستنصرية المشهورة . ونشر السنن وكفّ الفتن . وأخذ سيل المغول أو التتار يتعاظم في عهده ويكسح خوارزم وإيران وتمتد بعض سيوله إلى ديار بكر والجزيرة . وولى الخلافة بعده ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) وكان ضعيفاً جاهلاً بتدبير الملك ، استوزر مؤيد الدين بن العلقمي ، وكان رافضياً حريصاً على زوال الدولة ، فكاتب هولاءكو وأرسل إليه أخاه وغلّامه ، وسهّل عليه فتح العراق وأخذ بغداد .

وسارع هولاءكو ، وهاجم بغداد ، ولقيه العسكر والبغداديون على مرحلتين من بغداد ،

الخلفاء للسيوطي (طبع القاهرة) وجامع التواريخ لرشد الدين المهداني ترجمه إلى العربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى هندواي وفؤاد عبد المظي الصياد (طبع القاهرة) وتاريخ العراق في العصر العباسي الأخير للدكتور بدرى محمد فهد (طبع بغداد) .

(١) انظر في مقتنى والخلفاء العباسيين التالين تاريخ ابن الأثير وابن طباطبا وابن تغرى بردى وابن خلدون والبدابة والنهاية لابن كثير والعبر في خبر من غير للذهبي (طبع لكويك) وخلاصة الذهب المسبوك للإربلي (طبع بغداد) ومآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندى وتاريخ

وسرعان ما انكسروا وأخذتهم السيوف ، وأشار ابن العلقمي على المستعصم أن يخرج للقاء هولاءكو ومفاوضته ، فقتله خنقاً ، ودخل التار بغداد وظلوا يُعملون السيف في أهلها أربعة وثلاثين يوماً ، حتى بلغ عدد القتلى نحو ثمانمائة ألف ، وخربت بغداد خراباً لا حد له ، وأحرقت بها كتب العلم والأدب ، وانقضت الخلافة العباسية منها وزالت أيامها ، ورثاها الشعراء مرثى كثيرة من مثل مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي ، وفيها يقول :

يا زائرین إلى الزُّوراء لا تَفِدُوا فما بذاك الحمى والدارِ ديارُ
وذاق ابن العلقمی الذل والهوان من التار ، كما ذاقها أيضاً مَنْ مالأهما من حکام
الموصل والجزيرة ، وفي مقدمتهم بدر الدين لؤلؤ . وكان الأمير الزنكي أستاذه الملقب بالملك
القاهر صاحب الموصل قد توفي سنة ٦١٥ وخلفه ابنه نور الدين وسنه عشر سنوات ، وكان
قد جعل بدر الدين لؤلؤاً أتابكاً له ، ولم يلبث نور الدين أن توفي ، فأقام لؤلؤ مكانه أخاه
ناصر الدين ، وله من العمر ثلاث سنوات ، وما زال يعمل على تثبيت سلطانه ، حتى ملك
الموصل في سنة ٦٣٠ وأزال منها الأسرة الزنكية . وما إن تدافعت أمواج التار نحو
أذربيجان حتى أخذ يدهم بما يحتاجون إليه من الزاد والعتاد منذ سنة ٦٣٤ وما إن علم
بتقدم هولاءكو نحو بغداد حتى أعد جيشاً لمساعدته بقيادة ابنه إسماعيل إلا أن الجيش تأخر
قليلاً ، فما كان من هولاءكو إلا أن حز رأس إسماعيل وأرسل بها إلى أبيه ، فذهب إليه هلعاً
فرعاً يحمل الهدايا ، وتوفي بدر الدين في سنة ٦٥٧ . ولم يلبث هولاءكو أن اجتاحت الموصل
بجيوشه ، وقتل حاكمها الصالح بن بدر الدين لؤلؤ ، فلم تنفعه لا هو ولا أبوه خياناتها
المتكررة ، وأصبحت العراق كلها في حوزة التار .

٢

الدول : المغولية والتركانية والصفوية والعثمانية

المغول أو التار قبائل رُحَّل كانت تستوطن منغوليا على حدود الصين ، واستطاع أحد
أبنائها وهو جنكيز خان أن يجمعها تحت لوائه ، وأن يفتح بها الصين وبكين ، حتى إذا تم له
ذلك وجه جموعه نحو فارس فاستولت على بخارى ومملكة خوارزم وزحفت سيوها إلى الرى
وهذان ، مستولية على شمالي فارس فيما بين سنتي ٦١٦ و ٦٢٥ للهجرة وتوفي في السنة
الأخيرة بالصين . وخلفه ابنه أوكدي (٦٢٥ - ٦٣٩) الذي استطاع أن يُخضع روسيا
ويولندة لحكمه ، وخلفه ابنه كيوك حتى وفاته سنة ٦٤٦ وولى بعده ابن عمه منكو ، وهو

الذي أرسل بأخيه هولاكو إلى إيران ، ففضى فيها على الإسماعيلية الحشاشين ، وأخذ يعمل على الاستقلال بإيران مع تبعيته لأخيه ، ولم يكف بها ، فقد امتدت مطامعه إلى العراق وبغداد ، ولم يلبث أن خرب بغداد المدينة التاريخية العظيمة كما أسلفنا سنة ٦٥٦ ، واتخذ هولاكو لقب (إيل خان) أو تابع الخان وهو لقب ورثه عنه خلفاؤه على إيران والعراق مما جعل دولتهم تسمى الدولة الإيلخانية ، بينما انتسب المد المغولي الثاني في إيران والعراق إلى تيمورلنك ، مما جعل دولته هو وأبنائه تسمى الدولة التيمورية ، وبذلك تنقسم الدولة المغولية إلى دولتين : الدولة الإيلخانية والدولة التيمورية .

الدولة المغولية الإيلخانية^(١)

تنسب هذه الدولة إلى هولاكو (إيلخان) الذي أطبقت جموعه على بغداد والعراق في سنة ٦٥٦ ومضت إلى الشمال فاستولت على ديار بكر والجزيرة وأخذت تعد العدة للاستيلاء على الديار الشامية والمصرية . ومضوا في سنة ٦٥٨ يستولون على حلب وبلدان الشام ، وسلمت لهم دمشق ، وسقطوا إلى فلسطين في الجنوب ، فلقبهم الجيش المصري بقيادة قطز والظاهر بيبرس في عين جالوت بالقرب من نابلس ، فزق جموعهم تمزيقا ، وقتل قائدهم ، وكانت مجزرة عظيمة لهم حتى إنه لم يسلم منهم إلا فلول قليلة ولت الأدبار ، وتبعها الظاهر بيبرس إلى أطراف الشام في الشمال . وبذلك ردَّ سيالهم عن الشام ومصر إلى غير مآب . ولم يملك هولاكو -- كما قدمنا -- ملكاً مستقلا فقد كان نائباً عن أخيه منكو ، ولم يضرب باسمه مستقلا سكة درهم ولا دينار ، بل كانت تضرب باسم أخيه . وكان وثنيا كأجداده وقومه . غير أنه كان يعطف على النصارى إرضاء لزوجته النصرانية : « دُفوز خانون » ومات سنة ٦٦٣ وقيل سنة ٦٦٤ وخلفه على العراق وإيران ابنه « أبغا » . ولما ملك أضاف اسمه إلى اسم الخان الأكبر في بكين ووجه أخاه منكوتمر بالعساكر إلى الشام للاستيلاء عليها ، فالتقى مع الجيوش المصرية الشامية عند حمص « بقيادة قلاوون وهزم هزيمة سنكرة فلما بلغت الهزيمة أبغا سنة ٦٨٠ رجع إلى همدان فمات بها غمًا وكمدًا . وخلفه منكوتمر ، وكان نصرانيا ، ولم يلبث أن مات بنفس الكمد والغم . وملك بعدهما

(١) الأدب في إيران من الفردوسي إلى السعدي لبراون (ترجمة الشواربي) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان وإيران : ماضيها وحاضرها لدوبالدولير ص ٦٥ والعراق في عهد المغول الإيلخانيين لجعفر خصباك (طبع بغداد) .

(١) انظر في هذه الدولة تاريخ ابن كثير وابن خلدون وانجوم الزاهرة والجزء الثاني من دول الإسلام للذهبي (طبع حيدرآباد) وجامع التواريخ لرشيد الدين المهدي (الترجمة العربية) ومسالك الأبطال لابن فضل الله العمري والجزء الرابع من صبح الأعشى وتاريخ

أخوهما بوكدار بن هولاكوسنة ٦٨١ وأسلم وحسن إسلامه ، وتسمى أحمد ، وبني بمالكة الجوامع والمساجد وصالح السلطان الملك المنصور قلاوون الذى فرج بإسلامه . وحاول أن يحمل عسكريه على الإسلام فقتلوه سنة ٦٨٣ وملك بعده ابن أخيه « آرغون بن أبغا » حتى سنة ٦٩٠ وكان سفاكاً للدماء شديد الوطأة ، وولى الملك بعده أخوه « كيختو » فأفحش فى الفسق بنساء المغول وبناتهم فوثب عليه ابن عمه بيدو بن طرغاي بن هولاكو وقتله سنة ٦٩٣ ولم يلبث أن قُتل بدوره فى أواخر هذه السنة ، وملك بعده غازان بن آرغون بن أبغا بن هولاكو . وأسلم فى سنة أربع وتسعين ، وتسمى محموداً ، واحتفل بإسلامه ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رؤس الناس ، وأسلم غالب جنده وعساكره ، وفشا الدين الحنيف بإسلامه فى ممالك التتار ، وقد اختار المذهب السنى .

وهو أجل ملوك المغول من بيت هولاكو ، ودخلت جيوشه الشام فى سنة ٦٩٩ وتمت لها الغلبة على جيوش الناصر محمد بن قلاوون ، وملك الشام ، ولا نغضى إلى سنة ٧٠٢ حتى يكمل له الناصر محمد بن قلاوون الصاع صاعين ، إذ تنشب بينهما الحرب بالقرب من دمشق ، ويدمر فيها جيش المغول أو التتار تدميراً ، وظلت الصرخات والنياحات فى ديارهم - حين بلغهم الخبر - شهرين . واغتم غازان غما عظيماً ، ويقال إنه لم يصل إليه من جيشه إلا واحد من كل عشرة انتخبهم للحرب . وكان من قبله منذ هولاكو يحكمون باسم الخان الكبير فى بكين ، فاتخذ لنفسه صفة الحاكم بإرادة الله ، وكان الخراج يُفرض قبله حسب أهواء الحباة من حكام المغول فأمر بأن تُمسح الأراضى وأن يتخذ ذلك أساساً فى فرض الضرائب حتى لا يُظلم أحد ، وأصلح النظام النقدي فى الدولة وجعله نقداً معدنياً صحيح الوزن والقيمة ، وأعاد للشريعة الإسلامية سلطانها وقوتها .

وكان يتخذ تبريز حاضرة له فزينا بالمساجد ودور العلم وشيد بها مرصداً فلكياً عظيماً . وتوفى سنة ٧٠٣ وولى الملك بعده أخوه « خدابندا » والعامه تسمية « خرتندا » وكان سنياً ثم أصبح شيعياً غالباً وأظهر الرفض فى بلاده سنة ٧٠٩ وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى خطبهم إلا على بن أبى طالب وولديه وأهل البيت ، وتوفى سنة ٧١٦ .

وخلقه بو سعيد ابنه ، وكان يعتنق المذهب الحنفى وكان ملكاً جليلاً مهاباً حصيفاً ، وكان يجيد ضرب العود والموسيقى وصنّف فى ذلك ، وكان حسن السيرة ، أبطل عدة مكوس فى مملكته وأراق الخمر فى بلاده ومنع الناس من شربها وهدم الكنائس . وكانت بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مودة بعد وحشة ، ومكاتبات ومراسلات ، توفى سنة ٧٣٦ . وهو آخر ملوك المغول المهمين من بيت هولاكو ، وبوفاته تفرقت المملكة بأيدى حكام

مختلفين ، وأصبحوا شبيهن بملوك الطوائف من الفرس . وفي مسالك الأبصار بعد ذكر بوسعيد : « ثم هم (أى التار في إيران والعراق) بعده في دهياء مظلمة وعمياء مقتمة ، لا يُقضى ليلهم إلى صباح ، ولا فرقتهم إلى اجتماع ، ولافسادهم إلى صلاح ، وفي كل ناحية هاتف ، يُدعى باسمه ، وخائف أخذ جانباً إلى قسمه ، وكل طائفة تغلب وتقيم قائماً تقول من أبناء الخان أو القان ، وتنسبه إلى فلان ، ثم يضمحل أمره عن قريب ، ولاتحقق دعوته حتى يُدعى فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب » . وفي سنة ٧٤٠ صارت بغداد والعراق بيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقبغا ، كان جده رقيقاً لهولاكو . وتوفي سنة ٧٥٧ .

وملك بغداد والعراق بعده ابنه أويس ، وهو سيّط أرغسون بن أبغا أو ابن ابنته ، وكان حسن السيرة عادلاً محباً للفقراء والعلماء توفي سنة ٧٧٦ وخلفه ابنه السلطان الملك المعز حسين ، وكان قد ولاه مكانه في أواخر أيامه . وكانت العراق في عهده مطمئنة معمورة ، وقتله أخوه أحمد سنة ٧٨٤ وتولى الملك بعده ، وتلقب بالسلطان غياث الدين ، وكان ظالماً سفاكاً للدماء أسرف في قتل أمرائه وبالغ في ظلم الرعية وانهمك في الفجور والفساد ، فكاتب أهل بغداد تيمورلنك بعد استيلائه على مدينة تبريز يخثونه على المسير إلى بغداد ، فتوجه إليها بعساكره سنة ٧٩٥ واستولى عليها وفر أحمد بن أويس إلى الديار السامية ، مستغيثاً بالسلطان برقوق صاحب الشام ومصر وكان تيمور قد فارقتها فأعانه على استردادها في السنة التالية . وسنرى في حديثنا عن تيمورلنك وأسرته ما كان من أمره .

الدولتان : المغولية التيمورية^(١) والتركانية

قاد الوجه المغولية الثانية تيمورلنك المولود في «كش» من بلدان ما وراء النهر ، وهو ينحدر من سلالة جنكيز خان ، وكانت ولادته سنة ٧٣٦ للهجرة ، وكان أبوه والياً لكش وأعمالها ، وكان طموحه واسعاً ، فعمل على جمع زمام الأمور في يده لا في كش وحدها ، بل في كل بلاد ما وراء النهر بحيث أصبحت لسنة ٧٧١ جميعاً في قبضته ، ثم أخذ يعدُّ العدة للانقضاض على خراسان واستولى عليها سنة ٧٨٢ ومضى في سنة ٧٨٤ يستولى على مازندران وسجستان وجرجان ، ولم يلبث أن استولى على فارس وأذربيجان سنة

ترجمة في المهل الصافي ٢٣٢/١ ، وراجع تاريخ ابن خلدون والضوء اللامع في أعيان القرن التاسع وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ودائرة المعارف الإسلامية في تيمور وأوزون حسن التركاني ، وإيران : ماضيها وحاضرها لدونالدولير .

(١) انظر في تيمور وحكام بغداد بعده احمد بن أويس والتركان ابن عرشاه في كتابه «عجائب المقدر» في نواب تيمور ، وابن تغرى بردى في الجزء من الثاني عشر والثالث عشر وخاصة في ٢٥٤/١٢ حيث عقد لتيمورلنك ترجمة طويلة وبالمثل عقد لأحمد بن أويس

٧٨٨ وأخذ يفتح البلدان في شمالي العراق ، حتى إذا كان شهر شوال سنة ٧٩٥ حاصر بغداد ، وهرب منه أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق في الشام وخرَّب تيمور غالب العراق ومدنه : بغداد والبصرة والكوفة ، وقصد الشام في سنة ٧٩٨ ورجع خانقاً من الظاهر برقوق إلى سمرقند عاصمته وكانت جيوشه قد تغلقت في روسيا واستولت على موسكو ، وسار إلى الهند في سنة ٨٠٠ وعبر نهر السند واستولى على دلهي بعد أن قتل من أهلها ثمانين ألفاً ، وكان أحمد بن أويس قد عاد إلى بغداد بمعونة المصريين ، ومثله قرأ يوسف عاد إلى نيابته على الرُّها في الجزيرة . وبلغ تيمور موت السلطان الظاهر برقوق صاحب مصر والشام وموت برهان الدين أحمد صاحب سيواس بالجنوب الغربي من آسيا الصغرى ، فرأى أن الظفر بمملكتهما أصبح قريباً ، وكاد أن يطير بموتهما فرحاً ، فاستتاب بالهند من يثق به من أمرائه ، وعاد إلى سمرقند . ثم خرج منها مسرعاً في أوائل سنة ٨٠٢ ومضى إلى تبريز فاستخلف فيها ابنه ميران شاه . وكان أحمد بن أويس قد سار مع أمرائه ورعيته سيرة سيئة ، فقاتلوه وخرج منهزماً واستنجد بالأمير قرايوسف التركماني صاحب تبريز والرُّها وديار بكر ، وعاد معه إلى بغداد . وصيَّف تيمور في بلاده ثم مضى إلى سيواس فاستولى عليها أول سنة ٨٠٣ وخرَّبها ومَحَا رسومها . ثم قصد الديار الشامية ، واستولى على حلب بعد أن أعمل السيف في جنودها وأهلها حتى امتلأت الجوامع والطرقات بالقتلى ، وعمل تيمور - فيما يقال - من رءوس القتلى منائر عدة ترتفع عن الأرض عشرة أذرع تهديداً ووعيداً . ورحل عن حلب بعد أن تركها خاوية على عروشها خالية من سكانها وأنيسها ، وكان ابنه ميران شاه قد أخذ حاة وأشعل النار بها وأصحابه يقتلون ويأسرون وينهبون ، وقتلوا الأطفال على صدور الأمهات ، واتجه إلى دمشق وواقعته جنود السلطان فرج بن برقوق ولم تثبت طويلاً ، ولم يلبث أن وقَّع مع أهل دمشق صلحاً ، ودخلها هو وجنوده وغدر بهم فأشعل جنوده بها النار ، فاحترقت وسقطت بعض سقوف الجامع الأموي ، وصارت أطلالا بالية ورسوماً دائرة كما يقول المؤرخون . وأقام هو وجنوده عليها ثمانين يوماً ، ثم رحل عنها في شعبان سنة ٨٠٣ وظل في انسحابه مع جنوده من الشام ، وأوهم أنه يريد سمرقند وهو إنما يريد بغداد ، وكان أحمد بن أويس قد استتاب عنه فيها أميراً يسمى فرجاً ، واتجه هو وقرايوسف صاحب الرُّها نحو آسيا الصغرى ، فندب تيمور بعض قواده لأخذ بغداد ، ثم تبعه وحاصر بغداد حتى أخذها عنوة في يوم عيد النحر أو العيد الأضحى من نفس السنة ، ووضع السيف في البغداديين ، حتى سالت الدماء أنهاراً ، ويقال إنه قتل من أهلها نحو مائة ألف إنسان ، وبنى من رءوسهم - على عادته كلما دخل

مدينة عنوة - مآذن كثيرة .

ثم رحل من بغداد إلى الشمال متجهاً إلى آسيا الصغرى وحرّب بايزيد العثماني ، وانضم إلى جيشه التركان في قيسارية وسيواس وتقدم نحو سهل أنقرة وكاتب من مع بايزيد من التتار وأنه أولى بأن ينضموا إليه لأنهم من أبناء جلدته ، فوعده أن ينضموا إليه حين تدور رحى الحرب بينه وبين بايزيد ، وكان بايزيد قد نكل ببعض أمراء السلاجقة واستولى على بلدانهم ، فانضموا إلى تيمورلنك . والتقى الجيشان في الشمال الشرق من أنقرة في التاسع عشر من ذى الحجة عام ٨٠٤ هـ وانفض عن بايزيد جنوده التتار منضمين إلى تيمور كما وعدوه وكانوا معظم عسكره ، وتلاههم ولده عثمان الذي عاد يجنده إلى مدينة بروسة ، ولم يبق مع بايزيد إلا نحو خمسة آلاف فارس ، فشت بهم إلى أن أخذ أسيراً على بعد ميل من أنقرة وكان قد حاول الفرار ، وأكرمه تيمور ، وأسف لموته في شعبان سنة ٨٠٥ هـ وأذن بدفنه تكريماً له في جامع بروسة .

وعاد تيمور إلى سمرقند عاصمته ، واستقبل فيها كثيراً من السفراء من بينهم سفير ملك قشتالة . وزين عاصمته بالقصور الفخمة مستعياً بمن جلبهم إليها من بني الفرس وغيرهم ، وكان يعطف بوصفه مسلماً على العلماء ورجال الدين من الصوفية وخاصة دراويش الطريقة النقشبندية وقد استطاع فعلاً أن يستعيد مملكة جنكيزخان من موسكو إلى نهر الكنج ومن حدود الصين حتى سوريا ورأى مقتدياً بسلفه أن يستولى على الصين ، فأرسل إليها حملة في سنة ٨٠٧ هـ غير أنه لم يلبث أن مرض وتوفي في شعبان من نفس السنة بإحدى المدن فيما وراء النهر ، ونقل إلى عاصمته ودفن بها في ضريح فخم لا يزال قائماً بها إلى اليوم .

وتوزعت إمبراطوريته بين ولديه : شاه رخ وميران شاه ، وكان للأول النصيب الأكبر فحكم خراسان وسجستان وما وراء النهر وإيران ، وحكم ميران شاه العراق وأذربيجان والكرج أو جورجيا ، وكان يخضع لسلطان أخيه ، ولم يلبث أن قُتل في حربه مع قرايوسف التركاني صاحب تيريز سنة ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م فدخلت بلاده في حوزة أخيه ، فأصبح يحكم كل مملكة أبيه تيمورلنك ما عدا الشام والعراق وعرستان ، وقد بسط سلطانه على الصين والهند ، وعاش طويلاً حتى سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٧ م وكان يرعى العلوم والآداب في مملكته الواسعة .

وخلفه ابنه ألغ بك وكان عالماً فلكياً واهتم برعاية الأدبين الفارسي والتركي غير أنه قتل بعد سنتين بيد ابنه عبد اللطيف ويتاب الدولة التيمورية اضمحلال سريع ، ويتقاتل

الإخوة وأبناء العم ، ويستولى على صولجان الحكم بوسعيد سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ويستقر زمام الحكم في يده ويقتل في حرب طاحنة مع أوزون حسن صاحب ديار بكر وأرمينية في سنة ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م وتعود المملكة إلى الاضطراب . وقد استطاع شيباني زعيم الأوزبك في سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م خلع بابر حفيد أبي سعيد عن عرشه في سمرقند ، فهاجر إلى الهند وأسس بها دولة المغول العظام .

وأما العراق وبغداد فعادت بعد وفاة تيمور إلى أحمد بن أويس وتنشب حرب بينه وبين قرايوسف التركماني صاحب تبريز ويخرب في ميدانها صريعا سنة ٨١٣ وتقع العراق وبغداد في قبضة التركمانيين بزعامه قرايوسف حتى وفاته سنة ٨٢٣ ويتوارثها عنه أبناؤه وأحفاده ، وفي أيامهم ودولتهم عمها الخراب لفساد حكمهم حتى ليقول ابن تغري بردي : لا أعلم في طوائف التركان أقيح طريقة ولا أسوأ سيرة من أولاد قرايوسف ويتزعجها منهم في سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م أوزون حسن المار ذكره وكان تركمانيا واسع الطموح ، فوضع نصب عينيه إنشاء دولة قوية لا يكتفى فيها بمقر حكمه وهو ديار بكر ، بل تتسع لتشمل أرمينية وإيران والعراق ، ودخل في حروب طويلة مع العثمانيين . وفي هذه الأثناء كانت أسرة صوفية في أردبيل قد أخذ نفوذها يتسع منذ عهد مؤسسها الشيخ إسحق صني الدين ، وبلغ حفيدة خوجا على من الشهرة بالقوى ما جعل تيمورلنك بعد انتصاره على بایزید العثماني يقف أردبيل وضواحيها عليه وعلى عقبه . وسرعان ما تحولت إلى ما يشبه إقطاعاً لهم ، وعقد أحد أحفاده المسمى حيدراً صلة وثيقة بينه وبين أوزون حسن . وزوجه أوزون ابنته مارثا وأنجب منها ابنه إسماعيل الذي أتيح له أن ينشئ لأسرته الصفوية دولة وطيدة في إيران .

الدولة الصفوية^(١)

كان حيدر بعيد النظر ، فأعاد تنظيم طريقة آباءه الصوفية الشيعية على أسس جديدة ، متخذاً لها شعاراً للرأس ، أو بعبارة أخرى عمامة سميت تاج حيدر الأحمر ، وهي عمامة ذات اثنتي عشرة ذؤابة رمزاً إلى أن صاحبها شيعي إمامي اثني عشري . وما وافت سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م حتى بدأ حملاته الحربية ، فقاتل الجراكسة واشتبك في سنة ٨٩٤ هـ / ١٤٨٨ م في حرب مع صهره يعقوب بن أوزون حسن وسقط قتيلاً في المعركة ،

(١) انظر في الدولة الصفوية تاريخ الموصل لصايب لوتكريك ترجمة جعفر حياط (طبع بيروت) وتاريخ وتاريخ بغداد وتاريخ الدولة الفارسية في العراق لعنان الشعوب الإسلامية لبروكلمان . وإيران : ماضيها وحاضرها الأعظمى وأربعة قرون من تاريخ العراق لتيفر دونالدولير.

وتوفى يعقوب بعده بنحو ستين وتصارع أولاده واشتبكوا في حروب دامية ، مما أتاح الفرصة لأبناء حيدر كى يعود لهم نفوذهم من جديد .

وتطورت الظروف سريعاً ، بحيث لا تصل إلى أوائل القرن العاشر الهجرى حتى نجد إسماعيل بن حيدر يخرج بعد وفاة أخوين له كانا أكبر منه للمطالبة بئثار أبيه ، ويمد سلطانه تدريجاً على شيروان وأذربيجان ويأخذ في تأسيس دولة فارسية وطنية ويستولى على تبريز في سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢ م ويتوج فيها ملكاً (شاه) على إيران . وأعلن أن العقيدة الشيعية الإمامية الاثني عشرية مذهب الدولة الرسمي. ولم يكتف بذلك فقد أكره الرعية على سب أبي بكر وعمر وعثمان . وأخذ يُعدّ العدة لمنازلة مراد خان التركاني صاحب بغداد والعراق ، وكان قد هزم أخاه ألوند هزيمة ساحقة في أذربيجان واستولى منه على فارس ، وما توافى سنة ٩١٣هـ / ١٥٠٧ م حتى يستولى من مراد على بغداد والعراق ، ويفرّ مراد آخر سلاطين التركمان إلى السلطان سليم العثماني . ومضى في سنة ٩١٦هـ / ١٥١١ إلى الشرق لمحاربة شيباني زعيم الأوزبك والتقى قرب مرّو ، ودارت الدوائر على شيباني وجنده وسقط صريعاً في الحرب ، وبذلك اتسعت مملكة إسماعيل ، حتى امتدت من هراة شرقاً إلى بغداد غرباً ، ووضح للعيان أنه لا بد من الاصطدام بين دولة الشاه إسماعيل الصفوى الشيعي الإمامي وبين دولة السلطان سليم العثماني السني ، وخاصة أن الشاه إسماعيل كان قد بالغ في اضطهاد أهل السنة ، مما جعل السلطان سليماً يدعو إلى الجهاد ضد الشاه والشيعية . والتقى الجيشان الصفوى والعثماني بالقرب من تبريز بوادي جالداران في المحرم سنة ٩٢٠هـ / ١٥١٤ م ومضى الشاه بهزيمة منكرة ، وفتحت عاصمته «تبريز» أبوابها للسلطان سليم ، واضطّر الشاه إسماعيل إلى أن يعقد معه صلحاً ، ولم يفكر بعد ذلك في حرب العثمانيين إلى أن توفى سنة ٩٣٠هـ / ١٥٢٣ م وخلفه ابنه طهاسب وهو في العاشرة من عمره ، وطالت مدته في الحكم اثنين وخمسين عاماً امتلأت بالحروب المتصلة ضد أعدائه الشيبانيين في الشرق والعمانيين في الغرب . واستطاع ذو الفقار خان رئيس قبيلة كردية أن يزحف على بغداد ويقتل حاكمها من قبل طهاسب سنة ٩٣٠ وتظل في حوزته حتى سنة ٩٣٦هـ / ١٥٢٩ م إذ استعادها طهاسب ومضى في اضطهاد أهل السنة مما جعل السلطان سليمان العثماني يوجّه في أواخر سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٤ م حملة إلى تبريز ، فتستولى عليها ، ويتجه هو إلى بغداد فيدخلها في أول المحرم سنة ٩٤١ . وبذلك ينتهي عهد الدولة الصفوية في العراق .

الدولة العثمانية (١)

تمّ للسلطان سليمان العثماني الاستيلاء على العراق وبغداد في سنة ٩٤١ هـ ورفرف العلم العثماني على البصرة في سنة ٩٤٦ هـ وبذلك أصبح العراق جميعه ولاية عثمانية ، بل قل ولايات عثمانية ، إذ قُسم إلى أربع ولايات . ولاية البصرة ، وولاية بغداد ، وولاية شَهْرزور ، وولاية الموصل . وفي حقب متفاوتة عُدَّت الأحساء والبحرين ولاية خامسة ، وارتبطتا بالبصرة حيناً وببغداد حيناً آخر . وقسمت كل ولاية إلى ألوية ، على رأس كل لواء سنجق أو أمير لواء . وكان الوالي يُعَدُّ الرئيس للسلطة التنفيذية مع الإشراف على الشؤون الإدارية ، وكان يعاونه عدد من الموظفين ، في مقدمتهم « الكتخدا » وهو مدير مكتبه الخاص وكثيراً ما كان يخلفه بعد وفاته ، و « الدفتر دار » وهو مدير الخزانة ومدبّر الشؤون المالية . وكانت هناك دواوين مختلفة ، أهمها ديوان الروزنامه أي ديوان الدفتر اليومي ، وكان به كثير من الكُتّاب أو كما كانوا يسمونهم أصحاب الأقلام .

وكان يوجد بجانب الوالي قاض كبير يتبع قاضي القضاة في الأناضول ، وكان للقاضي نواب كثيرون في كل ولاية يضطلعون بمهمة القضاء . ويشرف القاضي على تنفيذ القوانين حسب الشريعة الإسلامية كما يشرف على تنفيذ أوامر الدولة العثمانية .

وكانت توجد بجانب الوالي قوة عسكرية أساسية تحمي المدن والقلاع ، وتُعدُّ فرعاً من الإنكشارية جند الدولة العثمانية الذين كانت تأسرهم في حروبها بأوروبا ، وهم لا يزالون علماناً وتربّيتهم تربية عسكرية ، وكانوا يُمنحون إقطاعات ، وكثيراً ما توارثوها أو وقفوها ، فلم تُردّ إلى الدولة . وكانوا كثيراً ما يؤذون الناس في بغداد والعراق ويتعدّون عليهم . وكان يوجد بجانبهم للولاية جند يحصلون عليهم بطريق الأسر أو الشراء .

ويعر حكم الدولة العثمانية للعراق بثلاثة أدوار : الدور الأول يبتدئ من سنة ٩٤١ هـ / ١٥٣٤ م إلى سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م وأهم الأحداث في هذا العهد فتن الجند كما حدث في عام ١٠٣١ هـ / ١٦٢١ م فقد ثاروا على والي بغداد بزعمارة ضابط يسمى بكرّاً برتبة

(١) انظر في الدولة العثمانية بالعراق تاريخ بغداد وتاريخ البصرة لنعمان الأعظمي وعشائر العراق لعباس العزاوي (طبع بغداد) والبلاد العربية والدولة العثمانية للحصري (طبع القاهرة) وأربعة قرون من تاريخ العراق لستيفن لونكرليك ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان . والماليك في العراق لأحمد على الصوفي (طبع الموصل) والعراق : دراسة في تطوره السياسي لفيليب إيرلند ترجمة جعفر خياط (طبع بيروت) وإمارة العبادية للدملوجي (طبع الموصل) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١٥٠٠ - ١٩١٨ الجزء الأول للدكتور عبد الكرم محمود غرايبة (طبع دمشق) .

سوباشى وقتلوا الولى يوسف باشا وتولى بكر مقاليد الحكم وحاربه الدولة ، فاستعان ضدها بشاه إيران عباس الصفوى ، وسرعان ما احتل هذا الشاه بغداد سنة ١٠٣٣ هـ / ١٦٢٣ م وقتل بكراً ونكل بأهل السنة واعتقل الألوف منهم ، وحاول شيعة بغداد مخلصين إنقاذ مواطنيهم فشهدوا لكثيرين منهم بأنهم شيعة .

وسارع الشاه إلى احتلال بقية العراق ، غير أن البصرة استعصت عليه ، إذ دافع عنها حكامها من آل أفراسياب وكانوا قد أتاحوا لها استقلالاً ذاتياً عن العثمانيين من ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٧ م إلى ١٠٧٨ هـ / ١٦٦٨ م للهجرة وقد دافعوا عن مدينتهم أمام جيوش عباس الصفوى دفاعاً مجيداً فارتدت عنها .

وظلت بغداد وبقية العراق مع الإيرانيين نحو خمسة عشر عاماً إلى أن استرجعها العثمانيون بقيادة السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٨ هـ / ١٦٢٨ م وفي هذه الأثناء سمح حكام البصرة للبرتغاليين بتأسيس وكالة تجارية لهم فيها سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م وبالمثل سمحوا للإنجليز في سنة ١٠٤٩ هـ / ١٦٣٩ م بتأسيس وكالة تجارية لهم ، وأغلقت سنة ١٠٦٩ هـ / ١٦٥٨ . وينتهى الدور الأول لحكم العثمانيين العراق سنة ١١١٦ هـ / ١٧٠٤ م كما مر بنا ، ويتبدى دور ثان سُمى دور المماليك ، وفيه تعرّضت العراق لخطر إيراني كبير ، أدّى إلى أن يتسلّم صولجان الحكم فيها حسن باشا وابنه أحمد باشا ومماليكها الذين أخذوها بضرب من التربية يشبه صنيع الدولة في إستانبول بالإنكشارية ، وكان حسن باشا قد تدرّج في مناصب الدولة إلى أن أصبح وزيراً ، وولى بعض الولايات ، ثم نُقل إلى بغداد في سنة ١١١٦ فعمل على الاستقلال بها واتخاذ هؤلاء المماليك سنداً له . وكانت الدولة حينئذ مشغولة بحروبها في أوروبا مع الروس والبلقان ، فترك لحسن باشا وابنه أحمد ومماليكها إدارة بغداد والعراق .

وطبيعى أن تصبح المناصب العليا فيها وفقاً على المماليك . وقد آل إليهم حكمها بعد وفاة حسن باشا وابنه ، وكان الولى منهم إذا وثق بأحد المماليك زوجه ابنته واتخذ «كتخدان» أو أميراً للأمراء ، حتى إذا توفى خلفه في الحكم . وإذا عرفنا أنه حكم بغداد حينئذ عشرة من الولاة كان سبعة منهم من هؤلاء المماليك عرفنا أنه جدير بهذا الدور حقاً أن يسمى دور المماليك ، وآخرهم داود باشا . وكانوا في سبيل الوصول إلى أريكة الحكم يكثرزون من التآمر ، مما زاد الأمن في بغداد والعراق اضطراباً على اضطراب وفساداً على فساد . ولما ساءت الأمور وتفاقم سوءها رأى الباب العالى في سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م أنه لا بد من ردّ الأمور إلى نصابها في العراق ، فأرسل حملة تأديبية أسرت داود باشا وقضت

على حكم هؤلاء المالك قضاة نهائياً . وبذلك تدخل بغداد والعراق في الدور الثالث من أدوار الحكم العثماني الذي أطلَّ البلاد حتى سنة ١٣٣٦ هـ / ١٩١٨ م . ويمكن أن تدخل الشطر الأكبر من هذا الدور في حقب العصر الحديث في العراق ، إذ هبَّ جماعة من المصلحين في تركيا يحاولون إصلاح أداة الحكم الفاسدة ، واصتُر السُلطان عبد المجيد أن يصدر أمراً بإلغاء الاحتكارات والمصادرات وتحديد الضرائب على أسس قومية من العدالة . وكان ذلك إيذاناً بعصر جديد في تركيا والولايات التابعة لها في العراق وغير العراق . غير أن الولاة الذين تعاقبوا على العراق حتى سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م لم يصدرُوا عن ذلك في حكمهم ، فظل الظلام والفساد مخيمين عليها إلى أن وليها مدحت باشا في السنة آتفة الذكر ، وكان معروفاً بنزعة الإصلاحية وما قام به من خدمات عظيمة في ولايته على بلغاريا . ولم يكف يستلم مقاليد الولاية في العراق حتى نهض فيها بإصلاحات كثيرة في إدارة الحكم ، فألغى نظام الالتزام وردَّ الأرض على الفلاحين العراقيين نظير أقساط محدودة ، وأنشأ مطبعة لطبع الجريدة الرسمية وطبع الكتب ، كما أنشأ طائفة من المدارس المهنية والعلمية النظرية ، وبنى مستشفى كبيراً ، ومدَّ بها خطاً للبرق ، وأصلح نظام الموازين والتقود بحيث تعد ولايته بحق البدء الحقيقي للعصر الحديث في العراق . وقد ظل العثمانيون في العراق وبغداد قبله نحو ثلاثة قرون ونصف لم يعنوا فيها أي عناية بإصلاحات اجتماعية أو تعليمية أو اقتصادية .

٣

المجتمع

كان المجتمع في بغداد والعراق يتألف من ثلاث طبقات : طبقة أروستقراطية ، على رأسها الخليفة والسلطان الحاكم ويتلوها حواشيها من الوزراء والقادة والأمراء والولاة وكبار الموظفين والإقطاعيين ، ويدخل في هذه الطبقة بعض التجار الرأسماليين . وطبقة وسطى تتكون من صغار الموظفين والتجار والصناع والقضاة والعلماء ورجال الحسبة ، وطبقة دنيا هي طبقة العامة من الزراع والخدم والرفيق وأصحاب الحرف . ويُسلِّك أهل الذمة في الطبقتين الأخيرتين عادة ، إلا من ارتفع منهم إلى الوزارة ، وكان ذلك يحدث نادراً كما حدث في عهد عضد الدولة ، فقد اتخذ له وزيراً نصرانياً ، هو نصر بن هرون ، الذي ترك له تدبير شئون فارس بينما كان وزيره المدير لشئون بغداد والعراق المطهر بن عبد الله .

وكانت الطبقة الأولى تعيش في رخاء بل في ترف ، لكثرة ما كان يُصَبُّ في حجورها من الأموال ، عن طريق الضرائب التي كانت تؤخذ من الناس وكانت متعددة ، فهناك ضرائب الزكاة على الزروع ، وهناك ضرائب الصادرات والواردات التي تجبي على البضائع المنقولة وتسمى المكوس ، وهناك ضرائب على الأسواق والحوانيت . وأهم من ذلك الضرائب أو الأموال التي كانت تؤخذ من أصحاب الإقطاعات وقد توسع فيها البويهون ثم من خلفهم من السلاجقة والمسئولين على البلاد ، إذ منحوها لكبار القواد ، حتى قد يمنحونهم قرى بأكملها . وهذه الإقطاعات العسكرية هي التي كانت شائعة ، وإحدى اثنين إما أن تكون إقطاع تملك يورث وعلى أصحابه دفع العشر للدولة . وإما إقطاع يُستغل طالما كان صاحبه حيا ، وكأنه كان منحة تُعطى للقواد بدلاً من رواتبهم . وكان كبار الموظفين والأثرياء من التجار وغيرهم يمتلكون الضياع ويدفعون عنها العشر ويلزمون بإصلاح القنوات التي تمر بأرضهم . وطبيعي أن كانت هناك ضياعاً سلطانية للخليفة وللأمير البويهى وللحاكم لبغداد . وكانت هناك أراض موقوفة لأغراض دينية كالإنفاق على المساجد أو على الجهاد أو على الفقراء أو على الحرمين . وكان القاضي هو الذى يشرف على إدارة الأراضى الموقوفة . وحدث أن صادر عضد الدولة أراضى السواد الموقوفة^(١) ، غير أن من بعده أعادوها إلى الوقف . وكان الوزراء كثيراً ما تصادر أموالهم حتى بعد وفاتهم كما حدث للمهلبى^(٢) وزير معز الدولة البويهى . وكانوا يصادرون أحياناً تركة بعض الإقطاعيين ذوى الثراء . ويروى أنه في سنة ٣٥١ توفى رجل اسمه دَعْلَج تاركاً ثلاثمائة ألف متقال من الذهب فاستولى عليها معز الدولة ، ولم يمس أى مس ما خلفه من أوقاف .

على كل حال كانت موارد الدولة كثيرة ، ومن أجل ذلك تعددت الدواوين التي يُخزَنُ فيها المال أو يجلب إليها مثل ديوان الإقطاع ، وديوان الخراج ، وديوان الأوقاف ، وديوان الجوالى أو الجزية التي كانت مفروضة على أهل الذمة ، وديوان الخلافة الذى كان يُنفق على القصر وماليكه وحجابه وخدمه وحرصه وكانوا يُعدُّون بالمئات ، وديوان التركات وكانت تؤخذ عليها ضريبة ، ومن ليس له وارث كانت الدولة تستولى على تركته . ثم ديوان الزمام وهو الذى يشرف على مالية الدولة ونفقاتها وكل ما يتصل بشئونها المالية من رواتب ومن إعداد للجيش . وكان الخلفاء العباسيون ينثرون الأموال نثراً على حواشيهم وفي أعراسهم ، كما حدث في زواج الخليفة الطائع لابنة بختيار ، وكان صداقها مائة^(٣) ألف

(٣) ابن خلكان (طبع دار صادر بيروت) ١/ ٢٦٧ .

(١) أبو شجاع ص ٧١ .

(٢) مسكويه ٦/ ٢٥٨ .

دينار . واتسع هذا الاحتفال بزواج الخلفاء من بنات الأمراء السلاجقة ، ويروى أنه حين تزوج الخليفة المقتدى بتاً للسلطان ملكشاه نُقل جهازها على ١٣٠ بعيراً في موكب كبير كانت تُدقُّ فيه الطبول والبوقات وتثر الأموال على الرعية^(١) . وبالمثل حين زُفَّت الخاتون ابنة ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله سنة ٥٠٤ زُيِّنَتْ ببغداد ، وقد حَمَلَ جهازها ١٦٢ بعيراً و٢٧ بغلاً^(٢) سارت في شوارع بغداد بينا جاهير الناس رجالاً ونساء يرقصون ويغنون مبهجين . وكانت قصور الخلفاء تكتظ بالتحف وأواني الذهب والفضة ، ويروى أنه حدث حريق في أواخر سنة ٦٥١ بدار الخلافة ، فاستُخرج بعد إطفائه من تلك الأواني ما تزيد قيمته على مائتي ألف دينار ، وسبقه حريق في سنة ٦٠١ قُبِلَ ما احترق بالدار فيه أكثر من نصف مليون دينار^(٣) .

وكانت نساء الخلفاء وجواريمهم يبالغن في زينتهن ، حتى يقال إن زوجة الخليفة المستضيء كانت تزين نعالها بالآلئ الكبار^(٤) ، فما بالناس بما كانت تتخذه وراء ذلك من الحلى والجواهر . ويقال أيضاً إن جارية للمستنصر بالله بلغ من عنايتها بشاها وزينتها أن صاحب ديوانها رصد ما أنفقته في شهر للزراكية والصاغة والبرازين (تجار الملابس) والجوهرين ، فإذا هو مائة ألف دينار ونحو خمسمائة ألف درهم^(٥) . ويروى عن هذا الخليفة أنه نفع كبير حرسه علاء الدين الطبرسي ليلة زفافه على ابنة الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مائة ألف دينار غير إقطاع كبير أهدها إليه^(٦) . ويقال إنه أُحصيت في عيد الفطر سنة ٦٢٦ الخلع التي وهبها الطبرسي لمالئكه وأتباعه فبلغت ١٧٠٠ خلعة^(٧) . فقصرُ الخلافة بل كل حواشي القصر كانوا يعيشون في ترف شديد . وقل ذلك نفسه عن السلاطين وحواشيهم من البويهيين والسلاجقة والإيلخانيين ومن جاء بعدهم ، وكانت الأموال تُصَبُّ في حجورهم وينفقون منها كثيراً على ترفهم وبذخهم . ويقال إن ميزانية الدولة بلغت في عهد عضد الدولة نحو اثنين وثلاثين مليوناً من الدنانير . وكان يُعنى ببناء القصور وعمارتها ، ويروى أن ميزانية الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي بلغت عشرين مليوناً من الدنانير^(٨) ، وكثير من الملايين المذكورة كان يتحول في قصورهم إلى ترف ما بعده ترف ،

(١) للمتظم لابن الجوزي ٣٦/٩ وانظر كتاب العامة البدرى الأخير للدكتور بدرى فهد (طبع ببغداد) ص ٢١٣ .

(٢) للمتظم ١٦٥/٩ .

(٣) دول الإسلام للذهبي (طبع حيدرآباد) ٨٠/٢ .

(٤) انظر مضار الحقائق وسر الخلائق محمد بن تقي

(٥) البدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٦) البدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٧) البدرى فهد ص ٣٨٣ .

(٨) للمتظم ٧/٩ .

وظل ذلك بقصور الخلفاء في العهد الأخير من الدولة العباسية كما مر بنا آنفاً . ولا شك في أن شيئاً كثيراً من التدهور أصاب بغداد بعد الغزو المغولي ، إذ أصبحت مع ما يتبعها من العراق ولاية ضمن ولايات متعددة يدبّر شؤونها الإيلخانيون ثم التيموريون ومن جاء بعدهم . ومعروف أن الإيلخانيين لم يتخذوا بغداد عاصمة لهم ، بل كانت عاصمتهم تبريز ومدينة بنوها سموها السلطانية ، وعاد حقاً إلى بغداد شيء من النشاط في عهد الشيخ حسن الكبير وأبنائه ، بل قبل ذلك في عهد بوسعيد ، ولكن على كل حال لم يعد لها مجدها القديم ، بل سرعان ما تردت في هوة من فساد الحكم . وغزاها تيمورلنك وتولاها بعده أحمد بن أويس ثم قرايوسف وأبناؤه ثم أوزون حسن كما أسلفنا ، وأصبحت إحدى الولايات في الدولتين الصفوية والعثمانية . وإذا كان ابن جبير زارها سنة ٥٨٠ هـ وقال إنه ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها وإنما أصبحت كالطلل المدارس والأثر الطامس^(١) فإن ابن بطوطة حين زارها سنة ٧٢٨ في عهد بوسعيد الإيلخاني أعاد إلى الأذهان كلام ابن جبير ، وعلق عليه بقول أبي تمام . قائلًا كأنه اطلع على ما آل إليه أمرها حين قال فيها :

لقد أقام على بغدادَ ناعياً فليتكها لخراب الدهر باكبها^(٢)

وبدون شك كانت حيوية بغداد أقوى من الخراب الذي أصابها مع غزو هولاء ومع خروج صولجان الحكم منها فقد ظلت لها مسحة غير قليلة من عراقها ، وظلت متراً للعلم والعناء ، بفضل ما كان يجيئه حكامها من حوض دجلة والفرات وما به من أشجار وزروع وثمار . وإذا كنا قد رأينا الخلفاء والحكام وحواشيهم يتنفسون حياة مترفة ، فقد كان يتنفسها معهم الأشراف وكبار الموظفين والإقطاعيون والوزراء . وكان الأخيرون خاصة يدبرون شؤون الدولة وتصير إليهم أموالها ، فأثرى منهم كثير ثراء فاحشاً ، وغرقوا في الترف والنعم . ويلقانا في أول العصر المهلبى وزير البويهيين ، وكان يشهر بمآذبه وكثرة ما كان يقدم فيها من أصناف الطعام والحلوى ، وقالوا إنه كان « إذا أراد أن يأكل شيئاً بمعلقة كالأرز واللبن وقف من جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجاً مجروداً ، فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة واحدة ، ثم يدفعها إلى غلام آخر قام من الجانب الأيسر ، ثم يأخذ أخرى فيفعل بها فعل الأولى ، حتى ينال الكفاية ، لتلا يعيد المعلقة إلى فيه دفعة

١٣٩/١ .

(١) رحلة ابن جبير (طبعة لندن) ص ٢١٧ .

(٢) رحلة ابن بطوطة (طبع المطبعة الأزهرية)

ثانية» (١). وفي هذا الخبر ما يدل على مدى الترف وما دخله من تعقيد في الوسائل ، فاللون من الطعام لا يؤكل بملعقة واحدة وإنما يؤكل بملاعق كثيرة . وأبعد من هذا الخبر دلالة على الترف الذي غرق فيه بعض الناس وكثرة ما كانوا ينفقون فيه ما يروى عن المهلبى أيضاً من أنه «ابتاع له في ثلاثة أيام وَرْدُ بَالْف دينار فُرشت به مجالسه وطُرح منه كمية كبيرة في بركة عظيمة كانت في داره ، ولها فَوَّارات عجيبة يطرح النورد في مائها وينفضه» (٢) وإذا كان يَشْتَرى من النورد وحده في ثلاثة أيام بألف دينار كفى يزين به مجلسه وبركة قصره ، فإذا اشترى لهذا القصر من السجاجيد والبسط والطنافس والستور وأنواع الوسائد والديباج والتحف . لا بد أنه اشترى من ذلك كله بمئات الألوف . ولم يكن هذا شأنه وحده ، بل كان أيضاً شأن الوزراء جميعاً وكبار الإقطاعيين والتجار . واشتهر بمجالس أنسه التي كان يعقدها بقصره ليلتين في كل أسبوع ، ويقول ابن خلكان : «كان يجتمع فيها عنده ندماؤه من الفقهاء والقضاة على اطراح الحشمة والتبسُّط في القصف والخلاعة ، وهم القاضي أبو بكر ابن قريعة وابن معروف والقاضي التنوخي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ، وكذلك كان المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذَّ سماع الغناء وأخذ الطرب منهم مأخذه وهبوا ثوب الوقار للعُقَّار وتقبلوا في أعطاف العيش . ، بين الخفَّة والطيش ، ووُضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب فيه ألف مثقال ، مملوء شراباً قَطْرِيَّاً أو عُكْبَرِيَّاً . فيغمس لحيته فيه ، بل يَنْقَعها حتى تتشرب أكثره ويرش بعضهم بعضاً ، ويرقصون بأجمعهم ، وعليهم الثياب المصبَّغات ومخائق المنثور ، فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم في التوقر والتحفظ بأبهة القضاء وحشمة المشايخ الكبراء» (٣) .

وظل هذا الترف طويلاً في مجالس الوزراء والسلاطين والأمراء ، واشتهر عضد الدولة بمجالس أنسه في بغداد وغير بغداد وما كان بها من السماع وغناء الجوارى والمغنين وألوان الفاكهة والرياحين وأقداح الشراب ، ويقال إنه غنَّى يوماً بأبيات للخليفة المطيع لله وكان قد لحنها ، فلم يعجبه لحنه (٤) . وكان الخلفاء وأبناء الخلفاء كانوا لا يزالون يضعون الألحان لبعض الأغاني كما مر بنا في العصر العباسي الأول . وبدون ريب كان يعيش هذه المعيشة المترفة التي لا تخلو من خمر وغير خمر كبار القواد ورؤساء الدواوين والإقطاعيون وكبار التجار والموظفون . ويعرض محمد بن أحمد أبي المطهر الأزدرى - في حكايته الطريفة عن

(١) معجم الأدياء ١٥٣/٥ وانظر الفن ومذامبه في (٣) ابن خلكان ٣/٣٦٦ .

(٢) الشعر العربي ص ٢٧٩ . (٤) معجم الأدياء ١٧/١٠١ وما بعدها .

(٣) معجم الأدياء ٩/١٣٨ .

أبى القاسم البغدادي التي تقص حياة شيخ طفيلي بغدادى فى يوم ببغداد فى القرن الخامس للهجرة - ما كانت تلبسه الطبقة المترفة من ملابس أنيقة مجلوبة من جميع البلدان العربية موشاة بدبىاج الذهب المنسوج وكأما نسجت من أزهار الربيع ، كما يقول ، يفوح منها العنبر والطيب . ويذكر بيوت هذه الطبقة فيقول إن سقوفها غشيت بالساج وزينت تعاريجها بالآبنوس والعاج ، مع الأروقة المليحة والأبهاء المشرفة العالية ومع الأواوين (جمع إيوان) وقد فرشت بالطنافس والمخاد المذهبة والأبسطة والمقاعد المموهة بالذهب والمطارح المحشوة بريش العصافير الهندية والدبىاج التستري المقصب الذهبى . ثم يفيض فى القول فى الأطعمة من كل صنف والأفواه والعمطور وأنواع المسك والعنبر والعود المطيب وأدوات الزينة من الأمشاط وغير الأمشاط . ويوازن بين هذه الحياة المترفة وحياة الطبقة الوسطى والدنيا الحشنة ، واصفاً أطعمتها ودورها . ويبدو أنهم كانوا يضيفون إلى كثير من الأطعمة أنواع الطيب وماء الورد والتفاح وحب الرمان والزعفران ، ويعرض أصنافاً كثيرة للحلوى ، وطبيعى أن تكثر فيها العطور . ويقول إنه حين يرفع الطعام يأتى فراش مهلل الوجه نظيف الثياب خفيف الروح بيده خلال سلطانى مطيب ، ويغسل الضيوف أيديهم ، ويناولهم الفراش مناديل ألين من القز وأنعم من الخز . ويظيل الوصف للوز والجوز المقشورين وأنواع الفواكه وما كانت تزين به الموائد من الأزهار والأنوار ، ويتحدث عن الخمور وكثوسها ودنانها مطناً مطيلاً . ويذكر ما فى مجالس السراة من المعتنين الذين يأخذون بمجامع القلوب ، إذ يملأون الآذان سروراً ويقدهون فى القلوب نوراً^(١)

وكانت المغنيات يغنين فى مجالس السلاطين والحلفاء من وراء ستارة ، أما فى مجالس السراة وعلية القوم والنوادى فكن يغنين دون ستارة غالباً ، ويظيل ابن أبى المطهر الأزدى فى الإشادة بمغنيات بغداد وزماراتها وطبالاتها وصناعاتها ورقاصاتها وضاربات العود بها ، ويصف إحداهن ممن يضرين على العود قائلاً : تدخل المجلس تعطره من نسيماها بالمسك والكافور والعنبر وتجرى عليها غلالة جري الماء ورداء قصب مزين مرصع بالزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر وفى عنقها سبحة (عقد) من الحب الكبار بما يعادل ألف دينار ، والجوارى يحملن ذبول ثوبها . وتجلس وعلى وجهها إزار قصب أبيض رقيق ، وتبدو متعقة لا يرى منها إلا المحاجر وأطراف الذوائب ، وتلقى بمحديث كره الجنان أو صوب الغمام أعذب من الماء الزلال ، وأعلق بالنفوس من السحر الحلال ، ثم تحسر

(١) حكاية أبى القاسم البغدادي (نشر ميتر فى

النقاب وتتناول عوداً من ساج منقوشاً بالعاج وتجسّ أوتاره وتفتح غناء - كما يقول أبو القاسم - أعذب من تيار الفرات وتفتّته في مجارى الحلق وتكسّره في مجارى النَّفس . يقول : وهناك لا تسمع إلا شهقة عالية ، ومقلة باكية ، وجيباً مشقوقاً ، وفؤاداً يطير خفوقاً^(١) .

ولم نلم إلا بكلمات قليلة من وصف أبي القاسم لهذه الجارية المغنية ، لندل على أن الغناء كان لا يزال مزدهراً ببغداد حتى القرن الخامس ، ونظن ظناً أن هذا الازدهار ظل له طويلاً . وغاية ما في الأمر أنه لم يتح له عالم يؤلف فيه على نحو ما ألف أبو الفرج الأصفهاني كتابه الأغاني عن المغنين والمغنيات في القرون الثلاثة الأولى للهجرة . وفي كتاب الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي في أوائل هذا العصر نص طويل^(٢) يصور ازدهاراً عظيماً للغناء في زمنه ومدى تأثير النامس به وطربهم عند سماعه على لسان المغنيات والمغنين ، ويحكى لنا كيف كان شخص يسمى البرداني يطرب طرباً شديداً حين يستمع إلى علوة جارية ابن علوية ، وهي تغنى بأبيات للسروى يقول فيها :

بِالْوَرْدِ فِي وَجْتَيْكَ مَنْ لَطَمَكَ وَمَنْ سَقَاكَ الْمُدَامَ لِمَ ظَلَمَكَ

ويسترسل أبو حيان في وصف انفعال السامعين إزاء الغناء ببغداد في عصره ، من مثل ابن فهم ، وكان يَطْرِبُ إِذَا اندفعت « نِهَايةً » جارية ابن السلمى يشدوها :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالكَرَّخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْرَارَ مَطْلَعُهُ
وَدَعْتُهُ وَبُودِي لَوْ يُوَدِّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ وَأَنَّى لَا أُوَدِّعُهُ

والبيتان من قصيدة أبي محمد علي بن زريق وستشيدُ منها أحياناً أخرى في الفصل الثالث . ولما سمعها منها ضرب بنفسه الأرض وتمرغ في التراب وهاج وأزبد وتعفر شعره ، وهيئات من الرجال مَنْ يَضْبِطُهُ وَيُمْسِكُهُ وَمَنْ يَجْسُرُ عَلَى الدنوّ منه ، فإنه يَعْضُ بِنَابِهِ ، وَيَحْمِشُ بِظْفَرِهِ ، وَيَرْكُلُ بِرِجْلِهِ وَيَجْرُقُ الْمَرْقَعَةَ (رداء الصوفية) قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لكمة ، كأنه عبد الرازق المجنون بباب الطاق . وكثيرون كانوا يطربون طرب هذا الصوفي ، فتقلب حاليق عيونهم ، ويسقطون مغشياً عليهم ، ويرشون عليهم الكافور وماء الورد - كما يقول أبو حيان - ويقرءون في آذانهم آية الكرسي والمعوذتين ، ويرقونهم رُقَى مختلفة ، حتى يفيقوا من سكرتهم ، منهم أبو الحسن الجراحي قاضي الكرخ ، فإنه كان إذا سمع الجارية « شُعْلَةَ » وهي تغنى أغنيها :

لَا بَدَّ لِلْمَشْتَاقِ مِنْ ذِكْرِ الْوَطَنِ وَالْيَاسِ وَالسَّلْوَةِ مِنْ بَعْدِ الْحَزَنِ

(١) حكاية أبي القاسم ص ٥٠ وما بعدها . (٢) الإمتاع والمؤانسة ٢/١٦٥-١٨٣ .

ابتلت شيبته بالدموع ، مع شجن قد ثقب القلب وأوهن الروح وقتت الصخر وأذاب الحديد ، يقول أبو حيان : « وهناك ترى - والله - أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة له ، ورقة عليه ، ومساعدة لحاله . وهذه صورة إذا استولت على أهل المجلس وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تُدرَك ، لأنه قلما يخلو إنسان من صَبْوَةِ أَوْصَابِيَةٍ ، أو حَسْرَةٍ على فائت ، أو فِكْرٍ في مَتمنى ، أو خوفٍ من قطيعة ، أو رجاءٍ لمتَظَرِّ ، أو حُزْنٍ على حال » . ويسوق أبو حيان لنا صوراً من طرب الشعراء حين سماع بعض الجوارى أو المغنين ، فهذا ابن نباتة يطرب على صوت جارية تسمى «خاطف» وهذا ابن حجاج يطرب على غناء فتوة البصرية ، وهي جارته وعشيته . ويذكر أبو حيان أن الطرب كان يأخذ بابن صُرِّ القاضى كل مأخذ ، حين يستمع إلى «دُرَّة» جارية أبي بكر الجراحى وهى تغنى :

لست أنسى تلك الزيارة لما طرقتنا وأقبلت تثنى
 كم ليالٍ بتنا نلذُّ ونهوى ونسقى شرابنا ونغنى
 هجرتنا فما إليها سبيلٌ غير أنا نقول : كانت وكنا

يقول أبو حيان : « وإذا بلغت : « كانت وكنا » رأيت العجب مشقوقاً ، والذليل مخروقاً ، والدمع منهلاً ، والبال منخلاً . ومكتوم السر فى الهوى بادياً ، ودليل العشق على صاحبه منادياً » . ويعرض علينا أبو حيان صوراً مختلفة من طرب الصوفية مثل المعلم غلام الحضرى شيخ الصوفية ، ومثل ابن سمعون أكبر واعظ شهدته بغداد فى زمنه ، فإن الطرب كان يقيمه ويقعده حين يستمع إلى ابن بهلول ، وهو يزلزل الدنيا بصوته الناعم وغنته الرخيمة وظرفه البارع ودماثته الحلوة . ويذكر أبو حيان جارية كانت تنوح تسمى حبابه كانت فى النوح واحدة لا أخت لها وقد تهالك الناس بالعراق على نوحها . يقول : ورأيت لها أختا يقال لها « صبابه » كانت فى الحسن والجمال فوقها . وزلزلت هذه بغداد فى وقتها ، ولم يكن للناس غير حديثها لنوادرها وحاضر جوابها . ثم يقول أبو حيان فى ختام هذا الفصل الطريف .

« ولو ذكرت هذه الأطراب من المستمعين والأغاني من الرجال والنصيان والجوارى والحرائر لأطلت وأملت وزاحمت كل من صَفَّ كتاباً فى الأغاني والألحان . وعهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة . وقد أحصيت - أنا وجماعة فى الكرخ - أربعماية وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد الغربى والشرقى) ومائة وعشرين حرة يجمعن بين الحسن والحدق والظرف والعشرة . وهذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه نغزته وحرسه

ورقبائه ، وسوى من كنا نسعده ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب إلا إذا نشط في وقت أو تَمِيل (سَكِرَ) في حال ، وخلع العذار في هوى قد حالفه وأضناه .

ولا ريب في أنه كان بجوار أولئك المئات من المغنيات مئات من المغنين ، وكما كنا نتمنى لو أن أباحيان أطال وأملَّ وصنّف في أغاني عصره كتاباً ككتاب أبي الفرج الأصبهاني ، ولكنه لم يُعَنَ بذلك فحَسِرَ الشعر والغناء خسارة كبرى لأن معاصريه ومن جاءوا بعده لم يحاولوا التأليف في الأغاني والمغنيات والمغنين على غرار صنيع الأصبهاني . وأكبر الظن أن هذا الازدهار للغناء ظل حتى غزو التتار لبغداد ، وبقيت منه أسراب في الحقب المغولية ، إذ نجد ابن بطوطة حين زار بغداد سنة ٧٢٧ يذكر أنه رأى السلطان الإيلخاني بوسعيد في سفينة بدجلة يتزّه ، وعن يمينه وشماله قوارب وسفن لأهل الطرب والغناء ، ويذكر أيضاً أنه رأى هذا السلطان في أحد مواكب تنقله ، ومع كل أمير من أمرائه عسكريه وطبوله ، وكان يتقدم الموكب الحجاب والنقباء ثم أهل الطرب وهم نحو مائة رجل ، كانوا يغنون في مجموعات بالتناوب ، ولايزالون يتداولون الغناء بينهم ، حتى ينزل بوسعيد ، فإذا ركب عادت الجماهير إلى الطرب والغناء^(١) .

ولم تكن الطبقة الدنيا تنعم بالغناء نعم الطبقة الأرستقراطية ، والمظنون أن الطبقة الوسطى كانت تنعم به بعض الشيء ، أما من وراءهم من عامة الناس فلم يكن لديهم من المال ما يجعلهم يأخذون بنصيب من هذا النعيم ، إلا ما قد ينعمون به في الأعياد العامة ، وعادة كانت بغداد تزِين بالأعلام ذات الألوان الزاهية في عيدي الفطر والأضحى ، ومع مواكب الحج في رحيلها وقدمها ، وظل الاحتفال بذلك كله حتى نهاية هذا العصر ، وكانوا يحتفلون بأعياد الفرس ويخرجون فيها للمتزهات وسماع المغنين والمغنيات ، وأهمها عيد المهرجان في السادس والعشرين من أكتوبر ، ويستمر ستة أيام ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر ، ويأتي بعده عيد السَدَق ، وهو يوافق عيد الميلاد ، وفيه تُشعل النار في السفن والزوارق بدجلة ، وتخرج العامة للفرجة عليها وبأيديهم الشموع ، وبلى هذا العيد عيد النيروز في أول الربيع ، ويتبدئ في الحادي والعشرين من مارس ويستمر ستة أيام مثل عيد المهرجان . وبجانب ذلك كانوا يحتفلون بأعياد النصراري ويخرجون فيها للمتزهات والأديرة ، وكان لكل دير عيده .

ومن المحقق أن العامة كانت تعانى كثيراً من الضنك والضييق لكثرة الضرائب التي كانت تُجَبى منها وقلة ما كان يعود عليها من الكسب ، وقد يدل على ذلك من بعض الوجوه أن

(١) ابن بطوطة ١٤٣/١ وما بعدها .

الطيب حين كان يدور من بيت إلى آخر لمعالجة العامة كان يأخذ أجراً له عن كل مريض ربع درهم^(١) ، ويذكر التنوخي أن رجلاً كان يستأجر حانوتاً بنصف درهم وزيدت إلى درهم^(٢) . والخبران من أخبار أوائل العصر في القرن الرابع الهجري ، فما بالنا بما صارت إليه العامة بعد ذلك من بؤس وتعاسة ، وهذا هو السبب في كثرة العيَّارين ببغداد طوال القرنين الرابع والخامس الهجريين ، ومن يقرأ أخبارهم يحس أنهم كانوا يستشعرون فكرة العدالة الاجتماعية ، إذ يرون طائفة قليلة من الوزراء والقواد وكبار الموظفين والإقطاعيين والتجار الموسرين يتمتعون بل يتمرغون في الترف والتَّعِيم وهم محرومون يتجرعون البؤس والمسغبة ، وقد أشعلوا في شهر المحرم لسنة ٣٦٤ للهجرة ببغداد حريقاً عظيماً ، واستفحل أمرهم حتى خافهم الجند وتلقبوا بالقواد وتسلطوا على بغداد وأخذوا الضرائب من الأسواق^(٣) ، ويذكر أبو حيان من قوادهم ابن كبرويه وأبا الدرد وأبا الذباب وأسود الزَّيْد^(٤) . وعادوا إلى التسلط على بغداد سنة ٣٨٠ فنهوها وعينوا عريفاً لهم في كل محلة^(٥) . وأخذ يتنظم مع الزمن في صفوفهم كثير من العلويين والعباسيين كما حدث في فتنهم سنة ٣٩٢ مما يدل على أنهم كانوا ساخطين سخطاً شديداً على الأغنياء المترفين من رجال الدولة وغيرهم ، وأنهم كانوا ينادون بفكرة العدالة الدينية . ونمضى في القرن السادس الهجري فوجد فتنهم تشعل ببغداد من حين إلى حين ، ويعظم شأنهم في عهد السلطان مسعود السلجوقي (٥٢٧ - ٥٤٧ هـ) وينهبون بغداد مراراً . وما زالت فتنهم تنشب فيها طوال القرن السادس ، حتى إذا كُنا في عصر الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) وجدناه في سنة ٥٧٨ يستدعى شيخاً من بينهم عرف بأن له أتباعاً كثيرين ، فعرض عليه أن يتنظم معه ومع أتباعه في الفتوة ، على أن تتجه وجهة صالحة ، فلا تكون للإفساد ولا للنهب ولا للفتن ، بل تكون فتوة فاضلة تقوم على المروءة وشرف النفس . وشرب الناصر من يد الشيخ عبد الجبار ماء الفتوة وهو ماء مملوح ، وكأنه يشير عندهم إلى أنهم لا يشربون الخمر وأيضاً لبس الناصر سراويلها كما أسلفت وأخذ في تنظم هذه الفتوة الشريفة ، فدخل فيها أهل بغداد أفواجا ، وعمد إلى نشرها في الآفاق وطلب إلى الحكام أن يدخلوا فيها ، ودخل كثير منهم ، على هدى منشور فيها ، أرسله إلى الآفاق يحض على الانتظام في سلكها ، وكان ممن انتظم فيها شهاب الدين الغوري سلطان غزنة والهند ، كما ذكر ابن الأثير في حوادث سنة ٦٠٢ وانتظم فيها السلطان

(١) مسكويه ٢/ ١٩٨ .

وابن تغرى بردى .

(٢) الفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/ ١٥٥ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٣/ ١٦٠ .

(٣) انظر حوادث سنة ٣٦٤ في المتنظم وابن الأثير .

(٥) راجع في السنة المذكورة المتنظم وابن الأثير .

العادل الأيوبي وأبناؤه كما مرّ بنا. وكان هذا عملاً جليلاً، لأنه أنقذ بغداد من العيارين والنهب والسلب المستمر فحسب، بل لأنه وجّه شباب بغداد بل شباب الأمة إلى أخذ الفتوة الفاضلة درعاً في حروبهم مع أعدائهم من الصليبيين، وقد تحولت إلى نظام عظيم، كتب فيه العلماء كتباً، من أهمها كتاب الفتوة لابن المعمار البغدادي المتوفى سنة ٦٤٢ وهو يوضح فيه حقيقتها ومنشأها ومترلتها من الشريعة الإسلامية وشرائطها ومصطلحاتها على ألسنة الفتيان النبيلة^(١). غير أن بغداد لم تلبث أن اكتسحتها أمواج التار هي والعراق، وحكمها الإيلخانيون ومن جاء بعدهم من التيموريين والتركمان والصفويين والعثمانيين، وأخذت أحوال أهلها هي والعراق عامة تزداد سوءاً من عصر إلى عصر، لكثرة ما كان يفرض على الناس في المدن والريف من الضرائب الفادحة.

ولم نتحدث عن أهل الذمة من الجوس والنصارى والصابئة واليهود، وكانوا يتمتعون بتسامح واسع نظير ما يدفعونه من الجزية، وكانت لا تتجاوز ديناراً للعامه ودينارين للطبقة الوسطى وثلاثة دنانير لأصحاب الثراء، وكانت أشبه بضريبة تؤخذ للدفاع الوطني، إذ لم يكن يؤديها إلا الأمن يقدرون على حمل السلاح، فلا يؤديها النساء ولا الرهبان ولا من لم يبلغ الحلم ولا العجوز ولا الفقير البائس ولا ذوو العاهات. وكانت الدولة وخاصة في الحقبة البويهية تستخدم بعض النصارى في الدواوين واتخذ منهم عضد الدولة وزيراً - كما مرّ بنا - وكان منهم أطباء كثيرون في مختلف الحقب، أما اليهود فكانوا يشتغلون بأهون المهن، فكان منهم الصباغون والحزازون وأمثالها كالأساكفة.

وكان الرقيق كثيراً كثيرة مفرطة، وكان من أجناس مختلفة، فنه الإفريقي ومنه التركي الآسيوي ومنه الأوربي وخاصة الصقلي والرومي. وكانت له سوق رائجة في بغداد من قديم، وكانت التجارة فيه تدرّ أرباحاً طائلة على النخاسين، وكانت لهم حيل كثيرة يخدعون بها الناس عند شراء الجوارى والرقيق بعامه، ومن أجل ذلك ألف ابن بطلان المتوفى بعد سنة ٤٥٥ للهجرة رسالة سماها «شراء الرقيق وتقليب العبيد» وفيها يصور حيل النخاسين في تحسين الجوارى وطرق خداعهم في إزالة آثار الجدري والوشم والتمش من أجسادهن وصبغهن بألوان تُخفى ما قد يكون من آثار البرص أو الهبق وصنع عيونهن بألوان تجعلها كحلاء أو زرقاء، ويصور بعض مقاييس الحسن في الجارية من أخصص قدمها إلى

(١) انظر في الفتوة وتنظيم الناصر لها كتاب الفتوة لابن المعمار (طبع بغداد) والمقدمة الطويلة التي كتبها الدكتور مصطفى جواد لهذا الكتاب. وانظر الفتوة والخليفة الناصر

للمستشرق الألماني فزانيشتر في كتاب المتقى من دراسات المستشرقين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر).

مفروق شعرها^(١) وكانت المخطوطات منهن تُجَلَّبُ إلى دور الخلفاء والسلاطين ، وكثير من الخلفاء كانوا من أبنائهن ، فالقائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) كانت أمه قطر الندى جارية رومية^(٢) ، وابنه المقتدى (٤٦٧ - ٤٨٧ هـ) كانت أمه جارية أرمنية^(٣) ، وكذلك كانت أم المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) من الجوارى^(٤) . وكان منهن كثيرات في قصر الخلافة يخدمن زوجات الخلفاء أو يكنن وصفات لهن^(٥) .

وكانت الجارية المغنية تباع بأعلى الأثمان ، وكان في بغداد بعض نوادرها جوار مغنيات يختلف إليهن الشباب لسماع الغناء واللهو^(٦) . واشتهر كثيرات منهن باللفظ والظرف والبدية الحاضرة ونظم الشعر^(٧) وحب الأزهار ونقش الآيات الرقيقة على الأردية والأكام والعصائب والمناديل ، وكان لذلك تأثير في رقي الأذواق ببغداد من قديم . وكان شرب الخمر معتاداً في كثير من مجالس السلاطين والوزراء وسراة القوم ، على نحو ما مر بنا عن المهلبى وزير معز الدولة البويهى ، وحكوا عن ابنه عز الدولة بختيار أنه « كان يحب أن يقضى أوقاته في الصيد والأكل والشرب والسماع واللهو واللعب بالزرد وتحريش الكلاب والديكة والفتاخ (العقبان)^(٨) . ومر حديثنا عن عضد الدولة البويهى ومجالس أنسه وطربه وشربه . وكان السلطان مسعود السلجوقى منهمكاً في اللذات والانعكاف على الخمر والراحات^(٩) . ويكثر وصف الخمر على ألسنة الشعراء وفي حكاية أبى القاسم البغدادي وصف كثير لها في غير موضع ، وفيه تساق بعض أشعار الماجنين الكبيرين ببغداد في القرن الرابع الهجرى : ابن حجاج وابن سكرة ، وهما أكبر مجان ببغداد - إن لم يكن كل البلدان العربية - على مر التاريخ .

وكان الصيد هوأ عاماً للسلاطين والناس ، وكان من أكبر هواه ملكشاه السلجوقى ، ويقول ابن خلكان : « كان لهجاً بالصيد ، حتى قيل إنه ضُبط ما اصطاده بيده فكان عشرة آلاف فتصدَّق بعشرة آلاف دينار . وصار بعد ذلك كلما قتل صيداً تصدق بدينار . . . وخرج مرة من الكوفة لتوديع الحجاج . . . وصاد في طريقه وحشاً كثيراً ، وبني هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الطباء مما صاده^(١٠) » . وكانت العامة تلهج بالصيد مما دفع

- (١) انظر رسالة شراء الرقيق وتقليب العبيد بين الرسائل التي نشرها عبد السلام هرون باسم نوادر المخطوطات . دمشق) ص ٩٧ .
 (٢) المتظم ٥٨/٨ .
 (٣) المتظم ٢٩١/٨ و ٢٠٠/٩ .
 (٤) المتظم ٨١/٩ .
 (٥) المتظم ٢٣٠/٨ والمتجدد من فعلات الأجواد .
 (٦) أخبار الظراف والماجنين لابن الجوزى (طبع بغداد) ص ٩٧ .
 (٧) نفس المصدر ص ٩٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ٣١/٨ .
 (٨) مسكويه ٣٨٦/٦ .
 (٩) ابن خلكان ٢٠٢/٥ .
 (١٠) ابن خلكان ٢٨٤/٥ .
 للتوخى ٢٣ .

الناصر إلى أن يجعله جزءاً من الفتوة ، إذ اشترط فيها إحسان المنتسب إليها الرمي بالبندق ، وكأنه كان يريد أن يبرهن الشباب لا على الصيد من حيث هو وإنما على صيد أعداء العرب والإسلام ، ولعاصره الفقى عمر بن السفت مخمس طويل فى وصف قوس البندق وإحكام الصيد^(١) .

واستمر من هواياتهم فى هذا العصر اللعب بالنرد وكذلك اللعب بالشطرنج وفى حكاية أبى القاسم وصف طويل للشطرنج واللعب به . وكان من تسلياتهم القديمة مهارشة الديكة ولعبة خيال الظل ، وكانوا يلعبون بالحمام ويتخذون له أبراجاً كبيرة ، وكانوا يقامرون عليه ، فيرسل كل حمامه ، ومن جاء حمامه أولاً كسب الرهان ، ومن أهم أنواعه الزاجل ، وكانت الحكومات تستخدمه فى البريد أو التراسل . وكان من ألعابهم سباق الخيل . وكانت الفروسية مهوى أفئدة الشباب ، وخاصة أصحاب الفتوة فكانوا يتمرنون على استخدام السلاح سواء أكان ضرباً بالسيف أو رمياً بالنبل . وكان من العادات الشائعة الاحتفال بالختان وبجتم القرآن وبالزواج وكان الفقراء يستعيرون لفتياتهم ولأنفسهم الملابس والحلى للظهور بالمظهر الكرم فى حفل الزفاف . ومن المؤكد أنه ظل يجثم على صدر بغداد حزن كئيب منذ غزاها المغول حتى العصر الحديث .

٤

التشيع

يقوم التشيع على أساس نظرية فى إمامة المسلمين يؤمن بها الشيعة جميعاً ، وهى نظرية تعتمد على أن هذه الإمامة وراثية فى على بن أبى طالب وأبنائه المختارين للنهوض بالخلافة الشرعية للمسلمين من الوجهتين الدينية والدنيوية . ولذلك لا يسمون الحاكم الأعلى للمسلمين فى رأيهم خليفة كما يسميه أهل السنة ، وإنما يسمونه إماماً ليدل هذا اللقب على مكانته الدينية . والإمام الأول عندهم هو على الذى اختاره الرسول ﷺ فى اعتقادهم ، ليكون إمام المسلمين بعده ، ويسمون ذلك وصية ، إذ يقولون إن الرسول أوصى لعلى بالإمامة بجوار غدير خم بين مكة والمدينة . فهو وصى النبى وكل إمام بعده وصى لسلفه ، عنه بعده صراحة وفقاً لترتيب الهى . ويضيف الشيعة إلى ذلك أن الرسول ﷺ بثَّ علماً علوماً خصه بها ، وهى علوم تجعل له - فى عقيدتهم - قدسية وصفات روحية خاصة ،

(١) مقدمة كتاب الفتوة لابن المعاصر ص ٧٥ .

وهي صفات وعلوم يرثها كل إمام عن سالفه .

والشبهة فرق كثيرة ، ونقصر حديثنا على ثلاث منها عُرفت بالعراق لهذا العصر ، هي الإمامية الاثنا عشرية والزيدية والتُّصَيَّرِيَّة . والأولى^(١) هي التي يدين بها جمهور الشيعة في العراق حتى اليوم ، أما الفرقتان الثانية والثالثة فعُرفتا في بعض البيئات والمدن ، ولم تُعمَّا في العراق إنما التي عمَّت الإمامية الاثنا عشرية ، ولذلك ينبغي أن نفصّل القول فيها بعض التفصيل . وعندهم أن إمامة علي وأبنائه من السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ جزء لا يتجزأ من صحة العقيدة الإسلامية ، يقول الكليني المتوفى سنة ٣٢٨ في كتابه الأصول من الجامع الكافي : « ليس بمسلم حقا من لا يعترف بالله ورسوله والأئمة جميعاً وإمام عصره ومن لا يفوض أمره للإمام ويبذل نفسه في سبيله » والإمامية بذلك يجعلون من أركان الإسلام الأساسية - في عقيدتهم - الإيمان بالأئمة والانضواء تحت لواء إمام العصر^(٢) ويفضون الإمامية على الإمام صفات روحية قدسية أودعها الله فيه مع ما أودع من العلوم ، وهي صفات يعلو بها على المستوى البشرى للناس ، بها يكون هادياً لهم وموجِّهاً ، إذ ورثها عن الأئمة قبله ، وورث معها المعارف والأحكام الإلهية ، وكلُّ ما يحدِّد يعرفه عن طريق الإلهام بالقوة القدسية والمشيتة الإلهية . فكل علم له إنما هو من لدن الله وكل أمر إنما هو بتوجيه الله^(٣) . وطاعة الأئمة لذلك واجبة ، إذ هم أبواب الله والسبيل إليه والإدلاء عليه ، وهم ذخيرة علمه وتراجمته وحيه وأركان توحيده وخزَّان معرفته . . أمرهم أمر الله ، ونهيهم نهيَّه ، وطاعتهم طاعته ، ومعصيتهم معصيته^(٤) . ومما يستدلون به على وجوب طاعتهم قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم) وأولو الأمر ليسوا هم - كما يدل ظاهر الآية - علماء الأمة المجتهدين ، وإنما هم الأئمة . ويقولون إن الله أوجب طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله . وعلى هذا النحو يرتفع الشيعة الإمامية بأنهم عن الطبيعة البشرية إذ يجعلونهم معصومين عن الخطأ واقتراف الذنوب والآثام . وتعدُّ هذه العصمة للأئمة من المبادئ الأساسية في العقيدة الإمامية ، ويستدلون عليها باختيار الله لهم - على نحو ما تصور ذلك عقيدتهم - والله لا يختار لعباده

(١) انظر في الإمامية الملل والنحل للشهرستاني وعقائد

الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي والعقيدة والشرعية في الإسلام لجولدتسير والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) راجع الكليني ص ١٠٥ و٣٦٨ وجولدتسير

ص ١٨١ وفي مواضع مختلفة

(٣) راجع عقائد الإمامية للشيخ محمد رضا المظفر (طبع القاهرة) ص ٧٢ والكليني ص ١٤٦ . ١٤٨

(٤) انظر المظفر ص ٧٤

في رأيهم إلا المعصومين^(١) .

ويؤمن الإمامية الاثنا عشرية بأن الأئمة اثنا عشر ، ولذلك يسمون الاثني عشرية ، وهم - على الترتيب - علي بن أبي طالب ، فابنه الحسن ، فأخوه الحسين ، فابنه علي زين العابدين ، فابنه محمد الباقر ، فابنه جعفر الصادق ، فابنه موسى الكاظم ، فابنه علي الرضا ، فابنه محمد الجواد ، فابنه علي الهادي ، فابنه الحسن العسكري ، فابنه محمد المهدي المولود سنة ٢٥٦ للهجرة ، وقد احتجوا عندما كان طفلاً . ويؤمن الإمامية بأن هذا الإمام حي وأنه سيعود ليملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً ، ويعيد سنن الرسول ﷺ ويسترد حق أسرتة في الولاية على الأمة في يوم موعود به من الله ، هو سر من الأسرار الإلهية . ويقولون إن هذا حقاً مخالف للمألوف أن يكون إماماً وهو قد رحل وعمره خمس سنوات وأن يظل قروناً متوالية حياً ، ولكنها - كما يعتقدون - معجزة ستُحقَّق . إذ يعود إليهم هذا المهدي المنتظر الذي يُحرَّر - في عقيدتهم - العالم من مفسده وشروره ، ويُشيع في الناس العدالة . وهو بذلك حيّ ، وكل ما في الأمر أنه غائب خفي عن الأعين^(٢) . وهو عندهم في أثناء غيابه واختفائه « قائم الزمان » يسير بين الأحياء ولا يروونه ، ويرعى شؤونهم ، ويدبر مصالحهم^(٣) .

وتؤمن الإمامية الاثنا عشرية بنظرية الرجعة ، إذ يعيد الله بعض الأموات إلى الدنيا ليقرؤوا بين البشر نواميس العدالة الإلهية ، ثم يعودون بعد ذلك إلى الموت ، وكأنها بعث موقوت في الدنيا ، وهي طبعاً غير التناسخ ، فالتناسخ انتقال الروح من بدن إلى بدن ، أما الرجعة فعاد جسماني في الدنيا بنفس الصورة والشخصية . ويستدلون على هذه الرجعة بما جاء على لسان عيسى عليه السلام في الذكر الحكيم : (وَأُبْرِيءُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ) وما جاء عن قصة أهل الكهف في القرآن الكريم ، وأيضاً عن صاحب القصة في قوله تعالى : (فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ) . غير أن فكرة الرجعة اختلطت بفكرة المهدي الذي سيأتي آخر الزمان ويتم على يديه الإصلاح المأمول ، ويقول الشيخ المظفر : « على كل حال الرجعة ليست من الأصول التي يجب الاعتقاد بها ، وإنما اعتقادنا بها كان تبعاً للأثار الصحيحة الواردة عن آل البيت عليهم السلام^(٤) » . وهو يلفتنا بذلك إلى أهمية

(١) انظر في عصمة الإمام لدى الاثني عشرية (٣) انظر جولدتسيبر ص ١٩٦ .

جولدتسيبر ص ١٨٨ . (٤) عقيدة الإمامية للمظفر ص ٨٣ وما بعدها وراجع

(٢) انظر في نظرية المهدي الكتب الشيعة السابقة في عقيدة الرجعة لدى الاثني عشرية جولدتسيبر ص

وجولدتسيبر ص ١٩١ وما بعدها وراجع في الغيبة عقائد

الإمامية للمظفر ص ٨٠ .

الروايات المنسوبة إلى الأئمة في البيئة الإمامية فهي أقوى عندهم من كل برهان لأنهم في رأيهم معصومون متزهون عن الخطأ .

وتلتقى العقيدة الإمامية مع الاعتزال في كثير من الأصول ، فالإمامية كالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته ، فهو عالم بذاته لا يعلم ، وكذلك بقية صفاته ، ويروون عن جعفر الصادق : « العلم ذات الله ولا معلوم ، والسمع ذاته ولا مسموع ، والبصر ذاته ولا مبصر ، والقدرة ذاته ولا مقدور^(١) » . وهم كالمعتزلة ينفون التشبيه عن الله ، فهو منزّه عن المكان والزمان والشبه بالمخلوقات ، إذ ليس جسماً ولا عرضاً ولا جوهرًا ، وقد سلكوا مسلك المعتزلة في تأويل الآيات القرآنية التي قد تفيد مشابهة الذات العلية للمخلوقات في مثل (يد الله فوق أيديهم) فغنى اليد القدرة . وهم كالمعتزلة في إثبات العدل على الله ، أما أفعال العباد فيقفون فيها موقفاً وسطاً بين المعتزلة والقائلين بالجبر ، فهي بين بين ، أو هي بين الاستطاعة والجبر . وظلت الصلة قوية بين الإمامية والاعتزال طوال العصر .

وقد أخذ المذهب الإمامي الاثنا عشرى ينتشر في العراق منذ أوائل هذا العصر ، إذ تحول صولجان الحكم إلى البويهيين وكانوا إمامية ، ونرى حاكمهم الأول معز الدولة يأمر في سنة ٣٥١ بلعن معاوية وكبار الصحابة وكتب بعض الشيعة ذلك على حيطان المساجد ، فحذا الكتابة أهل السنة^(٢) . ولم يلبث معز الدولة أن أمر أهل بغداد بالاحتفال بيوم عاشوراء في سنة ٣٥٢ وهو اليوم الذي استشهد فيه الحسين ، وقد أصبح منذ هذا التاريخ أكبر عيد للشيعة ، وفيه أمر معز الدولة أن تُغلق الأسواق ويعطل البيع والشراء ولا يُدبج القصابون ولا يطبخ الطبّاخون وأصحاب الحلوى ، والجميع ينوحون ويبكون الحسين وينصبون القباب ويتخذون المسوح وتخرج النساء منشورات الشعور مسوّدات الوجوه مشقوقات الثياب ويُدرن في بغداد نأحات لاطات وجوههن على الحسين^(٣) . وفي هذا اليوم يُزار قبر الحسين بكربلاء ، ويقام فيها عليه مأتم كبير كما تمّ بغداد ، ويقام أيضاً في المدن العراقية الأخرى . ولا يزال يقام هذا المأتم إلى اليوم . وفيه يقام موكب كبير للنائحين ببغداد ، وتُتلى سيرة الحسين في البيوت والنوادي وتُنشد مرث كثيرة فيه وفي أبيه وفي الأئمة المستشهدين ، يصوّر فيها الشعراء محن آل البيت على مر التاريخ . ويجانب هذا العيد الحزين عيد فرح

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة للعامل (طبع النجف) ص ٥٣ وانظر جولدستبيرغ ص ١٩٨ وما بعدها .
(٢) انظر ابن الأثير وأبا الفدا في حوادث عام ٣٥١ .
(٣) المنظم ١٥/٧ وابن الأثير وابن تغري بردي في حوادث عام ٣٥٢ .

وسرور فرضه أيضاً معز الدولة البويهى فى الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥٢ وهو عيد الغدير : غدير خُم الذى يذهب الشيعة - كما أسلفنا - إلى أن الرسول ﷺ عهد إلى على بالخلافة قريباً منه وأنه قال : مَنْ كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال منْ والاه وعاد منْ عاداه . وقد أمر معز الدولة أن يستشعر الناس فيه الفرح ومظاهره من اتخاذ الزينة ونصب القباب وتعليق الثياب ، وأشعلت النيران ليلاً وضربت الدبابد والبوقات ^(١) . ولم يلبث أهل السنة ببغداد أن اتخذوا لهم عيدين يآزاء العيدين السالفين ، فجعلوا لهم عيداً بعد عيد الغدير بثمانية أيام ، سموه عيد الغار ، أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر الصديق فى غار حراء ، وبالمثل جعلوا لهم عيداً بعد يوم عاشوراء بثمانية أيام أحيوا فيه ذكرى اليوم الذى قُتل فيه مصعب بن الزبير ^(٢) .

واشتهر الكرخ فى غربى بغداد بأنه كان حى الشيعة الإمامية ^(٣) ، ويقول هلال الصائى إنهم لم يحتلوا باب الطاق إلا فى أواخر القرن الرابع الهجرى ^(٤) ، وكان يقابلهم فى القسم المواجه من بغداد أهل السنة وكان أكثرهم من الخنابلة ، ولهم فتن كثيرة مع الشيعة نقصها كتب التاريخ . ويذكر ابن بطوطة فى رحلته مدينة الحلة ويقول إن أهلها لزمته فى القرن الثامن إمامية اثنا عشرية ^(٥) ، ومرّبنا فى حديثنا عن بنى مزيد فى الجزيرة العربية أنهم كانوا لعهدهم بالحلة فى القرن الخامس رافضة ، وقد يكون فى ذلك ما يدل على اكتساح مذهب الإمامية لمذهب الإسماعيلية فى العراق . ووصف ابن بطوطة كربلاء ومشهد الحسين بها ، وقال إن « الروضة المقدسة داخلها وعليها مدرسة عظيمة وزاوية كريمة فيها الطعام للوارد والصادر ، وعلى باب الروضة الحجاب والقومة ، ولا يدخل أحد إلا عن إذنهم ، فيقبل العتبة الشريفة وهى من الفضة ، وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة ، وعلى الأبواب أستار الحرير » ^(٦) . وهى أول مرة يوصف فيها مشهد الحسين من داخله . وهو تحفة من التحف النفسية بما يغطى الضريح ومثذنة المشهد من صفائح الذهب ، وبالمثل مشهد أبيه على فى الكوفة . وتحض العقيدة الإمامية على زيارتها وزيارة قبور الأئمة بالعراق وإيران . وقد أتيج لتلك العقيدة فى عهد إسماعيل الصفوى ودولته أن تصبح المذهب الرسمى للدولة فى العراق وإيران . غير أن تلك الدولة لم تدم فى العراق طويلاً .

- (١) ابن الأثير والمتظم فى حوادث عام ٣٥٢ . (٤) كتاب الوزراء ص ٣٧١ وانظر المتظم فى حوادث
 (٢) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصائى ص ٣٨٩ عام .
 (٣) ٣٧١ . (٥) رحلة ابن بطوطة ١ / ١٣٨ .
 (٦) ابن بطوطة ١ / ١٣٩ . (٣) انظر مادة كرخ فى معجم البلدان لياقوت .

وكان بجانب العقيدة الاثني عشرية في العراق عقيدتان أخريان شيعيتان، إحداهما متطرفة غاية التطرف حتى ليعتبرها منها الشيعة الاثنا عشرية ، والثانية معتدلة غاية الاعتدال ، أما المتطرفة ففرقة التَّصِيرِيَّة كان لها أتباع في مدينتي عانة والحديثة ، وهم في الحق مسلمون اسماً فحسب ، أما بعد ذلك فهم خارجون على الإسلام إذ عدُّوا على بن أبي طالب وأبناءه آله وعبودهم من دون الله ، واتخذوا لأنفسهم كتاباً عدَّوا القرآن ثانوياً بالقياس إليه . وطبيعي ، أن يرفضوا بعض أركان الشريعة الإسلامية ، وقد أنزلوا الرسول ﷺ منزلة دون منزلة على ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم الآثمة ، ويقول جولدتسيهر إن عقيدتهم تحمل كثيراً من عناصر الوثنية الآسيوية القديمة ^(١) . وحرى بنا أن نلاحظ أنه كان يندس بين الإمامية بعض التصيرية وبعض الشيعة الغالين أوبعبارة أدق الرافضة ، وخاصة من يرفقون عليا إلى مرتبة ربَّانية . ونجد أحد خطباء الشيعة ببغداد في عام ٤٢٠ للهجرة يدعو في خطبة الجمعة بعد الصلاة على النبي ﷺ فيقول : « وعلى أخيه أمير المؤمنين على ابن أبي طالب مكلم الجمجمة ، ومحبي الأموات ، البشري ، الإلهي ، مكلم فتية أصحاب الكهف ^(٢) » . وكأنه يؤمن بأن عليا صورة جديدة لعيسى عليه السلام ، اجتمع فيه اللاهوت والناسوت مما يتيح له في رأيه إحياء الموتى والخلود من أول الزمان . وهي نفس عقيدة التصيرية فيه إذ ذهبت إلى أن فيه جزءاً إلهياً وأنه كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض ، وأن الإله ظهر بصورته وخلق بيديه وأمر بلسانه ^(٣) إلى غير ذلك من كفرٍ ما وراءه كفر .

وعلى عكس التصيرية كانت هناك فرقة معتدلة أشد الاعتدال ، هي فرقة الزيدية التي نشأت في الكوفة على يد زيد بن علي زين العابدين بن الحسين ، وقد ظل لها في هذا العصر أنصار عديدون في تلك المدينة ، وكانوا لا يقصرون الإمامة على أشخاص معينين من أبناء الحسين كما ذهب للإمامية ، بل يرونها حق كل علوى فاطمي ما دام له من الاستعداد الروحي ما يؤهله للإمامة ، وكانوا ينكرون فكرة الإمام الغائب التي آمنت بها الإمامية وما يطوى فيها من نظرية الرجعة وأيضاً فكرة العصمة ، وأيضاً لم يضيفوا إلى الإمام فكرة العلم الباطني المتوارث وما يطوى فيها من صفات روحية قدسية تُضفى على الإمام ، فيكني

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام لجولدتسيهر الإسلامية لآدم ميتز (طبعة القاهرة) ١/٨٢ .

ص ١٨٤ ، ٢٢١ . (٣) الملل والنحل للشهرستاني بتحقيق محمد سيد

(٢) المنتظم في حوادث سنة ٤٢٠ وانظر الحضارة كيلاني (نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ١/١٨٨ وما بعدها .

فيه أو قل يشترط فيه أن يكون فقيهاً ، ولكن دون تصور علم لدنى يهبط عليه . واشترطوا في الإمام أن يكون كريماً سمحاً عادلاً شجاعاً . ونها عن ذم الصحابة وأبي بكر وعمر ، لأنهم لم يبايعوا علياً بالخلافة ، وجوّزوا إمامة المفضول من غير ذرية علي بن أبي طالب على الأفضل من ذريته . وعقيدتهم بذلك لا تبعد كثيراً عن عقيدة أهل السنة ولذلك كان يقال من قديم إنهم أكثر الفرق الشيعية إنصافاً واعتدالاً^(١) .

٥

الزهد والتصوف

كانت موجة الزهد في هذا العصر لا تنقل حدة واتساعاً عنها في العصور السابقة ، ومعروف أن القرآن دعا إليه مراراً كما دعا الرسول في أحاديثه النبوية إلى الزهد في عرض الحياة الدنيا وطلب ما عند الله من ثواب الآخرة ، وبذلك كان الزهد من طوابع الحياة الإسلامية المستقرة في الأمة . وأخذت تتكون منذ عهد الرسول ﷺ طبقات كثيرة من الزهاد المتقشفين الذين يبنذون وراء ظهورهم مباحج الحياة ويتجددون لعبادة ربهم . ونزاهم في هذا العصر بكل بلد من بلدان العالم الإسلامي يُعدّون بالعشرات بل بالمئات ، ويمكن أن نسلك فيهم بصفة عامة طبقات الفقهاء ، فمن يقرأ في طبقات الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة يجد المترجمين لهم يسوقون أخباراً كثيرة عن مدى ما كان يأخذ به الفقهاء من كل مذهب أنفسهم من التقشف وطمأنينه النفس القانعة مع ما يُدكّر من أن هذا الفقيه أو ذلك اعتكف في بيت الله خمسين سنة أو أنه صام حياته أو أنه صام خمساً وسبعين سنة . وتسوق كتب التاريخ أسماء زهاد كثيرين ومن يرجع إلى المنتظم لابن الجوزي وابن الأثير وابن تغري بردي سيراهم يذكرون في وفيات السنوات أسماء كثيرة من الزهاد ، فمثلاً في سنة ٣٤٨ توفى جعفر بن حرب وكان في نعمة كبيرة ، فاجتاز يوماً بموكبه ، فسمع قارئاً يقرأ : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشعَ قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) فصاح : بلى والله قد آن ، ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات . وفي نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويُفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كان ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل تلك اللقم التي استفضلها . وفي سنة ٣٨٤ توفى

(١) الشهرستاني ١ / ١٥٤ .

أبو العباس عبد الله بن محمد ، وكان قد ظل سبعين سنة ناسكاً عابداً لا يستند إلى حائط ولا إلى وسادة أو غيرها . وكانوا يكرهون في الزاهد أن يتولى عملاً للسلطان يكسب منه مالا^(١) ، وكانوا إذا عرفوا أن طعام شخص من مال أخذه من السلطان امتنعوا من أكله^(٢) . وكانت موجة الزهد عامة فكثيراً ما نقرأ عن هذا الخليفة أو ذلك أنه كان زاهداً ، وبذلك اشتهر الخلفاء القادر والمسترشد والقائم ، ويقال عن الأخير إنه كان في وجهه أثر صفة من قيام الليل^(٣) . وكان من الوزراء وأبنائهم من يرجعون إلى أنفسهم فينصرفون عن الدنيا ومتاعها الزائل إلى عبادة الله وما عنده من الثواب الآجل ، ويروى عن سليمان بن الوزير نظام الملك ، وكان يتولى المدرسة النظامية التي بناها أبوه ببغداد ، كما مر بنا ، أنه كان يحضر مواعظ ابن الجوزي واعظ بغداد المشهور ، فأخذته الوجد يوماً . فقام وأشهد ابن الجوزي والناس من حوله أنه قد أعتق جميع ما يملك من الرقيق ، ووقف ما يملك على أعمال البر^(٤) . ويبدو أن كثيرين كانوا يبالبغون في الزهد ، حتى ليفرضون على أنفسهم العبادة ليل نهار ، بل حتى لينصرفون عن الحياة الزوجية ويمتنعون منها . وكل ذلك مغالاة في الزهد لا يرضاها الإسلام ، الذي لا يريد للزاهد أن يفصل عن المجتمع والحياة ، وقد روى أن جماعة من الصحابة كانوا في سفر أثنوا للرسول عليه السلام على رفيق لهم كان لا يزال داعياً ربه في ركوبه مصلياً له في نزوله فقال لهم « فن كان يكفيه علف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، قال : فكلكم خير منه^(٥) » . فالزهد الإسلامي ينكر إهمال الشخص لشئونه الدنيوية ، كما ينكر بقوة فكرة العزوبة المعروفة عند رهبان النصارى^(٦) . ونرى ابن الجوزي يحمل حملة شعواء على الزهاد الذين يمتنعون عن الزواج ونظرائهم الذين يمتنعون الليل والنهار في العبادة والنسك وقد نخلت أجسامهم وشحبت ألوانهم ودقت عظامهم ، حتى إنهم لا يستطيعون الصلاة واقفين ، بل يصلون من قعود . ويقول إن هذا كله مخالف للشريعة والسنة^(٧) .

وراجع طبقات ابن سعد ج ١ ق ٣ ص ٢٨٧ وج

(١) النجوم الزاهرة ٥/١١٧ .

٢ ق ٤ ص ٩ .

(٢) النجوم ٥/٥٧ .

(٦) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة (طبع دار الكتب

(٣) النجوم ٥/٩٨ .

المصرية) ٤/١٨ وروض الرياحين للياقبي (طبع

(٤) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة

القاهرة) ص ٣٨ .

السابعة (طبع بغداد) ص ١٢٤ وانظر تاريخ العراق في

(٧) صيد الحاطر لابن الجوزي (طبع القاهرة) ص

العصر العباسي الأخير لبدري فهد ص ٣٩٧ .

١٣٨ .

(٥) أعلام النبوة للوردى (طبع القاهرة) ص ١٥٣ .

وكان طبيعياً أن يتحوّل كثير من الزهاد إلى متصوفة ، لا يكتفون بالإعراض عن ملاذ الدنيا وطيباتها قانعين من الطعام بالكسرة ومن الثياب بالخرقة ، لا يشغلهم مال ولا زوجات ولا أولاد . وقد أخذت تُبنى لهم الرباطات والخانقاهات في العالم الإسلامي ، تبنّيتها الدولة أحياناً ، وبينها ذوواليسار ابتغاء وجه الله أحياناً أخرى . وكان ما بها من طعام يأتي عن طريق الصدقات أو عن طريق ما يُحبسُ عليها من الأوقاف ، ولم يكن يُسمحُ بالأكل من هذا الطعام إلا للعابد الناسك نسكاً لا يستطيع معه كسب قوته أو إلا إذا أصبح من الشيخوخة بحيث تُقعدُه عن العمل ، وبذلك لم يكن يؤذن لعاطل بالأكل من هذا الطعام . وكان في الأربطة والخانقاهات مجاميع من الشيوخ والشباب أصحاب الحلوة . وعادة كان لكل رباط شيخ كبير يصبح كل من فيه من أتباعه . والمحور الأساسي للتصوف هو محبة الله محبة يفنى فيها الصوفي المحب في الحقيقة المطلقة حقيقة الكائن الإلهي ، وقد أخذ يتداخل غلو كثير في هذه العقيدة . ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني أنه بلغ من غلو الحلاج في هذه العقيدة أن جرى على لسانه كلمات وأشعار كثيرة تصرّح بفكرة الحلول من مثل قوله : « أنا الله وأنا الحق » مما جعل الفقهاء يفتون بزندقته وقتله . غير أن هذا الغلوم يمت بموت الحلاج ، بل لقد رافقه غلو آخر عند بعض الصوفية لعله أكثر عنثاً إذ ذهب فريق منهم إلى أنه ينبغي أن يُظهروا للناس أنهم لا يعملون بشرائع الإسلام وإن كانوا يعملون بها فعلاً ، وهم المسمون باللامتية أي المستحقين للوم ، مبتغين من ذلك أن يكونوا محل احتقار وازدراء حتى يبلغوا مرتبة عليا من التصوف والانصراف عن الدنيا . وكثير من الصوفية أخذوا يعلنون أنه لا عبرة بأداء الفرائض الدينية أو كما يسمونها عمل الجوارح ، إنما العبرة بعمل القلب . وكل هذا انحراف بالتصوف عن منهجه الصحيح . وكان ذلك سبباً في أن تنشأ حرب عاصفة منذ أوائل هذا العصر بين الفقهاء من جانب والمتصوفة من جانب آخر ، فكان الفقهاء يرونهم خارجين على الإسلام بما يشيرون من أفكار الحلول وما يتصل بها وبما يأخذ بعضهم به أنفسهم من القعود عن أداء فرائض الإسلام ، قاطعين بذلك كل سبب بينهم وبين دينهم الخفيف . وتفاقت الحرب بين الطرفين بحيث أصبحت هناك ضرورة أن يوجد بعض المتصوفة المصلحين الذين يعيدون الأمر إلى نصابه ، حتى لا يخرج التصوف عن حدود الشريعة . وسرعان ما ظهر أبو نصر السراج الصوفي الطوسي المتوفى سنة ٣٧٨ وألف كتابه « اللمع » وفيه ينكر على الصوفية كل انحراف فلسفي وشطح صوفي يؤدي إلى نظرية الحلول ، كما ينكر تعطيل الفرائض الدينية ويجعلها جزءاً لا يتجزأ من التصوف ، فبدونها لا يتحقق له وجود . وحمل أفكاره تلميذه أبو عبد

الرحمن السُّلَمِيُّ صاحب طبقات الصوفية ، ولقَّنها بدوره تلميذه عبد الكريم القشيري المتوفى سنة ٤٦٥ وقد ألف رسالة طويلة مشهورة رُأبَ بها هذا الصدع الذي حدث بين الفقهاء والتصوفة . ودَوَّت الرسالة منذ عصره في العالم الإسلامي ، وهو فيها يرسم مبادئ التصوف مبيِّناً أنها لا تناقض الدين الحنيف بل تتحد معه في وثام ، ويعرض أعلام الصوفية مع طائفة من أقوالهم التي تربط بين التصوف والنهوض بفرائض الإسلام مع حملة شعواء على من يستخفون بالصوم والصلاة وأداء الفروض الدينية وعلى من لا يميِّزون بين الحلال والحرام مدَّعين أنه زالت عنهم أحكام الدين . وخلفه أبو حامد الغزالي حجة الإسلام المتوفى سنة ٥٠٥ فوصل بين التصوف والشريعة وصلاً وثيقاً لم يصبه وهنٌ بعده ، بحيث أصبح التصوف في صورته العامة سُنِّيًّا ، وحقاً انفصلت عنه بعض أسراب فلسفية استمرت فيها فكرة الحلول ، ولكنها أسراب فردية على نحو ما هو معروف عن ابن عربي وابن سبعين الأندلسيين . أما بعد ذلك فقد عم التصوف السني على نحو ما رسمه الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» وهو في النصف الأول منه يتحدث عن الفرائض الدينية والنوافل من مثل الذكر وتلاوة القرآن والتَّهَجُّد والأدعية . ويبدأ الحديث في النصف الثاني بما ينبغي من صفاء القلب صفاء تقهر فيه النفس شهواتها وملاذها . ثم يتحدث عن صفات الكمال الروحي الذي يتطلبه الصوفي وما ينبغي له من التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والحب والإخلاص والمحاسبة والتفكير وتذكر الموت وما وراءه . وسنعود إلى الكتابة عن الغزالي والقشيري وأبي نصر السراج الطوسي في القسم الخاص بإيران . وسرعان ما أصبح هذا التصوف السني القائم على أعمال الجوارح من الفرائض الدينية وأعمال القلب من الإخلاص وصدق المحبة الإلهية مطلباً كَثَرَةً من الناس في العالم الإسلامي جميعه . والغزالي لا يضع أصوله فحسب ، بل يُعَدُّ العدة لكي تشيع الطرق الصوفية فيه ، فقد تحدث في الجزء الثالث من الإحياء عن الشيخ الصوفي وتلميذه أو مریده ، وقال إنه ينبغي أن يلزم شيخه لزوم الأعمى الماشي على شاطئ النهر لمن يقوده ، ويقول : على الشيخ أن يدفعه إلى الخلوة والصمت والصوم والأرق مع دوام الذكر ومع التخلص من كل الشهوات . وسرعان ما أخذت الطرق الصوفية في الظهور ، ومن أقدمها الطريقة القادرية المنسوبة إلى الشيخ محيي الدين أبي محمد عبد القادر^(١) الجيلاني مولداً الحسيني نسباً المتوفى سنة ٥٦١ وقد ولد بجيلان سنة ٤٧١ وجاء إلى بغداد في شبابه ولزم حلقات الفقهاء والمحدثين ، ثم أخذ يعظ

(١) انظر في الجيلاني الذيل على طبقات الخاتبة لابن لابن الفوطي (طبع لاهور) ٣٨١/٥ .
رجب والنجوم الزاهرة ٣٧١/٥ وتلخيص مجمع الآداب

الناس بعد سنة ٥٢٠ وبُئيت له مدرسة فلزمها وتكاثر الناس على سماع وعظه إلى أن لَبَّى نداء ربه ، ويقول عنه ابن تَفَرَى بَرْدَى : « كان ممن جمع بين العلم والعمل أفتى ودرّس ووعظ سنين ، وكان محققاً صاحب لسان في التحقيق وبيان في الطريق ، وهو أحد المشايخ الذين طُنَّ ذكْرهم في الشرق والغرب » . وله كتابان مطبوعان يصوران طريقته هما سر الأسرار والغنية لطالبي طريق الحق ، وهو فيها يدعو إلى التمسك بالشرعية الإسلامية وأداء الفرائض الدينية مع الخلوص للمحبة الإلهية . وقد وُضعت في مناقبه كتب كثيرة ، منها كتاب بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني سيدي محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني ، وهو مطبوع بالقاهرة .

ومن الطرق الصوفية العراقية التي ذاعت في العالم الإسلامي الطريقة الرفاعية المنسوبة إلى الشيخ الصالح العربي الأصل أبي العباس أحمد^(١) بن أبي الحسن علي المعروف بالرفاعي « إمام وقته في الزهد والصلاح والعبادة » وقد شاعت طريقته في عصره وكثر أتباعه . ويُقال إن شخصاً زاره في ليلة النصف من شعبان ، فوجد عنده نحو مائة ألف إنسان « وكان متواضعاً مجرّداً من الدنيا » . وكان مولده سنة ٥٠٠ ووفاته سنة ٥٧٨ . ومن قوله : « سلكت كل طريق ، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار لتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والافتداء بسنة سيدي رسول الله ﷺ » . وله كتاب سماه « حالة أهل الحقيقة مع الله » حققه وقدم له محمد نجيب خياطة ، وهو مطبوع بجلب ، وقد بناه الرفاعي على أحاديث نبوية ، وكثير منها يتصل بالحنة الربانية ومعرفة الله ووَصَف المتصوفة أهل الحقيقة ، وقد سئل أحد أتباعه عن وِردِهِ ، فقال : كان يصلي أربع ركعات بألف (قل هو الله أحد) ويستغفر كل يوم ألف مرة ، واستغفاره أن يقول : (لا إله إلا أنت سُبْحانَكَ إني كنت من الظالمين) عملت سوءاً وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي ، وُثِبَ عَلَيَّ ، إنك أنت التواب الرحيم ، يا حيُّ ، يا قيوم ، لا إله إلا أنت » - ويقول ابن خلكان : لأتباعه أحوال عجيبة من أكل الحيات وهي حية والتزول في التناير وهي تنصّر ناراً فيطفئونها ، ومثل هذا وأشباهه .

وبجانب هاتين الطريقتين العراقيتين : الرفاعية والقادرية كان هناك أقطاب للصوفية

(١) راجع في الرفاعي مرآة الزمان ٣٧٠/٨ والشذرات (طبعة عيسى الباني الحلبي) ٢٣/٦ : وابن خلكان ٢٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ٩٢/٦ وطبقات السبكي ١٧١/١ وطبقات الشمراني ١٤٠/١ .

كثيرون من أمثال المرتضى الشهرزوري ، وشهاب الدين أبو حفص ^(١) عمر السهروردي البغدادي ، وهو تلميذ عبد القادر الجيلاني ، وله كتاب يسمى عوارف المعارف يوضح فيه ما يجب على المتصوف من أداء الفرائض الدينية ومتابعة السنة النبوية ، ومن أطرف ما فيه الحديث عن المرید وشيخه وأنه يتزل منه منزلة الولد من أبيه . ويتحدث عن المدة التي يقطعها المرید حتى يتباً لانتظامه في طريقة شيخه ويصبح مُعداً أو مهياً لأن يخضع عليه « الخِرقة » شعار الصوفية وهي ترمز رمزين : رمزاً إلى أن المرید تلاشت إرادته في إرادة شيخه ، ورمزاً ثانياً إلى أنه قد تسلّم منه الخِرقة ويد الله ورسوله فوق يد شيخه وأنه قد تم له الإذن بانتظامه في الطريقة . ويقول السهروردي إن « المرید الصادق إذا دخل تحت حكم الشيخ وصحبه وتآدب بأدابه يسرى من باطن الشيخ حال إلى باطن المرید كسراج يقتبس من سراج ، وكلام الشيخ يلحق بباطن المرید ويتقل الحال من الشيخ إلى المرید بواسطة الصحبة وسماع المقال » ^(٢) . ويتحدث السهروردي عن آداب الخلوة اللازمة للمتصوف ، ويقول إن الخلوة تستغرق أربعين يوماً من كل عام ، تُقضى في الصلاة والصيام ، ويذكر أن الغرض منها تصفية النفس وإزالة الحجب البدنية ، ولذلك ينبغي على المرید إذا أراد الخلوة أن يجرد نفسه من العالم ومن كل ملكه ، ويصلي ركعتين ويتوب إلى الله توبة نصوحاً ، ويبكي ويتضرع إليه ولا ينقطع عن ذكره طوال خلوته ^(٣) . وكان على المرید أن ينشر طريقة شيخه في المدن والقرى بكل ما يستطيع ، وبذلك أمكن للطريقتين القادرية والرفاعية أن يتشرا لا في العراق فحسب بل أيضاً في كل العالم الإسلامي .

ومنذ القرن الخامس الهجري أخذ يشيع في التصوف وبين المتصوفة ما سُمي بالذكر ، وهو أن يتقابل الصوفية في صفين ذاكرين الله مع التمايل يميناً وشمالاً ، ويقوم بين الصفين منشد ينشد بعض الأشعار الصوفية أو الغزلية الوجدانية التي تدلح المحبة الإلهية في القلوب ، وقد عمَّ هذا الذكر عند القادرية والرفاعية وما نشأ بعدها من طرق صوفية . ولابد أن نلاحظ أنه أخذت تنشأ في الحقب المتأخرة من هذا العصر أو قبل منذ أواسطه جماعات الدراويش ، وهم صوفيون متجولون كانوا يطوفون العالم الإسلامي ، وأخذت تظهر بينهم

(١) انظر في ترجمته ابن خلكان ٤٤٦/٣ وغيره الذهبي (العري بيوت) ص ٩٦ ، وينسب الكتاب خطأ إلى

١٢٩/٥ وطبقات الشافعية ٣٣٨/٨ ومراة الزمان عمه عبد القاهر بن عبد الله السهروردي .

(٢) عوارف المعارف ص ٢٢١ .

(٣) انظر كتابه عوارف المعارف (طبع دار الكتاب والنجوم الزاهرة ٢٨٤/٦ .

في القرن الثامن الهجري وما بعده فرقتان اشتهرتا ، هما النَّقْشَبَنْدِيَّةُ ، وقد رعاها تيمورلنك في دولته ، والبكطاشية ، وقد نشأت في جو الشيعة الإمامية ، بدلالة تقديسها للأئمة العلويين ، وهي تعتنق إلى حد ما نظرية الحلول ، ويقال إن بعض معتقبيها لم يكونوا يهتمون بالشعائر الدينية ، ولكن مما لاشك فيه أنها كانت طريقة صوفية تقوم على التقشف ، واشتهر عنها تقديس الأولياء .

وفرق صوفية كثيرة أو قل طرق صوفية كثيرة أخذت تتفرع عن الرفاعية والقادرية بجانب طرق جديدة نشأت بدورها ، وكان لهذه الطرق وأتباعها من الدراويش السامخين أو الجوالين أثر بعيد في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وغربها ووسطها ، وأيضاً بالهند والملايو وجزر الهند الشرقية ، وكان لهم دور عظيم في أن تظل للعالم الإسلامي وحدته على الرغم من توزيعه بين دول شتى ، وكذلك كان لهم دور عظيم في بث الروح الدينية في نفوس العامة على مر الحقب حتى اليوم .

الفصل الثاني

الثقافة

١

الحركة العلمية

ظلت الحركة العلمية ناشطة وخاصة في أوائل العصر وقبل الغزو التتارى ، فكانت هناك الكتابيب للصبيبة يتعلمون فيها القراءة وشيئاً من القرآن الكريم والشعر والحساب ، وكان الصبي لا يبلغ التاسعة إلا وقد حفظ القرآن واستظهر بعض مقامات بديع الزمان الهمداني ، وحلت محلها منذ أوائل القرن الخامس مقامات الحريري . وكان يستظهر أيضا بعض قصائد الشعراء المشهورين وخاصة أبا تمام والبحترى والمنتبى . وكان الناشئة يتحولون من الكتابيب إلى المساجد ، حيث حلقات العلماء من القراء والمفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين واللغويين والنحويين والمؤرخين ومن يشدون بعض علوم الأوائل ، فكانت المساجد في بغداد تحل محل التعليم الثانوى والجامعات في عصرنا ، وبالمثل في البصرة والموصل وغيرها من بلدان العراق . وكان الأستاذ عادة يستند في المسجد إلى أسطوانة ، ويقعد الطلاب من حوله ، وقد يجلس على مقعد عالٍ والطلاب يستديرون حوله . وكان يملئ على الطلاب محاضراته ، وهم يكتبون ، وإذا تكاثروا اتخذ مستمليا يردّد كلامه حتى تسمعه الصفوف الخلفية . وكان المؤلف أو المحاضر يعيد أحيانا ما ألفه على طلابه ، وهم يعارضون نسخهم على قراءته . وقد يعنّ له أن يدخل في القراءة الثانية شيئا من التصحيح أو التهذيب على ما صنّفه ، فكان الطلاب يدخلونه على نسخهم ، ومن خير ما يصور ذلك ما يُروى عن عالم لغوى يسمى أبا عمر المطرّز من أنه أملى كتابه الياقوت في اللغة على الطلاب بمسجد المنصور ببغداد سنة ٣٢٦ ثم عاد فقراه على طلابه مضيفا بعض التصحيحات والزيادات . وعاد مرة ثانية ، فأدخل عليه زيادات وتصحيحات جديدة ، واعتمد العرضة الأخيرة للكتاب سنة ٣٣١- وبها نشره تلاميذه^(١) . وكان جامع

(١) الفهرست لابن النديم (طبع القاهرة) ص ١١٩

وراجع إنباه الرواة ١٧٥/٣ .

المنصور ببغداد يشبه جامعة كبيرة ، وكان كل أستاذ تابع يتمنى أن تكون له فيه حلقة ، ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن الخطيب البغدادي حافظ بغداد - المتوفى سنة ٤٦٣ - من أنه حين حجَّ شرب من ماء زمزم ثلاث مرات ، وسأل الله ثلاث حاجات : الأولى أن يحدث بكتابه «تاريخ بغداد» والثانية أن يُعَلِّم على الطلاب بجامع المنصور ، والثالثة أن يُدْفَن إذا مات عند قبر بشر الحافي . وتحققت له الأمنيات الثلاث^(١) . وكان الأساتذة والشيوخ في المساجد أحيانا لا يُملون مؤلفات لهم ، بل يشرحون بعض كتب مشهورة للطلاب وقد يعمدون إلى إملاء شروح لهم على بعض المختصرات . واتسع ذلك منذ القرن السابع الهجري بحيث نستطيع أن نسمى القرون التالية في العصور قرون الشروح ، وقد تُشْرَح الشروح بما يسمى حاشية ، وقد توضع على الحواشي ملاحظات تسمى تقارير .

وأخذت تظهر منذ أواخر القرن الرابع الهجري بجانب المساجد دور للعلم ، عادة يكون فيها مقاعد للطلاب ، وقد يحاضرهم العلماء ، وتُلجَّحُ بها مكاتب ضخمة على نحو ما يحدثنا المؤرخون عن دار للعلم ، أسسها الوزير صابور بن أردشير في سنة ٣٨٣ للهجرة بالكرخ غربي بغداد ، ووقفها على العلماء واشترى لها كتباً كثيرة ، بلغت عشرة آلاف وأربعمئة مجلد كان معظمها بخط أصحابها أو من الكتب الموثقة التي كان يملكها علماء وثقات مشهورون ، وكان بها مائة مصحف نفيس^(٢) . وأسس الشريف الرضي الشاعر المشهور نقيب العلويين المتوفى ببغداد سنة ٤٠٦ داراً للعلم فتحها للطلاب ورصد لهم جميع ما يحتاجون إليه^(٣) .

وحيث خلفت الدولة السلجوقية دولة بني بويه وأصبح الوزير نظام الملك مدبر لحكم في زمن ألب أرسلان السلجوقي عُني ببناء طائفة من المدارس في بلدان مختلفة في العراق وإيران ، لمحاربة النحلة الإسماعيلية ونشر مذهب الشافعي في الفقه ومذهب الأشعري في علم الكلام ، وكان منها ثلاث بناها في بغداد والموصل والبصرة^(٤) وقف عليها أوقافاً كثيرة ، وبنى فيها للأساتذة مساكن ، وجعل لهم رواتب ثابتة ، كما جعل لطلابها نفقات معيشة ، وألحق بها مكاتب نفيسة . وكان في هذه المدارس أساتذة مختلفون يحاضرون - بجانب

(١) طبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية بتحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمد الطناحي) ٣٥/٤ .
 (٢) المنتظم وابن الأثير والنجوم الزاهرة في حوادث سنة ٣٨٣ وأشار أبو العلاء إلى هذه الدار في قصيدة
 (٣) ديوان الشريف الرضي طبعة سنة ١٣٠٧ بيروت ص ٣ .
 (٤) طبقات الشافعية للسبكي ٣١٣/٤ .

أساتذة علم الكلام والفقه - في علوم الحديث والتفسير واللغة والرياضيات والأدب . وأخذ الوزراء بعد نظام الملك ينون مدارس على غرار مدرسته النظامية ببغداد ، فبنى أبو الغنائم الملقب بتاج الملك سنة ٤٨٠ بباب أبرز إحدى محالِّ بغداد وأحيائها مدرسة سميت التاجية ضاهى بها النظامية^(١) ، وأخذ بعض الموسرين يعنون ببناء المدارس ببغداد ، فابتنى المستوفى الخوارزمي - وكان متعصبا لأبي حنيفة - المدرسة الكبيرة بباب الطاق^(٢) وأخذت المدارس تتكاثر في بغداد حتى إذا زارها ابن جبير سنة ٥٨٠ قال إن ببغداد ثلاثين مدرسة ، وكلها بالجانب الشرقي «وما منها مدرسة إلا ويقصر القصر البديع عنها . وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وقد جُددت سنة أربع وخمسمائة ، وهذه المدارس أوقاف عظيمة محبوسة تصير إلى الفقهاء المدرسين بها ، ويُجرون منها على الطلبة ما يقوم بهم . وهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمؤسسات شرف عظيم وفخر محمَّد ، فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السنن الصالح^(٣) »

وكانت المدرسة النظامية أشبه بجامعة كبيرة ، ويتوقف ابن خلكان في وفيات الأعيان وكذلك المؤرخون مرارا ، ليقولوا إن هذا الشيخ أو ذاك دَرَسَ في النظامية . وقل مثل ذلك في نظامية البصرة ونظامية الموصل . وذكر ابن خلكان أنه بُني ببحوار النظامية الأخيرة في الموصل تسع مدارس ، هي : القاهرية والأتابكية والعتيقة والنورية والعزّية والبُقْشِيَّة والعلائية والكمالية والهدرية^(٤) . وبنيت مدارس كثيرة في المدن العراقية الأخرى ، ذكر ابن خلكان منها في إربل ثلاثا هي المظفرية والقلعة والعقيلية^(٥) . وبنى الخليفة المستنصر ببغداد جامعة كبيرة أو قل مدرسة كبيرة ، هي المستنصرية ، وقد كتب فيها الأستاذ ناجي معروف كتابا ، عرض فيه أسانذتها ونشاطها العلمي وهو يعطينا معارف كثيرة عنها حين فتحت أبوابها للطلاب ، وقد كان بها للفقه وحده عشرون فقيها ، يتقاضى كل منهم اثني عشر دينارا في كل شهر ، وكان بها للفقهاء ستة معيدين لكل منهم ثلاثة دنانير شهريا . وكان هناك فروع أخرى للقراءات والحديث لها شيوخها ومعيدوها ، وكان بها مئات من الطلاب لكل منهم ديناران شهريا . وكان لها موظفون مختلفون من مشرفين وخزّنة وفراشين من كل لون . وكانت تقدّم للشيوخ والطلاب يوميا جرايات أو قل كان يقدم لهم طعام كامل غير

(٤) انظر ابن خلكان ١٠٨/١ ، ١٩٣ ، ٤/٤ .

٣١٣ ، ٣١١/٥ ، ٢٥٣ .

(٥) ابن خلكان ١٠٨/١ ، ٨٧/٧ ، ٣٣٨ .

(١) النجوم الزاهرة ١٢٥/٥ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٧/٥ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٢٩ .

ما يقدم للطلاب من الحبر والورق والأقلام^(١). وعاد إلى هذه المدرسة، أو قل الجامعة، نشاطها بعد الغزو التتارى، وقد وصفها ابن بطوطة لما زارها سنة ٧٢٧ بقوله: «بها المذاهب الأربعة - يقصد مذاهب المالكية والحنفية والشافعية والحنبلية - ولكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس وجلس المدرس في قبة خشب، صغيرة على كرسي عليه البسط، ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار، لابساً ثياب السواد، معتماً، وعلى يمينه ويساره معيدان يعيدان كل ما يمليه. وهكذا ترتيب كل مجلس من هذه المجالس الأربعة، وفي داخل هذه المدرسة الحمام للطلبة ودار الوضوء^(٢).

ويبدو أن ما شاع من أن الحركة العلمية في بغداد خمدت خموداً تاماً بعد الغزو التتارى غير صحيح، يمكن أن يصدق ذلك على العهد التتارى الوثنى أما منذ دخول غازان والتتار في الإسلام فيبدو أن بغداد استعادت نشاطها العلمى، وإن لم يبلغ مبلغه أيام ازدهارها في العصر العباسى والمعروف أن هولاءكو دمر كثيراً من مدارسها وقد أعيد بناء بعض هذه المدارس، وعُنى غازان - كما أشرنا - وخلفاؤه الإيلخانيون بها.

ولاشك في أنه ران على الحركة العلمية غير قليل من الظلام في العهدين التركمانى والعثماني، غير أن النشاط أخذ يدب فيها أواخر الحقبة العثمانية منذ ولى العراق مدحت باشا فإنه أسس بها مطبعة كان لها أثر بعيد في نهضة العراق وأسس بها أيضاً مدارس نظرية وفنية.

ولا بد أن نلاحظ أن مساجد بغداد الكبرى ظل لها نشاطها العلمى بعد الغزو التتارى، وكان من أهمها لعهد ابن بطوطة جامع الخليفة المتصل بقصور الخلفاء، ويقول إنه سمع فيه على مُسند العراق - سراج الدين أبى حفص عمر القزوينى - جميع مستند الدرামী^(٣). وكانت الدراسة في مساجد بغداد ومدارسها بالجمان، بل كان الطلاب في المدارس خاصة يأخذون رواتب كما مر بنا. وربما كانت المساجد أهم من المدارس في نشر العلم، فقد كانت أبوابها مفتوحة دائماً لكل قاصد، وكان الناس من مختلف المهن والصناعات والحرف يختلفون إلى حلقات الشيوخ فيها ينهلون ما شاء لهم أن ينهلوا، مما جعل العلم بحق شعبياً لجميع أفراد الشعب، يصيبون منه ما يوافق أمزجتهم وميولهم. وكثيراً ما كان يحدث أن يشعر صاحب مهنة أو تجارة بقصوره في علم من العلوم، فإذا هو يترك مهنته أو تجارته ويتفرغ للعلم الذى يريده حتى يصبح من أقطابه، وتلقانا من ذلك أخبار كثيرة في ابن خلكان وغيره.

(١) انظر تاريخ علماء المستنصرية لتاجى معروف

(٢) ابن بطوطة ١/١٤١.

(٣) ابن بطوطة ١/١٤٢.

٥٧/١، ٧١-٨٢ وفي مواضع متفرقة.

وعلى هذا النحو لم يكن العلم في بغداد احتكاراً لطبقة بعينها ، بل كان مباحاً للجميع الناس ، ويُنْبَغِلُ إلى الإنسان كأثما كان كل أهل بغداد على حظ من العلم والثقافة قليل أو كثير ، ومن خير ما يصور ذلك قصة المزين الثرثار الطريفة في كتاب ألف ليلة وليلة ، فقد ذُكِرَ فيها أنه قال لشاب بغدادى في تضاعيف حديث وجهه إليه : « قد منَّ الله عليك بمزين منجم عالم بصناعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والمهئية والهندسة والفقه والحديث والتفسير . . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها ، وحفظت العلوم وأتقنتها ، وعلمت الصنعة (الكيمياء) وأحكمتها ، ودبّرت جميع الأشياء وركبتها » . ولم تكن العامة من الرجال فقط هي التي تحسن هذه الثقافة وحدها ، فقد كانت تحسنها أيضا الجوارى على نحو ما تصور ذلك قصة الجارية تودد في ألف ليلة وليلة وفيها تُناظر جلة العلماء في مختلف العلوم والفنون وتُظهر براعة فائقة في ليال كثيرة ماتزال فيها تحاور محاورات علمية بديعة . وكانت النساء تحضر مع الرجال مجالس العلماء ، وتحمل عنهم كثيراً من كتب الحديث ، وعنهن يحملها كثير من الحفاظ المشهورين ، على نحو ما هو معروف عن الخطيب البغدادي وحمله أو أخذه صحيح البخارى عن كريمة المروزية (١) .

وطبيعى أن تنشط الوراقة في هذا العصر الذى كان مكتظاً بالعلوم والفنون من كل صنف وعلى كل لون ، وقد بلغ من ازدهار نسخ الكتب والأجور التي كانت تدفع للناسخ أن وجدنا بعض كبار العلماء والأدباء يتخذونه وسيلة لعيشه هو وأسرته ، مثل يحيى بن عدى المتفلسف المتوفى سنة ٣٦٤ و يروى عنه أنه كتب بخطه نسختين من تفسير الطبرى (٢) ، ومثل أبى حيان التوحيدى أكبر أدباء عصره ، فقد اشهر بنسخ الكتب ودقته في هذا النسخ ، مما جعله صاحب بن عباد يستخدمه لنفس الغاية (٣) . وكان للوراقين سوق معروفة في بغداد تباع فيها الكتب ، وكانوا يقومون في هذا العصر مقام أصحاب المطابع في عصرنا ، إذ كانوا ينسخون الكتب أو يكلفون من ينسخها ويصححها ويجلدها ، وكانت من الكثرة بحيث يصعب إحصاؤها والوقوف عليها في كل فن . ومع ذلك فقد اضطلع ابن النديم المتوفى سنة ٣٨٥ بهذا العمل الخطير في كتابه «الفهرست» وقد وزع فيه الكتب على جميع أنواع العلوم والفنون مترجماً لأصحابها ، ولم يترك كتاباً إلا ذكره ، وأفرد لكتب الفرس والهند واليونان صحفاً كثيرة . والكتاب طرفة من أروع الطرف ، وهو يوج

(١) السبكي ٣٠/٤ . (٢) معجم الأدباء ٢٦/١٥ .

(٢) تاريخ الحكماء للقفطى (طبعة ليزج) ص ٣٦١ .

بآلاف الكتب ، مما يدل بقوة على النهضة العلمية في هذا العصر .
 وكان من آثار هذه النهضة أن كثُر عدد العلماء في كل علم وفن كثرة مفرطة ، أهلت
 فيها بعد لتأليف كتب في تراجم كل مجموعة على حدة ، فكُتب للفقهاء وكتب للمفسرين
 وكتب للقراء وكتب للنحاة وكتب للأطباء إلى غير ذلك من الأصناف . ووضعت كتب
 عامة مثل معجم الأدباء ووفيات الأعيان لابن خلكان . ويخيل إلى الإنسان أنه لم يكن
 شخص في بغداد - مددا متطاولة من هذا العصر الذي امتدَّ قرونا متعاقبة - إلا وهو يلمُّ بعلم
 أوطانته من العلوم . وكان هناك كثيرون يشبهون الصحفيين في عصرنا ، فهم يستطيعون أن
 يتحدثوا في كل موضوع ويناقشوا كل فكرة ، وهياً ذلك لندوات كثيرة كانت تُعقدُ أحيانا
 في قصور السلاطين والوزراء وعلية القوم ، وكثيرا ما دارت في هذه الندوات مناظرات
 خصبة ، على نحو ما نسمع عن مجلس عز الدولة بختيار وما أثير فيه من مناظرات في مسائل
 كلامية أو تتصل ببعض قراءات الذكر الحكيم ^(١) . ولعل مجلسا لم يتحدث فيه المناظرات كما
 احتدمت في مجلس الوزير ابن سعدان المتوفى سنة ٣٧٥ وقد قصَّ علينا منها أطرافا كثيرة أبو
 حيان في كتابه «الإمتاع والمؤانسة» وكان هذا المجلس يضم بعض الشعراء وبعض المتفلسفة
 وبعض المترجمين وبعض المهندسين وبعض الأخلاقيين وبعض إخوان الصفا وبعض
 الكتاب والأدباء . كان مجلسا حافلا ، وكانت تُعرضُ فيه كل جوانب الثقافة من لغة وشعر
 وإلهيات وأفكار فلسفية وخلقية ، ويتحاور هؤلاء المفكرون في كل ذلك محاورات بديعة .
 وكانت تثار مناظرات كثيرة في المساجد بين الفقهاء بعضهم وبعض ، وكذلك بين
 المتكلمين واللغويين . وبلغ من اتساع المناظرات حينئذ أنهم نقلوها أحيانا إلى الأسواق ،
 فأبو حيان يعرض مناظرة طويلة ثارت في سوق الوراقين بين طائفة من المفكرين المتفلسفين
 وبين أحد إخوان الصفا المسمى المقدسي ، وكان موضوعها ما يزعمه المقدسي وزملائه من
 الصلة بين الفلسفة والدين ^(٢) . ومن الندوات المشهورة في القرن الرابع ندوة أبي سليمان
 المنطقي السجستاني صاحب صيوان الحكمة المتوفى بعد ستة تسعين وثلاثمائة وهو من تلامذة
 الفارابي وامتاز بعقل خصب نادر ، وقد سجل أبو حيان في كتابه «المقابسات» كثيرا مما
 كان يدور في ندوته من شعب الفكر في الإلهيات والطبيعات والنفس والروح والأخلاق .
 ونذهل حين نقرأ الحوار في المسائل الكثيرة التي كانت تدار في هذه الندوة وكذلك في ندوة
 ابن سعدان ، وكأننا بإزاء مصانع مستحدثة كانت تُصنع الأفكار المتفلسفة صناعة غريبة

(١) مثالب الوزيرين لأبي حيان التوحيدي (طبع) (٢) الإمتاع والمؤانسة ٣/٢ وما بعدها .

عجيبة ، مما أتاح بحق لبعدها أن تعظم منزلتها العلمية وأن يحج إليها العلماء وخاصة في أوائل هذا العصر ، يريدون أن يتزودوا منها زادا علميا رفيعا .

٢

علوم الأوائل : تلسف ومشاركة

رأينا في كتاب العصر العباسي الثاني كيف ازدهرت الترجمة خاصة عن اليونانية ، وكيف تحوّل المترجمون من الترجمة الحرفية إلى ترجمة المعنى الكلي للفقر ترجمة أكثر دقة ، وكادوا لا يتركون كتابا يونانيا مها في أصله اليوناني أو في ترجمته السريانية إلا نقلوه إلى العربية ، وكانت الدولة حينئذ تغدق على المترجمين إغداقا واسعا ، ومن يرجع إلى كتاب الفهرست لابن النديم أو أخبار الحكماء للقفطي أو طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة يبره كثرة ما نقلوه من المأثورات الإغريقية في الفلسفة والعلوم . ومنذ العصر العباسي الأول لا يكتفى النقلة بما يترجمون ، بل يضيفون إليه ، وكذلك يضيف إليه معهم من استوعبوا من الناطقين بالضاد علوم الأوائل إضافات لا تكاد تحصى في كل فروع الفلسفة والعلم على هدى ما قرءوه وجرّبوه بأنفسهم ونقلوا إليه بنظهم . وقد افتتح العصر العباسي الثاني بعالم رياضي عظيم هو الخوارزمي مؤسس علم الجبر وبفيلسوف عربي هو الكندي . ومضت الترجمة في النشاط والازدهار ، ومضت معها الحركة العلمية والفلسفية تؤق ثمارها حتى ظهر الفارابي الفيلسوف الكبير الملقب بالمعلم الثاني .

وتبلغ الحركة الفلسفية والعلمية أوجها في القرن الأول من هذا العصر قرن ابن سينا والبيروني في إيران وابن الهيثم في العراق ، وقد ظلت الترجمة حية ناشطة فيه ، وانصبَّ عمل المترجمين حينئذ على تصحيح بعض الترجمات القديمة ومن أهمهم يحيى^(١) بن عدى النضرائي اليعقوبي المتوفى سنة ٣٦٤ وهو من تكريت على نهر دجلة ، تتلمذ على الفارابي ومثي بن يونس ، ويقول القفطي : « إليه انتهت رياضة أهل المنطق في زمانه » ويذكر له كتابا عدة ترجمها لأرسططاليس وشراحه اليونانيين ، ويقول أبو حيان التوحيدي « تخرج

(١) انظره في صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي (نشر دار مكتبة الحياة بيروت) السجستاني (طبع طهران) ص ٢٢٧ والإمتاع والمؤانسة ص ٣١٧ والعلم عند العرب لألدوميل (الترجمة العربية لأبي حيان التوحيدي (طبع القاهرة) ٣٧/١ والفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية بالقاهرة) ص ٣٨٣ وأخبار الحكماء للقفطي (طبعة لبيزج) ص ٣٦١ وطبقات

عليه كثير من المترجمين والمفلسفة « مثل عيسى ^(١) بن علي بن عيسى المتوفى سنة ٣٩١ وكان حاذقاً في الترجمة فيما بعلم الأوائل ، ويقول القفطى : رأيت نسخته من السماع الطبيعي التي قرأها علي يحيى بن عدى بشرح يحيى النحوى وهى فى غاية الجودة والحسن والتحقيق » . ومن تلامذة يحيى بن عدى عيسى ^(٢) بن زُرعة ، وكان نصرانياً يعقوبياً مثله توفى سنة ٣٩٨ يقول القفطى عنه : « أحد المتقدمين فى علم المنطق والفلسفة وأحد النقلة المجودين » ويشيد به أبو سليمان المنطقى السجستانى وينوه بما ينقله إلى العربية تنوعاً كبيراً ومن تلامذة يحيى بن عدى أيضاً أبو الخير الحسن ^(٣) بن سوار النصرانى المعروف بابن الخمار البغدادى وقد نقل عدة مؤلفات يونانية من السريانية إلى العربية ، وكان متفلسفاً وطبيباً ومن علماء الطبيعة ، وكان فصيحاً متمكناً فى العربية ، وهناك مترجمون مختلفون سوى يحيى بن عدى وتلاميذه ، منهم من شطّط به الدار فى إيران ، ومنهم من نزل بغداد مثل نظيف ^(٤) الرومى الشيرازى القسّ ، وله ترجمة المقالة العاشرة لأقليدس ، وكان طبيباً حاذقاً .

ويجئ إلى الإنسان أنه لم تبق فى العراق وإيران مدينة إلا اهتمت بالفلسفة وعلوم الأوائل ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ظهور إخوان الصفا فى البصرة أوائل هذا العصر ، وهى جماعة سرية متفلسفة ، دانت بالمذهب الإسماعيلى الشيعى ورأت أن تدعوه دعوة مستترة فى رسائل فلسفية وعلمية ، وهى عصابة -- كما وصفها أبو حيان -- تألفت بالعشرة وتصافت بالصدقة ، واجتمعت على القُدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قرَّبوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنّته ، وذلك أنهم قالوا : الشريعة قد دُنست بالجهالات واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمنصحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة : علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرستا وسموها « رسائل إخوان الصفا

١٦٤ وابن أبى أصيبعة ص ٤٢٨ وبيروكلمان ١٥٨/٤ .
 (٤) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٨ وفى الإمتاع
 والمؤانسة ٣٧/١ والمقاييس لأبى حيان التوجيذى (طبع
 بغداد) ص ٤٢٤ والفهرست ص ٣٨٥ وابن أبى أصيبعة
 ص ٣٢٢ ويقول إنه كان ينقل من اليونانية إلى العربية
 وراجع القفطى ص ٣٣٧ وبيروكلمان ١٨٣/٤ .

(١) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٢ والإمتاع
 والمؤانسة ٣٦/١ والقفطى ص ٢٤٤ .
 (٢) انظره فى صوان الحكمة ص ٣٣٣ والإمتاع
 والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٣٨٣ والقفطى ص
 ٢٤٥ وابن أبى أصيبعة ص ٣١٨ وبيروكلمان ١٢٢/٤ .
 (٣) راجعه فى صوان الحكمة ص ٣٣٥ ، ٣٥٣ والإمتاع
 والمؤانسة ٣٣/١ والفهرست ص ٤٨٤ والقفطى ص

وخلان الوفا ، وكتبوا أسماءهم وبثوها في الوراقين^(١) . ويسمى أبو حيان طائفة من مؤلفي هذه الرسائل هم زيد بن رفاعة وأبو سليمان المقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الريحاني وأبو أحمد المهرجاني والعمري ، ويشير إلى أنه شركهم آخرون غيرهم^(٢) . ويبدو أن هؤلاء المتفلسفة الكثيرين كانوا يُعدُّون مادة هذه الرسائل وأن أبا سليمان المقدسي هو الذي أخرجها وأعطاهما صورتها النهائية ، ولذلك ينسبها إليه معاصره أبو سليمان المنطقي السجستاني أكبر متفلسفة بغداد حينئذ ، إذ يقول عنه : « له الرسائل الإحدى والخمسون المسماة رسائل إخوان الصفا^(٣) » . والمظنون أنه أضيفت إليها فيما بعد رسالة ، فأصبحت اثنتين وخمسين رسالة ، منها ١٤ رسالة في الرياضيات والمنطق و١٧ في العلوم الطبيعية وعلم النفس و١٠ في الميتافيزيقا والإلهيات و١١ في التصوف والتنجيم والسحر . وهي مغموسة في الأفلاطونية ، وتشوبها نزعات أرسططاليسية وأفكار مانوية وإسماعيلية ، وتهبط درجات عن مستوى الفلسفة والعلم المعاصرين لها ، ولعل ذلك ما جعل أبا حيان يقول عنها إنها تُنفُ من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكتابات وتلفيقات وتلزيقات ، وقد عَزَّ الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها . ويقول إنه عرض منها عدة رسائل على شيخه أبي سليمان المنطقي السجستاني فنظر فيها أياما ، واختبرها طويلا ، وردَّها عليه قائلا : « تعبوا وما أغنوا . . وحاموا وما وردوا » . ويردُّ أبو سليمان على نظريتهم في وصل الدين أو الشريعة بالفلسفة ردا طويلاً سنلخصه في الفصل الخامس ومن قوله : إن الدين وحى من السماء والفلسفة من عمل العقل ، ولا حاجة للدين بالفلسفة بكل فروعها من رياضيات وطبيعات ومنطق وموسيقى^(٤) .

على كل حال توضح لنا هذه الرسائل لإخوان الصفا كيف أن الثقافة الفلسفية كانت شائعة في كل الأوساط ، حتى لتلجأ جمعية سرية إسماعيلية لاتخاذها وسيلة لنشر مذهبها . وظن بعض المعاصرين حين رأوا في هذه الرسائل إنكاراً لفكرة الإمام المهدي المنتهي أن العصاة التي اجتمعت لتأليفها لم تكن شيعة وهو ظن مخطيء حقا يؤيد هذا الإنكار أنهم لم يكونوا إماميين يؤيدون فكرة الإمام المهدي المنتهي ، ولكنهم كانوا أكثر إيماناً في التشيع إذ كانوا يعتقدون المذهب الإسماعيلي ، يدل على ذلك مثل قولهم في أهل البيت : « هذه الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة لا يحتاجون فيها إلى مدبرين غيرهم وإلى علماء سواهم ، ولا يطلع الناس على أسرارهم . . إن هو إلا علم إلهي وتتريل رباني ، تترل به

(٣) صوان الحكمة ص ٣٦١ .

(١) الإمتاع والمؤانسة ٥ / ٢ .

(٤) الإمتاع والمؤانسة ٦ / ٢ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ٤ / ٢ .

ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يُلقونه بأمر الله على من اصطفاه من خلقه وارتضاه لخلافته في أرضه»^(١) . والإسماعيلية معروفون بترتيب أتباعهم في طبقات ، ونرى أبا سليمان المنطقي السجستاني حين يقتبس نصًّا من الرسائل لأبي سليمان المقدسي يقتبس له النص الذي رتب فيه جماعتهم ، وقد جعلهم في أربع مراتب حسب أعمارهم وقواهم ، أما المرتبة الأولى فلمن بلغوا خمس عشرة سنة وهم أصحاب القوة العقلية والنفوس الصافية . والمرتبة الثانية لمن بلغوا الثلاثين سنة وهم أصحاب القوة الحكيمة الرؤساء ذوو السياسة . والمرتبة الثالثة لمن بلغوا الأربعين وهم أصحاب القوة التاموسية أولو الأمر والنهي . والمرتبة الرابعة لمن بلغوا خمسين سنة وهي مرتبة التسليم ومشاهدة الحق عيانا . ونراهم يطلبون إلى إخوانهم في كل قطر أن يعقدوا اجتماعات دورية يتذكرون فيها العلم وشئون الإخوان . وكل ذلك دليل على أنهم كانوا يريدون برسائلهم تنظيم الدعوة الإسماعيلية ، أما لماذا أخفوا أسماءهم فلأنهم كانوا يعيشون في العراق وسط أصحاب المذهب الإمامي الاثني عشري ، فخافوا على أنفسهم وخاصة أنهم هاجموا هذا المذهب الشيعي كما قدمنا . ومع ذلك فيبدو أنهم حاولوا نشر مذهبهم في بغداد ، إذ يحدثنا أبو حيان عن لقائه المتكرر لاحدهم ، وهو زيد بن رفاعة . وينقل مناقشة طويلة بين أبي سليمان المقدسي والحريري في وصل إخوان الصفا بين الشريعة والدين . ويبدو أن استيلاء عضد الدولة على بغداد سنة ٣٦٧ هـ لهم هذه الفرصة ، فقد كان يقرب القرامطة الإسماعيليين منه ، وكان يتخذ أحيانا لنفسه منهم وزيرا أو نائبا ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إنه كان يتشيع ويكرم جانب الرافضة^(٢) . على كل حال يبدو أن دعوة المقدسي وزيد بن رفاعة باءت بالإخفاق والخذلان في بغداد خذلانا إلى أقصى حد .

وتشير هذه الرسائل - كما مر بنا - إلى أن الفلسفة وعلوم الأوائل كانتا من مدارك الطبقة العامة المثقفة في مطالع هذا العصر ، عصر الدول والإمارات ، وخاصة في بغداد . ولعل أكبر شخصية متفلسفة كانت بها حينئذ شخصية أبي سليمان^(٣) المنطقي السجستاني ، الذي نشأ بسجستان وشدا فيها علوم الأوائل ، ويبدو أنه أراد منها زادا أكبر ، فرحل إلى بغداد في شبابه ، ولزم يحيى بن عدى وأخذ عنه كل ما عنده ، وسرعان

(١) رسائل إخوان الصفا ١٠٣/٤ وما بعدها . وكذلك المقاييس ، وراجع ابن أبي أصيبعة ص ٤٢٧

(٢) النجوم الزاهرة ١٤٢/٤ . والفهرست ص ٣٨٣ وبيروكلمان ص ١٥١ ومقدمة

(٣) انظر في أبي سليمان المنطقي القفطي ص ٢٨٢ عبد الرحمن بدوي لصوان الحكمة .

والإمتاع والمؤانسة في مواضع متفرقة (انظر الفهرست)

ما عُرِفَ فضله وتَأَلَّقَ نجمه ، وكان دميم الخلقه وبه وُضِّحَ ظاهر فلزم داره ، وتحوَّلت هذه الدار إلى منتدى كبير يختلف إليه الفلاسفة والعلماء والمثقفون من حوله ، ينهلون من ينابيع فكره ما يمتعون به عقولهم ونفوسهم . وكانوا مختلفي المشارب ، ففهم المسلم وغير المسلم ومنهم المتفلسف ، مثل الطبيب المجوسى المعروف بفيروز^(١) وأبى إسحق^(٢) الصائى الكاتب وابن زرعه^(٣) النصرانى ومثل أبى زكريا الصيمرى وأبى الفتح النوشجاني وأبى محمد العروضى المتفلسفين ، ومثل أبى القاسم عبيد الله بن الحسن المعروف بغلام زحل المنجم ، ومثل على بن عيسى الرمانى مفلسف النحو ومباحثه ومثل القومسى الكاتب والمقدسى صاحب رسائل إخوان الصفا وقد ترجم له أبو سليمان فى نهاية كتابه صوان الحكمة كما أشرنا إلى ذلك آنفاً . يقول أبو حيان : « وكل واحد من هؤلاء إمام فى شأنه وفرد فى صناعته ، سوى طائفة دون هؤلاء فى الرتبة^(٤) » . وهذا المنتدى الكبير ظل عشرات السنين تثار فيه مشاكل الميتافيزيقا والإلهيات والطبيعيات والرياضيات والأخلاق والنفس والروح والجسم والعقل وعلم التنجيم والكهانة وأطراف من اللغة والبلاغة والأدب . ويُلْقَى كل فيلسوف بدلوه ، ثم يُردُّ الرأى النهائى إلى أبى سليمان : فيسمعه الجميع خاشعين مُكْبِرِينَ ، وبلسانهم يقول له فيروز : « عَيْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ أَيُّهَا السَّيِّدُ ، فَوَاللَّهِ مَا نَجِدُ شِفَاءَ لِدَاءِ الْجَهْلِ إِلَّا عِنْدَكَ ، وَلَا نَظْفِرُ بِقَوْتِ النَّفْسِ إِلَّا عَلَى لِسَانِكَ ، وَلَا نَعْلَمُ يَقِينًا أَنَا لَا نَحْسُنُ شَيْئًا إِلَّا إِذَا فَاتَحْنَاكَ ، وَلَا يَجْمَلُ ظَنَّنَا بِأَنْفُسِنَا إِلَّا إِذَا بَعَدْنَا عَنْ مَجْلِسِكَ ، وَلَوْ كَانَتْ هَذِهِ الْفَائِدَةُ (يريد ما سمعه منه فى المسألة المطروحة) بَعِينًا عِنْدَنَا مَتَى كُنَّا نَأْتِي بِهَا عَلَى هَذِهِ الطَّلَاوَةِ وَالْحَسَنِ ، أَمْتَعَ اللَّهُ الْأَرْوَاحَ بِرُؤْيُوتِكَ ، وَالْعُقُولَ بِهَدَايَتِكَ^(٥) » . ولأبى حيان التوحيدى يدٌ لا تجهد . لتسجيله ما كان يدور فى مجالس أبى سليمان من حوار يتناول كل وجوه الفكر والتفلسف فى عصره ، على نحو ما صنع فى كتابه النفيس « المقابسات » وهى تَعْنَى مجالس أبى سليمان وما كان يُقْبَسُ منها من أضواء المعرفة . ويصْرُحُ أبو حيان مراراً بعمله فيها وأنه هو الذى أخرجها فى صورتها المكتوبة^(٦) ، وينبغى أن لا نبالغ فى هذا التصور وخاصة بالقياس إلى أبى سليمان وإن قال إنه كان مصاباً « بَلُكْتَنَةٍ نَاشِئَةٍ مِنَ الْعَجْمَةِ^(٧) » واللكنة شىء والتعبير الفصيح شىء

- (١) المقابسات (طبع بغداد) ص ٤٢٧ .
 (٢) المقابسات ص ٢٧٢ .
 (٣) المقابسات ص ٢٤٢ وهنا أيضا يذكر أن عيسى
 (٤) المقابسات ص ٤٢٩ .
 (٥) المقابسات ص ٤٢٩ .
 (٦) انظر المقابستين : الثانية والرابعة .
 (٧) المقابسات ص ٥٧ وقد توقفت أبو حيان فى هذا

الكتاب وفى الإمتاع والمؤانسة ليُعرف بهم (انظر فهرسيها) .

آخر ، ومرت بنا آنفاً كلمة فيروز الطيب ووصفه لما على كلامه من الطلاوة والحسن ، وقد نقل أبو حيان بعض المقابسات البديعة عن صوان الحكمة دون أن يخبر حرقاً من كلام أبي سليمان !^(١) . على أن بين المقابسات مقابسات لبعض المتفلسفة من ندوة أبي سليمان مثل عيسى بن علي بن عيسى وأبي الحسن العامري وغيرهما .

ومتدى ثان ببغداد لم يكن عاماً مثل المتدى السابق ، فقد كان خاصاً بوزير من وزراء الدولة البويهية وكان يعقده ليلاً بداره ، هو ابن سعدان الذي وزر لصمصام الدولة في سنة ٣٧٣ ولم يكذب يدور عامان حتى قتله سنة ٣٧٥ . وكانت ستين غيتين بالفكر والفلسفة والأدب ، إذ كان يختلف إلى ندوته صفوة من المتفلسفة المفكرين مثل ابن زُرعة النصراني المتفلسف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق وأبي الوفاء الرياضي الفلكي المهندس وبهرام بن أردشير الجوسى وابن عبيد وأبي بكر القومى الكاتبين وابن الحجاج الشاعر وزيد بن رفاعة أحد إخوان الصفا وقرمطى يسمى ابن شاهويه^(٢) . وكان ابن سعدان يباهى برفاقه ويفخر بهم على رفاق غيره من الوزراء قائلاً : « والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل »^(٣) . وكان أبو الوفاء قريباً من ابن سعدان فوصله بأبي حيان التوحيدى ، ليعرض عليه ثمار الفكر والفلسفة في عصره ، واستقبله ابن سعدان استقبالا حسناً ، وأخذ يُلقى عليه في ليالٍ متصلة أسئلة في مختلف فروع الفكر واللغة والأدب ، ويتلقى من أبي حيان إجاباته ، ويتشقق الحوار والحديث في مسائل فلسفية وإلهية وطبيعية وأخلاقية ونفسية وروحية وسياسية وأدبية ولغوية . وقد يحكى له مناظرة طويلة كمناظرة السرافى ومضى بن يرنس فى النحو والمنتانى وقد مرت بنا فى كتاب انحصار السياسى الثانى ، ويروى له أحياناً أخبار بعض المتصوفة ، ويذكر له بعض جوانب الحياة فى بغداد . وبحق يقول الفضلى عن الكتاب إنه « كتاب ممنوع على الحقيقة لمن له مشاركة فى فنون العلم فإنه يخاض كل بحر وغاص فى كل لجة »^(٤) . ولم يَرُ أبو حيان فى الكتاب الذى يقع فى ثلاث مجلدات كجلى اللبالبى التى قضاهما محاوراً مناقشاً فى متدى ابن سعدان ، فقد اقتصر منها على سبع وثلاثين ليلة وزع عليها الكتاب وقد ألفه لأبى الوفاء المهندس . ذكرى عزيزة لابن سعدان . وربما صنفه لأبى الوفاء فى

(١) مارن القايصة السابعة والثلاثين بعد ان الحكمة ص ٣/٢ وراجع النجوم الزاهرة ١٢٥/٤ .

٣٣٣ وما بعدها . (٣) الصداقة والتصدق ص ٨٣ .

(٢) انظر فى مؤلفاء الجلساء الصداقة والتصدق (٤) القنطلى ص ٢٨٢ .

لأبى حيان (طبع القاهرة) ص ٧٧ والإيتاع والمؤسسة

حياة صديقه ، ويبدو أنه كان قد كتب مسودات هذه الليالي ، حتى إذا رأى إهداءها لأبي الوفاء عُنى أحياناً بتقوم بعض عباراتها مع شرح الغامض وصلة المحذوف وإتمام المنقوص ، ومع سبكها بناصع اللفظ^(١) وما عُرف من ميله في كتابته إلى الأزدواج .

وكان وراء هذين المتتدين الفيلسفين العلميين متدييات كثيرة في دور العلماء والمتفلسفة مثل دار يحيى بن عدى وفي المكتبات الكبيرة مثل مكتبة سابورين أردشير . ونذكر نفرا من الرياضيين والفلكيين في القرن الرابع الهجرى لندل على النهضة العلمية حينئذ ، وأول من نفق عنده أبو القاسم على بن الحسن المعروف بابن الأعلم^(٢) المتوفى سنة ٣٧٥ وكان عضد الدولة يرعاه واشتهر بزيمه الذى ظل به العمل حتى زمن القفطى . وكان يعاصره وَيَجَنُّ^(٣) بن رُسَم الكوهى وكان رئيساً للمرصد الذى أسسه شرف الدولة البويهى فى حديقة القصر ببغداد ، وقد أمره فى سنة ٣٧٨ برصد الكواكب السبعة وعاونه فى ذلك فلكيون ورياضيون أهمهم أبو الوفاء^(٤) محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني صديق أبى حيان التوحيدى الذى توفى سنة ٣٨٨ وفيه يقول ابن خلكان : أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس ، نغمده الله برحمته وهو القيم بهذا الفن ، يبالغ فى وصف كعبه ويعتمد عليها فى أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله ، وكان عنده من تواليفه عدة كتب وله فى استخراج الأوتار تصنيف جيد نافع . ويقول عنه ألدوميليل : « كان أحد المترجمين العظام الأواخر من اليونانية ، وشارح أقليدس وديوفانتوس وبطليموس وهو كذلك عالم أصيل رفيع المنزلة ، ويقترن اسمه على وجه الخصوص بتنمية حساب المثلثات ، والمسائل الهندسية التى عاجلها بخبرة جد كبيرة ، وكان له تأثير قوى فى الفلكيين المحدثين . وبالمثل كانت العلوم الطبيعية ناهضة ناشطة ، ولعل خير ما يصور ذلك ظهور أبى على الحسن^(٥) بن الهيثم البصرى المتوفى حوالى سنة ٤٣٢ للهجرة ، وقد ذكر له ابن أبى أصيبعة ثلاثة وأربعين كتابا فى الفلسفة والعلم الطبيعى وخمسة وعشرين كتابا فى الرياضيات

(١) الإبتاع والمؤاسة ١/٢ .

(٢) انظر فى ابن الأعلم القفطى ص ٢٣٥ .

(٣) راجعه فى الفهرست ص ٤٠٩ والقفطى ص ٣٥١

(٤) ويروكلان ٢١٩/٤ وألدوميليل ص ٢١٢ .

(٥) انظره فى الفهرست ص ٤٠٨ والقفطى ص ٢٨٧

وإبن خلكان ١٦٧/٥ والوفى بالوفيات للصفدى

٢٠٩/١ وثمة البيهقي ٧٦ ويروكلان ٤/٢٢٢ وألدوميليل ص ٢١١ ، ٢١٥ .

(٥) راجع فى ابن الهيثم القفطى ص ١٦٥ وإبن

أبى أصيبعة ص ٥٥٠ وألدوميليل ص ٢٠٦ وما به من

مراجع وانظر كتاب ابن الهيثم لمصطفى نظيف ودائرة

المعارف الإسلامية وما بها من مراجع .

والهندسة ، وهو يُعدّ بحق من علماء الطبيعة العالميين ، يشهد له بذلك كتابه « المناظير » في البصريات وانعكاس الضوء والعدسات فقد ترك تأثيرا عميقا في كل من روجر بيكون ووايتلو عن طريق ترجمته قديما إلى اللاتينية ، واتسع تأثيره في كثيرين من علماء الغرب كما نجدنا بذلك ألدوميللي . وسمع الخليفة الحاكم الفاطمي بذكائه وقدرته الهندسية وشاع عنه أنه يقول لو نزل مصر لوضع مشروعا ينظم المياه في النيل ، واستقدمه الحاكم ، غير أنه رأى صعوبة تطبيق مشروعه . ويقول ابن أبي أصيبعة : إنه لخص كثيرا من كتب أرسططاليس وشرحها وكثيرا من كتب جالينوس في الطب . وحين نزل مصر أقام بقبة على باب الجامع الأزهر . وكان يقات من نسخته سنويًا أفليدس والمجسطي ، ويضيف إليهما القفطي كتابا ثالثا ، ويقول إنه كان يبيعها جميعا بمائة وخمسين دينارا مصريا ، وصار ذلك كالرسم المعتاد له .

وكان الطب والعلوم الطبية بالمثل ناهضين ، وساعد على ذلك منذ العصر العباسي إنشاء البيمارستانات في بغداد ، ومن البيمارستانات المهمة التي أنشئت في القرن الرابع الهجري البيمارستان العضدى نسبة إلى عضد الدولة ، أنشأه في الجانب الغربي لبغداد وأنفق عليه أموالا عظيمة ، ويقول ابن خلكان : « ليس في الدنيا مثل تربيته وبه من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه » ولما فرغ من بنائه سنة ٣٦٨ عيّن به أربعة وعشرين طبيا ربّهم فيه لمعالجة المرضى ، منهم نظيف القس الرومي وأبو الحسن بن كشكرايا وأبو الخير الجراحي وأبو يعقوب الأهوازي وابن مندويه^(١) .

وهذه النهضة العلمية الفلسفية في القرن الرابع اطردت في القرنين التاليين إذ يلقانا بها متفلسفة ورياضيون وفلكيون وطبيعيون وأطباء مختلفون في كتابي القفطي وابن أبي أصيبعة ، نذكر منهم أبا الفرج عبد الله^(٢) بن الطيب المتوفى سنة ٤٣٥ وفيه يقول القفطي « فيلسوف فاضل . . اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق وأنواع الحكمة من تأليف أرسططاليس وبشرح كتب جالينوس في الطب ، ويقال إنه بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة . وأهم تلاميذه ابن بطلان^(٣) النصراني المتوفى بعد سنة ٤٥٥ وكان حاذقا في الطب واشتهر برحلته إلى القاهرة حيث لقي الفيلسوف المصري ابن رضوان ، ونشبت بينها مناظرات حادة ، وأشهر مؤلفاته كتاب تقويم الصحة ، ولا يوجد منه إلا

(١) انظر القفطي ص ٣٣٧ ، ٤٠٣ ، ٤٠٧ ، (٣) القفطي ص ٢٩٤ وابن أبي أصيبعة ص ٣٢٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٨ . وراجع ابن خلكان ٥٤/٤ . وألدوميللي ص ٢٤١ ، ٢٥٣ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) القفطي ص ٢٢٣ .

ترجمة لاتينية وأخرى ألمانية في عصر النهضة . ومن الأطباء النابيين بعده أبو الحسن سعيد^(١) بن هبة الله طبيب الخليفين المقتدى والمستظهر ، وكان لا يزال على قيد الحياة في سنة ٤٨٩ ويظن أنه توفي سنة ٤٩٦ وقد اشتهر بكتاب كبير في الطب صنفه للمقتدى ، سماه المغنى في تدبير الأمراض وتعريف العلل والأعراض . وكان يعاصره يحيى بن عيسى^(٢) بن جزلة المتوفى سنة ٤٧٣ وكان نصرانيا ثم اعتنق الإسلام ، وصنف كثيرا من الكتب باسم الخليفة المقتدى أهمها كتاب تقويم الأبدان في تدبير الإنسان ، وقد ترجم إلى اللاتينية ثم الألمانية ، ويشتمل على ٤٤ لوحة ، وبه وصف لنحو ٣٥٠ مرضا . وأبوه الأطباء في القرن السادس هبة^(٣) الله بن التلميذ النصراني المتوفى سنة ٥٦٠ وكان طبيب الخليفة المقتدى ، ويقول ألدومبيلي إن كتبه خالية من كل أصالة ، وهي صفة تشمل أطباء العراق بعامة بعده . وليس معنى ذلك أن العناية قلت بالبيارستان وأطبائه ، فقد زار ابن جبير بغداد سنة ٥٨٠ وشاهد البيارستان ووصفه بقوله : إنه « على دجلة وتفقدته الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطلبون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، وبين أيديهم قومة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق المساكن الملوكية »^(٤) .

وتمضى الحركة العلمية والفلسفية في نشاطها بالعراق إلى أن يكسحه قُطعان المغول في منتصف القرن السابع الهجرى . إذ قوّضوا صرحها في بغداد وغير بغداد ، وربما كان أنه المشتغلين بعلوم الأوائل قبل هذا الانهيار الفظيع أثير الدين الأبهري^(٥) الموصلى المتوفى سنة ٦٦٣ وله مختصر في علم الهيئة ورسالة في الإسطرلاب وشرح لإيساغوجى وكتاب هداية الحكمة في المنطق والطبيعات والإلهيات . ويضعف الاشتغال بعلوم الأوائل أو يأخذ في الضعف ، ومن المؤكد أنه ظل ، ولكن لم تعد له نفس القوة القديمة ، وبلغنا من حين إلى آخر بعض المتفلسفين أو العلماء مثل أبي القاسم محمد بن أحمد السياوى^(٦) العراقى الذى عاش في النصف الثانى من القرن السابع الهجرى ، وله كتب كثيرة في الكيمياء أشهرها كتاب العلم المكتسب في زراعة الذهب ، ومن نلتقى بهم في القرن التاسع الهجرى بدر

(١) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٢ وألدومبيلي ص (٤) ابن جبير ص ٢٢٥ .

(٢) راجع ابن أبى أصيبعة ص ٢٥٤ ، ٢٤٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٣ والنقفلى ص ٣٦٥ الدين بن يونس ودائرة المعارف الإسلامية وما بها من

مراجع وبروكلمان (فر. الطبعة الألمانية) ٤٦٤/١ .

(٤) ابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ والنقفلى ص ٣٤٠ (٦) انظر ألدومبيلي ص ٣٠٨ .

وألدومبيلي ص ٣٢١ .

الدين محمد سبط المازديني^(١) المتوفى سنة ٨٩١ وله كتب مختلفة في الحساب والهندسة . وتأخذ المعرفة بعلم الأوائل في الضعف مع الحقبة العثمانية إذ لم تعد هناك عناية بها ولا رعاية لها .

ولا بد أن نقف قليلا عند مصنفاتهم في السياسة على هدى كتابات أفلاطون وأرسطو وما ترجمه ابن المقفع عن الفارسية هو وغيره من آداب الحُكْم والسياسة ، وقد افتتح ابن قتيبة كتابه عيون الأخبار بباب طويل عن السلطان والسياسة والحكم ، وتناول هذا الموضوع كثيرون بعده مثل الوزير المغربي أبي القاسم الحسين بن علي المتوفى سنة ٤١٨ فإنه ألف في السياسة رسالة طريفة . ومن خير الكتب التي ألّفت في هذا الموضوع كتاب الأحكام السلطانية للمواردي^(٢) أبي الحسن علي بن محمد البصري البغدادي المتوفى سنة ٤٥٠ للهجرة ، وكان فقيها شافعيًا ، وتولى القضاء في بلدان كثيرة بالعراق ، وهو في كتابه يصل بين السياسة والمسائل الشرعية في النظم الإسلامية ، وبذلك يصبح الكتاب في سياسة الحكم الإسلامي ، وهو يستهل بالحديث عن إمامة المسلمين ثم يتحدث عن تقليد الوزارة وقيادة الجيوش المجاهدة في سبيل الله ، ويتحدث عن ولاية القضاء والمظالم والولاية على الصلاة والحج والصدقات وأحكام الفء والغنمة والجزية والخراج وأحكام الإقطاع والدواوين وبيت المال .

وقد نشط العراقيون لهذا العصر في الكتابات الجغرافية ، وأول من يلقانا منهم أبو إسحاق الفارسي الإصطخرى^(٣) الكرخي المتوفى حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، ويبدو أنه عاش طويلاً في بغداد ، كما يدل على ذلك لقبه الكرخي ، وله كتاب جغرافي سماه « المسالك والممالك » تحدث فيه عن مملكة الإسلام وصور أقاليم الأرض ومدنها وبحارها وأنهارها وسُهوبها وجبالها ، وقد نقل إلى كتابه صور الأقاليم التي بناها أبو يزيد البلخي في كتابه المعروف بهذا الاسم ، ولا بد أن حوّل البغدادي^(٤) معاصره كتاب باسم المسالك والممالك أيضاً هو تهذيب لكتاب الإصطخرى . وكان شيعياً إسماعيلياً ، واستغله الفاطميون في الدعوة لهم على ما يظهر وقد زار الأندلس وإفريقيا الشمالية وبلدان إيران وجزءاً من الهند .

(١) راجع فيه بروكلمان (الطبعة الألمانية) ٣٥٧/٢ . (٣) انظره في إصطخر بمعجم ياقوت وفي دائرة المعارف الإسلامية . ٢٨٢/٣ والمتظم ١٩٩/٨
 وطبقات الشافعية ٢٦٧/٥ وتاريخ بغداد ١٠٢/١٢
 ومعجم الأدباء ٥٢/١٥ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها
 من مراجع .
 (٤) راجعه في ألدوميل ص ٢٢٧ وفي دائرة المعارف الإسلامية . وفي كراتشكوفسكى ٢٠٠/١ .

وأهم جغرافي ظهر بالعراق لهذا العصر هو ياقوت الحموي البغدادي (١) المتوفى سنة ٦٢٦ وكتابه معجم البلدان أنفس كتب الجغرافية العربية ، وهو في ست مجلدات ضخام ، ونراه يذكر في مقدمته مصادره اليونانية والعربية وكاد أن لا يترك كتابا في المكتبة الجغرافية العربية إلا ذكر أنه اطلع عليه ونقل عنه ، ولم يكتب بتلك الكتب التي كَوَّن منها مادة كتابه ، فقد رجع إلى دواوين الشعراء يتقل عنها ، وألمَّ في كل بلدة بأهم من عاش فيها من العلماء والأدباء كتاباً وشعراء ، مما يضيف قيمة واسعة للكتاب إذ يصبح مصدرا من مصادر العلم والأدب ورجالها حتى عصره . وله أيضا في الجغرافيا كتاب ثان بعنوان « المشترك وضعاً المختلف صقعا » . ويمكن أن نلحق بكتب الجغرافية كتب الرحلات ، وربما كان أهمها كتاب الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار لعبد اللطيف (٢) البغدادي المتوفى سنة ٦٢٩ وقد وصف فيه وصفا بديعا آثار مصر ، وصوّر كثيرا من شئونها الاجتماعية . وترجم الكتاب إلى اللاتينية ، كما تُرجم إلى الفرنسية ، وطُبع مرارا .

٣

علوم اللغة والنحو والبلاغة والنقد

تظل بغداد ومدن العراق ناشطة في المباحث اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية ، ومن الصعب أن نفصل بين اللغويين والنحويين ، وبالتالي أن نفصل بين مباحثهما ، إذ يكثر أن ينهض اللغوي بمباحث نحوية ، وبالمثل يكثر أن ينهض النحوي بمباحث لغوية . ويلقانا ابن (٣) دُرستويه المتوفى سنة ٣٤٧ معنا بشرح فصيح ثعلب ، وبالمثل ابن نايقا والعكبري وغيرهما كثيرون ، ويضع له عبد اللطيف البغدادي بعدهما ذيلًا . وتكثر العناية بكتاب لغوي ثان ، هو إصلاح المنطق لابن السكيت ، فيضع السيرافي (٤) الحسن بن عبد الله

(٣) انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٤٢٨/٩ وإنباه الرواة ١١٣/٢ وابن خلكان ٤٤/٣ .
(٤) راجعه في تاريخ بغداد ٣٤١/٧ ومعجم الأدباء ١٤٥/٨ وإنباه الرواة ٣١٣/١ ونزهة الألباء لابن الأنباري (طبعة أبي الفضل إبراهيم) ص ٣٠٧ والفهرست ص ٩٩ واللباب ٥٨٦/١ وشذرات الذهب ٦٥/٣ ومرآة الجنان ٣٩٠/٢ . وابن خلكان ٧٨/٢ .

(١) انظره في النجوم الزاهرة ٢٨٣/٦ وشذرات الذهب ١٢١/٥ وابن خلكان ١٢٧/٦ ومرآة الجنان ٥٩/٤ وتاريخ الأدب الجغرافي العربي لكراتشكوفسكي ٣٣٥/١ .
(٢) ترجم له ابن أبي أصيبعة في طبقاته ص ٦٨٣ ترجمة ضافية نقلها عن كتاب له ، تحدث فيه عن سيرته ، وقد لخصته هذه السيرة في كتابنا الترجمة الشخصية طبع دار المعارف ص ٣٢ .

المتوفى سنة ٣٦٨ شرحا لشواهدة ، وتتوالى مختصرات هذا الكتاب وتهذيباته ، منها مختصر يسمى المتخل لأبي القاسم الوزير المغربي المار ذكره ، ومنها تهذيب للخطيب التبريزي^(١) يحيى بن علي المتوفى سنة ٥٠٢ للهجرة .

ومن الكتب اللغوية المهمة كتاب التنبهات على أغلاط الرواة لعل^(٢) بن حمزة البصرى المتوفى بصقلية سنة ٣٧٥ ويشتهر بتزول المتنبي عليه حين قدم إلى بغداد من الكوفة ، وهو في كتابه يصحح الأغلاط التي وردت في طائفة من كتب لغوية مهمة ، هي نوادر أبي زياد الأعرابي ، ونوادر أبي عمرو الشيباني ، وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب فصيح ثعلب ، وكتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم ابن سلام ، وكتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب خلق الإنسان لأبي ثابت ، وكتاب المقصود والممدود لابن ولاد وقد ذكر مع نقده لهذا الكتاب ما أملاه المتنبي عليه من نقد بالفسطاط . وتكثر الكتابة في الأسماء المقصورة والممدودة ، منذ ابن دستورية وابن جنى في القرن الرابع .

وتتكاثر شروح الشعر والنثر في العصر منذ أوائله ، وشرح ابن جنى لديوان المتنبي مشهور وقد سماه القسّر ، ويعد التبريزي المذكور آنفاً - وكان يدرس الأدب في المدرسة النظامية - من أكثر شراح الشعر آثارا ، وله شروح مطولة على مجموعة القصائد المسماة بالفضليات للمفضل الضبي ، وعلى المعلقات أو القصائد العشر ، وعلى حاسة أبي تمام وديوانه وعلى سقط الزند لأبي العلاء المعري . وله شروح موجزة على لامية العرب للشنفرى ، وقصيدة «بانث سعاد» لكعب بن زهير ، ومقصورة ابن دريد . وإذا كان التبريزي وضع شرحا مطولا لديوان أبي تمام فإن العكبري أبا البقاء في القرن السادس الهجري وضع شرحا مطولا بدوره للمتنبي . وعنى ابن المستوفى الإربلي^(٣) المتوفى سنة ٦٣٧ بوضع شرح مطول لديوان أبي تمام والمنتبي سماه النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام في عشر مجلدات . ومنذ وضع الحريري مقاماته أخذت شروحها تتكاثر . ومن شروحها في القرن السادس بالعراق شرح القاسم^(٤) بن القاسم الواسطي ، وشرح العكبري النحوى شارح المتنبي ، ولاين

- (١) انظره في معجم الأدباء ٢٨٦/٧ وبغية الوعاة والأنساب للسعدي الورقة ١٠٣ ونزهة الألباء ص ٣٧٢ والمتظم ١٦١/٩ ومرآة الجنان ١٧٣/٣ والشذرات ٥/٤ وابن خلكان ١٩١/٦ ودمية القصر ٢٣٧/١ .
 (٢) راجعه في بغية الوعاة ومعجم الأدباء ٢٠٨/١٣ .
 (٣) انظره في ابن خلكان ١٤٧/٤ وبغية الوعاة والشذرات ١٨٦/٥ . وعبر الذهبي ١٥٥/٥ .
 (٤) راجعه في إنباه الرواة ٣١/٣ وقد ذكر القفطي أنه صنف شرحين للمقامات وأن له شرحاً لديوان المتنبي اختاره من شرح الواحدى وأضاف إليه من كتاب المصنف لابن وكيع .

الختاب^(١) البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧ مبحث لغوي في أغلاط الحريري في مقاماته ورد عليه ابن بربى العالم المصرى اللغوي المتوفى سنة ٥٨٢ مبحث لغوي دقيق انتصر فيه للحريري ، والمبعضان ملحقان بطبعة مقامات الحريري نشر مكتبة ومطبعة الحلبي بالقاهرة ومنذ جمع الشريف الرضى خطب الإمام على بن أبي طالب وأخرجها باسم نهج البلاغة أخذ كثيرون يعنون بشرحها ، حتى بلغوا نحو أربعين شارحاً وربما كان شرح ابن أبي الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ أكبر هذه الشروح وهو مطبوع ، ولاين الساعى^(٢) على بن أنجب المتوفى سنة ٦٧٤ شرح على نهج البلاغة وشرح لفصيح ثعلب ، وثلاثة شروح لمقامات الحريري : كبير ومتوسط وصغير ، والمتوسط في خمس مجلدات . وقد عني محمود^(٣) بن أحمد الزنجاني المتوفى سنة ٦٥٦ بوضع مختصر لصحاح الجوهري سماه «ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح» . ومنذ السيراني تكثر الشروح لشواهد الشعر في كتب النحو على غرار كتابه في شرح شواهد سيويه ، بل إننا نجد عبد القادر^(٤) البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ يحول شرحه لشواهد كتاب الكافية لابن الحاجب إلى موسوعة لغوية تاريخية ، ويحق سماه «خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب» وقد ذكر في مقدمته مصادره من شروح الشواهد واللغة وأشعار العرب. وما ذكره من كتب اللغة : الجهمرة لابن دريد ، والصحاح للجوهري والعباب للصاغاني والقاموس المحيط للفيروزآبادي واليواقيت للمطرز وكتاب ليس لابن خالويه ، والنهاية لابن الأثير والزاهر لابن الأتباري وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري وإصلاح المنطق لابن السكيت وتهذيبه وشروحها وفصيح ثعلب وذيله وشروحه وأدب الكاتب لابن قتيبة وشروحه والأضداد لغير مؤلف والفروق لأبي هلال العسكري وخلق الإنسان للزجاج والمغرب للجوالقي والمثلثات لابن السيد البطليوسى والمرصع لابن الأثير والمزهر للسيوطي .

وإنما سقنا هذه الكتب اللغوية ، لندل على أن ما كان يكتب في اللغة بأي بلدة من البلدان كان ينقل إلى بغداد وغيرها من الحواضر ، فالعالم العربي واحد ، وكل ما يتجه بلد

(١) انظره في معجم الأدياء ٤٧/١٢ وإنباه الرواة (٣) انظره في الحوادث الجامعة لابن الفوطى (طبع)
 ٩٩/٢ وبغية الوعاة والمنظم ٢٣٨/١٠ والنجوم الزاهرة بغداد) ص ٢٣٧ وطبقات الشافعية للسبكي ٣٦٨/٨
 ٦٥/٦ وابن خلكان ١٠٢/٣ . والنجوم الزاهرة ٦٨/٧ وتاريخ علماء المستنصرية لناجي
 معروف . (٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٢٥٠/٤ وشذرات الذهب
 ٣٤٣/٥ ومقدمة مصطفي جواد لكتاب نساء الخلفاء (٤) انظره في خلاصة الأثر للحمي ٤٥١/٢ ودائرة
 (طبع دار المعارف) وما ذكره من مصادر . المعارف الإسلامية في كلمة البغدادي .

في علم من العلوم تتناقله البلدان الأخرى ، وهؤلاء الذين رجع إليهم عبد القادر البغدادي منهم من عاش في أقصى الشرق من العالم العربي ، ومنهم من عاش في أقصى الغرب منه أوفى وأواسطه ، ولذلك يكون من الخطأ أن نعد إنتاج أي بلد إنتاجاً مستقلاً هو مدار الحكم عليه ، فقد كان يروج بإنتاج البلدان الأخرى في كل علم وكل فن ، وتظل شروح الشعر ناشطة لا الشروح المأثورة فقط ، بل تضاف إليها شروح كثيرة ، ولعله لم تظهر قصيدة مهمة دون أن تشرح شروحا عدة ، نذكر من ذلك رَشَف الضَّرْب في شرح لامية العرب للشيخ عبدالله^(١) السويدي المتوفى سنة ١١٧٤ للهجرة وشرح بانة سعاد للسيد^(٢) عبد الله الفخرى المتوفى سنة ١١٨٨ . وهناك شروح لعلماء مختلفين شرحوا قصائد عاصرتهم أو شرحوا قصائد لابن الفارض . وعنى الشيخ حسن^(٣) القفطان المتوفى سنة ١٢٧٥ بوضع تعليقات على القاموس والمصباح في رسائل مختلفة ، ولشهاب الدين الألوسي^(٤) المتوفى سنة ١٢٧٠ شرح على درة الغواص للحريري باسم كشف الطُّرَّة عن الغرة وللشيخ إبراهيم^(٥) الحيدري المتوفى سنة ١٣٠٠ شروح مختلفة على ديوان أبي تمام ومقامات الحريري وسقط الرند لأبي العلاء . وكان النشاط اللغوي لم يتوقف بالعراق في حقبة من حقب هذا العصر حتى أواخره وقد عنى العلماء بجانب بحثهم في لغة الفصحى أن يحيطوها بأسوار من الصحة ، حتى يبقوها من أضرار العامة التي أخذت تنتشر بقوة منذ مطلع العصر . ولجد القاضي أبا الحسن عليا المؤيدي يضع سنة ٤٢٠ كتاباً في الأمثال البغدادية العامة^(٦) وأهم من ذلك كتاب الحريري : « دُرَّة الغواص في أوهام الخواص » وهو في أعلاط المثقفين . ووضع له أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي^(٧) المتوفى سنة ٥٣٩ تكلمة أو تسمه سماها « التكملة فيما تلحن فيه العامة » . وأهم من هذا الصنيع كتابه « المعرب »

- (١) راجع في المسك الأدر في نشر مرآة القرن الثاني عشر وثالث عشر محمد شكري الألوسي (طبع بغداد) ص ٦٠ .
- (٢) راجع في تاريخ الأدب العربي في العراق لعزاوي ٣١٠٢ .
- (٣) العزاوي ٥٧/٢ ومضى البحث وحاضرها ج ٣ ق ٢ ص ١٠٩ .
- (٤) انظر في الشهاب أعلام العراق محمد بهجت الأثرى والأدب العربي في القرن التاسع عشر لشيخو ٨٩١ ونهضة العراق محمد مهدي الصدر ٢١٩ ومقدمه تسميه
- والعزاوي ٥٢/٢ وفي مواضع مختلفة .
- (٥) العزاوي ٥٨/٢ .
- (٦) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكمان (الترجمة العربية) ١٦٠/٥ وقد نشر ماسينيون كتابه في القاهرة سنة ١٩١١ .
- (٧) انظر ترجمته في إنباه الرواة ٣/٣٣٥ ومعجم الأديان ٢٠٥. ١٩ . ولأنساب الورقة ١٣٩ واللباب ٢٤٤/١ وابن حنكنا ٣٤٢/٥ ومرة الختان ٣/٢٧١ وبعية النوعة وشذرات لذهب ١٢٧/٤ .

وهو معجم نفيس للألفاظ الأعجمية الدخيلة على العربية ، ولم يؤلف في موضوعه أكبر منه ، وفيه يقول ابن خلكان : إنه من مفاخر بغداد .

وكانوا يعنون من حين إلى حين بجمع مختارات شعرية ، ولابن الشجري ^(١) هبة الله بن علي المتوفى سنة ٤٥٠ كتاب سماه الحماسة ضاهى به حماسة أبي تمام ، وهو مطبوع في حيدر آباد ، وله كتاب الأملى وهو أيضاً مطبوع في حيدر آباد ، وهو أكثر تأليفه إفادة ، ويقول ابن خلكان إنه من الكتب الممتعة لروعة أشعاره المختارة . ومن كتب المختارات الشعرية كتاب منتهى الطلب من أشعار العرب لمحمد بن المبارك بن ميمون ^(٢) ، وهو مجموعة كبيرة من قصائد الجاهليين والإسلاميين ، وقد جمعه أو صنفه ببغداد سنة ٥٨٩ وهو في الستين من عمره ، ومنه بعض مجلدات بدار الكتب المصرية . وصنّف علي بن أبي الفرج البصرى في القرن السابع الهجرى الحماسة البصرية ، وقد حُققت وأعدت للطبع . .

ولعل نشاط بغداد في النحول هذا العصر كان أكبر من نشاطها في اللغة ، فقد استحدثت فيه المذهب النحوى البغدادى على نحو ما صورنا ذلك في كتابنا المدارس النحوية ، وهو مذهب كان أصحابه ينتخبون من المذهبين البصرى والكوفى آراءهم . ويضيفون إلى ما ينتخبون آراء جديدة ينفذون إليها . وأهم نحوى بغدادى نقلناه في القرن الرابع الهجرى هو ابن جنى ^(٣) المتوفى سنة ٣٩٢ وكان اهتمامه بعلم الصرف عظيماً ، فصنع فيه شرحاً نفيساً لكتاب التصريف للمازنى سماه المنصف ، وهو في ثلاثة أجزاء ، شرح فيه مادة الكتاب شرحاً وافياً ، وأضاف إليها كثيراً من ملاحظاته كملاحظته أن الأفعال تشتق من أسماء الأعيان ومن الحروف . وله سر صناعة الإعراب وهو دراسة صوتية واسعة لحروف المعجم ومخارجها وأصواتها ، وله أيضاً في الصرف كتاب التصريف الملوكى ، وأهم كتبه فيه كتاب الخصائص ، وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء ، وفيه وضع للصرف قضايا الكلية ، وذكر فيه ما أسماه الاشتقاق الأكبر وهو يقوم على فكرة خاصة ، هى أن كل كلمة ومقلوباتها تشترك في معنى واحد ، فكلمة قول . ومتقلباتها : قلو ، ووقل ، وولق ، ولوق ، ولوق ، جميعها تفيد أوتعنى الخفة والحركة . وبجانب وضعه لأصول علم الصرف نراه في النحو يختار من الآراء البصرية والكوفية جميعاً ، ويضيف باجتهاده آراء جديدة ، وكان يكثر من متابعتها لأستاذه

(١) نظره في نزهة الألباء ص ٤٠٤ ومعجم الأدياء (٣) انظر في ترجمة ابن جنى نزهة الألباء ص ٣٣٢
١٩/٢٨٢ وإنباه الرواة ٣/٣٥٦ وبغية الوعاة وابن
خلكان ٤٥/٦ ومرآة الجنان ٣/٢٧٥ وشدرات
والشذرات ٢/٤٤٥ والمرآة الجنان ٣/١٤٠ وروضات
الذهب ٤/١٣٢ .

(٢) انظر بركلان ٥/١٦٩ .
الجنات ص ٤٦٦ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٦٥ .

أبي علي الفارسي ، وهو من طرازه بغدادى فى مذهبه النحوى ، وكل ذلك مصور فى كتابنا المدارس النحوية . وكان يعاصره نحويان كبيران هما السيرافى شارح كتاب سيبويه والرمثانى وهو مثله شرح الكتاب ، غير أنهما لا ينتظان فى المدرسة النحوية البغدادية الجديدة ، إذ كانا لا يخرجان عن المذهب البصرى ، فعداهما فى المدرسة البصرية لا البغدادية ، وفى كتاب المدارس النحوية حديث مفصل عن السيرافى وكثرة تعليقاته وتخرجاته النحوية .
ويُعنى النحاة بشرح كتاب الإيضاح لأبى علي الفارسي ، ويشرحه ابن جنى ، ويشرحه غير واحد من بعده مثل العكبرى ، ويعنون بشرح اللمع فى النحو لابن جنى ، ومن شرحوه عمر بن ثابت الثمانينى ^(١) تلميذه ، وشرحه مخطوط بدار الكتب المصرية ، ومن شرحه العكبرى ، وهم كثيرون . ومن نحاة مدرسة بغداد المهمين أبو البركات بن الأنبارى ^(٢) المتوفى سنة ٥٧٧ وهو تلميذ ابن الشجرى الذى تتلمذ بدوره لأبى علي الفارسي ، وبذلك يتصل به . وكان يدرس كتبه لتلاميذه فى المدرسة النظامية ، يدل على ذلك حاشيته على كتاب الإيضاح . وقد عنى بدراسة وجوه الخلاف بين المدرستين البصرية والكوفية فى مسائل النحو ، وألف فى ذلك كتابين هما : الإنصاف المطبوع بمصر ، وقد طبعه فايل لأول مرة وقدم له بمقدمة طويلة ، والكتاب الثانى أسرار العربية المطبوع بدمشق ولاحظ فايل أنه رجح آراء الكوفيين بكتابه الإنصاف فى سبع مسائل ، وكان ينتخب آراءه من المدرستين البصرية والكوفية جميعا . وكان يقف مع الفارسي أستاذ شيخه ابن الشجرى فى كثير من المسائل فهو بغدادى المذهب . وله فى أصول النحو كتاب سماه لمع الأدلة وهو مطبوع بدمشق وطبع له مع الكتاب السابق كتاب الإعراب فى جدل الأعراب ، وله فى تراجم النحاة كتاب نزهة الألباء . وكان يجرى على غراره فى اتباع المذهب البغدادى فى النحو أبو البقاء العكبرى ^(٣) الضرير ، المتوفى سنة ٦١٦ وتدل مصنفاته على توفره على كتب أبى علي الفارسي وابن جنى وله كما أسلفنا شرح للإيضاح وكذلك للمع ، وأيضا « الإفصاح عن معانى أبيات الإيضاح » و« تلخيص أبيات الشعر لأبى علي الفارسي » وتلخيص التنبيه لابن جنى و« المنتخب من كتاب المحتسب فى

(١) راجع فى الثمانينى معجم الأدباء ٥٧/١٦ وابن خلكان ٤٤٣/٣ ونزهة الألباء ص ٣٥٠ ونكت الحميان ص ٢٢٠ والشذرات ٢٦٩/٣ .
(٢) راجع فى إنباه الرواة ١١٦/٢ وبغية الوعاة وابن خلكان ١٠٠/٣ والشذرات ٦٧/٥ وابن الديبشى ص ١٤٠ ونكت الحميان ص ١٧٨ وكتابنا المدارس النحوية ص ٢٧٩ .
(٣) انظر فى ابن الأنبارى إنباه الرواة ١٦٩/٢ وبغية الوعاة وابن خلكان ١٣٩/٣ والسبكي ١٥٥/٧ ومراة الجنان ٤٠٨/٣ والمختصر المحتاج إليه من تاريخ ابن

شواذ القراءات « لابن جنى أيضا ، ومن كتبه « إملأ مامن به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن » . وله كتاب اللباب في علل البناء والإعراب . وقد حققه بعض الطلاب وأعدده للنشر . وله أيضاً إعراب مشكل الحديث . ذيل به كتاب جامع المسانيد لابن الجوزى . ومن كتبه المسائل الخلافية في النحو وعنى بنشره بعض المستشرقين . وقد صورنا في كتابنا المدارس النحوية كيف كان يعول على الاختيار من آراء البصريين والكوفيين والبغداديين . ومن نخاة بغداد في القرن السابع الهجرى عز الدين عبد الوهاب^(١) ابن إبراهيم الزنجاني وله كتاب باسم تصريف الزنجاني أو العزى أو مبادئ التصريف ، وقد طارت شهرته في الآفاق وصنعت له شروح وحواش كثيرة ، عددها بروكلمان في تاريخه ، ومنها طائفة كبيرة في دار الكتب المصرية . وقد طبع في روما مع ترجمته إلى اللاتينية ، وطبع في الآستانة والقاهرة ودلهى بالهند ومع ترجمة إلى الفارسية لمحمد بركة الله اللكنوى في لكنو . ومن نخاة القرن السابع أيضا جمال الدين الحسين بن بدر الدين بن أياز^(٢) البغدادى المتوفى سنة ٦٨١ وكان يتولى مشيخة النحو في المدرسة المستنصرية ، وله كتاب القواعد في النحو ، ولا توجد منه سوى مخطوطة بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٧٨ في حياته ، وله أيضا الحصول شرح الفصول لابن معطى وشرح التصريف لابن مالك ومسائل الخلاف في النحو . ومن النخاة المهمة ببغداد بدر الدين^(٣) الإربلى المتوفى سنة ٧٥٥ وله حواش على كتاب التسهيل لابن مالك وشرح على الكافية لابن الحاجب وآخر على كتابه الشافية . وللشيخ عبد الله السويدى المار ذكره كتاب إتحاف الحبيب على معنى اللبيب^(٤) . ويكثر الشارحون للألفية ولقظرا بن هشام وغيرهما من متون النحو كما يكثر من يصنعون الحواشى . ونكتفى بذكر مثال هو إبراهيم الحيدرى المار ذكره في النشاط اللغوى ، فله حاشية على كتاب سيبويه وأخرى على شرح ألفية ابن مالك للسيوطى وحاشية على شرح الشافية لابن الحاجب للجاربردى وتقرير على حاشية عبد الحكيم الهندى على حاشية عبد الغفور المار على شرح الجامى لكافية ابن الحاجب ، وشرح على كتاب الاقتراح للسيوطى^(٥) .

وكان للنشاط في الدراسات البلاغية دوره في العصر . ومن آخر ١٥٠٠ كتاب

(١) نظره في تاريخ نواعه نسيوطى وى تاريخ الأدب (٣) هدية العارفين ١١٥٠٢ و١١٥٠١ و١١٤١ .

الهمزى لبروكلمان ١٧٩/٥ . (٤) بحث الأذرفر ص ٦٠ والغزوى ١٢٨/٢ .

(٢) رجمه في بغية النواعه نسيوطى وبروكلمان ١٨٥/٥ (٥) هدية العارفين ٤٢/١ والغزوى ١٤٢/٢ .

والغزوى ١٦١/١ .

النكت في إعجاز القرآن للرماني^(١) شارح كتاب سيويه ، كما أسلفنا ، وقد توفي سنة ٣٨٤ للهجرة ، وبهنا من الكتاب حديثه عن البلاغة وقد جعلها في ثلاث طبقات^(٢) : عليا ووسطى ودنيا ، والعليا بلاغة القرآن المعجز والوسطى بلاغة الأدباء حسب تفاوتهم في البلاغة . ويوزعها على عشرة أقسام هي الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمن والمبالغة وحسن البيان ، ويفصل القول في كل قسم من هذه الأقسام بادئاً بتعريفه ثم باسماً تفريعاته . وللحاتمي^(٣) أبي علي محمد بن الحسن البغدادي المتوفى سنة ٣٨٨ كتاب في البلاغة وأنواع البديع سماه حلية المحاضرة في صناعة الشعر ، وقد اعتمد عليه ابن رشيق اعتماداً واسعاً في كتابه العمدة في صناعة الشعر ونقده أثناء عرضه لألوان البديع ، وقد تحدث فيه عن الاستعارة والجناس والطباق والمقابلة والتسيم والتشبيه والإغراق والإشارة والوحي والتصدير والتسليم والترصيع والتوشيح والمائلة والمبالغة والالتفات والمساواة إلى غير ذلك من فنون البديع ومحسناته . ويكتب الباقلائي الذي ستحدث عنه في علم الكلام المتوفى سنة ٤٠٣ كتابه « إعجاز القرآن » وبهنا فيه حديثه عن وجوه البديع ، وهو يستلها بالكلام عن الاستعارة ، ويتلوها بالإرداف ثم المائلة فالمطابقة فالجناس فالموازنة ، فالمساواة ، فالإشارة ، فالمبالغة ، فالغلو ، فالإيغال ، فالتوشيح ، فصحة التقسيم ، فصحة التفسير ، فالترصيع والتسيم ، فالتكافؤ والتعطف إلى غير ذلك^(٤) . وهو يتفق مع ابن المعتز وصاحب الصناعتين في كثير من مصطلحاته ، وولتقى بالشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ وله كتابان : أحدهما في مجازات القرآن ، والثاني في المجازات النبوية ، وهو يعرض في الكتاب الأول مجازات الآيات القرآنية مرتبة على السور وفقاً لترتيبها في آياتها مبيناً ما فيها من استعارة أو مجاز أو كناية . وبالمثل علق في الكتاب الثاني على نحو ثلاثمائة وستين حديثاً ، والكتابان بحث تطبيقي عام ، وإن كان يلاحظ أن الفروق عنده بين الاستعارة والمجاز والكناية غير دقيقة ، لأنها لم تكن قد حررت حتى زمنه^(٥) .

وعُتبت طائفة من البلاغيين بالكتابة في بعض جوانب من البلاغة مثل كتاب التشبيهات لابن أبي عون المتوفى سنة ٣٢٢ . وقد نشره عبد المعيد خان في سلسلة جب التذكارية

- (١) انظر في علي بن عيسى الرماني تاريخ بغداد ١٦/١٢ / ومعجم الأدباء ١٤/٧٣ وإنباه الرواة ٢/٢٩٤ والأنساب الورقة ٢٥٨ وشذرات الذهب ٣/١٠٩ .
 (٢) الأدباء ١٨/١٥٤ والوفى بالوفيات ٢/٣٤٣ والشذرات ٣/١٢٩ . واليتمية ٣/١٠٣ .
 (٣) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٠٧ .
 (٤) انظر في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ١٣٩ .
 (٥) انظر في الحاتمي تاريخ بغداد ٢/٢١٤ وإنباه الرواة

بلندن ، وهو في التشبيهات عامة من الشعر القديم والحديث ومن الذكر الحكيم . وأهم منه كتاب «الجان في تشبيهات القرآن» لابن نايقا^(١) البغدادي المتوفى سنة ٤٨٥ والعناية بالتشبيه قديمة نجدها في كتابات الجاحظ وابن المعتز^(٢) . وقد نُشر كتاب الجان في دمشق بتحقيق عدنان زرزور ومحمد رضوان الداية ، والكتاب مرتب حسب السور القرآنية والآيات الواردة في تضاعيفها وعادة يفسر الآية الكريمة بإيجاز ، ثم يذكر ما فيها من تشبيه ، وإذا كان له نظير في القرآن ذكره ، ودائماً يذكر الأشعار التي اقتبسته ، وكثيراً ما يعرض المحسنين لهذا الاقتباس والمقصرين ، موضحاً بلاغة القرآن المعجز وأنه لا يبلغ مبلغه شاعر . يقول : «وكذلك كل ما ينقله الشعراء وغيرهم من أرباب البلاغة إلى كلامهم من معاني القرآن ، لا يبلغون شأوه ولا يدركون مناله إعجازاً وإبداعاً وإباء وامتناعاً» .

ويعنى بعض البلاغيين بوضع كتب مستقلة في الجناس ، مثل شميم^(٣) الحلبي المتوفى سنة ٦٠١ فله فيه كتاب باسم الأنيس الجليس في التجنيس كما جاء في معجم الأدباء ، وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه باسم الأنيس في غرر التجنيس .

ولانلبث أن نستقبل كتاب المثل السائر لضيء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى ببغداد سنة ٦٣٧ وكان قد توجه إليها رسولا من لدن صاحب الموصل ، وكان كاتب إنشائه . وقد بنى كتابه على مقدمة^(٤) ومقالتين ، أما المقدمة فجعلها لعلم البيان ومباحثه المتصلة بالمعاني والبديع ، ويقول إن موضوع هذا العلم البلاغة والفصاحة ، ويعرض لأدواته التي لا بد من إتقانها لمن يتصدى للكتابة والشعر ويعقد فصلين للمعاني يتحدث في أولهما عن حمل الكلام على ظاهره والتأويل فيه بحيث يمكن أن يفهم البيت أفهاما كثيرة . وفي الفصل الثاني يتحدث عن احتمالات النصوص والترجيح بين المعنيين المتقابلين . وتحسُّ صلته في هذين الفصلين بعلماء الأصول وكلامهم عن دلالات العبارات وما يداخلها من الاحتمالات . ويتحدث بعد ذلك عن الفصاحة والبلاغة

معجم الأدباء ٥٠/١٣ وإنباه الرواة ٢٤٣/٢ وبنية الرواة والشذرات ٤/٥ وميزان الاعتدال ٨٢/٢ والجواهر المضية في طبقات الحنفية ٢٨٣/١ وابن خلكان ٣٣٩/٣ .

(٤) راجع في تحليل كتاب المثل السائر كتابنا البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٢٣ .

(١) راجع في عبد الله بن محمد بن نايقا إنباه الرواة ١٣٣/٢ وابن خلكان ٩٨/٣ والجواهر المضية ٢٨٣/١ وميزان الاعتدال ٥٣٣/٢ ولسان الميزان ٣٨٤/٣ والحزبية (قسم العراق) ١٤٢/١ ومقدمة المحققين لكتابه .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٥٥ ، ٧٣ .

(٣) انظر في علي بن الحسن بن عثر الملقب بشميم الحلبي

وأدوات الكتابة وأركانها . ويخرج إلى المقالة الأولى ، وقد جعلها للصناعة اللفظية وقسمها قسمين : قسما خاصا باللفظة المفردة ، وقسما خاصا بالألفاظ المركبة ، ويُطَبَّب في بيان حسن الألفاظ وصفاته ، متأثرا في وضوح بابن سنان الخفاجي في كتابه « سر الفصاحة » . وبالمثل يتأثر به في حديثه عن صفات الحسن في الألفاظ المركبة مفصلا القول في السجع والتصريح والتجنيس والترصيع ولزوم ما لا يلزم والموازنة واختلاف صيغ الألفاظ وتكرار الحروف . ويتنقل إلى المقالة الثانية الخاصة بالصناعة المعنوية ، ويعرض للسراقات ، ثم يتحدث عن الاستعارة والمجاز والتشبيه والتثليل ، ويعرض الالتفات وصوره وبعض الصيغ النحوية ، ثم يتحدث عن التقديم والتأخير وبعض صيغ الاختصاص والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض ، ولجَّ في بعض مسائل نقدية ، ثم تناول الجناس والاقْتَبَاس ، وفتح فصلا للسراقات ، وختم الكتاب بكلمة عن فضل الفصاحة والبلاغة ذكر فيها الفرق بين الشعر والنثر .

ولتقي في أواخر القرن السابع بكتاب « الأقصى القريب في علم البيان » المطبوع بالقاهرة من نسخة قرئت على المؤلف محمد بن محمد التنوخي ^(١) سنة ٦٩٢ ويسمى صاحب كشف الظنون الكتاب باسم « أقصى القرب في صناعة الأدب » ويقول إن مؤلفه توفي سنة ٧٤٩ للهجرة ، ولعله أخطأ في سنة وفاته ولا يُعرف موطنه . وقد ضممناه إلى العراق لغلبة النزعة المنطقية عليه وأصدائها الواضحة في مباحثه . وواضح من عنوان الكتاب ^(٢) أن مؤلفه أطلق على مباحث البلاغة اسم البيان متابعا في ذلك ابن الأثير ، وهو يفتح الكتاب ببحث منطقي في التصور والتصديق وفي القضية المنطقية وصورها المختلفة ، ثم يتحدث عن الجملة النحوية ويفيض في مباحث الحروف والأسماء والأفعال . ثم ينتقل إلى علم البيان ومباحث الفصاحة والبلاغة فيه والحقيقة والمجاز وحسن المفردات وقبحها وصفاتها . ويخرج إلى الحديث عن المعاني ويتدبَّر حديثه فيها بالكلام عن الاستعارة ، ثم يتحدث عن التشبيه والالتفات والنفي والاعتراض والإيجاز والإطناب والكناية والتعريض والتقديم والتأخير والاشتقاق والتكرار وبعض ألوان البديع ، وهو شديد التأثر في كل ذلك بابن الأثير في كتابه المثل السائر . ويلقانا جلال الدين القزويني صاحب كتاب التلخيص المولود بالموصل ، ويبدو أنه غادره في مطالع شبابه ، وأنه أتم ثقافته في بلاد الروم وديار الشام ، ولذلك سرجيء الحديث عنه إلى الجزء الخاص بالشام ومصر .

(١) انظر في التنوخي بروكلمان ١٨٥/٥ وكشف (٢) راجع في تحليل هذا الكتاب كتابنا البلاغة تطور الظنون لحاجي خليفة (طبع إستانبول) ١/١٣٧ وكتابه
نشرته مكتبة الحانجي بالقاهرة .
تاريخه ص ٣١٦ .

وُسهم العراق في نظم القصائد المعروفة بالبديعيات . وعلى ^(١) بن عثمان الإربلي المتوفى سنة ٦٧٠ هو أول من فتح الطريق إلى هذا الاتجاه ، فقد نظم قصيدة في مديح بعض معاصريه وضمّن كل بيت فيها لوناً من ألوان البديع ، وذكر بإزاء كل بيت اللون الذي يُطوى فيه ، ولم تصل إلينا القصيدة غير أن صاحب فوات الوفيات ذكر منها ستة وثلاثين بيتاً . وإذا مضينا إلى القرن الثامن التقينا بصنى الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ للهجرة ورأيناه ينظم قصيدة في مديح الرسول ﷺ على شاكلة برودة البوصيري مفتحاً لها بقوله :

إِنْ جِثَّتْ سَلْعًا فَسَلِّ عَنْ جَبْرَةِ الْعَلَمِ وَأَقْرَبِ السَّلَامِ عَلَى عُرْبٍ بِذِي سَلَمٍ
وهي مائة وخمسة وأربعون بيتاً من وزن البسيط ، وكل بيت فيها يحمل محسناً من محسنات البديع ، وهي تضم نحو مائة وخمسين محسناً ، إذ جعل للجناس فيها اثني عشر لونا صورها في الأبيات الخمسة الأولى ، وأوضح أن مطلعها يشتمل على المحسن المعروف باسم براعة الاستهلال ، كما يشتمل على لونين من الجناس بين سلام وسلم وبين العَلَمِ وسلم . وقد سماها الكافية البديعية في المدائح النبوية وصنف لها شرحاً سماه النتائج الإلهية في شرح الكافية البديعية . ويذكر في مقدمته للشرح أنه قرأ ثلاثين كتاباً قبل تأليفه لبديعيته وأنه زاد على ما قرأ محسنات جديدة . وتلقانا بعد صنى الدين بديعيات أخرى وشروح وتلخيصات لكتب البلاغة ، ويستمر العلماء في صنع هذه التلخيصات والشروح لاني أزمان المغول والتركمان فحسب ، بل أيضاً في زمن العثمانيين ، وللشيخ عبد الله السويدي المار ذكره كتاب في الاستعارة ولمحمد أمين الخطيب العمري بديعية وشرح لها ، وللشيخ إبراهيم الحيدري كتاب في البديع ولشهاب الدين الألوسي أبي الثناء شرح وحاشية على كتاب الاستعارات لابن عمام .

وإذا تركنا النشاط البلاغي إلى النشاط النقدي وجدناه على أتمه في مطالع هذا العصر ، وأول ما يلقانا منه كتاب الموازنة بين أبي تمام والبحرّي للآمدي ^(٢) الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٧١ وقد استهل الكتاب ^(٣) بالحديث عن مذهبين مختلفين في فهم الشعر ونقده وصنعه وعمله ، وهما مذهب المجددين من أنصار أبي تمام أصحاب المعاني والفلسفة والبديع ، ومذهب المحافظين من أنصار البحرّي الذين يتمسكون بعمود الشعر العربي

(١) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات ٢٨٥/١ وما به من مراجع وروضيات الجنات ٢١٩ .

(٢) راجع في تحليل كتاب الموازنة كتابنا النقد (طبع دار المعارف) ص ٦٤ وما بعدها وكتابنا البلاغة تطور وتاريخ

ص ١٧٨ .

(٣) انظر في ترجمة علي بن عثمان كتاب فوات الوفيات (طبعة محمد محيي الدين عبد الحميد) ١١٨/٢ والنجوم الزاهرة ٢٣٦/٧ .

(٤) انظر في الآمدي معجم الأدباء ٧٥/٨ وإنباه الرواة

وتقاليد مؤثرين حسن العبارة وحلاوة اللفظ وجمال أنغامه . ويمضى الآمدي فيصور جدلا بين أصحاب المذاهب في فن الشاعرين وأيهما يتفوق على صاحبه ، عارضا احتجاجات أصحاب أي تمام وردود أصحاب البحتری عليهم ، ومن أطرف مااحتجوا به أن أبا تمام صاحب مذهب جديد في الشعر وصناعته ونوقش مذهبه مناقشة واسعة . ويتحدث الآمدي بعد ذلك عن سرقات الشاعرين وأخطائهما ، وهو يتحيز في الموازنة للبحتری تحيزاً واضحاً .

وكان يعاصره المرزباني^(١) محمد بن عمران المتوفى سنة ٣٨٤ وهو خراساني الأصل ببغدادى المولد والموطن ، وله كتاب الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، وهو سجل لتقد اللغويين من القرن الثاني حتى القرن الرابع لشعراء الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث ، متخللاً ذلك بنظرات نقدية كثيرة له ولسابقه . ومن أطرف فصوله الفصل الخاص بأبي نواس ، وكذلك الفصل الخاص بأبي تمام ، وقد دوّن فيه رسالة ابن المعتز في بيان محاسن شعر أبي تمام ومساويه ومنها استمد كل من نقدوا أبا تمام بعده ، مثل ابن عمار القطر بُل المتوفى سنة ٣١٩ في رسالته التي كتبها في أخطاء أبي تمام ، وكذلك الآمدي في موازنته السالفة . وفي رأينا أن هذه الرسالة هي التي دفعت الصولي للانتصار للشاعر وكتابة مصنفه عنه المعروف باسم أخبار أبي تمام . وحينما يتحدث الآمدي عن أنصار أبي تمام إنما يريد . وتلتقى بناقد مهم للمتنبي سبق أن عرضنا له في حديثنا عن النشاط البلاغي وهو أبو علي الحاتمي البغدادي الذي تصدى للشاعر الكبير بنقده نقداً مجحفاً في كثير من الأحوال ، وله فيه رسالة عما وافق فيه المتنبي كلام أرسطو . حاول فيها أن يرد كثيراً من حكمه إلى أقوال الفيلسوف ، وبمجرد أن نطلع عليها نعرف أن المتنبي على فرض أنه استعار بعض حكمه من أرسطو أعطاها صياغة جديدة باهرة ، وفي الحق أن جمهور حكمه إنما هو من تجاربه ومن خبرته بالحياة الإنسانية . وللحاتمي فيه رسالة ثانية أو كتاب ثان هو الموضحة^(٢) وفيها يذكر أن الوزير المهلبى هو الذى دفعه إلى نقد المتنبي ، ويقول إن معارك نشبت بينه وبين المتنبي حين لقبه ، ويصور في الكتاب هذه المعارك وأنها امتدت في عدة مجالس ، كان أولها في الدار التي نزل فيها المتنبي ، أمام طائفة من العلماء الأدباء . وقد أخرج الحاتمي الكتاب بعد وفاة صاحبه ولعله تزيد فيه ، وهو

(١) انظر في المرزباني تاريخ بغداد ١٣٥/٣ ومعجم الأدباء ٢٦٨/١٨ وابن خلكان ٣٥٤/٤ والشذرات ١١١/٣ وميزان الاعتدال ٦٧٢/٣ والواق بالوفيات في بيوت .
(٢) حقق الدكتور محمد يوسف نجم هذا الكتاب ونشره في لسان الميزان ٢٣٦/٥ وعبر الذهبي ٢٧/٣ ومعجم

يذكر حدود الشعر ويتحدث عن سرقات المتنبي وعبوه ويوازن بين معانيه ومعاني أبي تمام والبحترى . والتجنى على المتنبي واضح في الكتاب ، فلم يكن يمسك في يده بمعايير نقدية منصفة . ومع ذلك فإن كثيرين من نقاد المتنبي بعده حملوا عنه نقده وأذاعوه في كتبهم ودراساتهم . ويُشغَل كثيرون بالمتنبي في جميع البلدان العربية ، وسرى في إيران مباحث كثيرة عنه وعن شعره .

ويلقانا في العراق ابن الدهان ^(١) سعيد بن المبارك المتوفى سنة ٥٦٩ وله رسالة في سرقات المتنبي سماها « الرسالة السعيدية في المآخذ الكندية » وقد وقف فيها طويلاً عند سرقاته من أبي تمام الطائي ، وعنى ببيان سرقاته من البحترى الطائي أيضاً ، ولذلك قد تسمى في بعض المصادر باسم « المآخذ الكندية من المعاني الطائية » ولابن الأثير كتاب يرد فيه على هذه المآخذ سماه « الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان المسماة بالمآخذ الكندية من المعاني الطائية » ، عنى فيها بالرد على ابن الدهان في مآخذه على المتنبي وقد وزع أكثرها على جانبين هما : مآخذه على ابن الدهان فيما زعمه من مآخذ المتنبي من أبي تمام ، واستدراكه على ما فات ابن الدهان من مآخذ المتنبي أو سرقاته من أبي تمام . وهو يستهل الرسالة ببيان عيوب ابن الدهان في مبحثه ، ذاكراً أنه ترك من سرقات المتنبي من أبي تمام مثلاً أخذ ، وأنه قد يعدُّ بيتاً للمتنبي مسروقاً من صاحبه ، ويتأمله يلاحظ أنه غير مسروق ، وأنه قد يعزو إلى المتنبي وأبي تمام والبحترى أبياتاً ليست لهم ، وأنه أطل مقدمته كتابه أو رسالته فكان كمن بنى داراً فجعل دهليزها ذراعاً وعرضها شبراً ، على أنها لا تناسب الكتاب ولا تشاكله . ولابن الأثير في الكتاب - شأنه في كتاب المثل السائر - نظرات نقدية كثيرة جيدة . ولابن أبي الحديد رسالة في نقد المثل السائر لابن الأثير سماها « الفلك الدائر على المثل السائر » وهي إلى أن تكون نقداً لغوياً أقرب منها إلى أي نقد آخر ، ورد عليه كثيرون منتصرين لابن الأثير مثل محمود بن الحسين السنجاري المتوفى سنة ٦٤٠ في كتابه « نشر المثل السائر وطى الفلك الدائر » .

ولصنى الدين الحلبي المار ذكره في البديعيات كتاب نفيس في الأشعار العامية الشعبية سماه « العاقل الحالم والمرخص الغالي في الأزجال والموالى » عرض فيه فنون الشعر العامي من الزجل والمولانا والقوما والكان وكان موضعاً نشأتها وتاريخها وأوزانها وقوافيها وما يجوز فيها وما لا يجوز . ويلاحظ أنه سبقت الأزجال في الأندلس قصائد عامية ذات قافية واحدة

(١) انظر في ابن الدهان معجم الأديباء ١١/٢١٩ خلكان ٢/٣٨٢ والشذرات ٤/٢٢٣ .

ونكت الهيمان ص ١٥٨ وإنباه الرواة ٤٧/٢ وابن

كقصائد « الشعر الفصيح » كانت تسمى بالقصائد الزجلية ، ثم نوعوا فيها الأوزان والقوافي على شاكلة الموشح . وهو يقوم في ضبط أوزان الأشعار العامية مقام ابن سناء الملك المصري في ضبطه للموشحات بكتابه المعروف « دار الطراز » . وتعرض صفي الدين الخلي لبعض أشعار ابن سناء الملك بنقد لغوي ذاهبا إلى أنه لما قلد الأندلسيين في موشحاته وجعل خرجاتها عامية كثر في نظمه استخدام اللفظ العامي ، ويضرب لذلك بعض الأمثلة - في رأيه - من شعره . وقد صحح هذه الأمثلة وردّها الصفدي في شرحه للامية العجم الذي سماه « الغيث الذي انسجم في شرح لامية العجم » . ولانعود نسمع عن كتاب مهم في النقد بالعراق بعد كتاب العاطل الخلي ، فقد انصرف الباحثون إلى الدراسات البلاغية بين شروح وتلخيصات كثيرة .

٤

علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والكلام

مرّ بنا في كتاب العصر العباسي الثاني نشاط العراق في روايته لقراءات الذكر الحكيم وكيف أن ابن مجاهد استخلص منها سبعا ، هي قراءات الأئمة : نافع في المدينة وعبد الله ابن كثير في مكة وعاصم وحزمة والكسائي في الكوفة وأبي عمرو بن العلاء في البصرة وعبد الله بن عامر في دمشق ، وشاعت في العالم الإسلامي إلى اليوم مدوّنة بكتابه السبعة الذي مضى العلماء منذ عصره يتدارسونه^(١) وألّف كتابا ثانيا في شواذ القراءات عني بالتعليق عليه ابن جنّي مسميا تعليقه المحتسب ، وهو محقق ومنشور بالقاهرة . وذهب كثيرون بعد ابن مجاهد إلى أنه لا تقل عن القراءات السبع التي دوّنها بكتابه قراءة أبي جعفر يزيد ابن القعقاع شيخ نافع المتوفى سنة ١٣٠ للهجرة ويعقوب بن إسحق الحضرمي البصري المتوفى سنة ٢٠٥ وخلف بن هشام البغدادي المتوفى سنة ٢٢٩ . ويضم هذه القراءات إلى قراءات ابن مجاهد تصبّح القراءات عشرا وتؤلّف فيها الكتب . ويضم إليها كثيرون أربع قراءات هي قراءة ابن مُحيّصن المكي معاصر ابن كثير وقراءة الأعمش الكوفي وقراءة اليزيدي البصري تلميذ أبي عمرو بن العلاء وقراءة الحسن البصري . وبذلك تصبّح القراءات أربع عشرة . وتتشط العراق في التأليف فيها ، تارة يؤلّف العلماء في السبع وتارة يؤلّفون في العشر أو في الأربع عشرة . فن ذلك كتاب الجامع في القراءات العشر لعل بن محمد الخياط المتوفى سنة ٤٠٥ وكتاب الروضة للحسن البغدادي في إحدى عشرة قراءة وقد توفي

(١) حققت ونشرت في دار المعارف هذا الكتاب .

سنة ٤٣٨ وكتاب المفيد في القراءات العشر لأبي نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٤٢ وكتاب التذكار في القراءات العشر لابن شيطا البغدادي المتوفى سنة ٤٤٥ وكتاب المستنير لأحمد ابن علي بن سوار البغدادي المتوفى سنة ٤٩٦ وهو أيضا في القراءات العشر وكتاب المهذب في القراءات العشر لمحمد بن أحمد بن الحياط البغدادي المتوفى سنة ٤٩٩ وكتاب الإرشاد في العشر للواسطي المتوفى سنة ٥٢١ وكتاب الموضح والمفتاح في القراءات العشر لابن خيرون البغدادي المتوفى سنة ٥٣٩ وكتاب المبهج في القراءات الثمان لسبط الحياط البغدادي المتوفى سنة ٥٤١ وله كتاب الكفاية في القراءات الست ، وكتاب المصباح في القراءات العشر لأبي الكرم البغدادي المتوفى سنة ٥٥١ وكتاب الكثر في القراءات العشر لأبي محمد عبد الله الواسطي المتوفى سنة ٧٤٠ وله كتاب الكفاية وهي قصيدة في القراءات العشر على وزن القصيدة المشهورة باسم الشاطبية وروياها ، وكذلك لمعاصره أبي الحسن علي الديواني الواسطي المتوفى سنة ٧٤٣ قصيدة مماثلة للشاطبية . وكل هذه الكتب عرّف بها ابن الجزري في كتابه « النشر »^(١) في القراءات العشر» وترجم لأصحابها في كتابه غاية النهاية في طبقات القراء .

وإذا انتقلنا إلى التفسير والمفسرين وجدنا العراق تنشط في التفسير الفقهي والاعتزالي والسني والشيعة ، وقلما عنيت بالتفسير الصوفي ، وكأنما تركته لمتصوفة خراسان وإيران من أمثال أبي عبد الرحمن السلمى والقشيري ومتصوفة الأندلس من أمثال ابن عربي . وقد عنيت مبكرة بالتفسير الفقهي ، على نحو ما نرى عند ابن الجصاص^(٢) أحمد بن علي المتوفى سنة ٣٧٠ في كتابه أحكام القرآن . وهو مطبوع في ثلاثة أجزاء بالقاهرة ، ومثله كتاب أحكام القرآن للكيّا^(٣) الهراسي المتوفى سنة ٤٥٤ وأصله مثل ابن الجصاص إیراني ، ولكنها نزلت ببغداد ، واستقرأ فيها أما ابن الجصاص فقد نزلها سنة ٣٢٥ وتلقى بها العلم ، ثم أصبح مدرسا للفقهاء الحنفي وتركها بأخرة إلى نيسابور حيث توفي فيها ، وأما الكيّا الهراسي فقد درس في نيسابور وعلم في إحدى قرأها المسماة بيهق . ثم خرج إلى العراق وتولى التدريس في المدرسة النظامية ببغداد حتى توفي ، وكان في خدمته بها الشاعر العزّي المشهور . وألفت في أحكام القرآن كتب أخرى ليس لها شهرة الكتابين السابقين . وقد ذكرنا في العصر

(١) انظر في الكتب السالفة وأصحابها النشر في رقم ١١ وستان المحدثين لعبد العزيز الدهلوي ١٢٦

القراءات العشر لابن الجزري (طبع القاهرة) والنجوم الزاهرة ٤/١٣٨ والفوائد البية ص ٢٧

(٢) انظر في الكيّا الهراسي المنتظم ١٦٧/٩ وتبيين ٩٥-٧٤/١

(٣) راجع في ترجمة ابن الجصاص الجواهر المضية كذب المفترى ٢٨٨ والسبكي ٧/٢٣١ وعبر الذهبي ٨/٤

والشذرات ٨/٤ وابن خلكان ٣/٢٨٦

العباسي الثاني تفسيرات المعتزلة في القرن الثالث الهجري ، ويستمر نشاط المعتزلة في تفسير الذكر الحكيم لهذا العصر وخاصة في أوائله ، ويلقانا فيه تفسير لعلي بن عيسى الرماني المعتزلي ، ومر بنا أنه توفي سنة ٣٨٤ وكان يقول: تفسيرى بستان يُجتنى منه ما يشتهى ، وقيل للصاحب بن عباد معاصره هلا تصنف تفسيراً؟ فقال : وهل ترك لنا علي بن عيسى شيئاً^(١) ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : « له كتاب التفسير الكبير وهو كثير الفوائد إلا أنه صرح فيه بالاعتزال ، وسلك الزمخشري سبيله وزاد عليه »^(٢) . ومن هذا الاتجاه الاعتزالي كتاب التفسير الكبير لعبد السلام^(٣) بن محمد القرويني نزيب بغداد وشيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٨ ويقول السمعاني إنه مزج تفسيره بكلام المعتزلة وبث فيه معتقده وهو في ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات في سورة الفاتحة ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة إن الكتاب كان وقفاً في مشهد أبي حنيفة ببغداد . ويبدو أن المعتزلة اكتفوا فيما بعد بتفسير الزمخشري المسمى بالكشاف ، إذ لم ينشطوا بعده للتأليف في تفسير القرآن .

ويظل التفسير السنّي مزدهراً بعد تفسير الطبري الذي عرضنا له في العصر العباسي الثاني ، ومن التفسيرات السنّية المهمة في العصر تفسير النقاش^(٤) البناددي محمد بن الحسن المتوفى سنة ٣٥٠ كان إمام أهل العراق في القراءات والتفسير ، وقد سمي تفسيره شفاء الصدور ، وطوّف من مصر إلى ما وراء النهر في لقاء المشايخ ولكنهم ضعّفوا أحاديثه ، وقالوا إنه ليس بثقة على جلالة ونبله . ولأبي الحسن الماوردي إمام الشافعية في عصره المتوفى كما مر بنا سنة ٤٥٠ تفسير من أجل التفاسير . ويلقانا تفسير سنّي لا يزال مخطوطاً بدار الكتب المصرية وهو لأحمد^(٥) بن محمد الغزالي أخى الإمام الغزالي مدرس النظامية ببغداد المتوفى سنة ٥٢٠ . واشتهر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ بتفسيره الذى سماه « زاد المسير في علم التفسير » . ومن أصحاب التفاسير السنّية الرّسعي^(٦) عبد الرزاق المتوفى سنة ٦٦١ وفيه يقول السيوطي : « صنف تفسيراً حسناً يروى فيه بأسانيد » . ومنهم علاء الدين علي بن محمد البغدادي صاحب التفسير المعروف بتفسير الخازن^(٧) المتوفى سنة ٧٤١ ، وهو ملهى

(١) المنية والأمل لابن المرضي ص ١١٥ . الاعتدال ٥٢١/٣ وابن خلكان ٢٩٨/٤ والسبكي

١٤٥/٣ .

(٢) النجوم الزاهرة ١٦٨/٤

(٣) انظر طبقات المفسرين ١٩ والنجوم الزاهرة (٥) انظره في للتنظيم ٢٦٠/٩ وميزان الاعتدال

(٤) ١٥٠/١ وابن خلكان ٩٧/١ والسبكي ٦٠/٦ والشذرات ١١/٤ وتذكرة الحفاظ ٨/٤ ولسان الميزان ١١/٤

والسبكي ١٢١/٥ والشذرات ٣٨٥/٣ . ٦٠/٤ ومرآة الجنان ٢٢٤/٣ ولسان الميزان ٢٩٣/١ .

(٥) راجعه في تاريخ بغداد ٢٠١/٢ ومعجم الأدباء (٦) راجعه في طبقات المفسرين للسيوطي رقم ٥٦

(٧) انظره في طبقات المفسرين للدردار الكائنة (٧) انظره في طبقات المفسرين للدردار الكائنة

١١٥/٣ وطبقات القراء لابن الجزري ١١٩/٢ وميزان ١٧١/٣

بالإسرائيليات . ومن خير التفاسير السننية تفسير ذاع وشاع منذ تأليفه في القرن الماضي ، وهو كتاب «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» لشهاب الدين محمود الألوسي الذي مر ذكره والمتوفى سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٣ م . وهو يعنى في تفسيره ببيان أسباب النزول وبتفسير آتى القرآن بعضها ببعض ، وتفسيرها بالحدِيث النبوى ، ويعنى باللغة ومسائل النحو والبلاغة ، وقد اعتمد على كثير من مصادر التفسير في القديم ، وخاصة على الكشاف والبيضاوى والفخر الرازى ، وهو يخوض مثل الفخر في مباحث فلسفية ورياضية وطبيعية كثيرة . وقد عُنى عناية واسعة بالرد على الطبرسى الشيعى في تفسيره ، وخاصة في مسائل الإمامية الاعتقادية . ونراه يعنى بالرد في مسائل كثيرة على حجج الشافعية ، وخاصة تلك التى يثيرها المفسر الشافعى الكبير الفخر الرازى في تفسيره . ومع أنه كان خفياً . والخفية غالباً كانوا معتزلة أو ماتريدية . نراه في تفسيره أشعرباً ، وهو بذلك يلتقى مع الفخر الرازى في نصرته للسندى الأشعربى . ويذكر ابن عربى مراراً في تفسيره ، ويتضح تأثيره به وبتفاسير الصوفية عامة حين نراه في كثير من الآيات بعد أن يوضح المراد منها يتغفل في معان باطنة لا يدل عليها ظاهرها أى دلالة ، ومن الغريب أنه يذكر مراراً أن قَصْر مراد الله على التأويلات البعيدة كفر صريح ومع ذلك نراه أحياناً يتهدى فيها ، وكان حرياً أن يخلى تفسيره منها ومن شوائبها إخلاء تاماً .

وقد ذكرنا في العصر العباسى الثانى للتفسير الشيعى بعض التفاسير التى نسبها الشيعة إلى أئمتهم ، مثل تفسير الإمام الحسن العسكرى المتوفى سنة ٢٦٠ وهو الإمام الحادى عشر فى ترتيب الإمامية ، وبمجرد اطلاعنا عليه نستبعد أن يكون من صنعه حقاً لركاكة أساليبه ولما فيه من تأويلات باطنية بعيدة . ويأتى بعده تفسير القمى^(١) على ابن إبراهيم المتوفى لأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو فى جملته نقول عن أئمة الإمامية وكثير منها يبعد عن ظاهر النص القرآنى ومراده ، مما يدل على أن نسبتها إليهم غير صحيحة . وما نصل إلى أواخر القرن الرابع حتى نلتقى بالشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ . وبتفسيره الذى سماه «حقائق التأويل فى متشابه التنزيل» وقد نشرته فى بيروت الجزء الخامس ، ومن يطلع عليه يجد له فيه عملين كبيرين : أولهما البعد عن التفسير الباطنى الشيعى لآيات الذكر الحكيم ، وثانيهما ترك الروايات عن الأئمة والاحتكام إلى العقل . وهو احتكام وصل تفسيره بتفاسير المعتزلة ،

(١) انظره فى طبقات المفسرين للداودى ٣٨٥/١ مطبوع بالنجف .
والذريعة إلى تصانيف الشيعة لأغابريك ٣٠٢/٤ وتفسيره

والصلة بين المعتزلة والشيعة الإمامية قديمة ومعروفة ، وتردد في التفسير أسماء بعض أعلامهم مثل أبي علي الجبائي وعلي بن عيسى الرمائي والقاضي عبد الجبار . واتجه نفس الوجهة أخوه الشريف المرتضى^(١) في كتابه «الأمالى» إذ نراه فيه يقف إزاء الآيات التي قد يفيد ظاهرها التشبيه على الذات العلية أو الجبر ليؤولها على طريقة المعتزلة ، وفي الوقت نفسه لا يروى فيها نقولاً عن الأئمة . وبذلك يُعدّان للتفسير بالرأى والعقل في بيئة الإمامية ، واستضاء بعملهما في هذا الاتجاه الطوسي^(٢) أبو جعفر محمد بن الحسن تلميذ الشريف المرتضى ، وقد توفي سنة ٤٦٠ واشتهر بتفسير للذكر الحكيم سماه «التيبان في تفسير القرآن» وهو مطبوع بالنجف في عشرة أجزاء ، وقد عُني في تفسيره بالتقريب بين تفسيرات الشيعة وتفسيرات أهل السنة . إذ روى في تفسيره عن الصحابة من أمثال أبي بكر الصديق وعمر ، وكذلك عن التابعين دون تعصب مذهبي ، ووضع بجانبه ما نقله عن الأئمة في عقيدته الإمامية ، واتخذ تفسير الطبري السنن هادياً له في تفسيره ، وكما نقل عن كتب الحديث الشيعية مثل الأمالى لابن بابويه القمي وأمالى ابن النعمان المفيد نقل عن كتب الحديث المشهورة لأهل السنة مثل مسند ابن حنبل وكتب الصحاح الستة . وعلى ضوء دراسات الشريفين المرتضى والرضي عُني بالتفسير العقلي وفسح للتأثر بالمعتزلة في نفي التشبيه عن الذات العلية . وليس معنى ذلك كله أنه تخلص في تفسيره من عقيدته الإمامية ، بل لقد نصرها في مواطن كثيرة وخاصة عقيدتهم في الإمام وأنه معصوم وحجة الله في أرضه وصاحب علم باطني متوارث إلى غير ذلك من أصول العقيدة الإمامية ، وقد تأثر به الطبرسي في تفسيره تأثراً واسعاً .

وكانت بغداد داراً قديمة للحديث ، وظلت شديدة العناية به وبمحافظة طوال هذا العصر ، وأول من تلقاه من أعلامه البرزاز محمد^(٣) بن عبد الله المتوفى سنة ٣٥٤ وله كتاب العوالى في الحديث وهي مجموعة يمتاز سندها بقلة رواته ، وكان يعاصره الآجري^(٤) أبو بكر محمد بن الحسين المتوفى سنة ٣٦٠ وله كتاب يضم أربعين حديثاً مختارة ،

(١) راجع في الشريف المرتضى تاريخ بغداد ودائرة المعارف الإسلامية .
 (٢) ٤٠٢/١٢ وثمة البيهية ٥٣/١ وابن خلكان ٣١٣/٣ (٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٩٦/٣ وطاقات الحفاظ للسيوطي ١٢١ . وبروكلمان ٢٠٧/٣ .
 (٤) راجعه في تذكرة الحفاظ ١٣٩/٣ وتاريخ بغداد من مراجع
 (٢) انظر في الطوسي المتظم ٢٥٢/٨ والنجوم الزاهرة ٢٠٣/٢ والسبكي ١٤٩/٣ وابن خلكان ٢٩٢/٤ والشذرات ٣٥/٣ والمتظم ٥٥/٧ والوافي ٣٧٣/٢ .

ويختلفها الدارقطني^(١) على بن عمر المتوفى سنة ٣٨٥ وهو منسوب إلى محلة ببغداد تسمى دارقطن ، وله كتاب السنن « وقد نُشر قديماً في دلهي ، واشتهر الدارقطني بأنه تعقب في كتابه الاستدراكات وجوه الضعف في بعض أحاديث رواها الشيخان : البخاري ومسلم ، وله كتاب في الضعفاء والمتروكين من الرواة « وكتاب في العلل ، وآخر في غريب الحديث . وكان يعاصره الكلاباذي^(٢) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٣٩٨ وله كتاب في رجال البخاري ، وجاء بعده اللالكائي^(٣) هبة الله بن الحسن محدث بغداد المتوفى سنة ٤١٨ وله كتاب في رجال الصحيحين وكتاب في السنن ، وكان يعاصره البرقاني^(٤) أحمد بن محمد شيخ بغداد المتوفى سنة ٤٢٥ وله مصنفات مختلفة في الحديث ، منها مسند ضمنه ما اشتمل عليه صحيح البخاري ومسلم . ثم يلقانا الخطيب^(٥) البغدادي أحمد بن علي بن ثابت المتوفى سنة ٤٦٣ وكان في وقته حافظ المشرق الذي لا يدافع ، وله مصنفات كثيرة في الحديث ورجاله ، ومن أطرف ماله كتاب تقييد العلم ، وفيه يتحدث عن تدوين الحديث وأوائل من دونه . وكان يعاصره ابن ماكولا^(٦) المتوفى سنة ٤٧٥ وهو صاحب الإكمال تتبع فيه الألفاظ المشبهة في أسماء رواة الحديث ، يقول ابن خلكان : هوفي غاية الإفادة في رفع الالتباس والضبط والتقييد وعليه اعتماد الحديث وأرباب هذا الشأن فإنه لم يوضع مثله ولقد أحسن فيه غاية الإحسان . ومن محدثي القرن السادس ابن الجوزي عبد الرحمن ابن علي المتوفى سنة ٥٩٧ ، وله عدة مصنفات في الحديث من أهمها كتابه «الموضوعات» في أربعة أجزاء ذكر فيه الأحاديث الموضوعة . وكان يعاصره مجد الدين المبارك بن محمد المعروف بابن^(٧) الأثير الجزري الموصلي المتوفى سنة ٦٠٦ وله جامع الأصول في أحاديث الرسول جمع فيه بين الصحاح الستة ، وله أيضاً كتاب النهاية في

- (١) انظره في تاريخ بغداد ٣٤/١٢ والمنظّم ١٨٣/٧ أو الأنساب ٢١٧ وطبقات القراء ٥٥٨/١ والسبكي ٤٦٢/٣ وتذكرة الحفاظ ١٨٦/٣ وابن خلكان ٢٩٧/٣ وعبر الذهبي ٢٨/٣ واللباب ٤٠٤/١ .
- (٢) انظره في تذكرة الحفاظ ٢١٦/٣ وتاريخ بغداد ٤٣٤/٤ وبروكلمان ٢٢٨/٣ .
- (٣) تذكرة الحفاظ ٢٦٧/٣ وتاريخ بغداد ٧٠/١٤
- (٤) تذكرة الحفاظ ٢٥٩/٣ وتاريخ بغداد ٣٧٣/٤ والسبكي ٤٧/٤ والمنظّم ٧٩/٨ .
- (٥) انظره في تذكرة الحفاظ ٣١٢/٣ وتهذيب ابن عساکر ٣٩٨/٨ ومعجم الأدباء ١٣/٤ والمنظّم ٢٦٥/٨
- والعبر ٢٥٣/٣ والشذرات ٣١١/٣ والسبكي ٢٩/٤ وابن خلكان ٩٢/١ وكتاب الخطيب البغدادي مؤرخ بغداد ومحدثها يوسف العشي .
- (٦) راجعه في تذكرة الحفاظ ١/٤ والمنظّم ٥/٩ ومعجم الأدباء ١٠٢/١٥ وابن خلكان ٣٠٥/٣ وعبر الذهبي ٣١٧/٣ والشذرات ٣١٨/٢ وقوات الوفيات ١٨٥/٢ .
- (٧) انظره في تذكرة الحفاظ ١٨٥/٤ وابن خلكان ١٤١/٤ ومعجم الأدباء ٧١/١٧ وإنباه الرواة ٢٥٧/٣ ومرآة الجنان ١١/٤ والسبكي ٣٦٦/٨ والعبر ١٩/٥ وروضات الجنات ٥٨٥ .

غريب الحديث . وجاء بعده ابن نقطة ^(١) محمد بن عبد الغنى الحنبلى المتوفى سنة ٦٢٩ وله ذيل على الإكمال لابن ماكولا في مجلدين ، وله كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد . وكان يعاصره ابن الدُبَيْبِيِّ وابن النجار وسنعرض لهما في حديثنا عن علم التاريخ . وجاء بعدهما من كبار الحفاظ ابن الفُوطِيّ المتوفى سنة ٧٢٣ وسنذكره معها . وجاء بعده صفى الدين الحسين ^(٢) بن بدران مدرس الحديث بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٤٩ وخلفه الكرماني شمس الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٨٦ وله الكواكب الدرارى في شرح صحيح البخارى ، وهو مطبوع بالقاهرة . وتلاه ابنه تقي الدين ^(٣) يحيى البغدادي المتوفى سنة ٨٣٣ وله شرح على صحيح البخارى ومسلم .

وحتى الآن لم نعرض لكتب الحديث عند الشيعة الإمامية ، ومن أهمها عندهم كتاب الأمل لابن بابويه القمي المتوفى سنة ٣٨١ ولا يقل عنه أهمية كتاب الأمل للمفيد ^(٤) محمد بن محمد بن النعمان المتوفى سنة ٤١٣ وهو أستاذ الطوسى المفسر الذى مر ذكره ، وأماله مطبوعة بالنجف ، وهى تشمل على اثنين وأربعين مجلداً تقتصر على أحاديث مروية عن الرسول ﷺ وآل بيته . وللطوسى كتب مختلفة فى الحديث مطبوعة بالنجف وأهمها الاستبصار فيما اختلف من الأخبار ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية فى العقيدة الإمامية . ودامت كتب الشيعة الإمامية فى العقيدة مشحونة بالأحاديث ، وظل ذلك طوال هذا العصر على نحو ما نجد عند المظهر ^(٥) الحلى الحسين بن يوسف المتوفى سنة ٧٢٦ وكان رأس الشيعة الإمامية الاثنى عشرية بالحلة ، ولازم النصير الطوسى مدة واشتغل فى العلوم العقلية - كما يقول ابن حجر - فهدر فيها ، وله مصنفات كثيرة فى الإمامة والشريعة ، ردّ عليه فيها ابن تيمية وأظهر - كما يقول ابن حجر - أن كثيراً من الأحاديث عنده غير صحيحة .

وكما كانت بغداد داراً للحديث وحفاظه كانت أيضاً داراً للفقهاء والفقهاء ، وأول مذهب فقهي نقف عنده مذهب أبى حنيفة ، ولعل أول فقيه حنفى جدير بالوقوف عنده فى هذا العصر القدورى ^(٦) أحمد بن محمد المتوفى سنة ٤٢٨ وله مختصر مشهور فى الفقه الحنفى لا يزال

- | | |
|---|--|
| (١) راجعه فى تذكرة الحفاظ ١٩٧/٤ والعبير ١١٧/٥ | وبروكلمان ٣/٣٤٩ . |
| وابن خلكان ٣٩٢/٤ والشذرات ١٣٢/٥ . | (٥) راجعه فى الدرر الكامنة لابن حجر (طبعة دار الكتب الخديفة) ١٥٨/٢ والغازوى ١/١٦٦ . |
| (٢) انظره فى الدرر الكامنة ١٣٩/٢ والشذرات ١/١٦٣ . | (٦) انظره فى تاريخ بغداد ٤/٣٧٧ وابن خلكان ١/٧٨١ والعبير ٣/١٦٤ وتاج التراجم رقم ١٣ والجواهر المنصية ١/٩٣ والفوائد الهية للكنوى ١٧ وبروكلمان ٣/٢٦٩ . |
| (٣) راجعه فى الضياء اللامع ١٠/٢٥ والغازوى ١/٦٧ | (٤) انظره فى كتاب الرجال للنجاشى ٢٨٣ ومنهج المقلد للاستزباضى ٣١٧ وروصات الخانات ٥٦٣ |

يدرس إلى اليوم وقد طُبِعَ طبعاَت مختلفة واهتم به العلماء الأحناف بعده وصنعوا له شروحاَ مطولة وموجزة . وكان يعاصره أبو زيد الدبوسي^(١) عبد الله بن عمر المتوفى سنة : ٤٣٠ وله تأسيس النظر في الخلاف ، وهو مطبوع في القاهرة ، ويقال إنه أول من أسس علم الخلاف بين الفقهاء ومذاهبهم المتقابلة . ومنذ أبي يوسف في عهد الرشيد وعنايته بأن يجعل على القضاء فقهاء الأحناف في بغداد وغيرها نشط الفقه الحنفي في العراق ، وكان مما ساعد على ذلك المدرسة التي بناها المستوفى الخوارزمي في عهد السلطان ملكشاه السلجوقي للحنفية^(٢) عند مشهد الإمام أبي حنيفة . وحين بنى المستنصر مدرسته المستنصرية - كما مر بنا - جعل لكل مذهب من المذاهب الأربعة : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي إيواناَ في المسجد وموضع التدريس . وبذلك ظل لفقهاء الحنفية نشاطهم . ومنهم مظفر^(٣) الدين بن الساعاتي المدرس بالمستنصرية المتوفى ببغداد سنة ٦٩٦ وله كتاب مجمع البحرين شرحه في مجلدين . ومنهم أبو البركات^(٤) النسفي ، المتوفى سنة ٧٠١ وله مصفاَت مختلفة في الفقه الحنفي ، من أهمها الكتر وله شهرة كبيرة في تدريس المذهب ، وعليه شروح كثيرة وتلتقى منذ هذا التاريخ بشروح ومتون مختلفة في الفقه الحنفي . وكان البغداديون أقل عناية بالفقه المالكي ، وأكثر من كانوا يعتقدون هذا المذهب وفدوا على بغداد ، ومع ذلك نجد من حين إلى حين فقيهاً مالكياً كبيراً ببغداديا أو عراقيا مثل الباقلافي المتوفى سنة ٤٠٣ وكان شيخه ابن مجاهد محمد بن أحمد الطائي مالكياً مثله^(٥) . ومن وفدوا على العراق أبو العباس المالكي أحمد^(٦) بن محمد المتوفى سنة ٥٠٧ . وكانت حلقة المذهب في المدرسة المستنصرية كما ذكرنا آنفاً سبباً في أن يظل حياً بالعراق ، ويظل له شيوخه وفقهاؤه .

وكان الفقه الشافعي أكثر نشاطاً من فقه المذهبين المالكي والحنفي ، ومن أهم فقهاءه أبو^(٧) حامد المروروذى أستاذ أبي حيان التوحيدى ، وعنه حمل المذهب فقهاء البصرة ، وقد توفى سنة ٣٦٢ ويلقانا بعده في بغداد أبو حامد الإسفراينى^(٨) المتوفى سنة ٤٠٦ وله في

- (١) راجع في الدبوسى الفوائد البية ٢٥ والجواهر المضية (٥) السبكي ٣٦٨/٣
 (٢) ٢٥٢/٢ وابن خلكان ٤٨/٣ وتاج التراجم رقم ١٠٧ (٦) المنتظم ١٧٥/٩
 وبروكليان ٢٧٣/٣ . (٧) انظره في السبكي ١٢/٣ وابن خلكان ٦٩/١
 (٢) ابن خلكان ٤١٤/٥ . والعبر ٣٢٦/٢ والشذرات ٤٠/٣
 (٣) انظره في تاج التراجم ص ٦ والجواهر المضية ٨٠/١ (٨) راجعه في السبكي ٦١/٤ وتاريخ بغداد ٣٦٨/٤
 والفوائد البية ١٦ . وبروكليان ٣٥٧/٦ . وابن خلكان ٧٢/١ والعبر ٩٢/٣ والشذرات ١٧٨/٣
 (٤) ستذكر مصادر ترجمته في القسم الخاص بإيران

المذهب التعليقة الكبرى ، وكان يحضر مجلسه ثلاثمائة فقيه . ومن نابى فقهاء المذهب ببغداد المحاملى^(١) الضببى المتوفى سنة ٤١٥ وله كتاب اللباب فى الفقه الشافعى واختصره أبو زرعة العراقى المتوفى سنة ٨٢٦ واختصر هذا المختصر شيخ الإسلام المصرى زكريا الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٦ . ومربنا حديث عن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠ وكتابه الأحكام السلطانية ، وقد درّس المذهب فى البصرة وبغداد ، وله فى الفقه كتابان هما الحاوى والإقناع ونشرله فى العراق كتاب أدب القاضى فى مجلدين ، وقد ذكرنا له كتاباً فى التفسير . ويزدهر المذهب الشافعى فى العراق منذ تأسس نظام الملك لمدرسته النظامية ببغداد سنة ٤٥٨ وأسس لها أختين فى البصرة والموصل ، ووقف عليها جميعاً أوقافاً كثيرة ، وجعل التدريس فيها خاصاً بفقهاء الشافعية لا فى الفقه وحده بل فى مختلف العلوم ، وقد أسندت تدريس المذهب فى نظامية بغداد لأبى إسحق الشيرازى أحد أئمة المشهورين ، ويظل يتداول وظائفها كبار الفقهاء فى المذهب ، مما أحدث فيه ازدهاراً حقيقياً لا فى بغداد وحدها بل أيضاً فى البصرة والموصل . ويُعنى السبكي فى طبقاته بالترجمة لأعلام الشافعية فى العراق وإحصاء مصنفاتهم ولن نستطيع أن نتابعه ، ونكتفى بأن نذكر من بين من ترجم لهم الشهرزورى^(٢) قاضى القضاة محمد بن محمد المدرس بنظامية الموصل المتوفى سنة ٥٨٦ وابن فضلان^(٣) محمد بن واثق مدرس المستنصرية المتوفى سنة ٦٣١ وابن يونس^(٤) الموصلى عبد الرحيم ابن محمد المتوفى سنة ٦٧١ . وله التعجيز: مختصر الوجيز والنبية فى اختصار التنبية ومختصر المحصول فى أصول الفقه . ويقول السبكي : « كان آية فى القدرة على الاختصار ، ومن أحسن مختصراته فى الفقه كتاب سماه « نهاية النفاسة » قلّ أن رأيت مثله فى عدوبة منطقته وكثرة المعنى وصغر الحجم ، وسأله الحنفية أن يختصر لهم مختصر القدورى « أو موجزه فاختصره اختصاراً حسناً . وعلى هذا النحو ظل الفقه الشافعى ناشطاً فى العراق بفضل مدارسه وفقهائه . وكان للمدرستين النظامية والمستنصرية فى ذلك حظ موفور .

ولعل المذهب الحنبلى كان أكثر المذاهب الفقهية أشياعاً وأنصاراً فى بغداد ، منذ التف الناس حول مؤسسه أحمد بن حنبل ، وقد جعله موقفه من الدولة فى إنكار الفكرة القائلة

(١) انظره فى السبكي ٤٨/٤ وتاريخ بغداد ٣٧٢/٤ (٣) انظره فى السبكي ١٠٧/٨ والشذرات ١٤٦/٥

والعبر ١١٩/٣ والمتنظم ١٧/٨ وابن خلكان ٧٤/١ والعبر ١٢٦/٥

(٤) راجعه فى السبكي ١٩١/٨ والشذرات ٣٣٢/٥ .

(٢) راجعه فى السبكي ١٨٥/٦ والعبر ٢٥٩/٤ ومرة الجنان ١٧١/٤ وذيل مرة الزمان ١٤/٣ .

والنجوم الزاهرة ١١٢/٦

بأن القرآن مخلوق زعيماً شعبياً ، وكان ذلك من أسباب ازدهار مذهبه طوال هذا العصر ، ويكفي أن نمثل بطائفة من فقهاءه ، ومن يلقانا منهم في مطالع العصر ابن (١) بطة عبيد الله بن محمد العكبري المتوفى سنة ٣٨٧ وله كتاب الإبانة بأصول الديانة ، وهو شرح لعقيدة ابن حنبل السنية . ومن تابعهم في القرن الخامس الشريف أبو (٢) جعفر المتوفى سنة ٤٧٠ كان إمام الخنابلة في عصره ، وله رءوس المسائل وشرح المذهب ، وجزء في أدب الفقه . ومنهم في القرن السادس أبو الخطاب محفوظ (٣) الكلواذاني المتوفى سنة ٥١٠ أحد أئمة المذهب ومن تصانيفه الهداية في الفقه والخلاف الكبير المسمى بالانتصار في المسائل الكبار ، والخلاف الصغير المسمى برءوس المسائل ، وكان يعاصره يحيى (٤) بن منده المتوفى سنة ٥١٢ صنف مناقب الإمام أحمد بن حنبل في مجلد كبير ، وكان يعاصرها أبو (٥) الوفاء ابن عقيل ، المتوفى أيضاً سنة ٥١٢ ، وله في الفقه الحنبلي كتاب الفصول ويسمى كفاية المفتي ، في عشرة مجلدات وكتاب عمدة الأدلة ، وأكبر كتبه كتاب الفنون وهو كبير جداً ، يقال إنه كان في مائتي مجلد . وهو في الوعظ والتفسير والفقه والنحو واللغة والشعر والتاريخ والحكايات ، وفيه مناظراته ومجالسه ، وقال الحافظ الذهبي في تاريخه : لم يصنف في الدنيا أكبر من هذا الكتاب . وكان يعاصره ابن أبي يعنى الفراء (٦) المتوفى سنة ٥٢٦ وله تصانيف كثيرة في الفقه والأصول ، منها المجموع في الفقه ، ورءوس المسائل ، والمفردات في الفقه ، وأيضاً المفردات في أصول الفقه . وتلت في أواخر القرن السادس بعلم حنبل كبير هو ابن الجوزي . وظل الفقه الحنبلي مزدهراً في العراق طوال العصر ، ومن فقهاءه ابن (٧) ابن رزالي الحنبلي المدرس بالمستنصرية المتوفى سنة ٧٣٤ وكان يعاصره صفي (٨) الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة ٧٣٩ ودرس معه في المستنصرية . ومن درسوا فيها ابن العاقولي (٩) محمد بن محمد المتوفى سنة ٧٩٧ . ويحاطب هذه المدرسة كان

(٦) راجعه في ابن رجب ١/٢١٢

(٧) الدرر الكامنة ٥/٣ والشذرات ٦/١١١ .

(٨) ذكر ابن حجر في الدرر الكامنة ٣/٣٢٢ أنه كان شيخ العراق على الإطلاق ، وعد له مصنفات كثيرة

وقال : أخذ عنه عمر بن علي معبد الخنابلة

(٩) نظره في الشذرات ٦/٣٥١ والدرر الكامنة

٤/٣١٤ ورجع ابن حجر في إنباء العمر بأبناء العمر

(طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة)

١/٥٠٤ حيث يقول إنه انتهت إليه رئاسة المذهب

حنبل ببغداد ، ويذكر له كتاب شرح المصابيح وأربعين

حديثاً عن أربعين شخصاً .

(١) نظره في تاريخ بغداد ١٠/٣٧١ وطبقات الخنابلة

لابن أبي يعلى ٣٤٦ .

(٢) راجعه في ذيل طبقات الخنابلة لابن رجب (طبعة

المعهد الفرنسي بدمشق) ١/٢٠١

(٣) نظره في ابن رجب ١/١٤٣ والنجوم الزاهرة

٥/٢١٢

(٤) راجعه في ابن رجب ١/١٥٤ وابن خلكان

٦/١٦٨ والشذرات ٤/٣٧ والعبر ٤/٢٥ ومرآة الجنان

٣/٢٠٢ .

(٥) نظره في ابن رجب ١/١٧١ والنجوم الزاهرة

٥/٢١٩ .

كثير من الحنابلة يدرسون في جامع المنصور وفي بعض مدارس بغداد المتفرقة .

وكان مذهب داود الظاهري في الفقه الذي تحدثنا عنه في العصر العباسي الثاني لا يزال له أنصار في القرنين الأولين من هذا العصر ، وهو مذهب كان ينكر القياس والرأى في الفقه ، وتبعه كثيرون في المائتين الرابعة والخامسة في الأندلس ، إذ عمل هناك ابن حزم المتوفى سنة ٤٥٦ على إذاعته ، وألف كتباً كثيرة لنصرته ، ونجد أحد تلاميذه وهو الحميدي^(١) محمد بن فتوح المتوفى سنة ٤٩١ يستوطن بغداد منذ أواسط القرن الخامس وفيها أذاع كثيراً مما كان يحمله عن أستاذه ابن حزم . ولا يزال نسمع في العراق وبغداد عن أتباع المذهب الظاهري حتى أوائل القرن السابع الهجري ، إذ نجد من معتقيه أبا سليمان^(٢) الداودي الضرير المتوفى سنة ٦١٥ . وكان الطبري مفسر القرآن العظيم قد اتخذ لنفسه مذهباً فقهيًا يقوم على الاجتهاد ، ولكن مذهبه لم ينجح نجاح المذهب الظاهري ، ومع ذلك نجد من أتباعه في أواخر القرن الرابع الهجري المعافى^(٣) ابن زكريا النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠ وهو من قضاة بغداد ، ويقول ابن خلكان في ترجمته : إنه كان للطبري أتباع وأخذ بمذهبه جماعة ، منهم المعافى المذكور . وعلى كل حال لم يعيش هذا المذهب الفقهي طويلاً ، وعاش مدة أطول منه المذهب الظاهري في بغداد ، غير أننا لا نعود نسمع به بعد إنشاء المدرسة المستنصرية ، إذ كانت العناية فيها فقط بالمذاهب الفقهية الأربعة : مذاهب أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل .

وكان الفقه الشيعي يقابل كل هذه المذاهب ، وكان هناك فقهاء . فقه الزيدية وفقه الإمامية ، وكانت الكوفة مركز الفقه الأول في القرن الرابع الهجري ، وانقسم فقهاؤها إلى أربعة مذاهب على نحو ما يوضح ذلك كتاب الجامع^(٤) الكافي في فقه الزيدية لأبي عبد الله محمد بن علي الحسيني المتوفى سنة ٤٤٥ . ويبدو أن نشاط الفقه الزيدي هناك توقف منذ القرن الخامس ، إذ استغرق الكوفة وبغداد المذهب الإمامي عند الشيعة ، وكان نشاط الفقه الزيدي انسحب إلى اليمن : أما الفقه الإمامي فيأخذ في النشاط طوال العصر ، منذ ألف الكليني^(٥) الرازي محمد بن يعقوب كتابه الكافي في علم الدين ، وقد توفي ببغداد

(٤) انظر بروكلمان : تاريخ الأدب العربي (طبع دار

المعارف) ٣/٣٣٤

(٥) راجعه في الأتساب ٤٨٦ والرجال للنجاشي ٢٦٦

وروضات الجنات ٥٥٠ ولؤلؤة البحرين ليويسف البحراني

٣١٤ وبروكلمان ٣/٣٣٩

(١) انظره في ابن خلكان ٢٨٢/٤ وتذكرة الحفاظ

١٧/٤ والمتظم ٩٦/٩ والصلة لابن بشكوال (طبع

القاهرة) ٥٣٠ والواقى ٤/٣١٧ .

(٢) راجعه في طبقات القراء ١/٢٧٨ .

(٣) انظره في ابن خلكان ٥/٢٢١ وما به من مراجع

سنة ٣٢٨ وكتابه أحد الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية . وهو يتناول فيه عقيدة الإمامية وأسساها وبه أكثر من ستة عشر ألف حديث . وجاء بعده ابن (١) بابويه القمي نزيل بغداد الذي ذكرناه في غير هذا الموضع وله كتاب من لا يحضره الفقيه في تطبيق أحكام الفقه ، وهو من الكتب الأربعة الأساسية عند الشيعة الإمامية ، وهو مطبوع ، وللشيخ المفيد الرسالة المقتنعة في أسس التشريع ، وهي مطبوعة مع شرح لتلميذه الطوسي في تبرز : وللطوسي كما مر بنا في الحديث كتاب الاستبصار ، وهو كتاب فقهي ويعتمدون عليه اعتماداً كلياً في استنباط الأحكام الشرعية ، وله أيضاً كتاب تهذيب الأحكام ، وهو أيضاً من المصادر الأربعة الأساسية عند الإمامية ، وأحاديثه مرتبة على أبواب الفقه الأساسية . ومن كتبه في الفقه «المبسوط» وهو مطبوع بإيران ، وكتاب النهاية في مجرد الفقه والفتاوى ، وهو مطبوع ، وقد اتخذته الشيعة الإمامية محوراً لدراساتهم الفقهية منذ عصره ، وله في العبادات كتاب مصباح المتهجد جعله في عشرة أبواب ، وزاد عليه في القرن الثامن المطهر الحلي المار ذكره بابا سماه الباب الحادي عشر ، جعله مكملاً له ، والكتاب مطبوع ومعه شرح للمقداد بن عبد الله الحلبي .

ومر بنا في العصر العباسي الثاني حديث مفصل عن الاعتزال وأئمتة وانثاق مذهب الأشعري منه مع بيان وجه الخلاف بينه وبين المعتزلة ووجه الصلة بينه وبين أهل السنة ، وقد طار مذهبه في هذا العصر كل مطار ، فكان الشافعية في خراسان وبغداد وأكثر بلدان العالم الإسلامي يعتقدونه طوال العصر . وبالمثل اعتنقه المالكية حتى قيل إنهم أخص الفقهاء به . واعتنقه أكثر الحنفية في بغداد ، أما في خراسان فقد اعتنقت كثيرهم العقيدة الماتريدية لمحمد بن محمد الماتريدي السمرقندي المتوفى سنة ٣٣٣ وهو يقرب في عقيدته اقتراباً شديداً من الأشعري معاصره ، وكل ما يمكن أن يقال إنه أخذ بفكرة الاختيار في خلق الناس لأفعالهم ، بينما كان الأشعري يقول - كما مر بنا في كتاب العصر العباسي الثاني - إن أفعال الإنسان لله خلقاً وصنعاً وللإنسان كسباً وإرادة ، فهو يريد ما والله يخلقها فيه . ولم يكن ذلك معارضة شديدة لمذهب الأشعري فإن بعض الأشاعرة ممن جاءوا بعده أوشكوا أن يأخذوا برأى الماتريدي ، ومن المؤكد أن عقيدته سنية كعقيدة الأشعري . ويروى السبكي أن فضلاء الحنابلة كانوا أشاعرة ، إلا من جنح منهم إلى تشييه (٢) أخذاً

(١) انظره عند التجاشي ٢٧٦ وفي لؤلؤة البحرين

٣٠٠ وروضات الجنات ٥٥٧ وروكلاان ٣٤٣/٣ ومايه

من مراجع

(٢) السبكي ٣٦٥/٣ - ٣٧٤ ومابعدها

بظاهر القرآن . ومعنى ذلك أن مذهب الاعتزال أخذ يتضاءل خاصة بعد القرن الرابع الهجرى ، حقا نسمع من حين إلى حين ببعض المعتزلة مثل الزمخشري ولكن كثرة الفقهاء والعلماء انضوت تحت راية الأشعرى . ومن كبار الأشعرية فى القرن الرابع أبو بكر الباقلانى ^(١) محمد بن الطيب البصرى المتوفى سنة ٤٠٣ . يقول ابن خلكان : كان على مذهب أبى الحسن الأشعرى ومؤيدا اعتقاده وناصراً طريقته سكن بغداد وتولى بها القضاء وصنف التصانيف الكثيرة المشهورة فى علم الكلام ، انتهت إليه الرياسة فى مذهبه ، وكان كثير التطويل فى المناظرة والجدل قوى الحجة والبرهنة على آرائه ^(٢) . ومن مصنفاته فى عقيدته البيان والتمهيد فى الرد على الملحدين وأضرابهم ، وهو منشور ومثله كتابه الاستبصار ، وخالف الأشعرى فى مسائل ، منها ما ذهب إليه الأشعرى من أن الكافر لا تُسبغ عليه نعمة ، إذ كل ما يتقلب فيه استدراج ، وكان أبو حنيفة يذهب إلى أن النعمة تُسبغ عليه ووافقه الباقلانى ^(٣) . وكان الأشعرى كما مر بنا آنفاً يبنى الاختيار عن أعمال الإنسان ويجعله كسباً ، بينما كان الماترىدى يجعله اختياراً ، ويضهم من كلام الباقلانى أنه يأخذ برأى الماترىدى أو يتقدم نحوه خطوة ، ويقول السبكي : «ولإمام الحرمين والغزالي فى ذلك مذهب يزيد على مذهب الباقلانى والأشعرى ويدنو كل الدنو من الاعتزال» أو بعبارة أدق من رأى الماترىدى ^(٤) . وعلى ضوء ما ذهب إليه أبو الحسن الأشعرى من أنه لا بد من اقتران الأدلة العقلية بالأدلة السمعية من الكتاب والسنة كان الباقلانى ينكر على بعض الفقهاء الشافعية من الأشعرية قولهم بأنه : «يجب شكر المنعم عقلاً» ^(٥) إذ كان ينبغي أن يقولوا : يجب شكر المنعم عقلاً وشرعاً . ويكثر علماء العقيدة الأشعرية فى القرن الخامس وما بعده ، ويكفى أن نعد منهم أبا حامد الإسفراينى وإمام الحرمين الجوينى والقشيرى والغزالي ، وعدّ منهم السبكي فى ترجمته للأشعرى خمس طبقات ، وكل طبقة تكتظ بأئمة العقيدة وأعلامها فى الوطن الإسلامى ^(٦) . وألف أهل السنة من الحنابلة كتباً كثيرة فى

(١) راجع فى ترجمة الباقلانى تاريخ بغداد ٣٧٩/٥ وابن خلكان ٢٦٩/٤ والأنسب للسماعى ٦١ وتبيين كذب المفتري لابن عساكر ٢١٧ و المنتظم ٢٦٥/٧ والوفاء ١٧٧/٣ والديباج المذهب لابن فرحون ٢٦٧ والشذرات ١٦٨/٣ وترجمة القاضي عياض له الملحق بكتابه «التمهيد فى الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة» تحقيق الدكتور أبو ريدة (نشر دار الفكر العربى بالقاهرة)

(٢) مما كان يذهب إليه الباقلانى إثبات الجوهر الفرد (٦) السبكي ٣٦٨/٣ ومابعدها

والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض (مقدمة ابن خلدون : فصل علم الكلام) وانظر فى بقية آراء الباقلانى الملل والنحل للشهرستاني : الفصل الخاص بالأشعرية . (٣) السبكي ٣٨٤/٣ .

(٤) السبكي ٣٨٦/٣ وانظر الملل والنحل للشهرستاني (تحقيق محمد سيد كيلانى نشر مكتبة مصطفى الحلبي) ٩٧/١

(٥) السبكي ٢٠٢/٣

عقيدتهم السنية ، وهى منبثة فى تراجم فقهاهم مثل كتاب عمدة الأدلة لأبى الوفاء بن عقيل وله أيضاً كتاب الإرشاد فى أصول الدين والانتصار لأهل الحديث ونفى التشبيه ، ومرتبنا بين فقهاء الحنابلة ابن أبى يعلى الفراء ، وله إيضاح الأدلة فى الرد على الفرق الضالة المضلة ، وشرف الاتباع وسرف الابتداع .

وكان للشيعية مباحثهم فى العقيدة وعلم الكلام ، وكتبهم الأساسية التى يعدونها أصول عقيدتهم الإمامية هى - كما أسلفنا - كتاب الكافى فى علم الدين للكلينى وكتاب من لا يحضره الفقيه لابن بابويه القمى وكتايب الاستبصار وتهذيب الأحكام للطوسى .

٥

التاريخ

ظلت كتابة التاريخ ناشطة فى بغداد على نحو ما رأينا فى العصرين : العباسى الأول والعباسى الثانى ، وقد مضت تناول التاريخ العام أو التاريخ الخاص أو تاريخ المدن أو تاريخ الرجال فى الحديث أو الأعيان عامة أو العلماء من كل صنف أو الشعراء أو الأدباء أو سير رجال بذاتهم . وكتب التاريخ العام منها ما هو ذيل على كتب سابقة ، ومنها ما هو مستقل ويشتهر فى أوائل العصر كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه وهو تاريخ عام ، وسنقف عنده فى حديثنا فى الفصل الأخير من هذا القسم ويشتهر أبو^(١) شجاع وزير الخليفة المقتدى المتوفى سنة ٤٨٨ بذييل له على هذا الكتاب وهو مطبوع . ويلقانا فى القرن السادس كتاب المتظم فى تاريخ الأمم لابن^(٢) الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ وهو تاريخ عام يتبدئ بأول الخليفة حتى آخر أيام المستضىء بالله العباسى ، وهو مرتب على السنوات مثل الطبرى ، وعادة يذكر فى كل سنة أحداثها ثم من قضى نجبه فيها مرتبين على حروف الهجاء ، وهو يُعنى خاصة ببغداد وأخبارها ، مما يتيح لتصور تاريخها السياسى والاجتماعى تصوراً بيّناً . وجاء بعده كتاب الكامل فى التاريخ لعز^(٣) الدين بن الأثير على

(١) انظره فى المتظم ٩٠/٩ والخريدة قسم العراق
٧٧/١ والواقى ٣/٣ والسبكى ١٣٦/٤ وابن خلكان
١٤٠/٣ والنجوم الزاهرة فى سنة ٥٩٧
والشذرات ٣٢٩/٤ وغير الذهبى ٢٩٧/٤ وكتايبنا
الترجمة الشخصية ص ٤٥ .

(٢) ترجم ابن الجوزى لنفسه فى سياق رسالة نصح فيها
ابنه سماها : « لفتة الكبد إلى نصيحة الولد » وهى
١٢٠/٥ والشذرات ١٣٧/٥ والسبكى ٢٩٩/٨
والنجوم الزاهرة ٢٨١/٦ .

ابن محمد المتوفى سنة ٦٣٠ وهو أنفس كتاب في التاريخ الإسلامي حتى سنة ٦٢٨ وهو مرتب على السنوات ، وقدم له بتمهيد طويل عن تاريخ الفرس والروم وعرب الجاهلية ، وتحدث حديثاً مُسهباً عن أيام العرب القديمة ووقائعهم قبل الإسلام . وجرّده من السند ، ودعا ذلك إلى أن يقرأ روايات الخبر الواحد في تاريخ الطبرى ويقارن بينها ويستخلص الحقيقة التاريخية منها استخلاصاً رائعاً . ومضى بحسب التاريخى الدقيق يعرض أحداث التاريخ إلى منتهى الكتاب ، وبذلك أدّى خدمة جليلة للتاريخ الإسلامى ، بل خدمة رائعة . وله كتاب تاريخ دولة أتابكة الموصل وهو مطبوع . وخلفه سبط ^(١) ابن الجوزى المتوفى سنة ٦٥٤ صاحب كتاب « مرآة الزمان في تاريخ الأعيان » وهو كتاب ضخّم كان يقع في أربعين مجلداً ، واشتهر بذكره لمناكير الأخبار ، ويقول الذهبي إنه يترفض في تاريخه وقد نشر منه مجلد آباء قسامان من الجزء الثامن طبعاً بمطبعة دائرة المعارف العثمانية .

ومن كتب التاريخ العام تاريخ مختصر الدول لابن العبري ^(٢) المتوفى سنة ٦٨٥ كُتب بالسريانية ثم ترجمه إلى العربية وهو مطبوع بالمطبعة الكاثوليكية ببيروت . ومن هذه الكتب كتاب الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية لابن الطقطقى ^(٣) المتوفى سنة ٧٠٩ وقد سماه الفخرى نسبة إلى لقبه ، جعل له مقدمة في السياسة والسلطان ، ثم أخذ يتابع تاريخ الدولة الإسلامية حتى غزو التتار لبغداد ، ويعنى فيه عناية خاصة بوزراء كل خليفة وهو مطبوع مراراً .

وبجانب هذه الكتب التاريخية العامة نلتقى في أواسط القرن الرابع الهجرى بكتاب التاجى في تاريخ الدولة البويهية ، وقد بُنى على السجع ، وبذلك سن مؤلفه أبو إسحق الصائى المتوفى سنة ٣٨٤ لبعض المؤرخين سنة سيئة أن يهتموا بتنميق العبارات لا بالتحليل التاريخى كما صنع معاصره ابن مسكويه . ويصنف بعده العماد الأصبهانى كتاباً في تاريخ السلاجقة يسميه نصرّة الفطرة وسنترجم له في مصر . ويعنى ابن الساعى المار ذكره المتوفى سنة ٦٧٤ بكتابة تاريخ الدرّة العباسية ويؤلف في ذلك تاريخاً جامعاً ثم يجعل له ملخصاً باسم الجامع المختصر وقد نشره الدكتور مصطفى جواد ببغداد الجزء التاسع من هذا الجامع المختصر ، ونشر له بدار المعارف بالقاهرة كتابه « نساء الخلفاء » ويمكن أن نلحق بهذه

(١) انظر في ابن حنكأ في ترجمة جده ١٤٢/٣ والنجوم الزاهرة ٣٩/٧ والثلوات ٢٦٦/٥ والجواهر الفضية ٢/٢٣٠ والنوادر البهية ٩٦ .
 (٢) انظر في العراوى ١/٢٦٤ ودائرة المعارف الإسلامية وما بها مصادر .
 (٣) انظر في كتابنا مطبوعاً باسمه في بيروت وبروكليان

الكتب الخاصة بالتاريخ السياسي كتاب الوزراء لهلال^(١) بن المحسن الصائغ المتوفى سنة ٤٤٨ وقد طبعت منه قطعة في مجلد كبير خاصة بوزارة المقتدر ، وهي حافلة بالأخبار السياسية والأجتماعية والاقتصادية . وأيضاً يمكن أن نلحق بكتب التاريخ السياسي ترجمة بهاء^(٢) الدين ابن شداد لصلاح الدين بطل حطّين وقد سماها النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، وهو موصل تعلم في بغداد وعين معيداً بها في المدرسة النظامية ، ثم تركها إلى نظامية الموصل ، والتحق بخدمة صلاح الدين ، وظل يتولى القضاء في بعض مدن الشام حتى توفي سنة ٦٣٢ . وعلى غرار سيرته صنع بعض المؤرخين العراقيين سيرة للخليفة الناصر معاصر صلاح الدين .

وعنى بعض المؤرخين بتاريخ المدن ، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي السابق ذكره والمتوفى سنة ٤٦٣ تحفة نفيسة ، وقد جعل مقدمتها في مجلد يشتمل على اسم بغداد وتاريخ بنائها وأحيائها الغربية والشرقية وقصورها ومساجدها وكل ما يتصل بها وأفرد بعد ذلك ثلاثة عشر جزءاً لكل من عاش فيها من الأعيان والعلماء والأدباء . كتاب لا نظير له بين كتب التاريخ الخاصة بالمدن . ولابن النجار^(٣) المؤرخ المتوفى سنة ٦٤٣ ذيل عليه في ٣٠ مجلداً واختصره ابن الدمياطي باسم المستفاد من ذيل تاريخ بغداد وفي دار الكتب المصرية نسخة من هذا الذيل بخط مؤلفه . ويذكر ابن خلكان أن لابن^(٤) الديبشي المتوفى سنة ٦٣٧ تاريخاً لمدينة واسط ، وأهم من ذلك أن له ذيلاً على تاريخ بغداد للسمعاني ترجم فيه للمتوفين ببغداد بعد سنة ٥٥٠ إلى أيامه . وللذهبي انتقاء من هذا الذيل باسم المختصر المحتاج إليه من تاريخ الحافظ ابن الديبشي نشر منه الدكتور مصطفى جواد جزءين ببغداد . ولابن المستوفى المبارك بن أحمد المار ذكره بين شراح المتنبي تاريخ إربل .

وتلقانا كتب مختلفة للصحابة ورجال الحديث ، من أهمها أسد الغابة في معرفة الصحابة لعز الدين بن الأثير الجزري المار ذكره ، وهو معجم أيجدى لتراجمهم ، وهو مطبوع في خمسة مجلدات . وله كتاب اللباب مختصر كتاب الأنساب للسمعاني وهو مطبوع . وألف الدارقطني كتاباً سماه «المختلف والمؤتلف» وقد جمع بينه الخطيب البغدادي

- (١) راجعه في تاريخ بغداد ٧٦/١٤ والمتنظم
١٧٦/٨ ومعجم الأدباء ٢٩٤/١٩ وابن خلكان
١٠١/٦ .
- (٢) انظره في ابن خلكان ٨٤/٧ وعبر الذهبي ١٣٢/٥
ومرآة الجنان ٨٢/٤ والشذرات ١٥٨/٥ والسبكي
٣٦٠/٨ .
- (٣) راجعه في تذكرة الحفاظ ٢١٢/٤ ومعجم الأدباء
٤٩/١٩ والشذرات ٢٢٦/٥ والسبكي ٩٨/٨ والقوات
٥٢٢/٢ .
- (٤) انظره في ابن خلكان ٣٩٤/٤ وعبر الذهبي
١٥٤/٥ والسبكي ٩١/٨ والواقف ١٠٢/٣ وطبقات القراء
١٤٥/٢ والشذرات ١٨٥/٥ ومرآة الجنان ٩٥/٤ .

وبين مشبهه النسبة لعبد الغنى بن سعيد ، وزاد عليها وسمى كتابه «المؤتلف تكلمة المختلف» .
ثم جاء بعده أبو نصر بن ماكولا - كما مر بنا - وزاد على هذا الكتاب زيادات في كتاب
مستقل سماه الإكمال ، ومر بنا مديح ابن خلكان له وثناؤه عليه وأن ابن نقطة جعل له ذيلاً
لم يقصّر فيه . ولابن النجار كتب مختلفة في الرجال ، منها : المؤتلف والمختلف ؛ والمتفق
والمفترق في نسبة المحدثين إلى الآباء والبلدان وكتاب جنة الناظرين في معرفة التابعين .
وللزبن العراقى المتوفى سنة ٨٠٦ ذيل طويل على الذهبى في الرجال .

وهناك كتب كثيرة وضعت في تراجم العلماء والأدباء من كل صنف . ومن الكتب
الجامعة لكل فروع الحركة العلمية والأدبية والفلسفية والمآثورات المترجمة عن الهند والفرس
واليونان كتاب الفهرست لابن النديم وسبق أن تحدثنا عنه في غير هذا الموضع ، وتحدث
الآن عن كتب التراجم العلمية والأدبية ونبدأ بما وضع في الفقهاء بعامة مثل كتاب
أبى إسحق الشيرازى أول المدرسين في نظامية بغداد المتوفى سنة ٤٧٦ وقد ضم في كتابه إلى
فقهاء المذاهب الأربعة فقهاء المذهب الظاهرى . وأول من وضع كتاباً في طبقات الشافعية
أبو حفص عمر المطوعى المتوفى سنة ٤٤٠ سماه «المذهب في فقهاء المذهب» ، ووضع
فيهم أبو النجيب السهروردى البغدادى المتوفى سنة ٦٣٢ مختصراً ، ثم ألف فيهم
إسماعيل بن هبة الله بن سعيد بن باطيش^(١) الموصلى المتوفى سنة ٦٥٥ وهو أحد مصادر
السبكي في طبقات الشافعية . واهتم الخنابلة بالكتابة في تراجم فقهاءهم ، من ذلك كتاب
طبقات الخنابلة لابن أبى يعلى الفراء الذى مر ذكره ، ووضع له ابن رجب^(٢) البغدادى
ذيلاً طويلاً في مجلدين ، وقد توفى سنة ٧٩٥ . وعنى الشيعة بالكتابة في رجالهم ، وكتاب
الرجال للنجاشى أحمد بن على المتوفى سنة ٤٥٠ مشهور وهو مطبوع .

ووضع أحمد بن بختيار الواسطى المتوفى سنة ٥٥٢ كتاباً^(٣) في القضاة . ومما وضع في
اللغويين والنحاة كتاب أخبار النحويين البصريين للسيرافى وكتاب نزهة الألباء لابن
الأنبارى وهما منشوران . ومن كتب التراجم المبكرة كتاب صوان الحكمة لأبى سلمان
المنطقى السجستانى المار ذكره وهو فى تاريخ الأطباء والفلاسفة وقد نُشر منتخب له فى طهران
حققه الدكتور عبد الرحمن بدوى ، وهو موزع على قسمين : قسم خاص بفلاسفة اليونان
وأطبائهم وقسم خاص بالمشغلين بالفلسفة فى الإسلام ، وهو كتاب نفيس .
ووضعت فى الشعر والشعراء كتب كثيرة منها كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء

(١) انظره فى السبكي ١٣١/٨ والشذرات ٢٦٧/٥ (٢) راجعه فى الدرر لابن حجر ٤٢٨/٢

(٣) انظره فى معجم الأدباء ٢٣١/٢ والسبكي ١٤/٦ والعبر ٢٢١/٥

للآمدي المارّ ذكره ، وكتاب معجم الشعراء للمرزباني معاصره صاحب كتاب الموشح ، وقد نشرت منه قطعة ، ووضع أبو المعالي (١) الحظيري المتوفى سنة ٥٦٨ كتاباً في الشعراء على غرار دمية القصر للباخرزي وبيّمة الدهر للثعالبي سماه زينة الدهر وعصرة أهل العصر في ذكر لطائف الشعراء ، ووضع بعده العباد الأصبهاني دائرة معارف كبرى في شعراء العالم العربي سماها خريدة القصر وجريدة العصر . ويشتهر ابن الجوزي بكتابه في الصوفية « صفة الصفة » وهو مطبوع في أربع مجلدات وله كتاب في الأذكياء وكتاب في الظرفاء وكتاب في أخبار المغفلين . ولياقوت الحموي البغدادي المارّ ذكره كتاب معجم الأدباء وهو مطبوع في عشرين جزءاً ذكر فيه أخبار اللغويين والنحويين والقراء والمؤرخين والكتاب والمؤلفين ولابن الشعار (٢) الموصلی المتوفى سنة ٦٥٤ كتاب في شعراء القرن السابع سماه « عقود الجمان في شعراء الزمان . ولابن القوطي المارّ ذكره (٣) المتوفى سنة ٧٢٣ كتاب الدرر الناصعة في شعراء المائة السابعة ، وله معجم رتبته حسب الألقاب ، نشر منه مصطفى جواد الجزء الرابع الأقسام (١ - ٤) ونشر القاسمي في لاهور الجزء الخامس . واشتهر ابن (٤) خلكان الموصلی المتوفى سنة ٦٨١ بكتابه « وفيات الأعيان » وهو غاية في الدقة والتحرى .

-
- (١) راجعه في معجم الأدباء ١٩٤/١١ وابن خلكان ٣٦٦/٢ وخريدة القصر (قسم العراق) ٢٨/١/٤ .
(٢) من كتابه مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية .
(٣) انظره في تذكرة الحفاظ ٢٧٤/٤ والدرر الكامنة ٤٧٤/٢ .
(٤) انظر في ابن خلكان العبر ٣٣٤/٥ وفيات الوفيات وفيات الأعيان ١٠٠/١ والسبكي ٣٣/٨ والشذرات ٣٧١/٥ ومراة الجمان ١٩٣/٤ والنجوم الزاهرة ٣٥٣/٧ والواق بالوفيات ٣٠٨/٧ وحسن المحاضرة للسيوطي (طبعة محمد أبو الفضل إبراهيم) ٥٥٥/١ والمدارس في تاريخ المدارس للتبسي (طبع دمشق) ١٩١/١ وروضات الحيات ٨٧ وراجع ترجمته في أول الجزء السابع من كتابه وفيات الأعيان .

الفصل الثالث

نشاط الشعر والشعراء

١

كثرة الشعراء

ظلت موجة الشعر التي مرت بنا في العصرين العباسي الأول والثاني حادة طوال القرن الرابع الهجري ، بل لعلها ازدادت حدة ، ويكفي للدلالة على ذلك أن يبرز في مستهل المتنبي وفي أواخره الشريف الرضي ومهيار ، غير شعراء كثيرين ، فتح لهم الثعالب في كتابة البيعة ثم في تنمة البيعة الفصول تلو الفصول ، وقد بلغ عددهم في العراق عنده أكثر من سبعين شاعراً مما يصور ازدهار الشعر حينئذ ، وهو ازدهار هيأت له عوامل مختلفة ، من رعاية الخلفاء وأمراء بني بويه ولائهم ووزرائهم للشعراء . فقد أغدقوا عليهم المكافآت والجوائز ، وليس ذلك فحسب . فقد استقبلوهم في مجالسهم وحولوها أو حولها بعضهم مثل عضد الدولة البويهى إلى نواد أديبة .

وربما كان الجيل الأول من البويهيين لا يحسن العربية ، فقد روى أن معز الدولة أول حاكم منهم لبعداد حين دخلها احتاج إلى من يترجم له كلام الوزير على بن عيسى (١) ، غير أن الجيل التالي له أكبَّ على الثقافة العربية والتمرين على نظم الشعر ، حتى ل نجد صاحب البيعة يسلك في الشعراء ابنه بختيار ، غير أمراء آخرين من بيته (٢) . وكان وزراء بني بويه يتنافسون في جذب الأدباء والشعراء إليهم ، حتى غدت مجالسهم نوادي شعرية حقيقية ، وأول من اشتهر بذلك من وزراءهم في العراق المهلبى وزير معز الدولة ، وكان غنياً مدارراً للشعراء ، فأكبوا على مجالسه يمدحونه ، ويفيض كتاب البيعة بمدائحهم . وكان لا يقل عنه رعاية للشعراء سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة ، وقد عقد صاحب البيعة لمدائحها باباً مستقلاً عرض فيه خمس عشرة مدحة لناهيههم (٣) . وكان يرعى

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري لأدم (٢) البيعة ٢/٢١٦

(٣) البيعة ٣/١٢٤

ميتز (طبعة القاهرة) ٢٨/١

الشعراء بجانب ذلك كثير من ذوى البيوتات ، وفي مقدمتهم الشريف الرضى ورعايته لمهيار مشهورة . ولا بد أن نلاحظ أن الثعالبي فاته الوقوف عند بعض الشعراء ، في عصر البويهيين مثل مُدْرِكُ بن محمد الشيباني ، وهو بدوى قدم بغداد في شبابه وتولى بها القضاء وتوفى سنة ٣٩٠ واشتهر بأرجوزة ماجنة نظمها في غلام نصراني في نحو خمسين دوراً ذكر فيها شعائر الديانة المسيحية وطقوسها وحواريها ذكراً مفصلاً^(١) ، ومثل أبى الحسن محمد بن عمر الأنباري ، وكان صديقاً للوزير ابن بنية ، فلما صلبه عضد الدولة البويهى رثاه بمرثية رائعة . وتلقانا بعد اليتيمة وتسمتها موجه ثانية من الشعراء في كتاب دمية القصر للباخرزى ، وقد توفى بعد الثعالبي بنحو ثلاثين عاماً سنة ٤٦٧ للهجرة ، مما جعلها يتواردان أحياناً في الحديث عن بعض الشعراء . وفي الحق أن شعراء الدمية محضرمون لحقوا عصر بنى بويه وامتد بهم الأجل في عصر السلاجقة .

وبذلك كانت الدمية لا تصور تماماً الحركة الشعرية في العصر السلجوقي ، لسبب طبيعى ، وهو أنها إنما ألمّت بأوائله . ومرتبنا في الفصل الثانى ما دفع إليه وزير ألب أرسلان نظام الملك (٤٦٥ - ٤٨٥ هـ) من نهضة علمية وأدبية مباركة ، فقد فتح أبوابه للشعراء وأغدق عليهم نوالاً غمراً ، فجاءوه يمدحونه من كل أنحاء العراق ، وينشد الباخرزى في مواضع كثيرة بعض مدائحهم . وتلقانا بعد الباخرزى ثغرة أوفجوة نحو خمسين عاماً ، لو أن ذيل الدمية المسمى كتاب زينة الدهر وعصرة أهل العصر للحظيرى نُشر لسدَّ هذه الثغرة ، فإن الحظيرى توفى سنة ٥٦٧ وكان قد جمع طائفة كبيرة من شعراء أهل عصره ومَن تقدمهم ، وذكر لكل شاعر طرفاً من أحواله وشيئاً من أشعاره . وحرى بنا أن نذكر صُرْدُرَ (على بن الحسن) الشاعر المشهور ببغداد في أواسط القرن الخامس ، وقد توفى سنة ٤٦٥ وله ترجمة في ابن خلكان . وبالمثل ابن السراج البغدادي (جعفر بن أحمد) صاحب مصارع العشاق المتوفى سنة ٥٠٠ وله ترجمة في ابن خلكان وغيره . وقد تلا الحظيرى مباشرة العماد الأصبهاني بكتابه الخريدة التي ترجم فيها لشعراء العالم العربى على طريقة الدمية واليتيمة ، غير أن ترجماته مستفيضة ، وهو ينقل فيها مراراً عن الحظيرى ، مما يدل على أنه يتلافى كثيرين ممن سقطوا في الثغرة التي تحدثنا عنها آنفاً . والمنشور حتى الآن من قسم العراق في الخريدة أربعة مجلدات ضخمة . وهي تتناول في العراق ، كما في الأقاليم الأخرى ، شعراء القرن السادس الهجرى حتى نحو سنة ٥٧٠ ، وقد تعرضت لبعض شعراء

(١) معجم الأدياء ١٣٥/١٩ وانظر تاريخ بغداد

القرن الخامس . والعماد فيها يجمع بين فترتين : فترة سلجوقية تبتدئ من القرن السادس حتى سنة ٥٥١ م ثم فترة الخلافة العباسية إذ رُدَّ إلى الخلفاء صولجان الحكم منذ هذا التاريخ ، وانتهى بذلك عهد السلاجقة في بغداد والعراق . والعماد يفتح المجلد الأول من الخريدة بعرض تراجم للخلفاء العباسيين منذ القائم بأمر الله (٤٢٢ - ٤٦٧ هـ) حتى المستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) ومع كل خليفة ماله من أشعار . ثم يفتح باباً يذكر فيه محاسن الوزراء والكتاب منذ أواسط القرن الخامس حتى زمن المستضيء ، منشداً ما عرفه من أشعارهم ، وقد يذكر بعض ما قيل من مدائح ، ويُضفي في ذلك كله نحو مائتي صفحة من القطع الكبير من المجلد الأول ، ويترجم للشاعر المعروف باسم الحَيْص بيص ترجمة ضافية ، يعرض فيها أشعاراً كثيرة من ديوانه مرتبة على الحروف في نحو مائة وخمسين صحيفة ، ويتبعه في المجلد الثاني بالترجمة لسة وثلاثين شاعراً ، لعل أهمهم علي بن أفلح وابن الهبارية وابن جليتا . ونلتقى في المجلد الثالث بجماعة من أعمال سواد بغداد شرقاً وغرباً ، لعل أهمهم الحظيري والبندنجي ، ثم يذكر جماعة من شعراء الحلة والكوفة وهيت والأنبار . وقد عرضنا لشعراء الحلة عند العماد في القسم الأول من هذا الكتاب في تضايف حديثنا عن شعراء البدو ، وينتهي المجلد الثالث بالحديث عن شعراء واسط ، وربما كان أهمهم ابن السوادى ، وهو ماجن من طراز ابن سكرة وابن حجاج . ويستمر المجلد الرابع في عرض شعراء من واسط أهمهم ابن المعلم ، ثم يذكر طائفة من شعراء البصرة وأدبائها ، أهمهم الحريري ويحيى بن سعيد بن ماري النصراني ، وله ستون مقامة حاكى فيها الحريري ولكنها دون مقاماته . ونظل بعد سنة ٥٧٠ دون مرشد هاد ، إلا ما اشتمل عليه كتابا معجم الأدباء لياقوت ووفيات الأعيان لابن خلكان من شعراء بغداد ، مما يكاد يشغل المائة التالية للخريدة . ولو أن كتاب عقود الحجان في شعراء هذا الزمان لابن الشعار الموصلى المتوفى سنة ٦٥٤ نُشر لسدَّ الفراغ الشاغر من شعراء النصف الأول من القرن السابع الهجري في العراق وغير العراق ، ولكنه لما ينشر . وفي معهد المخطوطات بالجامعة العربية مصورة منه ، والأعلام فيه ليست مرتبة على الأقاليم والبلدان مثل الخريدة والدمية واليتمية ، وإنما على حروف المعجم ، كترتيب المعاجم ، وهو كتاب نفيس . على كل حال يسدُّ ابن خلكان وياقوت وأيضاً فوات الوفيات هذه الثغرة التي تمتد حتى اكتساح التتار لبغداد سنة ٦٥٦ . ونستطيع أن نتعرف على بعض الشعراء النابهين في تلك الحقبة مثل ابن التلميذ هبة الله بن صاعد المتوفى سنة ٥٦٠ وسبط ابن التعاويذي المتوفى سنة ٥٨٣ ولعل العماد الأصهباني ترجم لها في المجلدين اللذين لما ينشرا من القسم العراقي بالخريدة ، ومثلها الأبله الشاعر المتوفى سنة

٥٧٩ . وتلقانا في النصف الأول من القرن السابع طائفة من الشعراء ، من أهمهم أبو حفص عمر السُّهْرَوْرْدِيّ البغدادي الصوفي والحاجري المتوفيان سنة ٦٣٢ والصَّرْصِرِيّ وابن أبي الحديد المتوفيان سنة ٦٥٦ .

ويكتسح التتار بغداد والعراق ، ويجف كثير من ينابيع الفكر والحضارة والعلم والأدب ، ويظل للشعر شيئاً من نشاطه في زمن المغول الإيلخانيين ، وبلغنا ابن رشيد البغدادي المتوفى سنة ٦٦٢ والشهاب التَّلْعَفْرِيّ والواعظ الكوفي البغدادي المتوفيان سنة ٦٧٥ . ونمضي إلى القرن الثامن وثلثي شعراء عراقيين مختلفين ترجم لهم ابن حجر في الدرر الكامنة ، ويظهر كوكب شعري كبير وسط الدياجي التي أخذت تطبق على الحياة الأدبية في العراق ونقصد صني الدين الحِلِّيَّ المتوفى سنة ٧٥٠ وهو خاتمة شعراء العراق العظام قبل العصر الحديث . وكان يعاصره محمد بن القاسم الملقب بالمليحي الواسطي المتوفى سنة ٧٤٤ وله ترجمة في الدرر الكامنة ، ومثله علي بن الثَّرْدَة المتوفى سنة ٧٥٠ . ولا نكاد نلتقي بشاعر مهم في زمن التركمان ، بين من ترجم لهم السخاوي في كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » وبالمثل لا يلقانا شاعرنا في زمن العثمانيين سواء في دورة حكمهم الأولى أو في دورة المماليك . وحقا يوجد بعض شعراء عراقيين في كتب التراجم مثل « سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر » لابن معصوم و« خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي وكتابه « نفحة الريحانة » ومثل « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » للمرادى . ومن لمع اسمه في الدورتين المذكورتين شهاب الدين الموسوي المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م وديوانه مطبوع وشعره فيه متوسط . ومثله الشيخ محمد كاظم الأزرى المتوفى سنة ١٢١١ هـ / ١٧٩٦ م وقد طبع ديوانه في بومباي . وقد يكون من الطريف أن نقرأ من الشعراء كانوا يقدمون لدواوينهم ^(١) ، ولكن على كل حال كانوا جميعا نظاميين أكثر منهم شعراء بالمعنى الحقيقي لكلمة شعراء .

٢

رُبَاعِيَّاتٌ وَتَعْقِيدَاتٌ وَمَوْشَحَاتٌ

مرَّبَّنَا في كتاب العصر العباسي الأول ما نهض به الشعراء من تجديد في الأوزان وكيف أن هذا التجديد رافقه تجديد آخر في القوافي ^(٢) ، ولعل أول ما شاع من صورته اللون

(١) راجع تاريخ الأدب العربي في العراق لعباس (٢) انظر في ألوان هذا التجديد كتاب العصر العباسي الراوى (طبع بغداد) ٢/٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٣٠٣ الأول (طبع دار المعارف) ص ١٩٦ وما بعدها .

المسمى بالمزدوج ، إذ استخدمه الوليد بن يزيد وأخذ استخدامه بعده يتسع في الشعر التعليمي منذ أبان بن عبد الحميد ، وتبعه الشعراء ينظمون فيه التاريخ والعلوم والفلسفة . وهو الذي سماه الفرس فيما بعد باسم المثنوى مختارين له وزناً معيناً وفيه تتحد القافية بين شطري كل بيت مع تغييرها من بيت إلى بيت . وبذلك لم تعد الوحدة فيه البيت ، وإنما الشطر ، وأكبر الظن أن ذلك هو الذي ألهم الوشاحين فيما بعد أن تقوم الوحدة في موشحاتهم على الشطر لا على البيت . وقد اتسع استخدام هذا اللون المزدوج في هذا العصر : عصر الدول والإمارات ، إذ لم يترك العلماء علماً دون أن يودعوه في أرجوزة مزدوجة ، وتموج المكتبات العربية بهذه المزدوجات في كل علم وكل فن .

وقد ظهرت المسطحات منذ فواتح العصر العباسي الأول ، وهي قصائد تتألف من أدوار ، وكل دور يتألف من أربعة شطور أو أكثر ، وتتفق شطور كل دور في قافيتها ما عدا الشطر الأخير فإنه ينفرد بقافية مغايرة يلتزمها الشاعر في جميع الشطور الأخيرة من الأدوار . والمسَّمط مشتق من السَّمَط ، وهو قلادة تنتظم فيها عدة سلوك تلتق عند جوهرة كبيرة ، وكأن كل دور في المسَّمط الشعري سلك يلتقى مع الأدوار أو الأسلاك الشعرية الأخرى في قافية الشطر الأخير . وقد مثلنا في كتاب العصر العباسي الأول بمسَّمطين لأبي نواس يتألف الدور في أحدهما من أربعة شطور وفي الثاني من خمسة . وتظل المسطحات طوال عصر الدول والإمارات قائمة بجوار القصيدة ، وينظم الشعراء فيها من حين إلى حين إظهاراً للبراعة ، وعنى كثير منهم أشد العناية بتصفية ألفاظه وخففتها على اللسان ورشاقها على نحو ما نجد في هذه الأدوار من مسَّمط (١) أنشده العباد الأصبهاني في الخريدة لأبي المعالي بن مسلم :

يَارِبِمُ كَم تَجَنَّنِي ؟	لِمَ قَد صَدَدْتَ عَنَّا	صِلْ عَاشِقًا مَعْنَى
	بِالْوَصْلِ مَا تَهَنَّا	
السُّلْسَبِيلُ رِيْقُ	وَالشَّهْدُ وَالرَّحِيقُ	وَالوَرْدُ وَالشَّقِيقُ
	مِنْ وَجَّتِيهِ يُجَنَّا	
قَد غَيَّرُوا وَلا مَوَا	مَنْ شَفَّهَ السَّقَامُ	مَا يَنْفَعُ الْمَلَامُ
	مَنْ فِي هَوَاكَ جَنَّا	

والدور في هذا المسَّمط يتألف من أربعة شطور ، والرابع قطبها الذي تدور عليه ، ومثله المسطحات ذات الشطور الخمسة وتسمى الخمسات ، ومثلها ذات الشطور الستة

والسبعة وتسمى المسدّسات والمسبّعات . وشاع في الحقب المتأخرة تخميس بعض القصائد المشهورة مثل هزمية البوصيري وُبرِدته

وتظهر الرُباعيات مع المسبّطات والشعر المزدوج ، وقد ذكرنا في كتاب العصر العباسي الأول أنها بدأت مع بشار وحماة وعجرد وأنها كثرت عند أبي نواس وأبي العتاهية ، وضرينا لها بعض الأمثلة ، والرابعة أربعة شطور من الشعر تولّف بيتين ، ولأنها تتكوّن من أربعة شطور سميت رُباعية ، وعادة يتحد الشطر الأول والثاني والرابع في القافية ، أما الشطر الثالث فقد يتحد مع تلك الشطور في قافيته وقد يختلف . وتلقانا هذه الرباعيات كثيراً في اليتيمة والدمية والخريدة ، وفي كتب الأدب مثل معجم الأدباء ، ومرّبنا أنه ترجم لشاعر يسمى مدرك بن علي الشيباني ، وذكر له أرجوزة تشتمل على خمسين دوراً كل دور رباعية منفردة . وبذلك أعد نمط الرباعية من قديم لظهور الشعر الدوري في العربية . ولم يكن شعراء العصرين : العباسي الأول والثاني يَخُصُّون الرباعية بوزن معين ، بل كانوا ينظمونها في جميع أوزان الشعر حتى إذا كان هذا العصر : عصر الدول والإمارات وجدنا الفرس يَشْرِكُون العرب في استخدامها متخذين لها اسم « دوبيت » و « دو » عندهم اثنان . وأيضاً فإن الفرس والعرب جميعاً أخذوا يستخدمون فيها وزناً جديداً هو : « فَعْلُنْ مُتَفَاعِلُنْ فَعُولُنْ فَعْلُنْ » وهو الذي ضبطه العروضيون ، وأهم منه وزن ثان هو « فَعْلُنْ فَعْلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ مُسْتَفَعِلُنْ » . وتصور ذلك رسالتان^(١) فريدتان في عروض الدوبيت « نشرهما هلال ناجي ببغداد ، وهما لمالك بن المرحّل المتوفى سنة ٦٩٩ وأولاهما تُعْنَى بالوزن الأول للدوبيت ، والثانية تعنى بالوزن الثاني ، ومن أجل ذلك رجح هلال ناجي أن لا تكون الرسالة الثانية من صنع مالك . ويبدو أن الفرس في القرن الخامس كانوا أكثر شغفاً بالرباعيات من العرب على نحو ما هو معروف عن الخيام في رباعياته ، وتلقانا في الخريدة رباعيات كثيرة ، ويرجم العماد فيها لشاعر من موظفي الخلافة العباسية وعمالها في الستينيات من القرن السادس الهجري ، يسمى أبا المحاسن^(٢) بن البوشنجي ، ويقول إنه كان لهجاً بنظم الرباعيات ، ويسوق له طائفة منها في الغزليات والخمريات من مثل قوله متغزلاً :

ما أطيّبَ ما زارَ بلا ميعادٍ يَحْتَالُ كعُصْنِ بانهٍ مِيَادٍ

(١) انظر الرسالتين في العدد الرابع من المجلد الثالث من (٢) انظر ترجمته في الخريدة ٢/٢٥٧ .
مجلة المورد ببغداد .

ماطلٌ ، ولا بَلَّ غَلِيلَ الصَّادِي حَتَّى قَرَّبَ الْبَيْنُ وَنَادَى الْحَادِي
 فصاحبه زارته دون موعد ، مختالة بجماها كغصن متمائل ، ويقول إنها ماطلت
 وزارت ، ولا بَلَّتْ غليله المتقد الظامي للقاء ، حتى كان الفراق ونادى حادى الركب ،
 فجاءت تودعه من وقوف أو كما يقال : ما سلّمت حتى ودّعت . ومن رباعياته الخمرية
 قوله :

رَقَّتْ وَصَفَتْ وَاسْتَرَقَتْ أَلْبَابَا رَاحُ لَيْسَتْ مِنَ الضَّنَا جِلْبَابَا
 يَا بَدْرُ أَدِرْ وَعَدِّ عَمْرُ يَايَ كَأَسَا ، طَرِدَ الِهْمُ بِهَا فَانْجَابَا

والرباعية فيها شيء من روح رباعيات الخيام وما فيها من دعوة إلى العكوف على شرب
 الخمر ، أو بعبارة أدق الفرار إليها من الهم والغم ، حتى تنتعش النفس ، كما يقول ، وتطرح
 عنها بؤس الحياة بما تعبُ من دنان الخمر وما تجد في مجلسها من أنس وطرب . ويسوق
 صاحب رسالة الدوييت الثانية تسع رباعيات قائلاً إنه مما أنشده أبو عبد الله محمد بن حامد
 الأصبهاني صاحب الخريدة ، وسهّلها بالرباعية التالية :

الْوَرْدُ عَلَى خَدِّكَ مَنْ أَنْبَتْهُ وَالْمَسْكُ عَلَى وَرْدِكَ مَنْ فَتَتْهُ
 وَالْقَلْبُ عَلَى نَائِكَ مَنْ ثَبَتْهُ اجْمَعُ شَمْلًا هَوَاكَ قَدْ شَتَّتَهُ

وهي رباعية بديعة بما اشتملت عليه من تصوير يحمل غير قليل من المفاجأة ، حين
 يجعل صاحبها الخد ورداً حقيقياً ، ويعود فيجعله ناشراً لأريجٍ عطرٍ حوله ، وكأن
 مسكاً ذرُّ عليه ونثرٌ ، ويعجب أن تنأى صاحبه وقلبه لا يزال في صدره . وإن فؤاده
 ليتوزع فرقاً ، ويضرع لصاحبه أن تجمع شمله المشتت ، لعل صوابه يردُّ إليه . ويسوق
 صاحب رسالة الدوييت الثانية أيضاً طائفة من رباعيات أنشدها ابن الجوزي نيفت على
 عشر ، وموضوعها غزل ولكنه غزل صوفى ، فقد كان ابن الجوزي من كبار الوعاظ وكان
 سني التصوف ، ومما أنشده :

الْحِبُّ يَقُولُ لَا تُشِعْ أَسْرَارِي وَالدمعُ يَسِيلُ هَاتِكَ أَسْتَارِي
 وَالشُّوقُ يَزِيدُ ، لَا عَلَى الْمَقْدَارِ وَأَنَا رِي ! مِنْ هَذَا الْهَوَى وَأَنَا رِي

فحبيبه يطلب إليه أن يكتم حبه ، وهو لا يستطيع له كتماناً ، إذ دائماً يبكي طالباً
 الوصال ، ملحاً في طلبه وفي بكائه ، والدموع تسيل مدراراً كسحب منهلة ، والشوق
 بلذعه ويكويه وهو يتوجع من نيرانه . إنه حب الذات العلية الذي يُضنى ويسقم
 والمحِبُّ يتألم آلاماً لا يطيقها إلا الصابرون المولعون بوصول الذات الربانية . ومما أنشده

ابن الجوزى فى تلك الرباعيات :

ما أصنع؟ هكذا جرى المقدورُ الجبرُّ لغيرى وأنا المكسورُ
مأسورٌ هوىً متيمٌّ مهجورٌ هل يمكن أن يغيرَ المسطورُ

والرباعية تفيض بياس محب مهجور ، يقول ما أصنع والحجاب يقوم بينى وبين محبوبى ، هكذا جرى القلم ولا يسعه إلا أن يمثّل ويدعن ، وإنه لياسى أسى عميقاً لنفسه ، فغيره يُجبرُّ ويوصلُّ وهو يُحرّمُ ويُبعدُ ويُكسرُّ كرجاج مصدوع لا يُشعبُ ، وإنه لأسير هذا الهوى الذى يبرّح به والذى يتعثّر فى شبابه ، قدرُ أزلى كُتب عليه ، لا مفرّ منه ولا مهرب . وابن الجوزى توفى سنة ٥٩٧ هـ وتوفى العماد فى نفس السنة ، وفى كثرة إنشادهما للرباعيات ما يدل على أنها قد شاعت فى عصرهما وانتشرت انتشاراً واسعاً . وهى تلقانا عند الحاجرى وغيره من شعراء القرن السابع . ويقول مالك بن المرحّل إنها تستعذب فى الغناء ، وأكبر الظن أنها لم تكن تستعذب فى الغناء فحسب بل كانت تستعذب أيضاً فى أناشيد المتصوفة بملقات الذكر ، وقد جمع كامل الشيبى طائفة كبيرة منها على مر العصور ونشرها باسم ديوان الدويبة .

وأخذ يعم منذ أوائل هذا العصر مذهب التصنع والتعقيد الذى صورناه بالتفصيل فى كتابنا « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » وقد أوضحنا كيف أن المحسنات البدئية فى مذهب التصنع والتنميق السابق له كأنما أخذت تزايلها أو تفارقها بعض أصباغها عند العراقيين وغيرهم من شعراء العصر ، ومثلنا لذلك باستخدام المتنبى للطباق والاستعارة واستخدام غيره للجناس . وقد أولع الشعراء فى هذا العصر باللون الأخير ، وأخذوا يطلبون فيه صعوبات مختلفة ، ومن أخف صورها قول أبى الجوازى الواسطى ^(١) المتوفى سنة ٤٦٢ :

واحزنى من قولها خانَ عهدى ولها
وحق من صيرنى وقفاً عليها ولها
ما خطرت بخاطرى إلا كسنتى ولها

ولها فى نهاية البيت الأول من اللهو ، وقد جانس بينها وبين الجار والمجرور فى نهاية البيت الثانى ثم جانس بينها وبين كلمة « وله » أى شدة الوجد فى نهاية البيت الثالث . وقد يقبل هذا الجناس المعقد فى تلك الأبيات لحفته ، غير أننا لا نكاد نغضى بعد

(١) انظر فى أبى الجوازى ابن خلكان ١١١/٢ وتاريخ

بعداد ٣٩٣/٧ والدمية ٣٤٢/١ والخريدة ٤/١ ٣٤٣

والمتنظم ٢٥٨/٨ وميزان الاعتدال ٢٣٨/١ .

صاحبه حتى نلتقى بالحسن^(١) بن أسد الفارق المتوفى سنة ٤٨٧ وكان يكثر من التجنيس ، كما لاحظ العباد الأصبهاني وياقوت ، وله قصيدة تجمع خمسة عشر بيتاً ، وكل بيت فيها مخنوم بكلمة «عين» طلباً للجناس الكامل ، فهى تتوالى بمعنى عين الإنسان وبمعنى رقيب وبمعنى عين الماء إلى غير ذلك من معانيها . وهو تكلف شديد . ونظن ظناً أنه أحد من أشاعوا فكرة تكوّن الجناس بين كلمة وكلمتين يؤديانها لفظاً في مثل قوله :

تُرَاكُ يَا مِتْلَفَ جِسْمِي وَيَا مُكْثِرَ إِعْلَالِي وَأَمْرَاضِي
مِنْ بَعْدِ مَا أَضْنَيْتَنِي سَاخِطًا عَلَيَّ فِي حَبْكِ أُمِّ رَاضِي

وواضح أن كلمتى «أم راضى» فى البيت الثانى تقابلان أو تجانسان كلمة «أمراضى» فى البيت الأول . ويلاحظ أن مثل هذه الجناسات فى نهايات الأبيات لم تكن تحقق فكرة الجناس فحسب ، بل كانت تحقق أيضاً فكرة لزوم ما لا يلزم فى القوافى إذ تصيح القافية أكثر من حرف أو روى ، ولذلك يقول العباد إنه كان يلتزم ما لا يلزم فى قوافيه . وفى الحق أن أبا العلاء هو الذى فتح فى لزومياته لمثل هذه الكلف فى الجناس على نحو ما يوضح ذلك كتابنا «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» وكان يطلبه أحياناً بين أول كلمة أو كلمتين فى البيت وآخر كلمة ، مما جعل الحريرى يستلهم صنيعه فى المقامة الحلبية قائلاً :

سِيمٌ سِيمَةٌ تَحْسُنُ آثَارُهَا وَاشْكُرْ لِمَنْ أَعْطَى لَوْ سَمِسِمَةٌ
وَالْمَكْرُ مِمَّا اسْطَعْتَ لَا تَأْتَهُ لَتَقْتَنَى السُّودُّدَ وَالْمَكْرُمَةَ

والجناس واضح بين أول البيتين وآخرهما وهو فى البيت الثانى جانس بين اللفظة الأولى وجزء من تاليها وبين اللفظة الأخيرة . وكل ذلك تصعب وتعقيد فى التماس الجناس . ويخلف الحريرى يحيى بن سلامة الحَصَكْنِي نزيل ميافارقين المتوفى سنة ٥٥٣ فراه ينظم بعض قصائد قاصداً بها إلى التجنيس منها قصيدة بناها على التجنيس الناقص افتتحها بقوله^(٢) :

أَطْعِمِ الْهُوى فَالْعَقْلُ خَازٍ خَازِمٌ وَالْجَهْلُ يُغْرِى وَهُوَ هَازٍ هَازِمٌ

وخاز : قاهر . وهاز : ساخر . ويمضى فى القصيدة مجانساً بين كلمتين متواليتين على هذه الصورة المتكلفة وكأنه لم تعد هناك حاجة وجدانية لنظم الشعر ، إذ حلت محلها

(١) راجع فى الحسن بن أسد الفارق الحريرة (قسم ٢٢٩/١ .

الشام) ٤١٦/٢ ومعجم الأديباء ٥٤/٨ وإنباء الرواة (٢) الحريرة (قسم الشام) ٥٠٨/٢ .

٢٩٤/١ وشذرات الذهب ٣٨/٣ وفوات الوفيات

حاجة إلى التعقيد في الشعر وتصعيب ممراته التي يسلكها الشاعر إلى صناعته .
 وإذا رجعنا إلى البديعيات منذ بديعية صفي الدين الحلي وجدنا الشعراء دائماً يعقّدون
 فيها ، وقد يضيفون ألواناً جديدة ولكن ينقصها الحسن والرواق والبهاء . وقد أكثروا من
 الاقتباس ، وحسّن أن يقتبس الشاعر بعض ألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف فإنها تلذ
 النفس ، غير أن الشعراء أكثروا من اقتباس أشعار الأسلاف يضمنونها قصائدهم ،
 مما يعطل الحركة الوجدانية في أشعارهم ، وبلغ من تكلفهم في هذا اللون أن نجد شاعراً
 يسمى الشيخ أحمد النجفي الحليّ المتوفى سنة ١١٨٣ هـ/ ١٧٦٩ م يضمن إحدى مدائح
 شطراً من ألفية ابن مالك المشهورة في النحو ، فله شطر ولابن مالك شطر^(١) .
 ودفع المتنبي الشعراء منذ أوائل هذا العصر إلى التصنع للثقافات المختلفة ، وقد
 أوضحنا ذلك في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » فصورنا تصنعه لبعض
 مصطلحات التصوف وسمات العبارة الصوفية وللأفكار والصيغ الفلسفية ولألفاظ
 اللغة الغريبة وبعض اشتقاقاتها النادرة وأساليبها النحوية الكوفية الشاذة . وتبعه أبو
 العلاء يكثر في لزومياته من التصنع لألفاظ العلوم اللغوية والإسلامية . ومضى الشعراء
 في العراق وغير العراق بعد الشاعرين الكبيرين يلتمسون أحياناً التجديد في الأساليب
 بما يطوّى فيها من مصطلحات علمية . وكل ذلك كان تعقيداً وقيوداً ، حتى يصعب
 الشعراء عملهم ، وحتى يظهروا مهارتهم في السلوك إليه من أضيّق الممرات والدروب .
 وأخذت تظهر سريعاً صور من التمارين الهندسية في الشعر ، وكأنّ الشاعرية لم تعد
 تقاس بالأثر الوجداني الذي يحدّثه الكلام في نفوس الناس ، بل غدت تقاس بما يمكن
 أن يستحدثه الشاعر من عقّد ، وربما كان الحريري أهم من فتح هذه الأبواب ، إذ
 نراه في مقاماته لا يزال يغرب بأفانين لفظية كثيرة ، فمن ذلك أن تُقرأ الأبيات طرداً
 وعكساً كما جاء في المقامة المغربية من مثل قوله :

املُّ جنابَ غاشمٍ مشاغِبٍ إن جلسا
 فإن البيت يُقرأ من آخره كما يقرأ من أوله دون أي اختلاف في لفظ أو حرف ،
 ومن الغريب أن من جاءوا بعده جعلوا ذلك لوناً من المحسنات البديعية وسموه
 « ما لا يستحيل بالانعكاس » . وتمرين هندسي ثان عرضه في المقامة الشعرية ، وهي
 أبيات التزم في داخلها قافية غير قافيتها الخارجية على هذه الصورة :

يا خاطبَ الدنيا الدنيّة إنها شركُ الرّدى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكك في يومها أبكت غداً بعداً لها من دار
فإننا إذ اوقفنا عند الكلمة الدالية في الشطر الثاني أصبح البيتان من مجزوء الكامل
على هذا النحو :

يا خاطب الدنيا الدنيءة إنها شرك الردى
دار متى ما أضحكك في يومها أبكت غدا

وبجانب هذا التمرين الهندسى الذى لا يضيف معنى نجده في مقامته التى سماها
بالرّقاء يبتكر تمريناً أحد حروف كلماته منقوط وتاليه غير منقوط من مثل قوله :
مخلفٌ متلفٌ أعزُّ فريدٌ نابهٌ فاضلٌ ذكىٌ أنوفٌ
ويتلو هذا التمرين بتمرين مماثل في نفس المقامة ، وكرر ذلك في المقامتين المروية
والبكرية . ونراه في المقامة الحلبية يبتدع تمريناً شعرياً من طراز خطى آخر ، هو طراز
الحروف الخالية من النقط في مثل قوله :

أعديّ لحسادك حدّ السّلاحِ وأوردِ الآملِ وردَ السّاحِ

ولا يكتفى بهذا التمرين ، بل يضيف إليه تمريناً شعرياً خطياً ثانياً ، كل كلماته مؤلفة
من حروف معجمة أو منقوطة من مثل قوله :

فنتنّيتى فجننتيتى (تجّيتى) بتجنّيتى يفتنّيتى غبّ تجّيتى

وكأن هذين التمرينين الهندسيين في تلك المقامة لم يقنعا ، أو كأنه أحس أنه من
الممكن محاكاتها فجاء بتمرين خطى ثالث ، لا يتعلق هذه المرة بالنقط وعدمه ، بل
يتعلق بشكل الحروف ، إذ يظن من ينظر إلى كلماتها نظرة سريعة أنها مماثلة مثل :

زُيْنَتْ زُيْنَبُ بِقَدُّ بِقُدُّ وَتَلاهُ - وَتَلاهُ - نَهْدُ يَهْدُ

وواضح أن بين كل لفظين متواليين تجنيساً خطياً واضحاً . وكل ذلك ليس شعراً
وإنما هو تمارين أو لعبٌ هندسية^(١) ، غير أنهم كانوا يعجبون بها ، ولذلك نرى
الشعراء - وخاصة المتأخرين - ينظمون منها كثيراً . ومن تنمة هذه التمارين الهندسية في
العصر كثرة الألفاظ والأحاجى في الشعر وقد خصوها بالتأليف اهتماماً بها ، من ذلك
كتاب الإعجاز في الأحاجى والألفاظ للحظيرى وعنه ينقل العماد في الخريدة^(٢) ، ولا
يلبث أن يترجم لشاعر شُغف بها هو الحكيم^(٣) النبلى الطيب ، ويذكر له طائفة من

(١) من هذه اللعب مارواه العماد من قصائد أولها تاه

وآخرها تاه أو أولها جيم وآخرها جيم أو أولها دال وآخرها

دال انظر الخريدة (قسم العراق) ٧٤٩/٢/٤ وقسم الشام

(٢) الخريدة (قسم العراق) ٤٧٥/٢/٤

(٣) نفس المصدر ص ٤٩٨ وما بعدها

ألغازه الشعرية في العقل والرمانة وكيزان الصَّخَّار والثَّأى وفيه يقول :

له رأسٌ يخالف منه جسماً بلا رجلٍ فقيسٌ فيما تقيسُ
يثنُّ أنينَ صَبٍّ مستهامٍ مشوقٍ قد نأى عنه أنيسُ
وليس بذى صباياتٍ فيهِوى ولكنَّ الهوى فيه حبيسُ

غير ألغاز أخرى ذكرها العماد ، وألغازه طريفة ، غير أن من جاء وابعده حشدوا فيها شعراً رديئاً معقداً . وقد أكثر الشعراء في الحقب المتأخرة من التواريخ في الشعر ، إذ يحسبون بيتاً أو نصف بيت بحساب الجمل مؤرخين للسنة التي نظموا فيها قصائدهم أو لسنة العرس الذي هنأوا به أو للسنة التي ولد فيها غلام إلى غير ذلك مما لا يفيد معنى . ومع ذلك فقد كان هناك شعراء مجيدون دائماً ، كانوا أعلاماً نابيين ، وسنفرد لهم بعض الصحف التالية .

ومن أهم ما تمتاز به أقالمتنا في العصور الوسطى أنه كانت تسود بينها في الأدب وفي العلم وحدة ، جعلت كل شاعر نابيه في إقليم كأنه شاعر البلاد العربية جميعها ، كما جعلت كل لون جديد يظهر في إقليم لا يلبث أن تنظم فيه الأقاليم الأخرى ، ومن خير الأمثلة الدالة على ذلك الموشحات ، إذ نجدتها تظهر في الأندلس ويضع لها قوانينها في القرن السادس شاعر مصري هو ابن سناء الملك ، ونراها على ألسنة الشعراء في الشام والعراق وغيرها من البلدان العربية ، ومن أمثلتها في الخزيرة موشحة ^(١) لشاعر موصل هو التاج البلطي المتوفى سنة ٥٩٩ . ويلقانا في القرن السابع وشاح عراق كبير ترجم له ابن تغرى بردى في المنهل الصافي باسم شهاب الدين الموصل ^(٢) أحمد بن الحسن صاحب الموشحات ، وكان يستخدمها في المديح وغير المديح ، وينشد ابن تغرى بردى موشحة له عارض بها موشحة للقاضي الفاضل عبد الرحيم ، تجرى على هذا النحو :

بِي مَنْ حَوَى الْحَسْنَ كَلَّهُ	وفاق	غَيْدَ الْأَكْلَةِ ^(٣)
بَدْرٌ تَمَامٌ مَصَوَّرٌ	ما	فِيهِ نَقْصُ الْأَهْلَةِ
فَشَعْرُهُ لِلْبَالِي	وَقَرَقَهُ	لِلصَّبَاحِ
وَجَفَنَهُ لِلنُّصَالِ	وَقَدَّهُ	لِلرَّمَاحِ
وَرِيقُهُ لِلزُّلَالِ	وَنَعْرَهُ	لِلْأَقَاخِ

(٣) الأكلة هنا : جمع كلة وهي الستر أولعنها جمع

إكليل وهي عصاة تردان بالجوهر

(١) الخزيرة (قسم الشام) ٣٨٩/٢

(٢) انظر ترجمته في المنهل الصافي لابن تغرى بردى

(طبع دار الكتب المصرية) ٢٥١/١

وقد بدأ موشحته بالففل وتلاه بالدور ، ثم تابعت الأقفال والأدوار ، وكان يعرف كيف يتخبط كلماته عذبة رشيقة ، كما كان يعرف أنه لكي تتكامل رشاقة الموشح بحسن أن تكون الشطور في الأدوار قصيرة وأن يسرى فيها صفاء موسيقى بديع . وأنشد له ابن تغرى بردى موشحة يعارض بها موشحة مظفر الأعمى المصرى :

كَلِّمِي يَا سُحْبُ تَيْجَانَ الرَّبِّي بِالْحَلِي

وظن بعض الأسلاف أن هذا الموشح لابن سناء الملك ، لروعة موسيقاه ، وهو ظن مخطئ وكان مظفر يعاصره تقريباً ، فقد توفى بعده بنحو خمس عشرة سنة . وتمضى موشحة الموصلى في هذه الصورة :

جَلِّمِي	يَارَاحُ كَأْسِي	وَلَهَا كَلِّمِي
بِالْحَلِي	سِوَارَهَا	ثُمَّ لَهَا خَلِّمِي
	مِنْ عَرَّزٍ	حَبَابِكَ الْمَنْظُومِ
	بِالْخَمَّرِ	كَأَنَّهُ الْيَاقُوتُ فَوْقَ الْجَمْرِ
	وَالزُّهْرِ	فِي الرُّوضِ أَمْثَالُ النُّجُومِ الزُّهْرِ

ومهارته واضحة في انتخاب الألفاظ والملاءمة بينها في الجرس والنغمة ، وبحق يصف ابن تغرى بردى موشحاته بأنها بديعة وأنها ذات نظم رائق . ويقول إن له موشحات كثيرة . وربما كان أهم الوشاحين العراقيين بعده صفي الدين الحلبي ، وولتقى في ديوانه باثنتي عشرة موشحة منها ست في مديح الملوك والأمراء وخمس في الغزل وموشحة صوفية . ومع أنه أجمل صوت بلقانا بعد القرن السابع فإنه يهبط في موشحاته درجة أو درجات عن الموصلى وربما كان أخف مطلع لموشحاته قوله في فاتحة موشحة عارض بها أبا بكر بن بكي الأندلسي المشهور في موشحة بديعة له :

صَاحِبَ السِّيفِ الصَّقِيلِ الْحَلِيِّ	جَرَّدِ اللَّحْظَ وَالنَّوِي السَّلَاحَا
لَكَ يَا رَبُّ الْعِيُونَ	الْقَوَاتِلُ
مَا كُنِي عَنْ حَمَلِ سَيْفٍ	وَذَابِلٍ ^(١)
أَعْيُنٌ تَبْسُدُو . لَدِيهَا	الْمَقَاتِلُ
مَا سَرَى فِي جَفْنِهَا الْحَسَنُ إِلَّا	أَوْثَقْتُ مِنَّا قَلُوبًا جِرَاحَا

وربما كانت المعارضة هي التي جعلته يتفوق في هذه المرشحة ، كما جعلته يصفى لفظه تصفية ، شديدة بحيث أصبح يشبه الماء العذب السلسيل ، وخاصة في هذا المطلع البديع .

شعراء المديح

لا نبالغ إذا قلنا إن كل من تلقاهم من عشرات الشعراء - إلا من ندر - عند أصحاب اليتيمة والدمية والخريدة ومن جاءوا بعدهم كانوا شعراء مديح ، وينبغي أن لا نقلل من أهميتهم وأهمية شعرهم ذاهبين مع من يذهبون إلى أن هذا الشعر كان في مجموعه نفاقاً وملقاً ، وهي فكرة مخطئة ، فقد ظهر العرب على مسرح التاريخ منذ العصر الجاهلي وهم يتغنون بمديح شيوخهم وأبطالهم راسمين فيهم الأجداد الحربية لقبائلهم ومثاليهم الخلقية الكريمة ، مُدْكِين بذلك الحماسة في نفوس الشباب . وبذلك كان الشعر ديوان مفاخرهم أو عبارة أدق كان المديح هو هذا الديوان ، وأيضاً كان ديوان مثلهم الخلقية من الجود وعزة النفس والكرامة . وانضمت إلى ذلك إشاعات إسلامية منذ ظهر الدين الخنيف ، إذ مضى شعراء المديح حين يمدحون خليفة أو والياً يتحدثون عن العدل أو العدالة التي لا تصلح حياة الناس بدونها ، كما يتحدثون عن تقواهم وصدورهم في الحكم عن روح الإسلام وتعاليمه . ولم يتركوا معركة بينهم وبين أعدائهم من الأجانب إلا سجّلوا مجدنا الحربي فيها ليدفعوا الشباب إلى سلّ السيوف وقطع رقاب الأعداء ومحققهم محققاً . وبذلك كله كان المديح طوال العصور السابقة لهذا العصر صحيفة تربية ، يجد فيها الشباب القدوة الحسنة في العمل الحميد وفي الخلق الحميد . وظلت لها هذه الغاية طوال عصر الدول والإمارات ، فالشعراء يصوّرون فيها رجال الأمة العربية وكل ما يتحلّون به من خصال رفيعة وكل ما يحققونه لدولهم وإماراتهم من أعمال حربية ، وكأنهم يريدون أن يرفعوهم نُصَبَ عيون الشباب شعارات تعبر عن آمال الأمة التي حققوها والأخرى التي تأمل منهم أن يحققوها ، مما جعلهم أحياناً يبالغون في تصويرهم كأنما يريدون أن يحملوهم على النهج الصحيح الذي تريده الأمة ، ولذلك يكثر أن لا يكتفوا بتصويرهم في صورهم الحقيقية ، بل يصورهم كما تريد لهم ومنهم الأمة أو الإمارة .

وأول موجة تلقانا من شعراء المديح في العصر شعراء اليتيمة وتتمتها الذين عاصروا الدولة البويهية ، وفي الحق أن البويهيين ووزاءهم - كما مرّ بنا - بعثوا في هذا العصر نهضة شعرية قوية ، بما أسبغوا على الشعراء من عطايا وما فتحوا لهم من مجالسهم ، ولن نستطيع أن نعرضهم جميعاً ، غير أننا سنقف قليلاً عند ثلاثة من أفذاذهم ، هم أبو الحسن محمد

ابن عبد الله السَّلامى وأبو الفرج عبد الواحد بن نصر المعروف باسم البيَّغاء وأبو نصر عبد العزيز بن محمد بن نبَّاتة المعروف باسم ابن نبَّاتة السعدى . والثلاثة من مداح سيف الدولة بحلب وحكام العراق جميعاً . وقد ولد السَّلامى بكرَّخ بغداد (١) وتوفى سنة ٣٩٣ وله مديح رائع فى عضد الدولة البويهى يقول فيه من قصيدة طويلة :

إليك طوى عَرْضَ البَسِيطَةِ جاعلٌ قُصَارَى المطايا أن يلوح لها القَصْرُ
فكنت وعزى فى الظلام وصارمى ثلاثة أشباه كما اجتمع الشَّرُّ
ويشرتُ آمالى بملكٍ هو الورى ودارٍ هى الدنيا ويوم هو الدهر
وأبو الفرج البيَّغاء (٢) من نصيبين فى الموصل ، توفى سنة ٣٩٨ ، وذكر له الثعالبي طائفة من أشعاره كان يُتغنى بها فى عصره ، وله مدائح مختلفة فى سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى ، ومن مدحه لسعيد الدولة بن سيف الدولة بن حمدان :

لا غَيْثُ نَعْمَاهُ فى الورى حَلْبُ الـ سِرِّقِ ولا وِرْدٌ جُودِهِ وَشَلُّ (٣)
جاد إلى أن لم يُبقِ نائلُهُ مالاَ ولم يُبقِ للورى أملُ
وابنُ نبَّاتة السَّعدى (٤) من شعراء بغداد وأفرادهم المبدعين ، توفى سنة ٤٠٥ وهو من مدَّاح عضد الدولة ، وله فيه قصائد مختلفة يصف فى إحداها نار السَّدق ، وكان عيدا مشهورا للنار عند الفرس فى الإسلام كما مرَّ بنا فى غير هذا الموضع ، وله فى سيف الدولة قصائد بديعة ، منها قصيدة فى وصف فرس أغر محجل أهدها إليه ، وفيها يقول :

فخَالَ منه على أغرَّ محجَلٍ ماء الـ دِياجى قَطْرَةٌ من مائه
فكأنا لَطَمَ الصبَاحَ جِيبَهُ فاقْتَصَّ منه فحَاضَ فى أحشائه
وهو تعليل بديع لبياض الفَرَّة والساقين معاً ، وكنى عن شدة سواده كناية رائعة إذ جعل الـ دِياجى قطرة من سواده ، وله فى سيف الدولة بيته المشهور :

لم يُبقِ جودك لى شيئاً أوْملُهُ تركنتى أصحابُ الدنيا بلا أملِ
وكان يحذو حذو المتنبي فى كثرة الفخر والحجاسة والشكوى من الدهر والزمن ، وايضاً كان يحاكيه فى نثر الحكم بشعره من مثل قوله :

(١) انظر فى ترجمة السَّلامى اليتيمة ٣٩٥/٢ - وابن خلكان ١٩٩/٣
(٢) ١٢٤/٣ وابن خلكان ٤٠٣/٤ وتاريخ بغداد ٢٣٥/٢ (٣) وشل : ضحل
(٤) انظر فى ترجمة ابن نبَّاتة السعدى اليتيمة ٣٧٩/٢ والمتنظم ٢٢٥/٧ والوفى ٣١٧/٣
(٥) راجع فى ترجمة البيَّغاء اليتيمة ٢٣٦/١ وتاريخ بغداد ١١/١١ والمتنظم ٢٤١/٧ والشذرات ١٥٢/٣
وغير ١٩٠/٣ وابن خلكان ٤٦٦/١٠ وابن خلكان ١٧٥/٣ .

وَمَنْ لَمْ يَمْتَ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَنَوَّعَتِ الْأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدٌ
وسنعرض لشاعرين كبيرين من شعراء العصر البويهي بين شعراء التشيع هما الشريف
الرضي ومهيار . ولا يلقانا في الدمية شاعر كبير ولعل من الغريب أنها لم تترجم لأكبر شعراء
القرن الخامس : علي ^(١) بن الحسن الرئيس أبي منصور المشهور بلقبه صُرْدُرُ المتوفى سنة
٤٦٥ وديوانه مطبوع بدار الكتب المصرية ، ويقول ابن خلكان : جمع شعره بين جودة
السبك وحسن المعنى ، وعليه طلاوة رائعة وبهجة فائقة . وديوانه يروج بالمدائح البديعة ،
ومن قوله في الخليفة القائم :

كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَلْقَى رِداءَهُ مِنْ « الْقَائِمِ » الْهَادِي عَلَى جَبَلٍ رَاسِي
زَمَانُ الْوَرَى فِي ظِلِّهِ وَجَنَابِهِ كَأَيَّامِ تَشْرِيقِ وِلْيَاتِ أَعْرَاسِ
هُوَ الْمَصْطَفَى التَّقْوَى مَتَاعاً لِنَفْسِهِ بِجَوْهَرِهَا حَالِ بِسُنْدُسِهَا كَاسِ
مِنَ الْخَلْفَاءِ الرَّافِعِينَ بِنَاءَهُمْ بِأَطْوَلِ أَعْيَارِ وَأَثْبَتِ آسَاسِ
وواضح أن لغته رصينة وصوره بديعة ، وقد جعل زمان الناس في أيام القائم أعراسا
وأيام تشریق وهي أيام عيد الأضحى بعد يوم النحر ، فأيامه أعياد وأعراس وأفراح لما أشاع
فيها من عدل وأمن . وله في فخر الدولة محمد بن محمد بن جهمير حين تولى الوزارة سنة
٤٥٥ قصيدة من مشاهير القصائد كما يقول ابن خلكان في ترجمة ابن جهمير ، وسنشد
بعض غزلها في حديثنا عن شعراء الغزل ، وفيها يقول له :

أَعَدَّتْ إِلَى جِسْمِ الْوِزَارَةِ رُوحَهُ وَمَا كَانَ يُرْجَى بَعْثُهَا وَنُشْرُهَا
وهي قصيدة بديعة ، ولا يقل عنها إبداعا قصيدة ثانية للشاعر مدح بها ابن جهمير حين
أعادته الخليفة القائم إلى الوزارة سنة ٤٦١ بعد عزله ، وفيها يقول :

قَدْ رَجَعَ الْحَقُّ إِلَى نِصَابِهِ وَأَنْتَ مِنْ كُلِّ الْوَرَى أَوْلَى بِهِ
مَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ سَلَّتْهُ يَدٌ ثُمَّ أَعَادَتْهُ إِلَى قِرَابِهِ
أَكْرَمَ بِهَا وَزَارَةً مَا سَلَّمَتْ مَا اسْتَوْدَعَتْ إِلَّا إِلَى أَرْبَابِهِ
مَشُوقَةً إِلَيْكَ مَذْ فَارَقَتْهَا شَوْقَ أَخِي الشَّيْبِ إِلَى شَبَابِهِ

وقراب السيف : غمده . والقصيدة كأختها رائعة . ويموج كتاب الخريدة بشعراء
كثيرين ومدائحهم ، نذكر من بينهم الحيص ^(٢) بيصَ أبا الفوارس سعد بن محمد التيمي

(١) انظر في صُرْدُرُ المتظم ٢٨١/٨ وابن خلكان (العراق) ٢٠٢/١ ومعجم الأدباء ١١/١٩٩ والمتظم
٣/٣٨٥ ، ١٢٩/٥ وعبر الذهبي ٣/٢٥٩ والشذرات ١٠/٢٨٨ وابن خلكان ٢/٣٦٢ وطبقات الأطباء لابن
٣/٣٢٢ والنجوم الزاهرة ٥/٩٤ .
أبي أصيبعة (طبع مكتبة الحياة بيروت) ، ص ٣٨٠
(٢) راجع ترجمة الحيص بيص في الخريدة (قسم والسبكي ٧/٩١ وقد نشر ديوانه ببغداد .

المتوفى ببغداد سنة ٥٧٤ عُرف باسم الحَيِّص بَيْص لأنه رأى الناس يوماً في حركة شديدة فقال : ما للناس في حَيِّص بَيْص ، فلصقت به الكلمة لقباً له ، وهو يشغل في المجلد الأول من القسم العراق في الخريدة نحو مائة وستين صحيفة ، استهلها العماد بأنه من سلالة أكرم ابن صفي الحكيم الجاهلي ، وذكر أنه قرأ عليه ديوانه واقتطف قطعة من خطبته للديوان يفضل فيها الشعر على النثر ، وقطعة أخرى يتحدث فيها عن اشتغاله في أول شبابه بالفقه ومسائل الخلاف فيه ، ثم اتجه إلى الشعر فبرع في نظمه . ويستعرض العماد ديوانه على ترتيب الحروف في الافتخار والمديح ، ويذكر له ثلاثة أبيات هنا بها الخليفة المستضيء بأمر الله حين اعتلى عرش الخلافة سنة ٥٦٦ تجرى على هذا النمط :

سألنا الله أن نُعْطَى إماماً نَعِيشُ به فأعطانا نَجِيًّا
 بَلَّغْنَا فوق ما كنا نرَجِي هِنِيًّا يا بني الدنيا هِنِيًّا
 وقد كُشِفَ الظلامُ بمسْتَضِيءٍ غَدًا بالناس كلَّهم حَقِيًّا

وسرَّ المستضيء حين سمع منه ذلك فأعطاه ثلاثمائة دينار وخلعة وداراً ، وأقطعه ضيعة كبيرة . ولعل في ذلك ما يدل على أن سوق المديح ظلت رائجة طوال أزمنة الخلافة العباسية ببغداد . وخلف المستضيء الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) فعمل على رواج سوق المديح بكل ماوسعه ، حتى لقد أنشأ له ديواناً خاصاً وسمى الشعراء المدونة أسماؤهم فيه باسم شعراء الديوان ^(١) ، وأكبر الظن أنه كان يُجْرَى عليهم رواتب ، وكانت لهم مواسم كثيرة يلقون فيها الشعر حين يتولى خليفة وحين يُقْبَل عيد أو يُولَدُ ولد أو يُحْتَنُّ ، وكذلك حين يسترد الخليفة صحته من مرض ألمَّ به . وبالمثل كان للوزراء وذوي البيوتات شعراؤهم ، وشاعر الناصر الفذ سِنْبَط ابن التَّعاوَيْذِي ، وسنترجم له . ويقال إن محبي الدين بن الجوزي كان ينظم في كل أسبوع قصيدة يمدح بها الناصر ^(٢) ، فما بالنا بغيره من شعراء الديوان الذين كانوا يلتمسون المناسبات لنظم مدائحهم . ومنذ احتدمت الحروب بين صلاح الدين والصليبيين وأخذت انتصاراته تتوالى أخذ كثيرون من شعراء العراق ينظمون مدائحهم فيه ، من مثل العلم الشاتاني ^(٣) الموصلي المتوفى سنة ٥٧٩ وله فيه مدحة استهلها بقوله :

(١) انظر نساء الخلفاء لابن الساعي تحقيق د . مصطفى ٣٣٧/١

جواد (طبع دار المعارف) ص ٩ وراجع الجامع المختصر (٣) انظر في ترجمة الشاتاني الخريدة (قسم الشام)

لابن الساعي (طبع بغداد) ٦٩/٩ ، ١٥٣ ، والوافي ٣٦١/٢ وابن خلكان ١١٣/٢ وتهذيب ابن عساكر

١٠١/٢ و ٣٧٩/٤ . ١٧٧/٤ والسبكي ٦١/٧

(٢) ذيل مرآة الزمان للبيهقي (طبع حيدرآباد)

أرى النَّصْرَ معقوداً برايتك الصَّفْراً فسرّ وافتح الدنيا فأنت بها أحرى
ونوّه صاحب النجوم الزاهرة بابن الشُّحْنَة الموصلي أُنَى حفص عمر بن محمد لمُدْحَة
قافية له في صلاح الدين (١) . ومن مداحه الموصول أيضاً ابن الدهان (٢) أبو الفرج عبد الله
ابن أسعد المتوفى سنة ٥٨١ . وقد نشر ديوانه ببغداد أخيراً ، وقصد مصر زمن الوزير
الفاطمي طلائع بن رُزَيْك وأنشده في مديحه قصيدة كافية بديعة ، ويقال : بل أرسلها إليه
فكافأه عليها بمجازة سنّية وفي تحلصه بها من الغزل إلى المديح يقول :

لأنلْتُ وصلك إن كان الذي زعموا ولاسقى ظمئى جودُ ابن رُزَيْكا
القاتلُ الألف يلقاهم فيعلمهم والواهبُ الألف تلقاه فيغنيكا

ونعنى في القرن السابع الهجرى ، فلتقى براجح (٣) الحليّ المتوفى سنة ٦٢٧ وتهنئة أنشدها
الكامل سلطان مصر حين استخلص دمياط من الصليبيين سنة ٦١٨ وردّهم مدحورين إلى
البحر المتوسط وما وراءه ، وكان قد عاونه في دحرهم أخواه المعظم عيسى والأشرف
موسى ، وإلى ذلك يشير راجح في قصيدته مستخدماً للتورية إذ يقول :

تهلّل وجهُ الدهر بعد قُطوبه وأصبح وجهُ الشُّرك بالظلم أسوداً
أعبادَ عيسى إنَّ عيسى وحزبه وموسى جميعاً يخدمون محمداً
وواضح أنه قصد إلى التورية حين جعل المعظم عيسى والأشرف موسى يقفان في خدمة
أخيها الكامل محمد ، وهى تورية بديعة . ويتوفى الخليفة الناصر ، ويختلف ابنه الظاهر
لنحو سنة ، ويتوفى ، فيخلفه ابنه المستنصر (٦٢٣ - ٦٤٠ هـ) ومن أهم شعرائه ابن أبى
الحديد المتوفى سنة ٦٥٦ وقد نظم فيه مجموعة من المدايح طبعت باسم المستنصرات ،
وسنعرض له بين شعراء الشيعة ، ومن شعرائه أيضاً مجد الدين النشأبي (٤) أسعد بن إبراهيم
الإربلي المتوفى سنة ٦٥٧ وكان يكثر من مديحه بمثل قوله :

ورثَ النبوة طاهراً عن طاهرٍ إرثاً ينزه عن مقالة مُفترى
وإذا رأى الراعون نُورَ جلاله لم تلقَ غير مهلّلٍ ومُكبرٍ

(١) النجوم الزاهرة ٥٨/٦
(٢) راجع ترجمته في الحزبية (قسم الشام) ٢٧٩/٢ وابن خلكان ٥٧/٣ والسبكي ١٢٠/٧ وتهذيب ابن
عساكر ٢٩٢/٧ والشذرات ٢٧٠/٤
(٣) انظر ترجمة راجح وشعره في ابن خلكان ٧/٤ والنجوم الزاهرة ٦/٢٤٢ ، وفوات الوفيات لابن
شاكر الكشي ١/٣١٨ والشذرات ٥/١٢٣ .
(٤) راجعه في فوات الوفيات ١٧/١ وقد روى له
مواليا وانظره في ذيل مرآة الزمان ١١١/١ - ١٢٣
وتلخيص جمع الآداب لابن القوطي (طبعة المند)
١٠٢/٥

ويكثر مثل هذا الغلو في المديح منذ أوائل العصر ، وأكبر الظن أنه من أصداء مدائح الشيعة لأنهم وما أحاطوهم به من هالة قدسية ومن مبالغات مفرطة . وطبعاً ألغى ديوان الشعراء بعد الغزو التتارى وركدت سوق الشعر . ونمضى في القرن السابع فتلقت بفخر الدين مظفر بن الطراح المتوفى سنة ٦٩٤ وله مدائح كثيرة في علاء الدين عطا ملك الجوينى صاحب ديوان بغداد ^(١) . وكان يعاصره ابن نعيم الحلبي ، وله ديوان ^(٢) سماه « شرف المزية في المدائح العزّية » مدح به صدر الجلّة عز الدين أبامحمد حسن بن الحسين الأسدي الحلبي ، ويكفي القرن الثامن فخراً ظهور صني الدين الحلبي فيه . ومر بنا في فواتح الفصل اسم شهاب الدين الموسوى في العصر العثماني الأول واسم محمد كاظم الأزرى في العهد العثماني الأوسط أو عهد المالك ، ولهما ديوانان يطفحان بالمديح ، ولعل من الخير أن نخص بالحديث كبار شعراء المديح في العصر : المتنبى ، وسبط ابن التعاويذي ، وصفي الدين الحلبي .

المتنبى ^(٣)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين من عشيرة جعفيّ المذحجية البينية ، ولد سنة ٣٠٣ هـ بمكة في الكوفة ، ولذلك قد يقال له الكندي . أما أمه فكانت همدانية ، فهو يمني أبا وأماً . وذكر بعض خصومه وهجائيّه أن أباه كان سقّاء ، وأضاف بعضهم أن اسمه

بغداد) والوساطة بين المتنبى وخصومه لعل بن عبد العزيز الجرجاني (طبع دار إحياء الكتب بالقاهرة) والصبح المتنبى في الكشف عن حيشة المتنبى للبديعي (طبع دار المعارف) وذكرى أبي الطيب للدكتور عبد الوهاب عزام ومع المتنبى لطف حسن والمتنبى لمحمود محمد شاعر وكتابتنا الفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة العاشرة) ص ٣٠٣ وكتابتنا فصول في الشعر ونقله : ما كتب فيه بعنوان العروبة في شعر المتنبى وكتاب بلاشير عن أبي الطيب المتنبى . ويذكر ابن خلكان أنه وقف حتى عصره على أكثر من أربعين شرحاً لديوانه ، وأهم شروحه المطبوعة شرح ابن جني وبينه وبين المتنبى مراجعات كثيرة وشرحه نفيس ، ومن شروحه شرح العكبري وشرح الواحدى وهما مطبوعان . وشرحه أبو العلاء بشرح مطول سماه معجز أحمد ، يقصد ديوانه .

- (١) الغزوى ١/٣١٦ .
- (٢) الغزوى ١/٣١٧ .
- (٣) انظر في ترجمة المتنبى البيهقي للثعالبي ١/١١٠ وتاريخ بغداد ٢/١٠٢ وترجمة الألبا لابن الأنباري (طبعة دار نهضة مصر) تحقيق محمد أبو القاسم إبراهيم ص ٢٩٤ والأسباب للسماعى ورقة ٥٠٦ ووفيات الأعيان ١/١٢٠ . وألفت قديماً كتب كثيرة حول شعره ، منها الموضحة للحاتمي (نشر د . محمد يوسف نجم ببيروت) والرسالة الحاتمية فيما وافق فيه المتنبى كلام أرسطو ورسالة الكشف عن مساوئ المتنبى للصاحب ابن عباد والواضح في مشكلات شعر المتنبى للاصفهاني (طبع تونس) والفتح الوهبي على مشكلات المتنبى لابن جني تحقيق د . محسن غياض (طبع بغداد) والفتح على فتح أبي الفتح لابن فورجه تحقيق د . محسن غياض (طبع

« عبّان » . ولم يُعْرَبِ ابن خلكان هذه الدعوى اهتماماً ، وهي دعوى ملفقة كيدا للشاعر الفدّ وحسداً . وكل شيء في سيرة الشاعر يؤكد بطلانها ، فقد ذكروا أن أباه ألحقه بكتّاب أبناء الأشراف ، ويَعْبُدُ أن ينتظم في سلك هؤلاء الأبناء وأبوه سقّاء يحمل الماء لأهل الحى القاطن به . وقد فتحت موهبته الشعرية مبكّرة ، وهو في نحو الثامنة من عمره ، واتفق أن قال له بعض رفاقه من الصّبيّة : مَا أَحْسَنَ وَفَرْتِكَ وَشَعْرَكَ ، وفوجئ الصّبيُّ برده :

لَا تَحْسُنُ الْوَفْرَةَ حَتَّى تَرَى منشورة الصّفْرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
عَلَى فَتَى مُعْتَقِلٍ صَعْدَةَ يُعِلُّهَا مِنْ كُلِّ وَاقِي السَّبَالِ

فالوفرة - أو الشعر المجتمع على الرأس - لا يحسن منظره إلا يوم القتال حين تشعث ذوائبه على رأس فتى باسل يَعْتَقِلُ صعدة أورشحا يُعِلُّهَا أو يروها من دماء الرجال ، فتى لا يبرح ميادين النضال والقتال . وفي ذلك ما يدل على أنه كان يستشعر منذ نعومة أظفاره نفسا كبيرة بين جنبيه ، نفسا ستعيش للفتوة والإقدام ، ولن يجذبها أى جبال حصى أو متاع مادية في الحياة ، مما جعله ينصرف عن الحمر بل ينهى عن احتسائها ، أما ما قيل من حبه للعبة الشطرنج فلأنها تمثل مواقع الحرب والعراك . وما يكاد الفتى يبلغ التاسعة من عمره ، حتى يغزو القرامطة الكوفة ويسفكوا الدماء وَيَسْبُوا النساء ، ويفرّ الناس منها جزعا وفرعا ، ويفر به أبوه إلى بادية السماوة بين العراق والشام ويظل المتنبى نحو عامين أو ثلاثة يتردد في القبائل ويتغذى بلغتها ، وتتغذى فتوته الجائمة بين ضلوعه . ويعود إلى الكوفة في مستهل سنته الثانية عشرة ، ولا ندرى هل كان أبوه لا يزال حيا وأنه توفى قبيل عودته أو بعد عودته بقليل ، ونظن ظنا أن أمه فارقت الحياة قبل أبيه ، بل لعلها فارقتها وهو لا يزال رضيعا . وإنما يحملنا على ذلك أننا لا نجد لأمه ولا لأبيه ذكرا في ديوانه ، بينما نجده يرثى جدته وهو في نحو الثلاثين من عمره رثاء حارا قائلاً :

ولو لم تكوني بنتَ أكرمٍ والدي لكان أباك الصّخَمَ كَوْنُكَ لى أُمًّا

وفي تسميته لها بأنها أمه ما قد يشهد بوفاة أمه في باكورة حياته وأن جدته هي التي قامت على تربيته . وحاول بعض المعاصرين أن يُلْتَمِزَ شيئا من ظلال الشك على نسبه ، لأنه لم يذكر في شعره أباه ولا أمه مما قد يؤكد أنه كان يشعر بشعور الضعة من ناحية أسرته وأهله الأذنين ، وجعله ذلك يبغض الناس . والنتيجة ومقدمتها غير صحيحتين ، فإن كثيرا من شعراء العرب لم يذكر في أشعارهم آباءهم ولا أمهاتهم . وليس في ذلك أى دليل على

أن أسرهم كانت وضيفة ، بل إتنا نجد سيد بنى عامر وفارسهم فى الجاهلية عامر ابن الطفيل يقول :

وما سوّدننى عامرٌ عن وِرائَةِ أبى الله أن أسمو بِأمّ ولا أبِ

فهو يفخر بأن سيادته لقومه ليست وراثة عن آبائه ، مع أنهم كانوا سادة بنى عامر فعلا ، ويريد أن يقول إنه ساد بنى عامر بياسه وأعماله المجيدة ، بالضبط كما قال المتنبي :

لا بقومى شَرَّفْتُ بل شَرَّفوا بى وبنفسى فخرتُ لا بجدودى
وبهم فخرُ كلِّ من نطق الضَّادَ وَعَوَّدُ الجانى وَعَوْتُ الطَّريدِ

على أن المتنبي يعود فيفخر بقومه ، أما عامر فيطلق فخره بنفسه إطلاقاً . ولعل فى ذلك ما يدل على أن كل ما رتبه بعض المعاصرين على هذين البيتين للمتنبي وما حاولوا أن يسوقوا من شك فى نسبة غير صحيح . ومن المؤكد الذى لا يرقى إليه شك أن المتنبي كان عربيا صميا وأن العرب لم يثبت بينهم شاعر قبله ولا بعده استشعر العروبة استشعاره حتى لو أردنا أن نقيم للعروبة والعرب تمثالا لكان المتنبي هو الشاعر الخليق بأن يقام له هذا التمثال ، وقد لبس درعاً ، وشدَّ فى وسطه منطقة وسيفاً ، وفى إحدى يديه رمح مصوب وفى الأخرى ريشة الشاعر ، وهو يمتطى حصانا وكأنه يطلب القتال والنزال . فهو هذا التمثال الذى يرمز أروع رمز إلى العرب واستصغارهم لدوى الحكم والسلطان وصياحهم فى وجوه أعدائهم ، وإنه ليصبح بكل قوته هادرا عاصفا ، يريد أن يوقظ من حوله من العرب ويستنقذهم مما تورطوا فيه من هوان وتواكل واستسلام لحكامهم العاتين ، ومن أجل ذلك يصور نقائصهم بمثل قوله :

ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صِغارٌ وإن كانت لهم جُثُّ ضِخامٌ

وليس ذلك عن بغض للناس كما قال بعض المعاصرين وإنما محاولة صارمة لتخليصهم من أخلاقهم الذميمة التى جعلتهم يخضعون لحكامهم الأعاجم الذين كانوا يرهقونهم من أمرهم عُسراً .

وستضح شخصية المتنبي حين نتابعه فى حياته ، وقد رأيناه يخرج إلى البادية فى سن التاسعة ويعود فى الثانية عشرة من سنه ، ويكبُّ على كل ماكان فى الكوفة من ثقافات ، فإذا هويلتهم كتب اللغة التهاما ويلتهم أيضا كتب النحو . ويتعرف على كتب الفلسفة عن طريق ممدوح كوفى له يسمى أبا الفضل وعن طريقه يتعرف على التصوف . وبكل ما قدمنا نستطيع أن نعرف العناصر التى أسهمت فى تكوين شخصيته ، فهو عربى لحاودما ، وتساثر

به العروبة إلى أقصى حد حتى لتجعله لسانها الناطق بها طوال حياته . وهو قد تغذى بلبان البادية ، وأفادته صقلا في لغته ووقفا على الغريب والشواذ اللغوية ، كما أفادته صقلا في فتوته وإحساسه بعرويته ، ثم هو قد ثقف كل أنواع الثقافات في عصره ، واقترض منها في شعره صيغا من النحو الكوفي الشاذ ومن الغرائب اللغوية ومن الأفكار والألفاظ والعبارات الفلسفية ، ومن مصطلحات التصوف وشارت عباراته . وكل ذلك فصلنا الحديث عنه في كتابنا « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » .

وكان أبواه قد توفيا ، وأكثر القرامطة من غاراتهم على الكوفة في سنوات ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩ قرأى الفتى أن يبرح مسقط رأسه إلى بغداد ، ومدح بها أحد العلويين ومتصوفاً يسمى هرون بن علي الأوراجي ، ولا نراه يمدح خليفتها ولا حاكمها الأعجمي ولا أحداً من ذوى السلطان ، وكأنا وقف حائلاً بينه وبينهم ما رآه بأمر عينه من فساد الحكم وتسلط الحكام الأعاجم على العرب ، ويتألم لما أصابهم من ذل وهوان ، ويُعَمِّم صدره بمشاعر العروبة ، وتثور نفسه ثورة عاصفة ويصبح من أعماقه :

إلى أى حين أنت في زى مُحْرِمٍ وحتى متى في شِقْوَةٍ وإلى كم ؟
وإلا تَمَّتْ تحت السيوف مَكْرَمًا تَمَّتْ وتُقاسِ الذلَّ غيرَ مَكْرَمٍ
فَيْبُ واثقاً في الله وثبةً ماجدٍ يرى الموتَ في الهَيْجَا جَنَى النَّحْلِ في الفَمِّ

وهو يستحث نفسه والعرب من حوله أن يخلعوا زى المحرمين بالحج ، يريد زى الاستسلام إزاء حكام بغداد الأعاجم الفاسدين ، ويلبسوا مكانه دروع الحرب لمنازلتهم منزلة لا تَبْقَى منهم ولا تَدْرُ . وييش ممن حوله أن يثوروا معه ضد الفساد والظلم والطغيان ويولّى وجهه نحو بوادي الشام وحواضرها ويمدح شيوخ البدو وبعض رعاة الأدب في طرابلس واللاذقية ، وهو لا يكف عن المجاهرة بالثورة على الحكام الأعاجم الجائرين الذين لا يراعون للعرب حرمة ولا عهداً ولا ذمة ، ويصبح في قومه :

وإنا الناسُ بالملوك وما تُفْلِحُ عَرَبٌ ملوكها عَجَمٌ
لا أدبٌ عندهم ولا حَسَبٌ ولا عهودٌ لهم ولا ذِمَمٌ

وهو يقول إنه لن يكتب للعرب فلاح طالما كانوا مستذلين للحكام الأعاجم راضخين لسلطانهم مع ما يسومونهم به من العسف والقهر . ويمضى في دعوته وثورته في بوادي الشام من اللاذقية إلى بعلبك ، ويمسُّ في أهل « نخلة » بالقرب من بعلبك تواكلا وتحاذلا وأنهم لا يسارعون معه إلى الثأر لكرامتهم المهذرة ، فيستثيرهم بقصيدة ملتبهة يقول فيها :

ما مُقامي بأرض نَحْلَةَ إلا
عِشْ عَزِيزًا أَوْمَتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
وَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَطْفِي وَدَعِ الدُّ
لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ
أَنَا تَرْبُ النَّدَا وَرَبُّ الْقَوَافِي
وَسَيَّامُ الْعِدَا وَغِيظُ الْحَسُودِ
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكُهَا الدُّ
هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي تَمُودِ

وكان تشبيهه لنفسه في القصيدة بالمسيح والنبى صالح سببا في أن يتهمه بعض معاصريه بادعائه النبوة ، وبالغوا فزعوا أنه ادعى لنفسه قرآنا ذكروا بعض فقر منه ، وكل ذلك غير صحيح ، فقد كانت ثورته سياسية قومية لا دينية ولا قرمطية كما توهم بعض الباحثين . أما لقبه المتنبي فهو الذى لقب نفسه به ، أولعل بعض المعجبين بشعره هم الذين لقبوه به ، رمزا لعبقريته الشعرية وأنه يأتى فى أشعاره بالمعجز الذى ليس له سابقة . وهو يضع فى البيتين الثانى والثالث دستور العرب على مر التاريخ فإما العيش العزيز وإما الموت الكريم فى ساحة الشرف والنضال ، ولا حياة بدون العزة والكرامة . وإن العربى الحرَّ ليفضّل العز فى الجحيم على الذل فى الفرايس . ويترك قرية نَحْلَةَ إلى بادية اللاذقية ويتبعه كثيرون لأواخر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة ، ويقود ثورة ضارية ، وكان لايزال فى العشرين من عمره . ويقضى لؤلؤ والى حمص من قبل الإخشيد على ثورته ويَزَجَّ به فى غياهب السجن . ويظل به نحو سنتين ، وتردُّ إليه حريته ، ويعود إلى توقيع أشعاره على قيثارته فى مديح ولاية البلدان الشامية ، وخاصة بدرين عمار الأسدى صاحب دمشق من قبل بغداد ، ووجد فيه المتنبي أمنيته فى فارس عربى ، فمدحه ونوّه بفروسيته فى تصويره الرائع لفتكه بأسد ، مستهلا له بقوله :

أَمَعَّرَ اللَّيْثُ الْهَزْبِرَ بِسَوْطِهِ لَمَنِ ادَّخَرْتَ الصَّارِمَ الْمَصْقُولَا
يقول له إنك صرعت الأسد بسوطك فلمن أبقيت سيفك ، ومضى يشيد بيأسه ومضائه . وظل لا ينسى دعوته إلى الثورة مستهضا هم قومه ضد حكامهم الأعاجم بمثل قوله :

لَا يُعْجِبُنَّ مَضِيماً حَسُنُ بَرَّتِهِ وَهَلْ يَرُوقُ دَفِيناً جُودَةُ الْكَفَنِ
وقوله :

ذَلَّ مَنْ يَغْبِطُ الدَّلِيلَ بَعِيشٍ رُبَّ عَيْشٍ أَحْفُ مِنْهُ الْجَمَامُ
مَنْ يَهْنُ بِسَهْلِ الْهَوَانِ عَلَيْهِ مَا لَجْرَحَ بِمَيْتِ إِيْلَامُ
وفى أواخر هذا الاضطراب بين ولاية الشام التابعين لبغداد والآخرين التابعين لمصر جاءه

نعى جدته ، فحزن عليها حزنا شديدا ورثاها رثاء حارا بميميته التي يقول فيها مفاخرها بقومه وأهله :

وإني لمن قومٍ كأن نفوسهم بها أنفٌ أن تسكنَ اللحمَ والعظْمًا
فلا عبَّرتُ بي ساعةٌ لا تُعزِّي ولا صَحَّيتني مهجةٌ تقبلُ الظلْمًا
وهما بيتان رائعان بصوران الأنفة والعزة إلى أبعد حد ، وهو جانب في شعر المتنبي جعله محببًا لكل عربي ، إذ توهج أشعاره بمخصال العربي الكريم وما يشعر به من العزة والأنفة والإباء والشموخ بالكرامة والترفع عن الدنيا إلى أقصى حد ، وكأنه ترجان العرب عن فضائلهم العليا الوطيدة كالصخر . وبهذه النفس العاتية كان المتنبي ينظم شعره منذ سال على لسانه في الكتاب معبرا عن الروح العربية التي لا تُقهر ، مها نزل بها من الكوارث والخطوب . وهو نفسه قد نزلت به كارثة أو محنة إخفاق ثورته ، ومع ذلك لا يزال يهدر ويزجر ويزأر ، ولا يجد سميعة ولا مجيبا . وتحديثه نفسه في سنة ست وثلاثين وثلاثمائة أن يقدم مدائحه لولاة سيف الدولة الحمداني ، وكان أميرا حلب واتسع بإمارته إلى حمص وأنطاكية منتزعا لها من يد الإخشيديين ، فقَّدم المتنبي مدائحه إلى واليه على أنطاكية أبي العشائر الحمداني ابن عمه ، فأجزل له في العطاء . ومضى في مديحه ، ويقدم سيف الدولة إلى أنطاكية في جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين ، فيمدحه المتنبي : ويُعجب كل منها بصاحبه . ويطلب سيف الدولة منه أن يصطحبه إلى حلب ويتزل عنده ، ويقول الرواة إن المتنبي اشترط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه وأن لا ينشده مدائحه إلا قاعدا ، ويجيبه سيف الدولة إلى شرطيه ، ولعل فيها ما يشير إلى شعور المتنبي بالعزة والكرامة شأن العربي الأصل . ويظل المتنبي عنده تسع سنوات ، ينظم فيها مدائح وأشعارا في أميره ، تولى ديوانا ، وهو ديوان من أنفس دواوين الشعر العربي ، لا من حيث كثرة قصائده فحسب ، بل أيضا من حيث روعتها ، وقد بلغت نحو أربعين قصيدة وإحدى وثلاثين مقطوعة ، واستقر حينئذ في نفسه أنه لقي أمل العرب وحاميمهم وبارسهم الذي يمزق جموع الروم شرمزق في الشمال ، وغدا يمزق جموع الحكام الأعاجم من البويهيين في بغداد ، ويرد للعرب دولتهم المفقودة . وكان سيف الدولة بحق بطلا مغوارا وشجاعا مقداما ، حطَّم جيوش الروم مرارا واستنقذ منهم غير ثغر وحصن ، وكان المتنبي يصحبه في غزواته ، حتى إذا عاد معه أنشده بحلب ما نظمته في بطولته وبطولة جنوده . وكانت أول موقعة حضرها الشاعر مع البطل موقعة الحدث سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وكان الروم قد استولوا على هذا الحصن ، فرأى سيف الدولة أن يسترده ويعيد بناءه ، وأعد جيشا جرارا

زحف به من حلب ، ولقيه الروم وهزموا هزيمة ساحقة ، قُتل منهم فيها ثلاثة آلاف من بينهم ابن القائد برداس فوكاس وصهره ، وأسر منهم آلاف ، وُضعت في أرجلهم الأغلال والسلاسل ، وبَنَى سيف الدولة الحصن بين تكبير المسلمين وتهليلهم ، وسجل المتنبي الواقعة في ميمية رائعة خاطبه فيها مبهجا بقوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقفٍ كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمرُّ بك الأبطالُ كلِّمى هزيمةً ووجهك وضاحٌ وثغرك باسمٌ
ضمتَ جناحيهم على القلب ضمةً تموتُ الخوافى تحتها والقوادمُ
بضربِ أنى الهاماتِ والنصرُ غائبٌ وصارَ إلى اللبآتِ والنصرُ قادمٌ
نثرتهمُ فوق الأحيدبِ نثرةً كما نُثرتُ فوق العروسِ الدراهمُ

وهو يصور سيف الدولة في المعركة رابط الجأش ثابت الجنان والرهوس تطاير والأشلاء تتناثر . والموت يحدق من كل جانب ، وكأنه في جفنه وهو نائم عنه ، مهابة ليس وراءها مهابة . وتمر به جنود الروم جرحى مهزومة هولاء ورعبا ، ولم يلبث أن لفَّ جناحي جيشهم على القلب لفةً سريعة وحطم رهوسهم حطاً إلى اللبآت والنحور . وولوا الأدبار مندحرين وسيف الدولة وجنوده ينثرونهم على جبل الأحيدب كما تُنثر الدراهم على العروس ابتهاجا ، وكأنه لم يكن يوم حرب ، إنما كان يوم زفاف لتصر عظيم . والتنبي لا يبارى في وصفه لوقائع سيف الدولة مع الروم ، حتى لكأنما نسمع في قصائده السيفية قعقة السلاح ، وهى لا شك القطع الأرجوانية الرائعة في ديوانه ، وبحق قال ابن الأثير : « اختص المتنبي بالإبداع في مواقع القتال . . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها وأشجع من أبطالها وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يُظن أن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلوا » . وتوفيت في نفس هذا العام عام سبعة وثلاثين أم سيف الدولة فرثاها بقصيدة بديعة ، وفيها يقول بيتيه المشهورين :

رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى فؤادى في غِشاءٍ من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتنى سهامٌ تكسرتِ النَّصالُ على النصالِ
ونفَسَ عليه كثيرون من حاشية سيف الدولة - وفي مقدمتهم أبو فراس الحمداني الشاعر - منزلته ، فأخذوا يكيدون له عنده ، وأحسَّ المتنبي بكيدهم ، وأن سيف الدولة يُرهب سمعه إليهم ، فأنشده قصيدة ميمية يعاتبه فيها عتاباً مرّاً بمثل قوله :

يا أعدلَ الناسِ إلا في معاملتى فيمَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
إذا ترحلتَ عن قومٍ وقد قَدروا أن لا تفارقهم فالراحلون همُ

ويحاول سيف الدولة مرضاته ولكن حاشيته تظل تكيد له ، وعجيب أمر الناس فإنهم يظنون يحسدون الأديب ، حتى لو كانت ملكاته من الخصب مثل المتنبى ، بل هم يحسدونه لهذه الملكات ويحاولون أن يفسدوا بينه وبين راعيه . ومن عجب أن يسمع سيف الدولة لحساد المتنبى ، وهو لم يكن يقدم له مدائح المعجب فحسب ، بل مدائح المحب المفتون ، وإنه ليعلن ذلك في غير قصيدة من مثل قوله :

مالي أكرمُ حبًّا قد برى جَسدى وتَدعى حبًّا سيفَ الدولةِ الأُممُ
ولعله أول من خلط المديح بالحب بل إنه ليخلط به وصف المعامع ، إذ يسوق فيه ألفاظ النسيب والتشبيب والغزل كقوله :

أعلىَ الممالك ما بينى على الأسلِ والطَّعنُ عند مُجيبينَ كالقُبلى
ويصم على الرحيل ، ويرحل إلى دمشق ، ويلتقي فيها بأصحاب كافور وأوليائه ، فيغرونه بلقائه في الفسطاط وأنه لا بد أن سيقمه واليا على « صيداء » أو ما يماثلها من بلدان الشام ، وكأما زينت نفسه له حين يوليه ولاية من الولايات أن يستبد بالأمر دونه ويحقق أمانه القديمة في إقامة الدولة العربية المنشودة . وينزل بساحته على ضفاف النيل سنة ٣٤٦ وينثر عليه كافور أمواله ، فيصارحه بمثل قوله :

وما رغبتى في عَسَجِدِ أَسْتفيدُهُ ولكنها في مَفْخِرِ أَسْتجِدُهُ
ويلوِّح في غير قصيدة بوعد أصحابه له بأنه سيمنحه ولاية ، ولكن دون جدوى ، فيتقم منه شر انتقام إذ استطاع بخبرته في الصياغة الشعرية أن يوجه له مدائح هي في ظاهرها ثناء ولكنها في باطنها هجاء مرٌّ من مثل قوله :

وأظلمُ أهلِ الظلمِ مَنْ بات حاسدا لمن بات في نَعَائِهِ يتَقَلَّبُ
والبيت يمكن أن يُحمل على من يُسبغُ عليه العطاء فلا يعترف بالجميل ، وبذلك يكون من الظلم بمكان . ويمكن أن يحمل على كافور وأنه يحسد من يُسدى إليه العطاء ، وبذلك يصفه بدناءة لا تدانيها دناءة . ويقول بعض الباحثين إن المتنبى استدلَّ نفسه حين رضى بمدح كافور الأعجمى الحبشى ، وهو الذى طالما هجا الأعاجم ، ويستطردون فيقولون إنه تخلَّى عن مسؤوليته الأدبية . وليس هناك تخلٍ من المتنبى ولا ما يشبه التخلى ، فقد مدح كافورا في سبيل أن يصبح صاحب ولاية وسلطان ، فلما ماظله ، سلَّ عليه لسانه ، وظل له عنده شعوره الجامح بكرامته وفتوة نفسه ، حتى كأن نفسه من طبيعة فوق طبيعة نفوس الناس ، فهي لا تضعف ولا تهزم ، مهما تقدمت بالمتنبى السن ومهما اشتعل عذاره شيئا ، بل لكأن شعرات شبيهه البيضاء حراب مشرعة لتزال أعدائه ، حراب من

ورائها نفس تزجر ، لها أنياب الأسد ومخالبه ، ويصور ذلك تصويرا رائعا في قصيدة مدح بها كافورا سنة تسع وأربعين إذ يقول :

وفي الجسم نفسٌ لا تشيبُ بشيئه ولو أنَّ ما في الوجه منه حِرَابٌ
لها ظُفْرٌ إن كَلَّ ظُفْرُ أُعْدُهُ ونابٌ إذا لم يبق في الفم نابٌ
فاليأس المرير الذي ذاقه طوال أربع سنوات مجدبة لم يمس نفسه ، بل ظلت فتية فتوة خليقة بكل إكبار . وفي أواخر مقامه بمصر ألمَّت به حُمى ، فوصف نزولها به في الظلام

ومبيتها في عظامه وأثرها في جسمه وصفا رائعا ، ولها يقول بيته البديع :

أَبْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ فَكَيْفَ وَصَلْتِ أَنْتِ مِنَ الزُّجَامِ
وعرَّضَ فِي القَصِيْدَةِ بِرَحِيلِهِ ، فَقَدْ أَحْسَنَ بِإِخْفَاقِ رِحْلَتِهِ إِلَى مِصْرَ وَارْتَحَلَ لَبْلِيلٌ ، وَهُوَ يَرْمِي كَافُورًا بِشُؤَاظٍ مِنْ هِجَائِهِ عَلَى نَحْوِ مَا نَرَى فِي دَالِيَتِهِ ، وَقَدْ مَرَّقَ فِيهَا أَدِيمَهُ تَمَزِيْقًا بِمَثَلِ قَوْلِهِ :

لَا تَشْتَرِ العَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ العَبِيْدَ لِأَنْجَاسٌ مَنَآكِيْدُ
وسقط بعض شرر من هجائه على مصر ، ولكنه لم يكن يقصدها لنفسها ، إنما كان يقصد كافورا بهجائه وذمه . وقد بارحها في أواخر سنة ثلاثمائة وخمسين ، واتجه إلى الكوفة مسقط رأسه ، واشترك مع أهلها في الدفاع عنها حين هاجمها القرامطة ، ولعل في ذلك ما يقطع بأنه لم يكن قرمطيا يوما . ويرسل إليه سيف الدولة بهدية ومعها كتاب بخطه ويرد عليه بلامية بديعة يستحنه على منازلة البويهيين الأعاجم ببغداد ويتزها في سنة إحدى وخمسين ، وفيها يجتمع له كثيرون يأخذون عنه ديوانه ، ويتعرض له الحاتمي - بإيعاز من الوزير المهلبى - ينقد بعض أشعاره ، وتكون في ذلك قطيعة بينه وبين الوزير فلا يمدحه ، ويعود إلى الكوفة بعد أشهر ، ويكاتبه ابن العميد في سنة ثلاث وخمسين متوددا إليه آملا في زيارته ويقدم عليه في « أُرْجَان » سنة أربع وخمسين ويمدحه بقصيدة يشيد فيها بالضاد قائلا في وصفه :

عَرَبِيٌّ لِسَانُهُ فِلَسْفِيٌّ رَأْيُهُ فَارَسِيَّةٌ أَعْيَادُهُ
ففخرة ابن العميد الكبرى فصاحة لسانه وعروبة بيانه ، ويستقدمه عضد الدولة إلى « شيراز » ويمر بستان يسمى « شِعْبَ بَوَّان » ويروعه جماله ، غير أنه مع روعته كدَّر نفسه أن لا يرى أثرا للعروبة فيه وفيما حوله من ديار ، مما جعله يفتح قصيدته بقوله :

مَغَانِي الشُّعْبِ طَيِّبًا فِي المَغَانِي بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ
ولكنَّ الفَتَى العَرَبِيَّ فِيهَا غَرِيبُ الوَجْهِ وَالْيَدِ وَاللِّسَانِ

وأروع مدائح في عضد الدولة هائتبه ، وهو يستهلها بتصوير حنينه إلى منازل حبيباته العربيات في الشام ، وتظفي عليه حرارة هذا الحنين وما يلبث أن يجسّمه في فتاة عربية شامية خلبت لبه ، ويصور جمالها وعفتها بمثل قوله :

كُلُّ جَرِيحٍ تُرَجِّي سَلَامَتَهُ إِلَّا فَوَادًا دَهَتْهُ عَيْنَاهَا
فِي بَلَدٍ تُضْرَبُ الْحِجَالُ بِهِ عَلَى حِسَابِ وَلَسَنَ أَشْيَاهَا
فِيهِنَّ مَنْ تَقَطَّرَ السِّيْفُ دَمًا إِذَا لِسَانُ الْحَبِّ سَمَّاهَا

إنهن عربيات دونهن الموت الرّؤم . وعلى هذا النحو ظلت العروبة تختلط بدمائه ، حتى أنفاسه الأخيرة فقد بارح شيراز سريعا ، وفي طريقه بالقرب من بغداد خرج عليه في أواخر شهر رمضان من سنة ٣٥٤ فاتك بن أبي جهل في بعض الشذاذ من قطاع الطرق ، وصرعه هو وابنه وغلانه ، وبذلك أحال أعراس الشعر مآتم على شاعر العروبة العبقري : مآتم حداد وسواد . وقد بكاه كثير من معاصريه بكاء حاراً .

ولعل فيما قدمنا ما يصور الموضوعات الأساسية التي تغنى بها المتنبي ، وهي المديح والهجاء والفخر والرياء ، وأروع مدائح كما قدمنا ما نظمه في سيف الدولة وتصوير معاركه ، وهجاؤه ينبث في مدائحه ونقصه هجاءه لأعاجم بغداد ، وفيهم يقول :
فِي كُلِّ أَرْضٍ وَطِئَتْهَا أُمَمٌ تُرْعَى بَعْبِدِ كَأَنَّهُمْ عَنَّمُ
يَسْتَحْشِنُ الْحَزْرُ حِينَ يَلِكُسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظَفْرِهِ الْقَلَمُ
والبيت الثاني يحمل سخريّة قاتلة فقد كانوا - كما يقول - عبيدا غلاظا لا يعرفون إلا الملابس الخشنة . وقد طالت أظفارهم ، وإذا هم يعيشون في النعيم ، يلبسون الإِسْتَبْرَقَ بل يستحشنونه ، ويمثلون ديار العرب بغيّاً وظلماً . ومرت بنا أبيات أخرى في هجائهم ، وأشرنا إلى هجائه لكافور وهو هجاء مرير . ويكثر الفخر في شعر المتنبي ، وهو طبيعي لمن يتصف بالبأس والشجاعة واحتمال المكاره والطموح والثقة بالنفس ثقة تدفعه إلى مغالبة الزمن حتى ليقول :

أَمْثَلُ تَأْخُذُ النِّكَاتُ مِنْهُ وَيَجْزَعُ مِنْ مَلَاةِ الْحَمَامِ
وَلَوْ بَرَزَ الزَّمَانُ إِلَى شَخْصَا لِحْضَبِ شَعْرٍ مَفْرَقِهِ حُسَامِي

وفي ديوانه مرثا مختلفة ، ولكن أهمها مرثيته في جدته والأخرى التي نظمها في أم سيف الدولة ، وقد مرت الإشارة إليهما ، والمرثية الأولى تطفح بالفخر بينما تطفح الثانية بالتفكير في الحياة والموت ، وفيها يقول :

يُذَفَّنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَمُشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الْأُولَى

وفي رأينا أن هذا البيت هو الذى ألهم أبا العلاء قصيدته : « غير مجد فى ملتى
واعتقادی » . وتَسْرَى فيه روح تشاؤم جعلته ناثراً على الزمن والدهر والناس ، وهى روح
تَحَبُّ أشعاره إلى قارثه ، من مثل قوله :

صَحِبَ النَّاسُ قَبْلَنَا ذَا الزَّمَانِ وَعَنَاهُمْ مِنْ شَأْنِهِ مَا عَنَا
وَتَوَلَّوْا بَعْضَةَ كُلِّهِمْ مِنْهُ وَإِنْ سَرَّ بَعْضَهُمْ أَحْيَانًا

وتكثر فى شعره الحكم والأمثال ، حتى ليصبح جُلُّ ما يدور من خواطر فى أذهان الناس
أمثالاً أو حكماً ينطق بها فى شعره ، ولفت ذلك القدماء وحاولوا أن يصلوا بينه وبين أرسطو
فيه ، ولكن من المؤكد أن حِكْمه وليدة عقله الكبير وخبرته الواسعة بالحياة والناس ، وقد
أنشدنا منها أطرافاً فيما مرَّ من الحديث . وأله غزل طريف ، وهو فيه مفتون دائماً بالبدويات
لجلمهن الفطرى وفى ذلك يقول :

حُسْنُ الْحِضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَةٍ وفى البداوة حُسْنٌ غَيْرٌ مَجْلُوبٌ
أَفْدَى ظِيَاءَ فَلَاحٍ مَا عَرَفْنَا بِهَا مَضْغَ الْكَلَامِ وَلَا صَبْغَ الْحَوَاجِبِ

وأكبر الظن أن فيما قدمت ما يجلو بعض الجلاء شخصية المتنبي الفذة ويرد عنها جملة
التُّهْم التى نسجها بعض الباحثين المعاصرين من العرب والمستشرقين حول نسبه وصحته
وحول قرمطيته وعقيدته ، وهو قد قرَّمع أبيه من وجه القرامطة حَدَثاً ورحل بسببهم عن
الكوفة فى باكورة شبابه ، وحاربهم بأخرة من عمره ، ومع ذلك يقال إنه قرمطى ، ويُلقَى
ظل من الشك على عروبه ، مع أن العروبة لم تجد من يُفْضِله لتختاره تُرْجَاناً لها أروع
ما يكون الترجان .

سَيْطُ (١) ابن التعاوىذى .

هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله ، كان أبوه مولى لبنى المظفر واسمه
نُشْتِكِين ، فسماه ابنه عبيد الله وسمى جده عبد الله ، وقد وُلد لأبيه ببغداد سنة ٥١٩ ويبدو
أنه توفى وابنه لا يزال صغيراً ، فكفله جده لأمه أبو محمد المبارك الزاهد المعروف بابن
التعاوىذى وكان صالحاً ، فقام على تربيته خير قيام ، إذ ألحقه بكتاب ، ثم بملقات العلماء

(١) التعاوىذى : حياته وشعره لتورى شاعر الألويسى (طبع
بغداد) وديوانه طبع قديماً بالقاهرة فى مطبعة المتنطف
بتحقيق مرحليوث .

(١) انظر فى ترجمة سبط ابن التعاوىذى معجم الأدباء
٢٣٥/١٨ وابن خلكان ٤٦٦/٤ ونكت الهيمان
ص ٢٥٩ والواق بالوفيات ١١/٤ وعبر الذهبى ٢٥٣/٤
والشذرات ٢٨١/٤ والنجوم الزاهرة ١٠٥/٦ وسبط ابن

في المساجد ، ولم يلبث أن استيقظت موهبته الشعرية ، ولم تشمله عناية جده فحسب ، فقد عُني به أيضاً بنو المظفر مواليه ، إذ أسبغوا عليه وعلى جده من أفضالهم الكثير ، وكان لهم شأن كبير في الدولة ، إذ كان منهم وزراء وكتاب مختلفون ، فألحقوه بدواوين الخلافة ، واختاروا له الكتابة بديوان الإقطاع ، وجعلته وظيفته في هذا الديوان يتصل بكبار رجال الدولة وموظفيها المختلفين من غير بني المظفر ، وله مدائح في الخلفاء وفي غير وزير ، وخاصة ابن هبيرة . ويظهر أنه كان من جملة من فصلهم وزير الديوان أبو جعفر أحمد بن محمد التيمي المعروف بابن البلدي لعهد الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) إذ نراه يهجو هجاء مرا ، وكان هذا الوزير قد عزل أرباب الدواوين وجسهم وحاسهم وصادرهم وعاقبهم ونكّل بهم ، وفيه يقول :

يا قاصدا بغداداً حيداً عن بلدةٍ للجور فيها زخرةٌ وعبابُ
إن كنت طالبَ حاجةٍ فارجعْ فقد سُدَّتْ على الرَّاجي بها الأبوابُ
بادتْ وأهلوها معاً فيوثهم ببقاء مولانا الوزير خرابُ
وارتهمُ الأجداتُ أحياءُ تُها لُ جنادُ من فوقهم وترابُ

ونراه في قصيدة أخرى يشكو من ابن البلدي ومن ضائقته وعطلته مما يدل دلالة قاطعة على أنه كان قد فصل مع من فصلهم . ولم يلبث أن عاد إلى وظيفته ، وأكبر الظن أن الخليفة المستنجد هو الذي أعاده ، وكان جده لأمه ابن التعاويذي قد توفى وورثه مرثية جيدة ، استهلها بقوله :

لكلِّ ما طال به الدهرُ أمدٌ لا والدُ يُنقى الردى ولا ولدُ
وليس في الديوان بعد ذلك ما يدل على أن أحداثاً خطيرة مرت به . وقد ظل في ديوان الإقطاع حتى سنة ٥٧٩ إذ كُفَّ بصره ، ولم يعد يستطيع العمل فيه ، ويلتمس حينئذ من الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) أن ينقل راتبه في الديوان إلى أبنائه ، وكانوا كثيرين كما يبدو من إحدى قصائده . ويحييه إلى ملتسمه ، غير أنه يعود فيطلب إليه أن يُجدد له راتباً خاصاً به مدة حياته ، ويحقق له طلبه ، ويكثر حينئذ من نَدب بصره بمثل قوله :

ألا مَنْ لمسجونٍ بغير جنائيةٍ يُعدُّ من الموتى وما حانَ يومُهُ
يروِّعُهُ عند الصباح انتباهُهُ فطوبى له لو طالَ وامتدَّ نومه

ولم يعيش طويلاً وهو مكفوف ، فقد توفى بعد نحو أربع سنوات سنة ٥٨٣ وقيل بل سنة ٥٨٤ . وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل كُفِّ بصره ، وعمل له خطبة طريفة ، كما يقول ابن خلكان ، ورتبه في أربعة فصول ، وكل ما نظمته بعد هذا الترتيب سماه الزيادات ،

والفصل الأول في مدائح الخلفاء ، والفصل الثاني في مدائح جماعة من الوزراء والأكابر كما يقول في مقدمته ، والفصل الثالث في مدائح بني المظفر ، يقول : « لأنني نشأت فيهم ، وصحبهم أنا وجدى لأمى ، وكنت منقطعاً إليهم لا أشيم (أنظر) غير سمائهم ، فنظمت فيهم جُلَّ شعري ، وأنفقت معهم طائفة من عمري » والفصل الرابع متنوعات من مرث وزهد وغزل وعتاب وهجاء . والزهد عنده قليل مما يدل على أن أثر جده لأمه الورع فيه كان ضعيفاً . وواضح أن جمهور الشعر في الديوان مدائح ، ومع ذلك نرى له قصيدة ينصح فيها الشعراء أن يهجروا المديح إلى الهجاء ، ويبدو أنه قالها في لحظة عارضة في حياته . وقد توه به وبشاعريته ابن خلكان تنويهاً عظيماً قائلاً : « كان شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعضويتها ورقة المعاني ودقتها ، وهو في غاية الحسن والحلاوة ، وفيما أعتقده لم يكن قبله بمائتي سنة من يضايهه » .

وأول خليفة مدحه سيّط ابن التعاويذى الخليفة المستنجد (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ) وليس لأبيه المقتنى ذكر في الديوان ، وليس له في المستنجد نفسه سوى قصيدة ، وكأنه كان بعيداً عنه لعهد وزير الديوان ابن البلدى . حتى إذا ولي المستضى (٥٦٦ - ٥٧٥ هـ) رأيناه يكثر من مدائحه ، كما أكثر من مدائح ابنه الناصر ، وظاهرة مهمة تلاحظ في هذه المدائح ، هي أن الشاعر يقترض من بيئة الإمامية الشيعية وغيرها من الغلاة بعض الأوصاف التي يصفون بها أئمتهم ، ويصف بها المستضىء وابنه الناصر ، وكأنه لم يعد هناك فرق بين مدح الشيعة لأئمتهم ومدح الشعراء لخلفاء بني العباس ، وأقرأ هذا الاستهلال

لمدحة لسيّط ابن التعاويذى في المستضىء :

لك التَّهْيُ بعد الله في الخلق والأمر	وفي يدك المبسوطة النفع والضّر
وطاعتك الإيمان بالله والهدى	وعصيانك الإلحاد في الدين والكفر
ولولاك ما صحّت عقيدة مؤمن	تقى ولم يقبل دعاة ولا نذر
مُر الدهر يفعل ما تشاء فإنه	بأمرك يجرى في تصرفه الدهر

والغلُو واضح في البيتين الأخيرين ، بل في الأبيات كلها ، حتى ليجعله يصرّف الدهر كما يشاء . ويمضى في القصيدة فيصفه بأنه أمين الله ووارث النبي وإمام هدى عمّ عدله الرعية ، وقد نظقت بفضله آى الذكر الحكيم بقصد قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) . ودائماً يردّد في مدائحه له أنه جار على سنن الرسول ﷺ ، وأن مديحه له سيعدّ يوم القيامة من حسناته . ويخطو الشاعر في مديحه للناصر خطوات أكثر غلواً على شاكلة قوله :

أنت الإمام المهديّ ليس لنا إمامٌ حقٌّ سيواك يُتَنظَرُ
يا صاحبَ العصرِ والزمانِ ومن في يده التَّقَعُّ بعدُ والضَّررُ
ومَن له الليلُ والنهارُ وما كَرَّأ عليه والشمسُ والقمرُ
والبُرُّ والبَحْرُ والشواهِقُ والدُّ غُرُّ العَوَادِي والتَّجْمُ والشَّجَرُ

ولو لم نعرف اسم المدوح لظنناه إماماً شيعياً فهو المهدي الذي تنتظره الشيعة لينقذ العالم من مفسده وشروره ، وهو صاحب العصر والزمان الذي يُخْتَنَى عن الأعين ومع ذلك يرعى أمور رعيته ويُدبِّر شئونها ، بل إنه ليدبر الكون كله بليله ونهاره وأفلاكه وكواكبه وأرضه وسماؤه وبره وبحره . وعلى نحو ما يضيف الشيعة إلى أئمتهم العلم وأنهم خزنته وذخائره كذلك يكرر الشاعر بأن العباسيين علماء الدين الحنيف وأعلام الهدى ، ولا يملُّ من تكرار نشرهم للعدل . وكان الشيعة يرددون أن أئمتهم حجج الله في أرضه على عباده ، ويقتبس الشاعر هذه الفكرة في مدحه للناصر قائلاً :

حُجَّةُ اللَّهِ أَنْتَ وَالسَّبَبُ الْمَمَّ سُدُودٌ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ

ولعل في ذلك كله ما يدل على أن من الخطأ أن يُسَلَّكَ سببُ ابنِ التعاويذي بين شعراء الشيعة كما ظن بعض المعاصرين ، فهو شاعر عباسي ، متعصب لخلفاء بني العباس أشد التعصب ، ولذلك أمثلة كثيرة في شعره ، وهو يقرر دائماً أنهم أصحاب الحق الشرعي في الخلافة ، ولذلك كنت أشك في أنه نظم مرثية الحسين .
أرقتُ لِلْمَعْرِ بَرِّقِ حَاجِرِيٌّ تَأَلَّقَ كَالْمَانِيِ الْمَشْرِفِيٌّ
ويغلب أن تكون المرثية أضيفت إلى الديوان في زمن مبكر .

وحيث كاد العباد الأصهباني يعمل في دواوين الخلافة ببيغداد انعقدت بينه وبين الشاعر صلة مودة ، فلما بارح العباد العراق إلى الشام واتصل بصلاح الدين كان الشاعر يرأسله ، ويقول يا قوت إن العباد ذكر في ترجمته بعض ما كان بينها من مراسلات ، وفي ابن خلكان رسالة بديعة للشاعر أرسل بها إلى العباد يطلب منه قرّوة . ويبدو أن العباد عمل على أن يصل بينه وبين صلاح الدين من جهة ووزيره القاضي من جهة ثانية ، وفي ديوانه أربعة مدائح وجه بها إلى صلاح الدين بين سنتي ٦٧٠ و ٦٨٠ كافأه عليها مكافآت سنوية ، لعل أهمها النونية ، وفيها يقول :

قَادَ الْجِيَادَ مَعَاقِلًا وَإِنْ أَكْتَفَى بِمَعَاقِلِي مِنْ رَأْيِهِ وَحُصُونِ
سَهَرَتْ جَفُونُ عِدَاهُ خَيْفَةً مَاجِدٍ خُلِقَتْ صَوَارِمُهُ بِغَيْرِ جَفُونِ

لو أن لَيْثَ الهَزِيرِ سَطَّاهُ لم يَلجأ إلى غابٍ له وعَرين
وغزله في مفتح هذه المدحة رائع ، وله في القاضي الفاضل ثلاث مدائح أروعها رائية
يشكو فيها فقد بصره شكوى مرة ، إذ يقول :

ناء عن الأحياء في بَرزَخٍ منقطعٍ من بينهم ذِكْرِي
ليلٌ حِجابٍ لا أرى فَجْرَهُ يا مَنْ رأى لَيْلاً بلا فجر
وفي الحق أنه كان شاعراً بارعاً ، وقد وفَّاه ابن خلكان حقه من الثناء ، ونحس
عنده كأن نبعاً سائغاً شرابه يتدفق عذباً عدوية حلوة .

صفى^(١) الدين الحلي

هو عبد العزيز بن سرايا الحلي الطائي ، ولد بالحلّة القريبة من الكوفة سنة ٦٧٧ لأمره
على شيء من اليسار وسعة الحال ، فكان طبيعياً أن تُلحقه بكتاب يتعلم فيه القراءة وحفظ
القرآن الكريم وبعض الأشعار . وكان الغلمان من لداته يتدربون على ركوب الخيل
فحكاكهم في هذا التدريب . وأحسّ في نفسه ميلاً شديداً إلى الشعر ، فأكبّ على حفظ
نصوصه العباسية والإسلامية والجاهلية ، مما جعله فيما بعد يُعنى بتضمين كثير من هذه النصوص
في شعره وبعض موشحاته . ويبدو أن موهبته الشعرية استيقظت فيه مبكرة ، إذ يقول في
المقدمة التي صنعها لديوانه : « إني كنت قبل أن أشبَّ عن الطوق ، وأعلم ما دواعي
الشوق ، لهجاً بالشعر نظماً وحفظاً ، متقناً علومه معنى ولفظاً » . وهو يقصد بالعلوم علوم
العربية وعلوم البيان والمعاني والبديع ، ونراه فيما بعد يؤلف في الجناس كتاباً سماه « الدر
النفيس في أجناس التجنيس » . ومرّ بنا في غير هذا الموضع أنه ألف قصيدة بديعية هي
مدحة نبوية تضم أبياتها نحو مائة وخمسين محسناً من محسنات البديع . ومن مؤلفاته كتاب
الأوزان المستحدثة مثل الدوبيت وغيره ، وأيضاً كتاب العاقل الحالي ، وهو - كما مرّ
بنا - في فنون الأشعار العامية . ويصرح في مقدمة ديوانه بأنه لم يفكر في بدء حياته أن يمدح
أحداً أو يهجو أحداً ، بل لقد كان يرى أن يتعد بأشعاره عن هذين الجدولين ، وجعله
ذلك لا ينظم إلا في موضوعين هما مدح الرسول ﷺ وآله ، والفخر بآبائه . ولم يكد

(١) انظر في ترجمة صفى الدين الدرر الكامنة لابن حجر ٤٧٩/٢ وفوات الوفيات لابن شاعر الكشي الماضي طبعتين : طبعة في دمشق وطبعة في بيروت وكلتاها مليئة بالأخطاء وفي دار الكتب المصرية منه أربع مخطوطات

يتجاوز العشرين من عمره حتى تعاضمت الحزازات والثارات بين عشيرته وأسرته وبعض الأسر أو العشائر في الحِلَّة ، وقُتل خاله ، وبكاه في غير قصيدة وأخذ يدعو للثأر له ، فنشبت معارك وسفكت دماء . وهاله أن يرى ذلك تحت بصره ، فلم تدخل سنة سبعمائة حتى خرج عن الحِلَّة ، ولم يكتف بالبعد عنها في بغداد ، فقد أبعده في ارتحاله حتى نزل عند ملوك ماردين في الموصل من آل أرتق أصحابها وأحسن لقاءه واستقباله ملكها المنصور نجم الدين غازي بن أرتق ، وهو يشيد به ويعطايه وعطايها ابنه الملك الصالح في مقدمته للديوان ، وفي استقبال المنصور له يقول :

لَا قَيْتَنَا مَلَقَى الْكَرِيمِ لَضِيْفِهِ وَضَمَمْتَنَا ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ

وقد أنزله في دار فخمة نوه بها في شعره ، وظل يصحبه في حِلِّه وترحاله ونزهاته ، وفيه نظم مدائح كثيرة في الأعياد وفي بعض انتصاراته . ولم يكتف بذلك فقد رأى أن ينظم فيه ديواناً مستقلاً سماه « دُرُّ النُّحُورِ فِي مَدَائِحِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ » وهو ملحق بديوانه المطبوع في دمشق ، ويحتوي على تسع وعشرين قصيدة اشترط فيها على نفسه أن تكون كل قصيدة منها على حرف من حروف المعجم التسعة والعشرين ، وأن يكون عدد أبيات كل منها تسعة وعشرين ، وأن يبدأ في كل بيت منها ، ويختتمه بنفس الحرف ، وفي إحداها يقول :

رَبُّ التَّوَالِ وَمَحْمُودُ الْخِصَالِ وَمَقْدُ سِدَامُ التَّرَالِ وَأَمْنُ الْخَائِفِ الْحَذِرِ
رَاعَى الْأَنَامَ بَعِينَ غَيْرِ رَاقِدَةٍ قَدْ وَكَلْتُ فِي أُمُورِ الْمَلِكِ بِالْبَهْرِ
رَاضٍ مَعَ السَّخَطِ يُبْدِي عِزْمَ مُتَقِمٍ لِلْمَذْنِبِينَ وَيَعْفُو عَفْوً مَقْتَدِرِ
رَاحَاتِهِ مُذْنَشَا فِي الْمَلِكِ قَدْ عَاهَدَتْ يَوْمَ التَّنْدَى وَالرَّدَى بِالنَّفْعِ وَالضَّرْرِ

ولا ريب في أن هذا الصنيع ضرب من التكلف الشديد ، ولذلك حين نقرأ قصائد هذا الديوان نشعر كأننا بإزاء لون من الشعر التعليمي الذي يراد به إظهار المهارة اللغوية . ويتوفى الملك المنصور سنة ٧١٢ ويخلفه ابنه الملك الصالح وتظل له منزلته ، ويظل له راتبه الذي كان يأخذه في عهد أبيه ، ويصحبه في نزهاته وخروجه للصيد ، ويتخذة أنيساً له في مجالس شرايه . ونراه في أواخر العقد الثاني من هذا القرن الثامن وقد مرَّ به نحو عشرين عاماً في ظلال الدولة الأرتقية يفكر في زيارة الشام بحجة رغبته في التجارة ، وكانت تجارته الدائرة شعره ، فتزل بحجة ومدح سلطانها المؤيد وابنه الأفضل ، وفي أثناء مقامه عندهما يُرسل بمدائحهم إلى الملك الصالح . ويفكر في قضاء فريضة الحج ، ويحج إلى بيت الله الحرام في سنة ٧٢٣ ويזור قبر الرسول ﷺ ، ويفكر في العودة ولا يعود إلى الموصل ولا إلى الشام ولا إلى بغداد ، إذ يتجه إلى القاهرة وينزل بساحة سلطانها الناصر محمد بن قلاوون ،

ويستقبله أدياء مصر استقبالاً حافلاً ، ويمدح الناصر بقصيدتين ، ربما كانا أروع مدائحه جميعاً ، أما أولاهما فعارض بها قصيدة المتنبي :

بأبي الشمس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيا
واختياره لمعارضة المتنبي شاعر العربية الفذ دليل قوى على ثقته بنفسه ، وقد أظهر في معارضته براعة فائقة ، وهو يستهل معارضته بقوله :

أَسْبَنَ من فوق النُّهود ذَوَائِبًا فجعلن حَبَاتِ القلوب ذَوَائِبًا
والجناس في كلمتي ذوائب بديع ، فالأولى بمعنى الضفائر ، والثانية من الذويان ، والجناس كثير في شعره ، وكان يعرف بمقدرته الشعرية كيف يجعله سائغاً . ويمضي في مديح الناصر قائلاً :

الناصرُ الملك الذي خضعتْ له صيدُ الملوك مشارقاً ومغارباً
لم تَحُلْ أرضٌ من ثنائه وإنْ خلَّتْ من ذكره ملئتْ قنًا وقواضيا
تُرَجِّي مواهبه ويُرهَبُ بَطْشُهُ مثل الزمانِ مسالماً ومحارباً
فإذا سَطَا ملاً القلوبَ مهابةً وإذا سَخَا ملاً العيونَ مواهباً
ولم يفتح القصيدة الثانية بالنسيب أو الغزل . وكأنما سخر الطبيعة المصرية وجمال رياضها وبساتينها ملاً عينيه وقلبه ، فرأى أن يعدل عن النسيب إلى وصف الجمال الحاجع على ضفاف النيل وجداوله من مثل قوله :

خَلَعَ الربيعُ على غُصونِ البانِ حُللاً فواضِلُها على الكُتبانِ
والظَّلُّ يَسْرِقُ في الخِمالِ خَطْوَهُ والغُصنُ يَحْطِرُ خَطْرَةَ النَّشوانِ
وكانما الأغصانُ سوقُ رواقصِ قد قِيدَتْ بسلامِ الرِّيحانِ
والشمسُ تنظرُ من خلالِ فُروعِها نحو الخدائقِ نظرةَ الغيرانِ
والطَّلَعُ في خَللِ الكِمامِ كأنه حُللٌ تَفْتَقُ عن نُحورِ غوانِ
وصفى الدين يحيل الطبيعة المصرية نشوى بما يترامى له فيها من غناء ورقص وغوان وجمال فاتن يأخذ بالألباب . ويمضي محفوقاً بهذا الجمال من كل جانب ، مادحاً للناصر محمد بن قلاوون بمثل قوله :

ملكٌ إذا اكتحلَ الملوكُ بنوره خروا لهيبته إلى الأذقانِ
شاهدته فشهدتْ لُقمانَ الحجى ونظرتْ كِسرى العَدلِ في الإيوانِ
وإني وقد عاد السامحُ وأهله موتى فكان له المسيحُ الثاني
لا عيبَ في نِعْماءِ إلا أنَّها يَسْلُو الغريبُ بها عن الأوطانِ

ويُشيد بإنعام الناصر عليه في مقدمة ديوانه ، وأن رئيس وزرائه أبلغه رغبته في أن يجمع شعره في ديوان ويوبه ويرتبه . ولبيّ صفي الدين رغبة الناصر ، فجمع ديوانه ، وجعله في اثني عشر باباً تشتمل على ثلاثين فصلاً ، والأبواب في الفخر والحجاسة والمدح والطرديات والإخوانيات والمراثي والغزل والخمريات والشكوى والهدايا والألغاز والزهد والهجاء ومعه الملح والأحماض . وكأنما أريد لديوان صفي الدين أن يشيع من مصر ، على نحو ما تطبع في عصرنا بمصر دواوين كثيرة لشعراء البلاد العربية . وفي الديوان مدائح مختلفة للرسول عليه السلام ولعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، وقد درسها الدكتور جواد علوش وانتهى من درسها إلى أنه كان شيعياً إمامياً ، وكل ما جاء به من أدلة على ذلك إشارته في بعض تلك المدائح إلى أن الرسول جعله وصياً له وأنه عهد له بهذه الوصاية حين نزل بِغَدِيرِ خُـمْ بين مكة والمدينة ، يقول في مديح علي :

إِمَامٌ لَهُ عَقْدُ يَوْمِ الْغَدِيرِ بِنَصِّ النَّبِيِّ وَأَقْوَالِهِ

وذكر صفي الدين لهذا العهد لا يثبت أنه شيعي إمامي ، إذ لا نجد في شعره شيئاً من عقيدة الإمامية ، ومعروف أن الزيدية مثل الإمامية يؤمنون بهذا العهد ، ونجده في نفس باب مديحه للرسول ولعلي يرى نفسه من تفضيل بعض الصحابة على بعض ، يقول :

ولاني لآل المصطفى عَقْدُ مَذْهَبِي وَقَلْبِي مِنْ حُبِّ الصَّابَةِ مُفَعَّمٌ
وما أنا ممن يستحيزُ بِحَبِّهِمْ مَسَبَّةُ أَقْوَامٍ عَلَيْهِمْ تَقَدَّمُوا
ولكنني أُعْطِيَ الْفَرِيقَيْنِ حَقَّهُمْ وَرَبِّي بِحَالِ الْأَفْضَلِيَّةِ أَعْلَمُ

والبيتان الثاني والثالث يخرجانه من العقيدة الإمامية التي تُصنّف علي علياً وأبنائه من الأئمة صفات روحية قدسية لا توجد في غيرهم من أفراد الأمة ، والبيت الثالث يخرجه من الزيدية ، هم حقا يصححون خلافة أبي بكر وعمر ولكن مع الإيمان بأن علياً أفضل منها وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الأفضل . وإذن فصفي الدين لا إمامي ولا زيدي ، ومن قوله :

قيل لي : تعشق الصحابة طُرّاً أم تَفَرَّدْتَ مِنْهُمْ بِفَرِيقٍ
فإلى من تَمِيلُ؟ قلتُ إلى الأُرْبَعِ لا سِوَا إلى الفاروقِ

ويكنى أن يقول إنه يميل إلى الفاروق عمر أكثر من علي ، ليخرج من كل أبواب التشيع ، أما ورود عهد الغدير في بعض شعره فلعله قال ذلك عفواً في حديثه ، وخاصة أنه نشأ في الحِلَّة ، وهي بيثة قديمة من بيثات التشيع ، وهو نفسه يقول في مقدمة الديوان إن شعره في الرسول وآله نظمه في باكورة حياته .

وفى الديوان ظواهر مهمة يحسن أن نشير إليها ، ففيه اثنتا عشرة موشحة وفيه ثلاثة مسمطات وسبعة مخمسات وبعض رباعيات كقوله :

لا تحسب زورة الكرى أجفاني من بعدك من شواهد السلوان
ما أرسلت الرقاد إلا شركاً تصطاد به شوارد الغزلان
وتكثر في شعره المحسنات البديعية ، وخاصة الجناس بجميع صوره الممكنة ، ومر بنا أن له كتاباً مستقلاً فيه ، وفي شعره كل ألوانه : التام والناقص والمقلوب والملفق . وله قصيدة بنى كل شطر من شطورها على ثلاثة جناسات مثل :

سَلْ سَلْسَلِ الرِّيقِ لِمَ لَمْ يَرَوْ حَرَ ظِمًا بَلْ بَلْبَلِ الْقَلْبِ لِمَا زَادَ الْآمَامَا
وواضح أن حرفي « سَلْ » كُرِّرَا ثلاث مرات في الشطر الأول وكُرِّرَ حرفا « بَلْ » في الشطر الثاني ثلاث مرات . وقد يلجأ إلى جناس آخر لا يقل تعقيداً إذ يجانس بين ختامي الشطرين في قصيدة على هذه الصورة :

شديدُ البأس ذو أمرٍ مطاعٍ مُضاربٌ كلُّ قَرَمٍ أو مطاعنٍ
ومضى في القصيدة يضيف نوناً إلى الكلمة المنونة في آخر الشطر الأول ليحدث هذا الجناس المتكلف . وأكثر من التضمين في قصائده ، بحيث يصبح له في القصيدة شطر وبعض السابقين من مثل امرئ القيس والمنتبى وغيرهما شطران . وليس هذا فحسب فقد تبع الحريري في نظم قصائد مهملة غير منقوطة وأخرى معجمة منقوطة أو يستقل فيها بيت أو شطر بالإعجام وبيت أو شطر بالإهمال أو تتوالى الكلمات فيها كلمة معجمة وكلمة مهملة . وقد تتكون الأبيات من حروف مقطعة غير موصولة أو من حروف موصولة بحيث لا يكون فيها حرف مفصول ، وله قصيدة كل كلماتها مصغرة ، إلى غير ذلك من هذه التمرينات الهندسية التي لا تحوى شعراً ، وإنما تحوى مهارات لغوية . وصفى الدين بذلك وباستخدامه الواسع للتضمينات والجناسات يفتح الأبواب على مصاريعها لشعراء العراق بعده كى محمد شاعريتهم وتحف يتابعها ، مع أن ملكاته الشعرية كانت من الخصب بحيث لو اتجه بها نحو وصف الطبيعة وكان يجيده لأضاف إضافات رائعة إلى الشعر العربي .

٤

شعراء المراثى والهجاء والشكوى

لا نبأناغ إذا قلنا إنه قلما وجد شاعر من الشعراء ، وخاصة شعراء المديح ، إلا وقد نظم مراثى مختلفة فيمن سبق إليه الموت من كبار ممدوحيه أو من أهله أو من أصدقائه ، ونكتفي

بالإشارة إلى بعض المرثى البديعة ، فن ذلك مرثية أبي الحسن محمد بن عمر الأنباري الصوفي الواعظ لصديقه الوزير ابن بنية حين قتله عضد الدولة البويهى وصلبه في بغداد لسنة ٣٦٧ وقد استهلها بقوله (١) :

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَاتِ لِحَقِّ أَنْتِ إِحْدَى الْمَعْجَزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِينَ قَامُوا وَقَدْ نَدَاكَ أَيَّامَ الصَّلَاتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيهِمْ خَطِيْبًا وَكُلُّهُمْ قِيَامٌ لِلصَّلَاةِ
مَدَدَتْ يَدَيْكَ نَحْوَهُمْ احْتِفَاءً كَمَدَّهَا إِلَيْهِمْ بِالْهَيْبَاتِ

ويشبهه صلبه بصلب زيد بن علي زين العابدين في أواخر العصر الأموي ، ويتصور الجذع المصلوب إليه كأنه يعانق المكرمات ، ويظن كأن الكوارث التي طالما رَدَّهَا عن الناس تأرت لنفسها منه ، ويقول إن باطن الأرض حين ضاق عن أن يضم علاه جعلوا الجوقرة كما جعلوا أكفانه غبار الرياح ، ويستترل عليه أويستمطر شآبيب الرحمة والرضوان . ويكثر في العصر رثاء الشعراء ، وفي مقدمتهم المتنبي ، وفي كتاب الدمية للباخرزي مرثى مختلفة له ، ومن رثاه أبو القاسم المظفر بن علي الطَّبَّسِي ، وفيه يقول (٢) :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ الْمُتَنَبِّئِ أَيُّ ثَانٍ يَرَى لِيَكْرِ الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْدٍ شِئٍ وَفِي كِبْرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِ

وكان الشريف الرضي يكثر من رثاء أصدقائه من الكتاب والشعراء ، وقد رثى أبا إسحق الصائغ بقصيدته الدالية مفتحا لها بقوله :

أَرَأَيْتَ مَنْ حَمَلُوا عَلَى الْأَعْوَادِ أَرَأَيْتَ كَيْفَ خَبَا ضِيَاءُ النَّادِي
وَعَاتِبَهُ النَّاسُ فِي ذَلِكَ لِكَوْنِهِ شَرِيفًا مِنْ سَلَالَةِ الرَّسُولِ وَرثَى صَابِتًا ، فقال : إِنَّمَا رثيتُ
فَضْلَهُ . وتوفى الرضي فرثاه مهيار بلامية تأثر في مطلعها بمطلع داليتها آنفة الذكر إذ يقول :

حَمَلُوكَ لَوْ عَلِمُوا مِنَ الْحَمُولِ فَارْتَاضَ مَعْتَاصٌ وَخَفَّ ثَقِيلٌ

وهذا باب يطول . ونكتني بأن نقول إنه لم يمت خليفة ولا وزير ولا حاكم إلا وأكثر الشعراء من رثائه . وأهم من هذه المرثى لأشخاص رثاه بغداد حين اكتسحها التتار وخربوها ودمروها تدميراً فقد بكأها الشعراء بكاء حاراً ، بكوا أهلها الذين سُفكت

(١) انظر النجوم الزاهرة ١٣٠/٤ وابن خلكان (٢) ابن خلكان ١٢٤/١ وانظر الدمية ١٠٥/١ .

دماؤهم وقتلوا نقتيلا ، وبكوا تاريخها ومدنيتها وما كان بها من علوم وعلماء ، وقد أشرنا في الفصل الأول إلى مرثية الشيخ تقي الدين التنوخي لها ، وقد أكثر من رثائها شمس الدين الكوفي الواعظ المتوفى سنة ٦٧٥ واحتفظ ابن شاکر في كتابه فوات الوفيات بطائفة من مراثيه في ترجمته للخليفة المستعصم ، وفي إحداها يقول (١) :

أين الذين عهدتهم ولعزمهم ذلاً نخرُ معاهدُ التَّيجانِ
كانوا نجوم من اقتدى فعليهم ييكي الهدى وشعائر الإيمانِ
لما رأيتُ الدارَ بعد فراقهم أضحتُ معطلةً من السَّكانِ
مازلتُ أبكيهم وألثمُ وحشةً لجاهلهم مُستهيماً الأركانِ

وكان لهذه النكبة صداها المدوي في جميع البلدان العربية وفي إيران ، حتى لئرى الشيخ سعدى الشيرازي وغيره من شعرائها يندبونها ندباً كله لوعة وحسرة على ما أصابها من دمار ونكال .

ولعل الهجاء كان أكثر ذيوغاً وانتشاراً من الرثاء ، ومرّبنا أن المتنبى هجا كثيراً الأعاجم كما هجا كافوراً الإخشيدي ، وتلقانا في اليتيمة والدمية والخريدة أهاج كثيرة ، بل يلقانا شعراء وقفوا حياتهم أو كادوا على الهجاء مثل محمد بن محمد بن جعفر البصري المعروف باسم ابن (٢) لئلك المتوفى سنة ٣٦٠ وكان قد قصّره جهده عن بلوغ الغاية أو المترلة التي يأملها لنفسه ، فسلّ لسانه على معاصريه من الشعراء حتى المتنبى فإنه هجاه ، وهو الذي زعم أنه ابن سقاء بالكوفة ، كما لاحظ ياقوت في ترجمته له . وكان يتهاجى مع شاعر معاصر له يسمى أبارياش ، وفيه يقول :

على القُبْحِ الفظيغ أبو رياشي يُعاشرنا بأخلاقٍ ملاح
يُبِيحُ أكفنا أبداً قفاهُ فنصّفه على جهة المزاح

وهما من أنظف ما قال فيه ، وكأنه كان يريد أن يتشقى من الزمن بهجوه وهجو غيره من الشعراء لكساد شعره وهوان شأنه على الناس . ومن كبار الهجائين في العصر ابن الهبّارية المتوفى سنة ٥٠٤ وسترجم له في غير هذا الموضع ، وقد ذكر العماد في الخريدة أن له قصيدة (٣) في هجو أرباب الدولة في عهد ملكشاه السلجوقي (٤٦٥ - ٤٨٥) وساق منها قطعتين طويلتين ، وفيهم يقول :

(١) فوات الوفيات ١/٥٠٠ . وفوات الوفيات ١/٥٤ وشعرا ابن لئلك البصري بتحقيق

(٢) انظر في ابن لئلك اليتيمة ٣٤٨/٢ وتاريخ بغداد زهير غازي زاهد (طبع البصرة)

(٣) الخريدة (قسم العراق) ٢/٨١ . (٤) معجم الأدباء ٧٨/٧ والوفاء بالوفيات ١/١٥٦

لى ماتم من سوء فعلهم ولهم بحسن مدائحي عرس
 ولقد غرست المدح عندهم طمعا فحفظ ذلك الغرس
 ويمضي في تلهم واحداً واحداً أقيح ثلب وأشنعه . وعلى شاكلة هذه القصيدة
 سينية^(١) للشريف أبي نزار عبد الله بن محمد الكوفي ذم فيها سادات بني عمه من الكوفة
 والحلة . ومربنا تعرض سيط ابن التعاويذي للوزير ابن البلدي ، وفيه يقول ابن لنكك :
 يبدو لراجيه على وجهه غلظة ليث بالشري مخدر^(٢)
 لو أنها بالأرض ما أخصبت أو بالسحاب الجون لم يعطر
 وفي ديوان صفي الدين الحلبي باب للهجاء كما أسلفنا ، وإنما نمثل فقط ببعض
 النصوص .

وطبيعي أن تكثر في العصر الشكوي من الزمان ، ونكاد نلتقي بها بعد المتنبى على
 لسان كل شاعر ، ولا يختلف اثنان في أن أروع قصيدة في الشكوي من الدهر وتصاريفه
 قيلت في العصر قصيدة أبي محمد^(٣) على بن زريق الكاتب الكوفي وهو من شعراء
 البيتمة ، ويقال إنه ألت به أيام عيرة ، فرأى الارتحال إلى الغرب ، وارتحل تاركاً وراءه
 في بغداد زوجة كان صبياً بها مغرمًا ، غير أن الأيام لم تسعفه ، وبيالغ بعض الرواة
 فيزعمون أنه ظل راحلاً حتى وصل إلى الأندلس وامتدح أحد أمرائها ، فلم يعطه ما كان
 يتمناه ، فبكى أمه الضائع في هذه القصيدة ، وفيها يقول مخاطباً زوجته وباكياً نفسه :
 لا تغدليه فإن العذل يورعه قد قلت حقاً ولكن ليس يسمعه
 فاستعمل الرفق في تأنيبه بدلاً من عنقه فهو مضمن القلب موجعه
 تأتي المطالب إلا أن تكلفه للرزق سعيًا ولكن ليس يجمعه
 والحرص في المرء - والأرزاق قد قسمت - بغي إلا إن بغي المرء يصرعه
 أعطيت ملكاً فلم أحسن سياسته وكل من لا يسوس الملك يخلعه
 ويصور في القصيدة لوعة الفراق وسوء الحظ وأنه لا يزال في حل وترحال وراء
 الرزق ، وهو يلتمس له كسراب يحسه الظمان ماء ، حتى إذا انتهى إليه لم يجده شيئاً .
 والقصيدة كلها شكوي وأنين ولوعة ممضة . وسنقف قليلاً عند شاعرين من شعراء الهجاء ،
 أحدهما من شعراء البيتمة والثاني من شعراء الخريدة ، وهما السري الرقاء الموصلی وابن
 القطان البغدادي .

(٣) انظر في ابن زريق البيتمة ٣٧٦/٢ وابن خلکان

(١) الخريدة ٢٦٢/١/٤ .

(٢) الشري : القيل . مخدر : في صدره أو غيظه . ٣٣٨/٥ ويسميه عمدا . وراجع بروكلمان ٦٦/٢ .

السريّ (١) الرّفاء

هو أبو الحسن السريّ بن أحمد الكندي الموصلى ، وُلد لأسرة متواضعة ، يدل على ذلك أننا نجد أباه يسلمه صبياً للرّفائين ، فكان يرفو ويطرز ، ويبدو أنه تعلم القراءة والكتابة في صباه وحفظ القرآن أو بعضاً منه واستظهر بعض الشعر ، إذ يقول مترجموه عنه إنه بينما كان يعمل رّفاء في باكورة شبابه كان ينظم الشعر ويمجده . ويبدو أنه أخذ يُكَبّ على دواوين الشعراء ، وخاصة شعراء العصر العباسي المشهورين من أمثال أبي تمام والبحتري وابن المعتز وابن الرومي والمنتبي ، يدل على ذلك بوضوح الفصل الذي عقده الثعالبي لسرقاته . وكأنه أحسّ أنه إنما خلُق لكي يكون شاعراً لا لكي يكون رّفاء ، ولم تكن حرفته تدرُّ عليه إلا كفافاً من العيش يسدُّ به رمقه ، وإلى ذلك يشير قائلاً :

قدا كانت الإبرة فيما مضى صائنةً وجهي وأشعاري
فأصبح الرزقُ بها ضيقاً كأنه من نُقبها جاري

واجتمع عزمه على أن يهجر حرفة الرّفو والتطريز إلى حرفة الأدب والشعر ، واشتغل بالوراقة فكان ينسخ ديوان شعر كشاجم ، إذ كان معاصروه يقبلون عليه إقبالاً شديداً ، ويعيش بما يأخذ من أجرة نسّخه .

وكان معه في الموصل فتیان أخوان ينظمان الشعر ويمجديه ، هما أبو بكر محمد وأبو عثمان سعيد الخالديان فحدثت بينه وبينهما منافسة ، وكانا يحسنان الشعر ، فرأى أن يكيد لهما بإضافة أجود ما ينظمانه إلى ديوان كشاجم ، ليزيد حجمه وينفق سوقه من جهة ، وليشنع عليهما بأنهما يسرقان شعره كما يسرقان شعر غيره من جهة ثانية ، مما أشعل نار الهجاء بينه وبينهما ، وظلت لا تحمد أبداً . وسمع بما ينثره سيف الدولة الحمداني في حلب من عطايا وأموال على الشعراء ، فشدَّ رحاله إليه ، وقد أكرم وفادته عليه ، فأقام بحضرته ، فاشتهر وطلع سعده بعد الأقول ، وبعُدَ صيته بعد الخمول ، وله فيه مدائح بديعة كقوله في تصوير فرار الروم بين يديه ومقتلته فيهم مقتلة عظيمة :

تركهم بين مصبوغٍ ترائبه من الدماء ومخضوبٍ ذوائبه
فحائدٌ وشهابُ الرُمحِ لاجفه وهاربٌ وذبابُ السيفِ طالبه

ذباب السيف : طرفه الحاد . ولما توفي سيف الدولة انتقل السريّ إلى بغداد ومدح

(١) انظر في ترجمة السري الرفاء البيهية ١١٧/٢ الأدياء ١٨٢/١١ وابن خلكان ٣٥٩/٢ والنجوم الزاهرة وتاريخ بغداد ١٩٤/٩ والأنساب للسماحي ٢٥٥ ومعجم ٦٧/٤ وديوانه مطبوع بالقاهرة .

الوزراء وغيرهم من الرؤساء وحسنت حاله ، إذ نفق شعره وراج وسار في الآفاق ،
وتهاداه الأدباء في خراسان وسائر البلدان . ويقول ابن خلكان إنه جمع شعره قبل وفاته في
نحو ثلاثمائة ورقة ثم زاد فيه ، ويذكر من تصانيفه كتاب الديرة وكتاب الحب والمحجوب
والمشموم والمشروب . وقد أنشد الثعالبي من شعره في اليتيمة نحو ستين صحيفة وزعها على
سرقاته وما تكرر من معانيه وأهاجيه ومدىحه وهوه ومجونه وريبعياته وأوصافه وغزلياته
وما يتغنى به من أشعاره . وسوق له الثعالبي طائفة من أهاجيه في الخالدين مدعياً عليها
أنها يسرقان أشعاره ، من ذلك قوله :

أفي كل يومٍ للغبين غارةٌ ترُوعُ ألقاظي المحجَّلة الغرا
فهللاً أبا عثمان مهلاً فإنما يَغار على الأشعار من عشق الشعرا
لأطفائماً تلك النجوم بأسرها ودنسماً تلك المطارف والأزرا
فويحكما هلاً بشطرٍ قنعماً وأبقينا لي من محاسنه شطراً

ويكثر من اتهام الخالدين بتلك السرقة ، ويردد ذلك في مدائحهم وأنها يبيعان أشعاره
في العراق ، وليتبعها يبيعانها لمن يستحقها ، فإنها يبيعانها بثمان نجس لكل من لقيها ، غير
مقدرين لقيمتها ، ولا واعين لقدرها ، ويزعم أن غارتها على شعره غارة عامة للمديح
وغير المديح ، يقول :

ذئبان لو ظفروا بالشعر في حرم لمرقاه بأنيابٍ وأظفارٍ
باعا عرائس شعري بالعراق فلا تبعدُ سبياه من عونٍ وأبكارٍ
وما رأى الناس سبياً مثل سببها بيعتُ نفسيته ظلماً بدينارٍ
والله ما مدحا حياً ولا رثياً ميتاً ولا افتخرا إلا بأشعارى

ولا يزال يصف هذا السبى الشعري من عون أو ثنيات وأبكار ، وكيف أن من هذا
السبى جرحى لم تضرب بحد سيف ، وأسرى لم تحمل على ظهور خيل . ويكفي تبعه في
نظم أشعاره ويشبهها بالرياض ويصور إشفاقها على أنفسها من هذين اللصين وسيوفهما
التي تفتك بها فتكاً ذريعاً . ويعقد الثعالبي فصلاً لأهاجيه لابن العصب الملحي الشاعر
وكان يتعصب للخالدين عليه ، وهو في هجائه له يقدح إذعاعاً شديداً زاعماً مشاهدة
أهل الريب في منزله بين اللهو والخمر والقصف ، وكأنه لا يعيش في منزل وإنما يعيش في
حانة ، يقول في وصف دعوة دعاه فيها ساخراً :

وطاف الشيخُ بالدنِّ إلى أن نَزَفَ الدنَّ
فأدنى كدرَ العيشِ بها لا كان ما أدنى

مُدَامُ تَجْلِبُ الِهْمُّ وَلَا تَطْرُدُهُ عَنَّا
فَلَا النَّفْسُ بِهَا سُرَّتْ وَلَا الْقَلْبُ لَهَا حَنَّا

وهي سخرية قاتلة من الشيخ ، ولم نسق ما أضافه إلى الخمر من التبذل والتهتك
واطراح الحشمة في صراحة ، لأن الهجاء بذلك يتحول سباً يؤذى النفوس . وفي رأينا
أن هجاءه ينزل درجات عن بقية فنونه الشعرية ، وخاصة في فني المديح والغزل ،
وكان يتغنى بشعره في بغداد لعصره وبعد عصره بمثل قوله متغزلاً :

بِنَفْسِي مَنُ أَحْوَدُ لَه بِنَفْسِي وَيَبْخُلُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ
وَحَتَّى كَامِنٌ فِي مُقَلَّتِيهِ كُمُونَ المَوْتِ فِي حَدِّ الحَسَامِ

والصورة في البيت الثاني بديعة . ولا يُعرف تاريخ مولده ، أما وفاته فكانت في
بغداد سنة ٣٦٠ وقبل سنة ٣٦٢ وقبل بل سنة ٣٦٦ إذ اتخذها دار مقام له في أخريات
حياته .

ابن القَطَّانِ^(١) البغدادي

هو أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان . ولد ببغداد سنة ٤٧٨ وأكب على
دراسة الحديث النبوي في نشأته ، ثم اتجه إلى دراسة الطب فأتقنها ، حتى عُدد من أطباء
بغداد ، وكان كثير النوادر ، وغلب عليه الشعر ، وكان خبيث اللسان هجاء ، كما كان
غاية في المجون والخلاعة وكثرة المزاح والدعابة ، وقد هجا جماعة من الأعيان وكبار رجال
الدولة ، وكاد لا يسلم منه أحد لا خليفة ولا غيره ، وعوقب مرة على هجائه إذ هجا قاضي
القضاة الزينبي بقصيدة كافية أولها :

يَا أَخِي الشَّرْطُ أَمَلِكُ لَسْتُ لِلثَّلْبِ أَثْرُكُ

وهي طويلة عدد أبياتها مائة وثمانية عشر بيتاً ، وتناقلتها الرواة واشتهرت ولاكتها
الألسنة ، فبلغ ذلك القاضي الزينبي ، فأحضر ابن القطان وصفه وحبسه مدة ، ثم ردَّ
إليه حريته . وكان يعرف كيف يمزح في هجائه وَخَزَّ الإِبْرَ ، من مثل قوله في الوزير أنوشروان
ذاماً له بالتواضع :

هَذَا تَوَاضَعْتُكَ المَشْهُورُ عَنْ ضَعْفِ
قَعَدَتْ عَنْ أَمَلِ الرَّاجِي وَقَتَّ لَهُ
فَصَرَتْ مِنْ أَجْلِهِ بِالْكَبِيرِ تَتَهَمُ
فَذَا وَثُوبٌ عَلَى الطَّلَّابِ لَا لَهُمُ

(١) انظر في ترجمة ابن القطان المتظم ٢٠٧/١٠ و١٨٩/٦ ومرآة الجنان ٣/٣١٥ والخريدة (قسم العراق)

وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (نشر دار مكتبة الحياة

بيروت) ص ٣٨٠ وابن خلكان ٥٣/٦ ولسان الميزان

ويكثر مثل هذا الوخز وما يحمل من سخرية في هجوه ، مما يدل على قدرة حقيقية في الهجاء ، إذ لم يكن يعمد إلى السب والشتم ، إنما يعمد إلى سبوم تفتك بمن تسلط عليه كقوله في ابن المرخّم قاضى القضاة ببغداد :

يا ابن المرخّم صرتَ فينا قاضياً . خَرَفَ الزمانُ تَراه أم جُنَّ الفلَكُ
إن كنتَ تحكّمُ بالنجومِ فربما أمّا بشرعِ عميدٍ من أين لكُ
وهو بُعدٌ في الهجاء وهزه ما بعده هزه بقاضى القضاة في عصره . وله قصيدة طويلة في هجاء كتاب الديوان لزمته ، وكان بينهم عباسيون ، فعرض لأحدهم يغمزه في نسبه إلى العباس بن عبد المطلب جدّه ، قائلاً :

نسبُ إلى العباس ليس نظيرُهُ في الضّعفِ غيرِ الباقلاءِ الأخضرِ
وضعفِ عودِ الباقلاءِ الأخضرِ معروف . وله قصيدة طويلة يسخر فيها من واعظ ووعظه وأنه يعظ الناس بما لا ينهى عنه نفسه ، وله يقول :

وأنت تَنهى الناسَ عن غِيبةٍ في مثلها تأمُرُ بالرَدِّ
إما بتخويفٍ من النارِ أو بنوعِ تشويقٍ إلى الخُلْدِ
وبعد ذا تفعلُ بي هكذا زِنهارُ من سالوسك السردِ
وهذه العجمةُ مِنْ عندك أقدِ حَسبُها ما هيَ من عِندى
ارجعْ إلى اللهِ ودَعنى ولا ترمِ بِسَهْمِ الطَّيْشِ من بُعدِ
فهو ينهى الناس عن الغيبة ويغتابه ، مع أنه كثيراً ما يلوّح للناس بأنها قد تدخلهم النار وأن تركهم لها قد يدخلهم الفردوس ، والشطر الثاني في البيت الثالث عبارة فارسية يشير بها إلى أصل هذا الواعظ الأعجمي ، وكلمة زنهارة كلمة استغاثة بالفارسية . والسالوس السرد : الكلام المعسول البارد . وهو يستغيث بذلك من وعظه ، ويقول له ساخراً إنما اقتبست هذه الصيغة الأعجمية من عندك فأنت أعجمي اللسان لا تكاد تفصح في البيان ، ويناديه هازئاً به ارجع إلى ربك واستغفر لذنبك . وتكثر في القصيدة الألفاظ والعبارات الفارسية ، مما يدل على معرفته التامة لتلك اللغة . وعلى هذا النحو كان ابن القطان لا يزال يسخر سخريات لاذعة بمن حوله ، كقوله في وزير كان يستقل وزارته وظلّه :

يا معشر الناسِ النفيرَ النفيرِ قد جلس الهَرْدَبُ فوق السَّرِيرِ
وصار فينا آمراً ناهياً وكنت أرجو أنه لا يصير
فكلما قلتُ قَدَى يتجلى وظلمةُ عما قليلٍ تُنيرُ

فتحتُ عيني فإذا الدولة الـ سدولة والشيخُ الوزيرُ
 والمهردب : المعجز الغليظ ، يريد أنه لا يستطيع حراكاً فكيف يحرك دواليب دولة ، وإنه
 ليطلب إلى الناس أن تنفر للقاء هذا الأمر الخطير ، ويراها غُمَّة على صدر الأمة
 لا تنجلي ، ويفتح عينه في كل يوم أو في كل صباح فيراها جاثمة لا تريم . ولعله كان
 يريد القاضي الزينبي الذي رَجَّ به في السجن كما مر بنا ، فإنه تولى الوزارة ، ويقال إنه
 لما وليها دخل عليه ابن القطان والمجلس غاص بأعيان الرؤساء وقد اجتمعوا لتبنته ،
 فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور ، ورقص . فلما رآه الزينبي يرقص أسرَّ
 إلى بعض خواصه : قَبَّحَ الله هذا الشيخ ، فإنه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في
 أمثالها : « ارقص للفردي زمانه » . وبحق ما قاله الزينبي إذ نراه يقول في هجائه لبعض
 الرؤساء :

كُلُّ مَنْ صَفَّقَ الزَّمانُ لَهُ قَتُّ أَرْقَصُ
 وكان بينه وبين الحَيْصِ بَيْصَ الشاعرِ بَغْضٍ ومهاترة ، وكانا يصطلحان وقتاً ثم
 يعودان إلى ما كانا فيه من التنايد والتهاجي تماجنا وتظرفا ودعابة ، فمن ذلك أن الحَيْصَ
 بَيْصَ خرج ليلة من دار الوزير الزينبي ، فنبج عليه جرؤ كلبه ، وكان متقلداً سيفاً ،
 فوكزه بعقب السيف ، فمات . وعلم بذلك ابن القطان ، فنظم أبياتاً ، وأضاف إليها
 بيتين من أبيات ديوان الحماسة لأعرابي قتل أخوه ابناً له ، فقدم إليه ليثأر منه وكان بيده
 سيف ، فألقاه من يده وأنشد البيتين . وكتب ابن القطان الأبيات في ورقة وعلقها في
 عنق كلبه لها جِراء ، ورَتَّبَ معها مَنْ طردها هي وجِراءها أو أولادها إلى باب دار
 الوزير كالمستغيثة ، فأخذت الورقة من عنقها ، وعرضت على الوزير ، فإذا فيها :

يا أهل بغداد إن الحَيْصَ بَيْصَ أُنَى
 بفعلة أكسبته الخِزْيَ في البَلَدِ
 هو الجبانُ الذي أبدى شجاعته
 على جَرِيٍّ ضعيفِ البطش والجلدِ
 فأنشدت أمه من بعد ما احتسبت :
 دَمُ الأَبْلِقِ عند الواحد الصَّمَدِ
 « أقول للنفس تأساءً وتعزيةً
 إحدى يدي أصابني ولم تُردِ
 كلاهما خَلْفُ من فَقدَ صاحبه
 هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى »

وجَلَبُ ابن القطان البيتين الأخيرين من ديوان الحماسة من أروع أمثلة التضمين ،
 فقد بلغ بهما كل ما أراد من سخرية بالحَيْصِ بَيْصَ ، إذ جعل الكلبة تقول بلسان حالها
 إن أخى الحَيْصِ بَيْصَ الذى موقعه منى موقع إحدى جنى على سهواً وخطأً
 لا عمدأً ولا قَصداً لسوءه ، وإن كلا من الأخ القاتل سهواً والابن المفقود يعوِّض عن

فقدان صاحبه ، وبذلك جعله من فصيلة الكلاب ، متسللاً إليه من تضمين البيتين في مقطوعته ، فضلاً عما صوّره به من الجبن والهلع إزاء جرّو مستضعف لا حول له ولا قوة . وكانت في ابن القطان دعاية وميل شديد إلى النادرة ، وروى ابن خلكان طائفة من نوادره ، من ذلك أنه دخل على الوزير ابن هبيرة وعنده نقيب للأشراف يشتهر ببخله وكان دخوله عليه في يوم حر شديد في شهر رمضان ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال على البديهة : في مطبخ سيدي النقيب أتبرد ، يريد أنه ليس فيه نار ولا طيبخ في رمضان ، فضحك الحاضرون وخجل النقيب . وما زال يُطْرَف البغداديين بنوادره حتى توفّي عن سن عالية ببغداد في عيد الفطر سنة ٥٥٨

٥

شعراء الشيعة

مر بنا في الفصل الأول كيف أن مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية أخذ يعم في العراق منذ فواتح هذا العصر إذ كان البويهيون شيعة إمامية ، فأخذ المذهب ينتشر في عصرهم ، وأخذ أتباعه يتكاثرون ، وتكاثر معهم الشعراء ، ومضوا ينظمون في موضوعين أساسيين هما : مناقب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، متحدثين عن سيرته وانتصاراته على مشركي قريش وغيرهم وما فتح الله على يديه من حصون خيبر ، مضيفين إلى ذلك كل ما يروى له من فضائل منذ اعتنق الدين الحنيف وجاهد في سبيله إلى وفاته . أما الموضوع الثاني فهو بكاء الحسين وندبه ، واتسع ذلك حتى أصبح يوم مصرعه مأتماً عاماً في كربلاء وبغداد ، وهياً لذلك أن حاكم بغداد البويهى معز الدولة ألزم الناس - كما أسلفنا - في سنة ٣٥٢ بغلاق الأسواق في يوم عاشوراء ، يوم مقتل الحسين ، وأن ينصبوا القباب ويرفعوا فوقها المسوح السوداء ، كما ألزمهم بأن تخرج النساء منشورات الشعور يندبن ويلطمن على الحسين . وأقيم مأتم مماثل في كربلاء . ومنذ هذا التاريخ يتكرر هذا المأتم كل عام . وكان الإمامية لا يكتفون بهذا اليوم فكانوا يندبون الحسين في أيام أخرى طوال العام ، وإن لم يأخذ نديهم فيها شكل هذا المأتم الكبير . على كل حال أعدت هذه المآتم لأن يصبح بكاء الحسين وندبه موضوعاً أساسياً في شعر الشيعة الإمامية ، وكثيراً ما تبارى الشعراء فيه يوم الاحتفال الكبير بذكرى مصرعه ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . ولن نستطيع أن نتحدث بالتفصيل عن شعراء الشيعة الإمامية في العصر ،

إنما حسبنا أن نشير إلى بعض مشاهيرهم ، ويمكن القارئ أن يعود إلى كتاب أدب الطَّفِّ (كربلاء) لجواد شبر المطبوع في بيروت ، ويقرأ فيه الجزء الثاني الخاص بشعراء القرنين الرابع والخامس فسيري كثيرين من شعراء الشيعة الإمامية ، وفي مقدمتهم الزاهي^(١) الشاعر البغدادي المتوفى سنة ٣٦١ وقد أنشد له المؤلف مجموعة من القصائد في بيان مناقب الإمام علي بن أبي طالب ، واستهل إحدى قصائده بقوله :

تَوَلَّيْتُ خَيْرَ الخَلْقِ بَدْءًا وَآخِرًا وَأَلْقَيْتُ رَحْلِي فِي حِجَاهِمُ مُجَاوِرًا
أَعْمَةً حَقًّا خَاتَمَ الرُّسُلِ جَدُّهُمْ وَوَالِدَهُمُ مِنْ كَانَ لِلْحَقِّ نَاصِرًا

ومضى يذكر الأئمة الاثني عشر واحداً واحداً مشيداً بهم إلى أن انتهى إلى مهديهم ، ويكيهم ، ويعني نفسه بظهور المهدي قائم الزمان ، حتى ينشر بين الناس العدل الذي لا تصلح حياتهم بدونه . ويبدو أنه كانت في السري الرفاء نزعة شيعية ، وقد أنشد له صاحب أدب الطف قصيدة موجودة في ديوانه يمدح فيها آل البيت ويكي الحسين قائلاً :

كَأَنَّ أَحْشَاءَنَا مِنْ ذِكْرِهِ أَبَدًا تُطَوِّي عَلَى الجَمْرِ أَوْ تُحْشَى السَّكَاكِينَا

ومثله أبو بكر محمد الخالدي الموصلی ، ومررنا أنه كانت بينه وبين السري منازعة في الشعر ومهاجاة وأكبر الظن أنه كان شيعياً إمامياً مثله ، فقد ترجم له صاحب أدب الطف ، ونرى الثعالبي في البيضة ينشد له قطعة في نذب الحسين يقول فيها^(٢) :

عَفَرْتُمْ بِالثَّرَى جَبِينَ فَتَى جَبْرِيلُ بَعْدَ النَّبِيِّ مَاسِحُهُ
سَيِّانَ عِنْدَ الْأَنَامِ كُلَّهُمْ خَاذِلُهُ مِنْكُمْ وَذَابِحُهُ

وهو يسوي في الإثم بين من خذلوه من أهل الكوفة ومن ذبحوه ، فجنائيتهم واحدة في رأيه . وكان طبيعياً أن تتكون مع هذا النذب والنواح في بغداد والكوفة وكربلاء طائفة من النأحة ، ينوحون على الحسين في يوم عاشوراء وغيره من الأيام^(٣) ، واشتهر من بينهم ببغداد حوالي منتصف القرن الرابع الهجري أحمد المزوق ، وكان يجد أكبر

(١) انظر في ترجمة الزاهي البيضة ٢٣٣/١ وابن خلكان ٣٧١/٣ والنجوم الزاهرة ٦٣/٤ وتاريخ بغداد ٣٥٠/١١ والمتنظم ٥٩/٧ وأدب الطف ٥٠/٢ .
مرجليوث ٢١٩/١ أن رجلاً يسمى ابن أصدق وامرأة تسمى خلْبُ كانا من النأحة على الحسين ، وما كانا يتوحان به قصيدة لشاعر كوفي أوها :

(٢) البيضة ١٨٧/٢

(٣) في نشوار المحاضرة للتونخي (طبعة هندية) بتحقيق

مدد لنواجه في شعر الناشئ^(١) الأصغر على بن عبد الله بن وصيف المتوفى سنة ٣٦٦
ويقول ابن خلكان : هو من الشعراء المحسنين ، وكان متكلماً بارعاً وله في أهل البيت
قصائد كثيرة ، ويقول ياقوت : « كان يعتقد الإمامية وينظر عليها بأجود عبارة واستنفد
عمره في مدح أهل البيت حتى عُرف بهم » وأشعاره فيهم لا تحصى كثرة . وكثير من هذه
الأشعار كان يناح بها في مساجد بغداد ، ينوح بها أحمد المزوق وغيره ، ويروى أنه ناح
يوماً في أحد هذه المساجد بقصيدة ملتاعة للناشئ الأصغر ، وفيها يقول :

بني أحمدٍ قلبي لكم يقطعُ بمثل مصابي فيكمُ ليس يُسمعُ
عجبتُ لكم تفتنون قتلاً بسيفكم ويسطو عليكم من لكم كان يخضعُ
كان رسول الله أوصى بقتلكم فأجسامكم في كل أرضٍ توزعُ
فما بقعة في الأرض شرقاً ومغرباً وليس لكم فيها قتيلٌ ومصرعُ

وكان الشاعر حاضراً ، فظل يلطم وجهه ، وتبعه النائح والحاضرون يلطمون وجوههم
وينوحون بأبيات القصيدة من الضحى حتى صلاة الظهر . وللناشئ قصيدة بائنة يدعو فيها
للأخذ بنار الحسين كان التامس ينوحون بها في أيامه ببغداد وفي مشهد الحسين بكريلاء ،
وفيها يقول :

متى تأخذون الثارَ ممن تألبوا عليكم وشبوا الحربَ وهي ضروبُ
شهيديّ توزعن الصوارمُ جسمه فخرٌ بأرض الطّفِّ وهو تريبُ
قتيلٌ على نهر الفراتِ على ظمًا تطوف به الأعداءُ وهو غريبُ
وأرض الطّف : كربلاء . وتريب : معقر بالتراب . والناشئ الأصغر يشير إلى سفك دم

الحسين بكريلاء ، ويمضى فيشيد بالأئمة الأولين : على والحسن والحسين الذين حووا - في
رأيه - علم كل ما قد كان أو هو كائن أو يكون ويقول :

حووا علم ما قد كان أو هو كائنٌ وكلُّ رشادٍ يتيغيه طلبُ
وقد حفظتُ غيبَ العلوم صدورهم فما الغيبُ عن تلك الصدور يغيبُ

ولابد أن نلاحظ أن كثيرين من الشعراء بكوا الحسين ، ولم يكونوا شيعة مثل سبط ابن
التعاويذي ، وهو أكبر مداح للخلفاء العباسيين في القرن السادس ، حتى إنه ليخلع عليهم
صفات أئمة الشيعة كما مر بنا في غير هذا الموضع ، ومع ذلك رأينا له مرثية بائنة للحسين ،
إن صح أنها له كما مر بنا . وكأنما أصبح رثاؤه موضوعاً عاماً يشترك فيه الشيعة وغير الشيعة ،

(١) انظر في الناشئ الأصغر البيهية ٢٣٢/١ ومعجم

لعظم المحنة فيه . ولعل فيما قدمنا ما يصور من بعض الوجوه نشاط الشعر الشيعي في فواتح العصر ، وظل ذلك سارياً طوال حقبة ، وهو جانب يطول عرضه ، ولذلك نكتفي بالحديث عن ثلاثة ، لعل أولهم و ثانيهم يعدان أنه شعراء العراق بعد المنتهي ، وهم الشريف الرضي ومهيار وابن أبي الحديد .

الشريف الرضي ^(١)

هو أبو الحسن محمد بن الطاهر أبي أحمد الحسين من سلالة جعفر الصادق المعروف بالموسوي ، كان أبوه أبو أحمد عظيم المترلة عند خلفاء بني العباس والبويهيين ، وتولى نقابة الطالبيين مرات ، وتولى المظالم والحج بالناس دفعات ، وقد وُلد له أولاً الشريف المرتضى سنة ٣٥٥ ثم وُلد له الشريف الرضي سنة ٣٥٩ ولما شبَّ كانا ينيبان عن أبيهما في النقابة ، منذ سنة ٣٨٠ وخُلع عليهما من دار الخلافة واختص أبوهما بالنظر في المظالم وأمور المساجد والحج بالناس ، وكتب أبو إسحق الصائغ عهداً بذلك . وكانت تربط الشريف الرضي بالخليفة الطائع مودة وثيقة . ويُقبض على الخليفة في سنة ٣٨١ ويتولى الخلافة القادر ، ويعني والد الشريف الرضي من وظائفه في سنة ٣٨٤ وتُرد إلى الشريف الرضي تلك الوظائف جميعاً سنة ٣٨٨ وأبوه حي .

وقد تلمذ الشريف لعلماء عصره في بغداد من رجال الشيعة وغيرهم ، مثل أبي علي الفارسي وابن جني والمرزباني في اللغة والنحو ، والقاضي عبد الجبار في الاعتزال ، والشيخ المفيد في الفقه وأصول العقيدة الإمامية . وأكبر الظن أنه لم يترك مفسراً لعصره إلا اختلف إلى دروسه ، بل لقد أُقبل على كتب التفسير السابقة يعبُّ منها ، يدل على ذلك كتابه في التفسير الذي ذكرناه في غير هذا الموضع والذي سماه حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وبالمثل أُقبل على كتب الحديث النبوي يتَهَلُّ منها ، على نحو ما يتضح في كتابه المجازات النبوية . ومعروف أنه هو الذي جمع خطب الإمام علي في الكتاب المعروف باسم نهج البلاغة ، وعرضنا في كتابنا « العصر الإسلامي » لما داخله من وضع .

ص ٥٧٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٠/٤ وميزان الاعتدال ٥٢٣/٣ وراجع فيه عقربة الشريف الرضي لركي مبارك والشريف الرضي لإحسان عباس . والدويان مطبوع طبعات مختلفة في بعبى والقاهرة وبيروت .

(١) انظر في ترجمة الشريف الرضي البيهية ١٣١/٣ وابن خلكان ٤١٤/٤ والدمية ٢٧٣/١ وتاريخ بغداد ٢٤٦/٢ وإنباء الرواة ١١٤/٣ والمتنظم ٢٧٩/٧ والواقى بالوفيات ٣٧٤/٢ ولسان الميزان ١٤١/٥ والشذرات ١٨٢/٣ ومرآة الجنان ١٨/٣ وروضات الجنات

وكان ذكياً ذكاء نادراً مع حضور البديهة ورهافة الحس ، ويروى أنه أحضر إلى يوسف بن أبي سعيد السيرافي النحوى وهو طفل لم يبلغ عمره عشر سنوات ، فلقنه النحو ، وقعد معه يوماً في حلقته - كما يقول مترجموه - فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم ، فقال له : إذا قلنا « ضرب زيداً عمراً » فما علامة النصب في عمرو؟ فقال : بغض على (يشير إلى عمرو بن العاص) . فعجب أستاذه والحاضرون من حدة خاطره . وهو زعيم شعراء العراق في عصره غير مدفع ، وقد تفتحت موهبته الشعرية مبكرة بعد العاشرة من عمره بقليل كما يقول الثعالبي ، ويمضى مشيداً به وبشعره قائلاً : « هو اليوم أبداع أبناء الزمان وأنجب سادة العراق ، يتحنى مع محنته الشريف ، ومفخره المنيف ، بأدب ظاهر ، وفضل باهر ، وحظ من جميع المحاسن وافر ، ثم هو أشعر الطالبين : من مضى منهم ومن غير ، ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعده عن الصدق ، وسيشهد بما أجره من ذكره شاهد عدل من شعره العالى القدح ، الممتع عن القدح ، الذى يجمع إلى السلاسة متانة ، وإلى السهولة رصانة ، ويشتمل على معان يقرب جناها ، ويبعد مداها » . ويقول صاحب الدمية : « أنا إذا مدحتك كنت كمن قال للشمس : ما أنورك . . وله شعر إذا افتخر به أدرك من المجد أقاصيه ، وعقد بالنجم نواصيه » . وقد توفى ببغداد ودفن في الكرخ سنة ٤٠٦ هـ وهو في السابعة والأربعين من عمره ، ويقال إن رفاتة نُقل إلى مشهد الحسين في كربلاء .

ويدل شعر الشريف الرضى على أنه تأثر أشد التأثر بالمتنبى فقد أكبَّ عليه يقرؤه المرة والمرة ، محباً له متعاطفاً معه ، متمثلاً لكل ما يقول من شكوى الزمان وأنه لا يعطيه ما يستحقه ، وكان المتنبى كما مرَّ بنا يريد أن يكوِّن دولة عربية ، والدهر يناهضه ، وكان الرضى يشعر في أعماقه بأنه خليف أن يكون هو الخليفة دون أبناء عمه العباسيين ، وتدفعه الضرورة إلى مصانعتهم بمدح لا يزال يزخر - مثل مدح المتنبى - بالفخر والشكوى من الأيام التى لا تبيلة مبتغاه ، حتى ليقول للقادر :

عظماً أمير المؤمنين فإننا في دوحه العلياء لا نفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوتاً أبداً كِلانا في المعالى مُعرق
إلا الخلافة ميّرتك فإننى أنا عاطلٌ منها وأنت مطوق

وظل شعره بأحقيقته في الخلافة لا يفارقه طوال حياته ، مما جعل أشعاره تُطبع - كما طبعت أشعار المتنبى - بالتدريج من الدهر ، بل بالثورة عليه دون أن يلم به شيء من يأس أو قنوط . وليس هذا ما يجمعه بالمتنبى فقط ، فإنه يجمعه به أيضاً شعور عارم بالقوة وقوة النفس والكبرياء والكرامة والأنفة والعزة ، ولذلك كان شعرهما من خير ما يُرى به

الشباب ، إذ يدلغ في أنفسهم الشعور الطاغى بالقوة وتمثل الأخلاق الرفيعة ، على نحو ما نرى في هذه الأبيات من قصيدة :

لغير العُلا منى القَلَى والتجُنُبُ ولولا العُلا ما كنت في الحبُّ أرغُبُ
وإن تَكُ سِنَى ما تطاول بأعها فلي من وراء المَجْدِ قلبٌ مُدْرَبُ
وحسبى أنى في الأعادى مَبْعُضُ وأنى إلى غرِّ المعالى مَحَبُّ
وللجِلْمِ أوقاتٌ وللجهلِ مثلها ولكنَّ أوقاتي إلى الحلمِ أقربُ (١)
ولا أعرف الفَحْشاءَ إلا بوصفِها ولا أنطق العوراءَ والقلبُ مُغْضَبُ (٢)

وتحوج أشعاره بمثل هذا الفخر الذى يُضرم جذوة النفس ويوقدها إيقاداً ويدفعها دفعا إلى النهوض بجلال الأعمال . وجامعة ثلاثة تجمعها بالمتنبى هى استشعار البادية وروحها ، إحساساً منه بأنه عربى أصيل ، نفس إحساس المتنبى الذى دفعه إلى أن يجعل البدويات موضع نسيه ، كذلك صنع صنيعة الرضى ، فهو دائم التغزل بالبدويات ، دائم الافتتان بين والتغنى بجمالهن وحسنهن الطبيعى ، وله فى ذلك أشعار بدیعة من مثل قوله :

يا ظبيَّةَ البانِ تَرعى في خِائلِهِ لِيَهْنِكِ اليَوْمَ أَنَّ القلبَ مَرعَاكِ
الماءَ عندكِ مَبذولٌ لشاربِهِ وليس يُرويك إلا مَدَمْعُ الباكي
سَهْمٌ أصاب وراميه بذى سَلَمٍ مَنْ بالعراقِ لقد أبعدتِ مَرَمَاكِ (٣)
حكّتْ لِحَاطِلكِ ما فى الرِّيمِ مِنْ مُلْحٍ يَوْمَ اللِّقاءِ فكان الفَضْلُ للحاكي
أنتِ النعيمُ لقلبي والجحيمُ له فما أمرُكِ فى قلبى وأحلاكِ

وهو نسيب رقيق كنيب العذريين ، بل ربما كان أكثر رقة ، إذ تجرى فيه نغمة من لأسى والحزن واللوعة وكأنما يبتُّ فيه يأسه من آماله فى الخلافة ، وكأنما يراها نفس هؤلاء البدويات اللاتى يتعثر فى شباك هواهن ، دون أن يقطف شيئاً من أزهار حبه . وإنما استطرادنا كل هذا الاستطراد فى الشريف الرضى ليطلع القارئ على روعة أشعاره ، قبل أن نعرض لرتائه جده الحسين ، وفى الديوان مرث كثيرة لأم الرضى وأبيه ولبعض أساتذته وأصدقائه مثل ابن جنى وأبى إسحق الصائى ، وله فى جده الحسين خمس مرث ، وهو يتسع أحياناً فى بعضها فيجعلها مرثية عامة لآل البيت ، ونكتفى بأن نعرض أهمها فى رأينا ، وهى آخر مرثيه لجده ، وأعتقد أنه أراد بها التوايح عليه وأن ينشدها الناحية فى بغداد وكربلاء ، وهو يستهلها بقوله :

(٣) ذوسلم : موضع بالحجاز . والسلام : شجر من
العضاه .

(١) الجهل هنا : الغضب
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة

كَرْبَلَا لازلِتِ كَرْبَاً وَبِلَا مَا لَقِيَ عِنْدِكَ آلَ الْمُصْطَفَى
ويصوّر الموقعة وما سال فيها من دماء طاهرة ودموع جارية ، والنساء اللاتي كن مع
الحسين يمسحن الرمل عن نحره الملطخ بالدماء ، ولم تلبث الوحوش أن طعمت من أشلاء
القتلى أرجلاً طالما قامت إلى الصلاة وأيماناً طالما رُفِعَتْ إلى السماء ووجوها طالما تَبَتَّلَتْ إلى
الله ، ويشد :

يا رسولَ الله لو عايتهم وهم ما بين قتلى وميِّباً
لرأتُ عينك منهم منظراً لِلْحَشَا شَجْوَاً وللعينِ قَدَى
ليس هذا لرسول الله يا أُمَّة الطُّغْيَانِ والبغى جَزَا
غارسٌ لم يألُ في العرسِ لهم فأذقوا أهله مرَّ الجنِّ
جَزَرُوا - جَزَرَ الأضاحي - نَسَلُهُ ثم ساقوا أهله سوِّقَ الإمام (١)

وهو يصوّر ركب الحسين ، أما الرجال فسُفِكت دماؤهم الذكية ، وأما النساء
فسيقوا سيئات محمولات على ظهور الإبل دون مهاد أو كساء يسترحن عليه ، فيا للظلم
وباللقسوة ، وهن مشعثات الشعور مكشوفات الوجوه والأعناق يهتفن باسم رسول الله ،
ولا من يُشْفِق عليهن أو يرحم . ويقول الرضى : أهكذا يكون جزاء رسول الله في سبطه
وآله ؟ يَغْرَس وتُفْتَحُ لدينه الخفيف الأرض ولا يذوق أهله سوى الحنظل ، بل إنهم
يُذَبِّحُونَ ذبِيح الأضاحي ، يُذَبِّح الرجال ، وتساق النساء سيئات ، ويتجه الرضى إلى جده
الحسين منشداً :

يا قتيلاً قَوَّضَ الدهرُ بهِ عَمَدَ الدينِ وأعلامَ الهدى
قتلوه بعد علم منهم أنه خامسُ أصحابِ الكِساءِ (٢)
مرهقاً يدعو ولا غوثَ له بَابِ بَرٍّ وَجَدُّ مُصْطَفَى
وبأُمِّ رَفَعَ اللهُ لها عَلَمًا ما بين نِسْوانِ الرورى
ميتٌ تبكى له فاطمةٌ وأبوها وعلىٌ ذو العُلا
لو رسولُ الله يَحْيَا بعده قَعَدَ اليومَ عليه لِلْعَزَا

والقصيدة كلها لوعات وأنات على هذا النحو ، وعنى الرضى برصف كلماتها بحيث
لا تعلق على أفهام العامة ، ولتكون صالحة لكي يرددها الناحة . وجعلت هذه السهولة

(١) الأضاحي : ذبائح عيد الأضحى . الإمام : الرسول ﷺ ألقي كساء عليه وعلى السيدة فاطمة الزهراء الإمام .

(٢) يشير إلى حديث ترويه الشيعة الإمامية : يقولون إن بيتي ، وبذلك سموا أصحاب الكساء .

في ألفاظها بعض الباحثين يظن أنها منحولة على الرضى ، وليست من الانتحال في قليل ولا كثير ، إذ هي سهولة مقصودة لتخفف على ألسنة الناحة والناس .

مهيار^(١)

هو أبو الحسن مهيار بن مرزويه الديلمي الفارسي الأصل ، وُلد على ما يظهر حوالي سنة ٣٦٠ للهجرة ويغلب أن يكون ميلاده بعدها بقليل ، وليس لدينا معلومات دقيقة عن مسقط رأسه ونشأته ، فهل وُلد ببغداد وبها نشأ ، وكان بها مجوس كثيرون ، أو وُلد في بلاد الديلم ، وهاجر منها وحده أو مع أبيه ؟ . وأغلب الظن أنه وُلد ببغداد وتربى بها وتثقف . ولا نعرف من كانوا أساتذته وتخرج على أيديهم ، ويبدو أنه كان فيه ذكاء حاد جعله يحسن العربية سريعاً ، ويروى أنه كان يسكن في الكرخ مستقر شيعه بغداد الإمامية ، ولعل ذلك هو الذى أعطاه الفرصة لكي يدرس عقيدتهم ، حتى إذا أسلم انتظم في سلكها .

ونظن ظناً أنه كان يحضر قبل اعتناقه الإسلام دروس رأس الإمامية في زمانه محمد بن محمد بن النعمان المشهور بالشيخ المفيد المتوفى سنة ٤١٣ وكان يلقى دروسه في الكرخ . ويقول بعض مترجميه إنه أسلم على يد الشريف الرضى سنة ٣٩٤ ونظن ظناً أن إسلامه يسبق هذه السنة بشهادة كثير من قصائده المؤرخة في ديوانه ، ونراه يذكر فضل أبي العباس الضبي عليه في إرشاده وهدايته إلى الإسلام ، إذ يقول في إحدى مدائحه له :

هو المتفدى من شرك قومي وباعثي . على الرشد أن أصفى هواى محمداً
وأترك بيت النار ييكى شراره . على ما إذ صار بيتى مسجداً
والمظنون أنه زار أبا العباس الضبي حين كان وزيراً بمدينة الرى . على كل حال من الممكن أن يكون أسلم على يد الشريف الرضى . ولكن ليس من الضروري أن يكون تاريخ إسلامه صحيحاً . ويقال إن الرضى أعانه في أن يصبح كاتباً بدواوين الخلافة ، ولا نعرف متى كان ذلك بالضبط ، وأغلب الظن أن ذلك يسبق إسلامه ، ودائماً يلقبه مترجموه بلقب الكاتب .

وإذا كنا ترددنا في أن يكون إسلامه على يد الرضى في سنة ٣٩٤ فما لا يقبل شكاً أنه

(١) انظر في ترجمة مهيار تاريخ بغداد ٢٧٦/١٣ الزاهرة ٢٦/٥ والفن ومذاهبه في الشعر العربي (الطبعة
والدمية ٢٨٤/١ والمتنظم ٩٤/٨ وابن خلكان ٣٥٩/٥ العاشرة) ص ٣٥٥ .
وعبر الذهبي ١٦٧/٣ والشذرات ٢٤٢/٣ والنجوم

هو الذى رعاه أدبيا ، وخاصة أنه رأى عنده استعداداً حسناً ، فضى معه بثقفه ويدرّبه ، حتى خرّجه شاعراً بارعاً . والرضى بذلك يعدُّ أستاذه الفنى ، فلا غرابة إذا وجدنا التلميذ ينسج على منوال أستاذه ، وهو نسيج يلاحظ من جهتين : جهة معارضته لكثير من قصائد الرضى ، يأخذ منه الوزن والقافية ، وينظم على غراره . وجهة ثانية لعلها أهم هي تمثُّل اتجاهاته الشعرية ، ونقص اتجاهات الشكوى من الزمن والفخر والتزوع إلى التبدى أو النسيب والغزل بالبدويات ، أما الشكوى فإنه يشكو كثيراً سوء بخته وأن الزمن لا ينبئه ما يتمنى ، بل يقف حجر عثرة دون أمانه .

وكان الرضى يفخر بمحتده الشريف وعرويته العريقة ، فماذا يفخر بهيار؟ لقد اتجه بفخره في بواكير حياته نحو قومه ، وبذلك استحال فخره شعوبياً ذمياً ، على نحو ما يلقانا في مثل قوله :

أُعجبتُ بي بين نادى قومها	أم سعدٍ فضتُ تسألُ بى
قومي استولوا على الدهر فتى	ومشوا فوق رموس الحقب
عمموا بالشمس هامتهم	وبنوا أبياتهم بالشهب
قد قستُ المجد من خير أب	وقبستُ الدين من خير نبي
وضمنتُ الفخر من أطرافه	سوددَ الفرس ودين العرب

وقد التقينا بهذا الصوت المنكر في كتاب العصر العباسى الأول عند بشار ، وأخذ يخفت غير أنه كان يظهر من حين إلى حين ، حتى إذا كان ابن قتيبة وجدناه يمزج بين الثقافة الإسلامية العربية - كما أشرنا إلى ذلك في كتاب العصر العباسى الثانى - وبين الثقافات الأجنبية ، حتى يزيل الحواجز والفروق بين النوعين من الثقافات والحضارات ، وحتى يقطع الطريق على الشعبين وما يدعونه من تفوق الفرس والروم على العرب فى الحضارة والمدنية . ومع ذلك ظلت أصوات ضعيفة ترتفع من حين إلى حين ، كصوت أبى عبد الله أحمد بن محمد بن نصر الجيهانى وزير السامانيين وكان يُظهر الإسلام ويبطن الزندقة ، فألف كتاباً حمل فيه على العرب وتبديهم حملات شعواء ، صورها أبو حيان فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، ناقضاً لها نقضاً شديداً . وكأنما وجد الجيهانى الفارسى فى مهيار مستجيباً له ، لا فى هذه الياثية وحدها ، بل أيضاً فى قصائد أخرى . ونراه مع الزمن يتخلص من هذه النزعة الشعبوية ، ويملاً شعره بالحنين إلى نجد وبدوياتها الفاتنات ، مستلهماً فى ذلك أستاذه الرضى ، بمثل قوله :

يا نسيمَ الصُّبْحِ من كاظِمةٍ شدَّ ماهِجَتَ الجوى والبرِّحَا (١)
 الصِّبَا! إن كان لأبَدُ الصِّبَا إنها كانت لقلبي أروحا
 يا ندامى بسلع هل أرى ذلك المعبوق والمُصطبَحَا (٢)
 اذكرونا مثل ذِكرانا لكم ربِّ ذِكرى قَرَّبت من نرْحَا
 واذكروا صَبَا إذا غننى بكم شَرِبَ الدَّمْعَ وعافَ القَدْحَا
 قد عرفتُ همَّ من بعدكم فكأنى ما عرفتُ الفرْحَا

وهذه القطعة وسابقتها من أروع شعر مهيار في البناء اللفظي ، وهما لذلك لا توضحان خصائصه الفنية التي تحدثت عنها بالتفصيل في كتاب « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » حيث أوضحت أثر نشأته الأعجمية في شعره وأن اللفظة الحادة كانت تضلّ منه ، فكان يدور حول الفكرة دورانا يصيب شعره أحيانا بغير قليل من الركاكة والإسفاف ، وكان مع ذلك يطيل قصائده طولاً مسرفاً ، مما جعل رُقعته تسع أو قل رُقعها ، فيتضح فيها التلفيق وكثرة التكرار للكلمات وما يدخل في ذلك من الحشو والاعتراض . وحين أسلم أخذ يكثر في شعره من ذكر مناقب أهل البيت وثناء الحسين ، ولم يكتف بذلك ، كما كان يصنع أستاذه ، بل أكثر أيضاً من سب الصحابة رضوان الله عليهم ، ويروى أن أبا القاسم بن برهان النحوي قال له : يا أبا الحسن ! انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية ، فقال له : وكيف ذلك ؟ قال أبو القاسم : لأنك كنت مجوسياً وصرت تسب أصحاب رسول الله ﷺ ، والمجوسى والرافضى في النار . وله من قصيدة يمدح فيها آل البيت ، وقد بث في مطلعها شكواه من الزمن :

لئن نامَ دهرى دون المني فلى أسوةٍ بينى أحمدِ
 بأكرمِ حى على الأرض قام وميتِ توسد في ملحدِ
 أناكم على فترةٍ فاستقام بكم جائرين عن المقصدِ
 وولى حميداً إلى ربه ومن سنّ ما سنّه يُحمدِ
 وقد جعل الأمر من بعده لِحيدرٍ بالخبر المُسندِ
 وسماه مولىً بإقرارٍ من لو أتبع الحق لم يجحدِ

وواضح أن تعبيره عن حرمان الدهر له ما يتمناه بنومه عنه غير دقيق ، وهو تعبير فاتر إن صح هذا التعبير ، والأبيات الأربعة التالية في مديح الرسول عليه السلام ، وهى تحلو

(١) كاظمة : موضع على الخليج العربي جنوبي العراق (٢) سلع : جبل متصل بالمدينة .

من أى حرارة ، وكأنها نثرُ لُفقت ألفاظه وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى ماتذهب إليه الشيعة من أن الرسول عليه السلام أوصى لعلى أو كما يسميه حيدرًا بالخلافة يوم غدِرخم ، إذ أخاه قائلاً - كما يروون - : على منى كهرون من موسى ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه . وانصر من نصره واخذل من خذله . والأبيات تخلو من العاطفة ومن اللذع والحدة ، ولذلك لا تكاد تؤثر في قارئها أى تأثير . وله في رثاء على والحسين قصائد أخرى من أروعها لاميته ، وفيها يقول :

وشهيدٍ بالطفِّ أبكى السَّعْوَا ت وكادت له تزولُ الجبالُ
يا غليلي له وقد حرم الما ء عليه وهو الشراب الخلالُ
قُطِعتْ وُصْلَةُ النَّبِيِّ بأنْ تُفَّ طَمَع من آل بيته الأوصالُ
لم تُنَجِّ الكهولَ سنُّ ولا الشُّ سَبَانَ زُهْدٌ ولا نجا الأطفالُ
لهفَ نفسى يا آل طه عليكم لطفةٌ كلُّها جوى ونجالُ

وهو رثاء حار يمتلئ باللوعة والخسرة والنواح على الحسين ومن قُتل معه من آل بيته . ولمهيار مرات أخرى في الحسين وآله تجمدها العاطفة فلا نار تنقد في الأحشاء ولا لهب يستعر في الأفئدة . وليس معنى ذلك أن مهيار لم يكن مخلصاً لعقيدته الإمامية ، ولكن معناه ما قلته من أنه كان يعثر على ضالته من التعبير اللاذع أحياناً ، وأحياناً يضل منه هذا التعبير ، لأنه لم ينشأ في مهد عربى يمكِّنه دائماً من تملك السنيقة العربية في التعبير والصياغة .

ابن أبى الحديد ^(١)

هو عز الدين عبد الحميد بن هبة الله المعروف بابن أبى الحديد ، ولد في « المدائن » سنة ٥٨٦ لقاضيا وأحد العدول فيها ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، ويقول ابن خلكان عنه وعن أخ له يسمى موفق الدين إنهما كانا فقيهين أديبين ، لها أشعار مليحة » . ويبدو أنه شبَّ على الاعتزال والتشيع جميعاً ، وكان لا يزال يغدو ويروح إلى بغداد وإلى حى الكرخ الشيعى

طُبعت قصائده السبع العلويات في إيران وطُبعت مشروحة في صيدا ببنيان وطُبعت قصائده المستصرجات ببغداد ، وله مؤلفات مختلفة ، عن أشهرها شرح نهج البلاغة للإمام على والفنك الدائر على المثل السائر

(١) انظر في ترجمة ابن أبى الحديد وفيات الأعيان ٣٩١/٥ وفيات الرقيات لابن شاعر الكتبي ٥١٩/١ ومعجم الألقاب لابن القوطى ج ٤ ق ١ ص ١٩٠ ودليل مرآة الزمان (طبع حيدرآباد) ٦٢/١ والتذكرة لوفيات الفقه للمندرى (طبع النجف) ٢٤٥/٤ وقد

خاصة ، ثم لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه ، حتى إذا بلغ الخامسة والعشرين من عمره نظم قصائده السبع العلويات ، وهى فى مديح على بن أبى طالب وبيان فضائله ، وفيها لا يبدو شيعياً إمامياً فى هذه الحقبة من حياته ، بل يبدو رافضياً غالباً فى الرفض ، إذ يخلع على الإمام على صفات الله جل شأنه ، وكأنه حلّ فيه وامترج بذاته ، تعالى الله علواً كبيراً عما يُلجّ فيه من مثل قوله فى علىّ أو كما يسميه حيدراً^(١) :

والله لولا حَيْدَرُ ما كانت الـ لَدُنْيا ولا جَمَعَ البرَّةَ مَجْمَعُ
من أجله خُلِقَ الزمانُ وضَوَّتْ شُهْبُ كَسْنَنَ وجَنَّ ليلُ أَدْرَعُ^(٢)
عِلْمُ الغيوبِ إليه غيرَ مدافعِ والصُّبْحُ أبيضُ مُسْفِرٌ لا يُدْفَعُ
وإليه فى يومِ المعادِ حسابنا وهو الملائذُ لنا غداً والمفزعُ

فعلىّ علة الوجود من أجله خُلِقَ الكون والزمان وأضاءت الشمس والكواكب وأظلم الليل وانتشرت دُجَّتُهُ ، وهو علام الغيوب أو عالمها ، وهو - يوم البعث - الذى سيحاسبُ الناس على ما قدمت أيديهم من خير أو شر . وكل هذا تجديف فى حق الذات العلية ، فعلى ليس علة الكون والوجود ، فثله مثل البشر جميعاً ، حقا هو صحابى جليل ، ولكن ذلك لا يرفعه على بشرته ولا يجعله سر الوجود ولا علة له ، ومعاذ الله أن يكون علام الغيوب ، وقد استأثر الله بعلم الغيب كما نصت على ذلك آيات الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله) وقوله : (عالم الغيب فلا يُظْهَرُ على غيِّه أحداً) . وبالمثل زعم ابن أبى الحديد أن الناس يعرضون على الإمام على ابن أبى طالب يوم البعث فيحاسبهم على أعمالهم ، والحساب إنما هو لله وحده جلّ شأنه .

ويتأدى فى علوياته الراضية ، فيتعرض بالبهتان على أول من صدّق بالرسول ﷺ من الرجال وأوثق الصحابة صلة به ورفيقه فى الهجرة ، على الصديق أبى بكر ، ومعروف أن الرسول ﷺ ولاه أمور دين المسلمين من الحج بهم فى السنة التاسعة للهجرة والصلاة بهم فى مرضه ونرى ابن أبى الحديد يزعم افتراءً وبهتاناً أن الرسول أناب أبى بكر كى يقيم للناس الحج ثم عزله^(٣) ، وهو لم يُعزَلْ إذ أقام الحج فعلاً للناس . ومعروف أنه حين اشتد المرض بالرسول ﷺ قبيل انتقاله إلى الرفيق الأعلى أمر أبى بكر أن يصلى بالناس ، فصلى بهم سبع

(١) القصائد السبع العلويات مع شرحها (طبع صيدا (٢) كَسْنَنَ : سرن ، جن : دجا . أدرع : مظلم .

بليان) ص ١٠١ . (٣) القصائد السبع العلويات مع شرحها ص ٤٦ .

عشرة صلاة ، وصلى الرسول عليه السلام مؤتماً به ركعة ثانية من صلاة الصبح ، ثم قضى الركعة الباقية وقال : « لم يُقبض نبي حتى يؤمَّه رجل من قومه » . ومع تواتر هذه الولاية من الرسول ﷺ لأبي بكر الصديق على أمور المسلمين في الصلاة والحج وثبوتها ثبوتاً قاطعاً يزعم ابن أبي الحديد زعماً باطلاً أن الرسول عزل أبا بكر عن الصلاة ^(١) . كما عزله عن الحج . وكل هذا غلو في البهتان والرفض . ويترك المدائن إلى بغداد نهائياً في تاريخ غير معروف تماماً ، ويبدو أنه تمخلى عن رفضه ورجع إلى صوابه ، إذ نراه يمدح الناصر ، ثم يلزم الخليفة المستنصر العباسي ويدبج فيه مدائح عُرفت بالمستنصريات ، وقد بلغت خمس عشرة قصيدة نظمها في السنوات من ٦٢٩ إلى ٦٣١ وكان ألحق بدواوين الدولة وأصبح من موظفيها ، وإنه لينقلب عباسياً ضد العلويين يحطّب في حبل العباسيين ويدعو لهم ، بمثل قوله في المستنصر :

يا بنى هاشمٍ بكم يغفرُ اللّهُ
 أنتم بالنبىِّ أولى فإن شـ
 وإليكُم إرثُ النبىِّ تناهى
 الخطايا وتقبل الأعمال
 كجهول قليقراً الأنفالا
 وإليكُم سرُّ الإلهِ تعالى

وقد يقال إن البيت الأول عام في بنى هاشم جميعاً علويين وعباسيين ، غير أنه لا يلبث في البيت الثاني أن يصرح بأن العباسيين أحق بإرث الخلافة عن الرسول ﷺ لقوله تعالى في سورة الأنفال : (وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله) مشيراً بذلك إلى حكم الإسلام في الميراث وأن العم وهو العباسي يحجب ابن العم وهو على بن أبي طالب كما يحجب أبناء بنت الرسول ، والعباسيون كما يقول في البيت الأخير الورثة الحقيقيون للخلافة . وبمثل هذه الأبيات ، بل بمستنصرياته جميعاً نقض رفضه ، بل تشييعه عامة ، حتى لنراه يقول في المستنصر :

وأنت الدهرُ يخفضُ كلَّ عالٍ
 بقوته ويمسكُ كلَّ هارى ^(٢)
 ويبرمُ ما يشاء بلا اعتسافٍ
 وينقض ما يشاء بلا اقتسارٍ
 وكأنه تمثل فيه ثانية غلوه السالف في على بن أبي طالب ، فجعله الدهر يخفض ويرفع ويعصم من السقوط ويبرم الأمور وينقضها نقضاً .

ولا يزال يعمل في دواوين الخلافة حتى يتوفى المستنصر ويخلفه ابنه المستعصم (٦٤٠ - ٦٥٦ هـ) . ويعزل من وظيفته سنة ٦٤٢ ويتولى أعمالاً مختلفة حتى يتوفى سنة ٦٥٦ وقيل بل سنة ٦٥٥ وكانت قد توثقت صلته بابن العلقمي وزير المستعصم وكان شيعياً فيستحثه على

(٢) هارى : متصدع يوشك أن يهدم .

(١) نفس المصدر والصفحة .

شرح نهج البلاغة ويصدع لرأيه ، وهو في هذا الشرح يتردد بين مذهب أهل السنة حتى ليقول إنه ليس هناك أى نص صريح على خلافة علي للرسول عليه السلام^(١) ومذهب الزيدية إذ يذهب مثلهم إلى صحة إمامة المفضول مع وجود الأفضل^(٢) ومذهب الشيعة الرافضة الذين يحاولون الغض من الشيخين العظيمين أبى بكر وعمر^(٣) . ومعروف أن لها عند الله الدرجة العظمى بما أدّيا للدين الحنيف من خدمات جلّلى ، كُتبت - ولا تزال تكتب - فيها المجلدات الضخام .

(١) راجع شرح نهج البلاغة (طبعة أبو الفضل إبراهيم بدار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) ٥٩/٢ .

(٢) شرح نهج البلاغة ١٥٦/١ .

(٣) انظر شرح نهج البلاغة ٢٢٦/١٠ .

الفصل الرابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم يخلُ شاعر من شعراء البيتمة والدُّميمة والخريدة ومن تلاهم على مر الحقب من بعض قصائد أو مقطوعات تَنعَى فيها بالحب ، مصورا هذه العاطفة الإنسانية التي تملك على النفوس أهواءها وأحاسيسها ومشاعرها . ويمتلى تاريخ الشعر العربي بأبطال هذه العاطفة ، يعيشون للحب وآماله وآلامه ، يتجرعون غصصه في صبر ، مها ألم بهم اليأس وما يُطوى فيه من حزن . ومن أطرف الأشياء حقا أن نقرأ شعر أحد هؤلاء الأبطال وما يعانون من وجد لا يشبهه وجد وخطوب لا تدانها خطوب . وهم دائما من العشاق العذريين الذين يتعمقهم الحب ويستأثر بقلوبهم ، ويفتنهم فتنة لا يستطيعون الخلاص منها ، حتى لتصبح المحبوبة كأنها معبودة ، فهم يحبونها ، بل يقدسونها ، ويقدمون لها الأشعار ، بل التراتيل التي يتغنون فيها بسحرها سحرا يشغلهم عن كل شيء وعن كل متاع في الحياة إلا ما يكون من الغرام العنيف وما ينسج فيه العاشق بشعره من شباك الأمل والتضرع والاستعطاف . وهذا اللون من الحب العذرى العفيف الذي يتحول في قلب صاحبه إلى ما يشبه جذوة من النار لا تنطفئ أبدا قديم في الشعر العربي منذ العصر الجاهلي ، وأصبح ظاهرة عامة في بوادي نجد والحجاز طوال العصر الأموي ، وظل حيا بقوة في العصرين : العباسي الأول والعباسي الثاني ، وكانت ترافقه من قديم موجة من الغزل المادى اتسعت مع العصر العباسي الأول وما كان به من فنون اللهو والمجون على نحو ما يصور ذلك شارو أبونواس . غير أن الشعراء التاليين حاولوا أن يخففوا من حدة هذا المجون والعبث ، بما أشاعوا في غزلهم من عفة ومن نقاء وطهارة ، على نحو ما هو معروف عن أبي تمام والبحترى وابن الرومي وأضرابهم ، ومع ذلك كانت لا تزال تظهر في بغداد وغير بغداد جماعات من الغزلين الماجنين . ولعل ذلك هو الذي دفع المنبهي في أوائل هذا

العصر إلى أن يهجر في غزله المرأة المتحضرة ، وكأنه رآها أو رأى كثيرات من الجوارى
 يبعداد في أوائل شبابه بتالكن على اللهو ويسرفن فيه ، فصمم - كما مر بنا - أن يتخذ
 البدويات الأعرايات موضوعا لغزله ، حتى يردّ إلى الغزل في أيامه العفة والسمو والتبل
 والارتفاع عن الجسد والغريزة التي يشترك فيها الإنسان والحيوان ، وحتى يذيع فيه أريج
 الوجدان النقي الأفلاطوني البريء ، كما يذيع فيه شدّا الحنان الذي يكتظ به الغزل العذرى
 عند العرب وما يطوى فيه من حرارة ولوعة . وهذا الوتر من الغزل البدوى الطاهر المتنازع
 الذى شدّه المنتبى إلى قيثارته ، تبعه فيه الشريف الرضى يشده بدوره إلى قيثارة شعره
 مستخرجا منه ما لا يكاد يحصى من الأنعام كما أشرنا إلى ذلك في ترجمته ، على شاكلة
 قوله :

خُذِي نَفْسِي يَارَيْحُ مِنْ جَانِبِ الْحَمِيِّ وَلَا قِيَّ بِهِ لَيْلًا نَسِيمَ رَبِّي نَجْدِي
 فَإِنَّ بِذَلِكَ الْجَوْ حَيًّا عَهْدَتُهُ وَبِالرَّغْمِ مَنِي أَنْ يَطُولَ بِهِ عَهْدِي
 وَلَوْلَا تَدَاوَى الْقَلْبِ مِنْ أَلْمِ الْجَوِيِّ بِذِكْرِ تَلَاقِنَا قَضَيْتُ مِنَ الرَّجْدِ
 وَمَا شَرِبَ الْعَشَّاقُ إِلَّا بِقَيْتِي وَلَا وَرَدُوا فِي الْحَبِّ إِلَّا عَلَى وَرْدِي

فقد انقطعت الأسباب بينه وبين محبوبته النجدية ، ولم يبق من أمل إلا أن تلتقى نفسه
 من جانب الحمى بقطع من النسيم المعطر بشدّا صاحبه ، نسيم ربي نجد الذكي ، وإنه
 ليشعر بالآلام تقال بقلبه من أثر الحب وعذابه وأوصابه ، آلام ليس لها من دواء إلا دواء
 ذكريات لقائهما ، ولولا هذا الدواء لمات أسى والتباعا . وياله من عاشق شرب كأس
 الحب ، حتى لم يبق لغيره منها سوى الثالثة ، وكأنه أب العشاق أو كبيرهم ، فجميعهم إنما
 يردّ على وردّه وينهل من بقية شربه . وتبعه تلميذه مهيار يشدّ إلى قيثارته نفس هذا الوتر ،
 كما مرّنا في ترجمته ، صابّا في أشعاره منه ألحانا كثيرة من مثل قوله :

قُلْ لَجِيرَانِ الْغُضَا آءِ عَلَى طَيْبِ عَيْشٍ بِالْغُضَا لَوْ كَانَ دَامَا
 نَصِلُ الْعَامَ وَلَا نَسَاكُمُ وَقُصَارَى الْوَجْدِ أَنْ نَسْلُخَ عَامَا
 حَمَلُوا رِيحَ الصَّبَا نَشْرَكُمُ قَبْلَ أَنْ تَحْمَلَ شَيْحًا وَثَامَا
 وَابْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِي فِي الْكُرَى إِنْ أَذِنْتُمْ لِحُفْوِي أَنْ تَامَا

والغضا من أشجار نجد ، وكذلك الشيح والثام من نباتاتها ذات الرائحة الطيبة .
 والقطعة تفيض بالحنين لصاحبه وأهلها من جيران الغضا أو أهل نجد ، فإنه لا ينساهم
 ولا يسلوهم ، ولا يزال يأمل في أن تحمل ريح الصبا نشرهم العطر حتى يردّ إليه روحه ،

وَيَتَمَنَّى أَنْ يَرَى صَاحِبَتَهُ وَلَوْ خَيْالًا أَوْ شَبَحًا فِي النَّوْمِ حَتَّى تَمَلَأَ نَفْسَهُ بِهَجَّةٍ وَغَبَطَةٍ . وَلِصَّرْدَرٍ
أَشْعَارٍ نَجْدِيَّةٍ أَوْ فِي نَجْدٍ وَمَحْبُوبَاتِهِ بِهَا بَدِيعَةٌ ، مِنْ مِثْلِ قَوْلِهِ فِي مَطْلَعِ قَصِيدَتِهِ الْهَائِيَّةِ الَّتِي
أَشْرَنَا إِلَيْهَا فِي حَدِيثِنَا عَنْ شِعْرَاءِ الْمَدِينَةِ :

وَقَفْنَا صَفُوفًا فِي الدِّيَارِ كَأَنَّهَا	صَحَائِفُ مَلَقَاءُ وَنَحْنُ سَطُورُهَا
يَقُولُ خَلِيلِي وَالطَّبَاءُ سَوَانِحُ	أَهْدَى الَّتِي تَهْوَى ؟ فَقَلْتُ نَظِيرُهَا
وَيَاعَجِبِي مِنْهَا يَصُدُّ أَنْيْسُهَا	وَيَذْنُو عَلَى ذُعْرٍ إِلَيْنَا نَفُورُهَا
وَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي غَدَاةَ نَظَرْنَا	أَتَلَّكَ سَهَامٌ أَمْ كَثُوسٌ تُدِيرُهَا
فَإِنْ كُنَّ مِنْ نَبَلٍ فَأَيْنَ حَفِيفُهَا	وَإِنْ كُنَّ مِنْ خَمْرٍ فَأَيْنَ سُرُورُهَا
أَرَاكَ الْحِمَى قُلْ لِي بَأَى وَسِيلَةٍ	وَصَلَّتْ إِلَى أَنْ قَبَّلْتُكَ ثَغُورُهَا

وتصوير صردر نفسه وصحبه وهم وقوف بأطلال الديار كأنهم سطور بديع ، ولا نكاد
نحصى معه حتى نشعر بروعة التصوير ودقة الشاعر . فصواجه والطباء جنس واحد يدنو
وحشيه مذعورا ويصد أنيسه نفورا ، ولا يدري ما الذي أودعته ظباء الإنس - حين نظرن
اليهم - قلوبهم وأفئدتهم ، هل أودعتها نبلا قاتلا ، أو كئوسا من خمر تلذ الشاربين .
ويظل في حيرته ويتساءل إنها إن كانت نبلا فأين حفيفها ودويها ؟ وإن كانت كئوسا فأين
سرورها ومتاعها . ويلتفت إلى شجر الأراك وبراهن يتخذن منه المسواك ، فيسأله مذهولا
كيف وصل إلى ثغورهن . وكلها حيرات تصور لوعات هذا العاشق المفتون ، ومن بديع
غزلياته قوله :

نُسَائِلُ عَنْ ثُمَامَاتٍ بِحَزْوِي	وَبِأَنَّ الرَّمْلَ يَعْلَمُ مِنْ عَيْنِنَا
وَقَدْ كُشِفَ الْغِطَاءُ فَمَا نُبَالِي	أَصْرَحْنَا بِذِكْرِكَ أَمْ كُنِينَا
بِنَفْسِي رَامِيَاتٌ لَيْسَ تَفْنِي	نُصُولُ سَهَامِهِنَّ إِذَا رَمِينَا
وَأَمْسِينَا كَأَنَّ مَا افْتَرَقْنَا	وَأَصْبَحْنَا كَأَنَّ مَا التَقِينَا

إنه يمشي على استحياء في ديار صواحه بحزوى يسأل عن نبات الثمام ، وكل شئ في
الديار حتى ما بها من أشجار البان تعلم حقيقة أمره وخبيثة سره ، فقد كشف الغطاء وذاع
السر المحبوه . وإنه ليفدى بروحه من رمته بسهامها ، ويقول إن سهامها لا تفنى أبدا ، فهي
ما تنى ترسلها على المعجبين والمحبين . والبيت الأخير حكمة بديعة تصدق على كل شئ في
الدنيا وكل أمل ضائع أو سيضيع .

وهذا الوجد في شعر الغزل البدوي وما يشير في النفس من حنين ومن ظمأ لا يرتوي إلى رؤية المحبوبة استغله المتصوفة منذ ظهوره للتعبير عن حبهم للذات الإلهية بما فيه من مواجد ومن لوعات ، لوعات تلذع في الفؤاد كأنها نيران محرقة ، فإنهم وجدوا فيه خير معبر عن تشوقهم لرؤية الذات الإلهية ، وأنى لهم ! ، فمضوا يتغنون به في حفلات الذكر المعروفة حين ينعقد الذاكرون لله في صفين متقابلين ، ويقف مشد بينهما ، يرتل أشعار الوجد والهيام تارة مما نظمته الصوفية وتارة مما نظمته الشريف الرضي ومهيار وغيرهما ممن تلاهما واستلهم طريقتهما البدوية النجدية في الغزل ، لما أحسوا في هذه الطريقة من الوجد والصبابة ، بل من سعة النداء فيها . وهي سعة تلاحظ أيضا في الغزل الصوفي ، وكأن هذين الضربين من الغزل يلتقيان ، وهو التقاء هيا لأن يتأثر الغزل عامة بالشعر الصوفي ، وأن يتبع ذلك الفرصة لظهور ما يمكن أن نسميه الشعر الوجداني الصافي ، على نحو ما سنرى عند الحاجري والتلعفري .

ولا بد أن نلاحظ أن وتر الغزل البدوي الذي شدّه المتنبّي إلى فينارته ظل الشعراء بعده لافي العراق وحده بل في جميع الأقاليم العربية يشدونه إلى قيثاراتهم حتى العصر الحديث ، إذ وجدوا فيه فسحة للتعبير عن حبهم ووجدهم وما يشيران في القلوب من العواطف والأهواء . وقد تفجرت ينابيعه تفجرا في مقدمات المدائح النبوية التي أخذت تجرى على كل لسان منذ القرن السابع الهجري . ومرّ بنا في الفصل الأول من هذا القسم حديث طويل عن تغني الجوارى والحرائر في بغداد لزمن أبي حيان التوحيدي ، وما ذكره من أنه كان ببغداد أربعائة وستون جارية ومائة وعشرون حرة يتغنين بأشعار غزلية تدلّع الوجد والحنين واللوعة في قلوب الناس من المتصوفة وغير المتصوفة ، فتفتت قلوبهم وتحدّر دموعهم ويعلمون نحيبهم ، ومنهم من يسقط مغشيا عليه ، ومن يلمطم وجهه ويحرق ثيابه أو يمزقها ، ومن يضرب الأرض بقدمه أو يجسده ويرغى ويؤبّد . وكان وراء هؤلاء المغنيات مغنون يعدّون أو قل لا شك أنهم كانوا يعدّون بالعشرات إن لم يكن بالمئات ، كانوا يزلزلون الأرض - كما يقول أبو حيان - بأصواتهم الناعمة وألحانهم الرخيمة ودماثهم الحلوة . وكل ذلك عمل على ازدهار شعر الحب وأغانيه .

وطبيعي أن يتكاثر شعراء الغزل في هذا العصر كما تكاثروا في العصور السابقة ، وأن لا يقف ذلك عند شعراء القرنين الرابع والخامس وأن يتعدّاهم إلى شعراء القرنين السادس والسابع ومن جاء بعدهم ، ومن أهم الشعراء الذين عاشوا للغزل وشعر الصبابة في القرن

السادس الشاعر الملقب بالأبله^(١) لُقِّبَ بذلك لأنه كان فيه طَرْفٌ بِلِهٍ ، وقيل بل لأنه كان غاية في الذكاء فلُقِّبَ بذلك على طريقة الأضداد ، واسمه أبو عبد الله محمد بن بختيار ابن عبد الله المولاه أى الهائم صباية وعشقا ، وحُرِّفَتِ الكلمة في بعض الكتب فقيل المولد بدلا من الموله ، وهو تحريف واضح . وذكره العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة ، فقال : « هو شاب ظريف يتزنى بزى الجند ، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة ، رائق البراعة ، عذب اللفظ ، أرق من النسيم . وكل ما ينظمه ، ولو أنه يسير ، يسير ، والمغنون يعنون برائقات أبياته (مؤثرين لها) عن أصوات (أغاني) القدماء ، فهم يتهافون على نظمه المطرب ، تهافت الطير الحورم على عَذْبِ المشرب » . ثم قال أنشدني لنفسه من قصيدة سنة ٥٥٥ ببغداد :

زارَ مَنْ أَحْيَا بزورتهِ والدَّجَى في لَوْنِ طَرْتِه
يا لها من زورةٍ قَصُرَتْ فأماتتْ طولَ جَفْوَتِه
آه من خَصْرِ له وعلى رَشْفَةٍ من بَرْدِ رِيْقَتِه
ياله في الحسن من صَمِّ كُنْسا من جاهليْتِه

والكلمات محكمة ، وتكاد تطير عن الشفاه طيراناً لحنفها ، والدقة واضحة في تشبيهاته وطباقاته ، وأيضا في مراعاته للنظائر في الكلمات كما في البيتين الأخيرين : وقد جعل محبوبته صنما يريد أنها معبودة لفتنتها وسحر جاهلها وكأنها أعادت الناس إلى زمن الجاهلية ، فكلهم عابدها مسحور . والكلمات والأبيات معدة حقا للغناء ، إذ كان أستاذا في زمنه من أساتذة الأغاني ، ولذلك كان يتخاطف المغنون والمغنيات غزلياته . ويقول ابن خلكان : « جمع الأبله البغدادي في شعره بين الصناعة والرقه وله ديوان شعر بأيدي الناس » وقال ابن الجوزي في المنتظم كانت وفاته ببغداد سنة ٥٧٩ وقال غيره بل سنة ٥٨٠ ومن غزله البديع قوله في مطالع إحدى قصائده :

يا بَرِّقُ إن تجفُ العقيقَ فطلما أغتته عنك سحائبُ الأَجْفانِ
هيات أن أنسى رُبَاكَ ووقفَةَ فيها أُغْبِرُ بها على الغَيْرانِ
ومُهْمَمُهْ ساجي اللِّحَاطِ حفظُهُ فأضاعني وأطعته فعصاني
يُصمى قلوبَ العاشقين بمقلّة طَرَفُ السَّنانِ وطَرَفُها سيَّانِ

٢٤٤/٢ وعبر الذهبي ٢٣٨/٤ والشذرات ٢٦٦/٤ .

(١) أنظر في ترجمة الأبله المنتظم والنجوم الزاهرة في سنة ٥٧٩ وابن خلكان ٤٦٣/٤ والرواق للصفي

ما قام معتدلاً يهزّ قوامه إلا وبانت خجّلة في البان
 وفي الأبيات انسياب مع جمال التصوير ، بل مع التصوير المفاجئ ، إذ نراه يخاطب
 البرق الخنقي مع السحاب عن ديار صاحبه بأن سحائب الأجفان ودموع العيون حرة أن
 تروها ويقول إنه حفظ صاحبه فأضاعته ، وأطاعها فعصته ، ويعقد صلة بين طرفها
 وطرف السنان ، فكلاهما يصمى ويقتل ، ويذكر أن قوام صاحبه لا يشبه قوام شجر البان
 في اعتداله فحسب ، بل إنه حين يبصره شجر البان يسرى فيه خجل وحياء شديد لحسن
 قوامه بالقياس إليه وجمال استوائه ومن أبياته السائرة قوله من قصيدة :
 لا يعرفُ الشوقَ إلا من يُكابدُهُ ولا الصّباةَ إلا من يُعانيها

ولن نستطيع أن نمضى في عرض أشعار الغزلين لكثرتهم ونكتفي بالحديث عن ابن المعلم
 والحاجري والتلعفري ، إذ هم أهم من نظم الغزل في العصر ، وقد استطاعوا النفوذ فيه إلى
 ضرب جديد من الشعر الوجداني يكتظ بالشوق والوجد والحب المبرح الذي يستأثر بالقلوب
 والأفئدة .

ابن المعلم^(١)

هو أبو الغنّام نجم الدين محمد بن علي المعروف بابن المعلم ، ولد بقرية الهُوث من
 أعمال واسط جنوبي العراق سنة ٥٠١ وتوفى بها سنة ٥٩٢ واستيقظت موهبته الشعرية
 مبكرة ، فقصده بشعره حكام بغداد وبها اصطدم بشاعرها سيّط ابن التعاويذي بعامل التنافس .
 وكان كلما ألم ببغداد لا يلبث أن يفارقها إلى مسقط رأسه ، وفيه يقول العماد الأصباني في
 الخريدة : « متقدم الهُوث شعره الديباج الملمّع المعلم ، طرازه المعنى الممتّع المحكم ، فلفظه
 السوّار ومعناه المعصّم . . كلامه حلّو حالٍ ، عالٍ غالٍ ، صَفُو من الرنق خالٍ . . فأين
 مهيار من أسلويه ! لو عاش شرب من كويه . » ويقول ابن خلكان : « كان شاعراً رقيق
 الشعر لطيف حاشية الطبع يكاد شعره يذوب من رفته . . وأكثر القول في الغزل والمدح
 وفنون المقاصد ، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني ، يغلب على شعره وصف الشوق
 والحب وذكر الصباة والغرام ، فعلق بالقلوب واستشهد به الوعاظ واستحلاه
 السامعون . » وأتاحت له رقة شعره الوجداني صلة وثقى بينه وبين أصحاب الشيخ أحمد

(١) انظر في ترجمة ابن المعلم وأشعاره الخريدة (قسم بالفوات ١٦٥/٤ وعبر الذهبي ٢٧٩/٤ والشذرات العراق ٤٣٠/٢/٤ وابن خلكان ٥/٥ والوفاء والنجوم الزاهرة ١٤٠/٦ وانظر ص ١٠٢ .

الرفاعي ، فكانوا يتغنون بغزلياته ، ويرونها معينا لا ينضب لاستثارة حبه الصوفي ، ويقول ابن خلكان : « سمعت جماعة من مشايخ البطائح (يريد أصحاب الرفاعي) يقولون : ما سبب لطافة شعر ابن المعلم إلا أنه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء (المتصوفة) المتسبون إلى الشيخ أحمد الرفاعي وغنوا بها في سماعاتهم (يريد أذكارهم) وطابوا عليها ، فعادت عليه بركة أنفاسهم . . وبالجملة فشعره يشبه النَّوح ، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا فتنه وهاج غرامه » . وملاحظة ابن خلكان أن شعر ابن المعلم يشبه النَّوح ملاحظة دقيقة توضح السبب الحقيقي في تعلق طائفة الرفاعيين به ، لما يحمل من كثرة الوجد ولوعاته وحرارته التي لا تنطفئ في فؤاده أبدا ، فهو دائما يريد الوصال ، ولا وصال على طريقة الصوفية ، بل فراق متصل ، يشق به المحب ويبكى وينوح ولا مغيث ولا مخلص ولا معين ولا أمل في لقاء أو ما يشبه اللقاء ، يقول :

لو قَضَى من أهل نَجْدٍ أَرَبَهُ	لم يَهَيِّجْ تَشْرُّ الخُزَامِي طَرَبَهُ
عَلَّلُوا الصَّبَّ بِأَنفَاسِ الصَّبَا	إِنهَا تَشْفِي النَفُوسَ الوَصِيبَةَ
فَهِيَ إِنْ مَرَّتْ عَلَيْهِ نَشَرَتْ	مَا انطوى عنه وَجَلَّتْ كُرْبَةُ
كَلْفِي فِيكُمْ قَدِيمٌ عَهْدُهُ	مَا صَبَابَاتِي بِكُمْ مُكْسِبُهُ
عَنْ جَفُونِي النَوْمَ مِنْ بَعْدِهِ	وَإِلَى جَسْمِي الضَّنَّ مِنْ قَرْبِهِ
فِصَلُوا الطَّيْفَ إِذَا لَمْ تَصِلُوا	مُسْتَهَامًا قَدْ قَطَعْتُمْ سَبَبَهُ

فهو لم يقض أربا من صاحبه ، وذلك هو مصدر لطفته ولوعته ، وإنه ليتمنى أن تمر به أنفاس الصبا محملة بنشرها عليها تشفيه من أوصابه وأوجاعه وتنقذه من كربه العظيم ، وإنه ليكلفُ بها أشد الكلف ، كلفاً كأنما فطر عليه ، فهو يعذبه ويشقيه ويسهده ويضنيه ، وإنه ليتمنى أقل التمنى : أن يرى طيف المحبوبة ولكن أتى له ، وهو لا ينام ، بل يظل ليله - مثل نهاره - يحتمل مالا يستطيع تحمله من آلام الحب الذي أصبح محنة ، لا يستطيع قلبه أن يجد إلى التخلص منه سبيلا . وينشد له العمد قطعة من كلمة له سارت وأنجحت وشارت حتى شدا بها الشادي ، وحدا بها الحادي ، ووجد بها أرباب الغناء الغني والوجد ^(١) وأصحاب القلوب الهوى والوجد ، وهي مطلع لإحدى مدائحه وفيها يقول :

تَنْبِيهِ يَا عَذْبَاتِ الرَّنْدِ	كَمْ ذَا الكَرَى ؟ هَبَّ نَسِيمٌ نَجْدِ
مَرَّ عَلَى الرُّوضِ وَجَاءَ سَحْرًا	يَسْحَبُ بُرْدَى أَرْجٍ وَبُرْدِ

(١) الوجد : اليسار والسعة

حَتَّى إِذَا عَانَقْتُ مِنْهُ نَفْحَهُ عاد سَمُومًا وَالغَرَامُ يُعْدِي
 وَاِعْجَابًا مِنِّي ! أَسْتَشْفِي الصَّبَا وما تَرِيدُ النَّارَ غَيْرَ وَقْدِ
 أَعْلَلُّ الْقَلْبَ بِإِنِّ رَامَةٍ وما يَنُوبُ غُصْنٌ عَنِ قَدِّ
 وَأَسْأَلُ الرَّبِيعَ وَمَنْ لِي لَوْ وَعَى رَجَعَ الْكَلَامُ أَوْ سَخَا بِرِدِّ
 أَتَقْضِي النَّوْحَ حَامَاتِ اللَّوَى هَيْهَاتَ مَا عِنْدَ اللَّوَى مَا عِنْدِي
 بَانُوا فَلَا دَارَ الْعَقِيقِ بَعْدَهُمْ دَارٌ وَلَا عَهْدَ الْحِمَى بَعْدَهُ

والقطعة تكتظ بحج محروم يلذع فؤاد صاحبه لذعا بنيرانه ، وبينما هو في آلامه وغصصه التي يتجرعها محزونًا إذا نسيم نجد يهبُّ محملاً بشذى عطر ، يرد الروح ، وكأنه رحيق الحياة ، غير أنه لا يكاد يعانق منه نفحةً حتى يحس كأنما فارق كل ما كان به من برد ولطف وعاد سموما ، بل سُمًا . ويا للهول نسيم أرج بارد يصبح ريحا سموما ساخنا ، وإنه ليزيد نار حبه وقدًا واشتعالًا ، ويتلفت يسأل الربيع عن محبوبته ، وليس عند الربيع من جواب ، وإنه ليثنّ وينوح ويطلب من حمامات اللوى أن تنوح وتتن معه ، فهو أولى من اللوى بالأنين والنواح ، إنه ليس عندها ما عنده من تباريح الغرام ، فقد رحلت صاحبته ، ولم تعد دار العقيق دارها ولا عهد الحمى بعهد لها . لقد ذهب منه كل شيء ولم يعد له إلا النواح والبكاء . وله من أخرى في فنّها وحلاوتها وحسنها كما يقول العماد الأصبهاني :

أَرْقَى وَهُوَ الْحَبُّ الْمَسْتَهْمُ ما يُدَاوَى بِالتَّعَاوِذِ الْغَرَامُ
 قَصُرَتْ عَنِ بُرْثِهِ أَيْدِي الْأَسَا كَيْفَ حَسَمُ الدَّاءِ وَالِدَاءُ عُمَامُ (١)
 يَا لَدَيْغِ الْحَدَقِ التَّجْلِ مَتَى تَجِدُ الْبُرْثَ وَحَامِيهِ الْحُصَامُ
 وَدَوَاءِ الْحَبِّ فِي شَوْكِ الْقَنَا مَتَى لَدَيْغًا كُلُّ دِرْيَاقِ سِهَامُ
 قَلُّ لُتْوَامِ الْغَضَا عَنْ سَاهِرٍ مَنْ تَجَافَاهُ الْهُوَى كَيْفَ يَنَامُ
 غَيْبَتُمُ بِالشَّمْسِ عَنْ نَاطِرِهِ وَالضُّحَى مِثْلُ الدُّجَى كُلُّ ظَلَامُ

ففيه مرض عضال لا يداوى بالتعاويز والرقى ، وقد عجزت عن برثه وشفائه أبدى الأسا والطب والعلاج ، إنه داء لا يمكن الخلاص منه ، وإنه للديغ الحدق التجلّ الساحرة ، وكل درياق له أو دواء إنما هو سم فلا يدري المصاب به أيشرب رحيقًا شافيا أم سُمًا قاتلا . ويتجه إلى أهل الغضا يشكو سهاده وجفاء محبوبته ، فقد غابوا بشمسه عن

(١) الأسا : المداواة والعلاج . عقام : لا يشفي منه .

بصره ، وأصبح ضحاه مثل دجاء ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، وأصبح كل شيء قِطْعاً من الظلام بعضها فوق بعض ، وعبثاً يرى نور محبوبته فقد أُرْخِيَ الظلام من حوله سُدُوله ولم يعد هناك أمل في انقراضه ، وهو يشنُّ وينوح نواحاً لا ينقطع كما يقول ابن خلكان . ولعل في ذلك كله ما يصور كيف أن غزله الوجداني كان خليقاً أن تتداوله طائفة الرفاعية الصوفية ، لتعبر به عما يختلج في حنايا صدورها وقلوبها من الحب الإلهي وكل ما يُطْوَى فيه من وجد وهلّة ولوعة وظلم لا ينتهي إلى رؤية الذات العلية ، وكأنما مسته - كما تصوّر شيوخيهم - بركة أنفاسهم ، أو كما نقول كأنما مسته أنفاس وجدهم الرباني الحار ، مما جعلهم يحفظون شعره ويتناشدونه ، وينشده معهم الوعاظ في وعظهم . ويروى ابن خلكان أن الشاعر مرّ يوماً على ابن الجوزي وهو يعظ الناس وهم مزدحمون في مجلسه ، وكان عجبه شديداً حين سمعه يستشهد على بعض إشارات بيت من شعره منها به .

الحاجري^(١)

هو أبو الفضل حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمار تكين بن طاشتكين الإربلي المعروف بلقبه الحاجري نسبة إلى الحاجر بلدة كانت بالحجاز أكثر من ذكرها في شعره ، فُنسب إليها . وهو إربلي الأصل والمولد والمنشأ ، ويقول ابن خلكان إنه كان صاحبه ، ومع ذلك لا يذكر لنا شيئاً عن زمن مولده ولا عن أسرته ونشأته ، وكل ما يقول إنه جندي من أولاد الأجناد الأتراك ، ويبدو أنه كان على شيء من اليسار ، إذ لا نراه في ديوانه مشغولاً بمدح وحين مختلفين يُهدّيهم أشعاره ، إلا ما كان من مدحة يستهل بها ديوانه مدح بها الأمير ركن الدين أحمد بن الأمير شهاب الدين قراطايا بإربل ، ولعله أراد أن يستل من نفسه ضغينة عليه ، إذ جاء في مقدمة مدحته إنه كان السبب في مقتله ، ويقول ابن خلكان إنه خرج من إربل في سنة ٦٢٦ بينا كان الحاجري معتقلاً في قلعته لأمر بطول شرحه ولعل الأمير السالف هو الذي دبر له هذا الاعتقال ، وله في ذلك أشعار يشكو فيها من حبسه مثل قوله :

قَيْدٌ أَكْبِيدُهُ وَسِجْنٌ ضَيِّقٌ يَا رَبَّ شَابَ مِنْ الِهْمومِ المَقْرِقُ
ويذكر ابن خلكان أنه بلغه بعد ذلك خروجه من الاعتقال وأنه اتصل بخدمة الملك.

(١) انظر في ترجمة الحاجري ابن خلكان ٥٠١/٣ منه مخطوطات كثيرة ، وهو حري بأن يحقق والنجوم الزاهرة ٢٩٠/٦ والشذرات ١٥٦/٥ وديوانه طبع طبعة سقيمة بالقاهرة سنة ١٣٠٥ وذكر بروكلمان

المعظم مظفر الدين كوكبوري والى إربل من قبل صلاح الدين منذ سنة ٥٨٦ وتقدم عنده وتزيًا بزى الصوفية . وتوفى مظفر الدين سنة ٦٣٠ فغادر الحاجرى إربل ، وكأنه كان لا يزال يخشى بأس غريمه المذكور آنفاً ، غير أنه سرعان ما عاد إليها حين صارت فى مملكة الخليفة المستنصر بالله وتولاها عنه الأمير شمس الدين أبو الفضائل باتكين ، فأقام مدة قصيرة وهو لا يدري أن وراه من يقصده واتفق أن خرج يوماً من بيته قبل الظهرية ، فوثب عليه شخص وضربه بسكين ضربة قاتلة توفى على إثرها فى شوال سنة ٦٣٢ ويقدر ابن خلكان عمره بنحسين سنة . ويقول : « له ديوان شعر تغلب عليه الرقة ، وفيه معان جيدة ، وهو مشتمل على الشعر والدوبيت والمواليا ، وقد أحسن فيها جميعاً مع أنه قل من يجيد فى مجموع هذه الثلاثة ، بل من غلب عليه واحد منها قصر فى الباقي ، وله أيضاً « كان وكان » واتفقت له فيه مقاصد حسان وهو شعر عامى ، سنعرض له فى غير هذا الموضع . وأول ما نقرأ فى ديوانه مطلع مدحته لابن قراطايا ، وفيه يقول :

ما للدموع تسيلُ سَيْلُ الوادى	أَحَدًا بِرَكْبِ العَامِرِيَّةِ حَادِي
نعم استقلُّوا ظاعنين وخلفوا	ناراً لها فى القلب قَدْحُ زِنَادٍ ^(١)
ما كان أطيّبَ للوداع عناننا	لو لم يكن منا عناقٌ يعاد
يا سائقَ الوجناء غيرَ مقصّر	يطوى المفاوز من رُبى ووهاد ^(٢)
مأى إليك سوى التحية حاجةٌ	تلقى سعادَها ودارَ سعاد
عَرَّجُ برامةٍ إن رامةً منتهى	أملى وغايةً بُعْثى ومرادى ^(٣)
يا أيها الرشا الذى بلحاظه	دَعَجُ يصول به على الآساد ^(٤)
الله فى كَيْدِي التى أحرقتها	عَبَّأُ بجمرة خَدُّكَ الوَقَادِ

وبلى هذا الاستهلال غزل من هذا الطراز يكاد يستنفذ الديوان جميعه بما فيه من محمسات ودوبيتات أو رباعيات ، وواضح أنه مرحلة جديدة للغزل بالدوبيات الذى قرأناه عند المتنبي والشريف، أثرى ومهيار ، وكان الحاجرى استوعب غزلهم وتمثله تمثلاً نادراً ، فإذا هو ينفذ مثل ابن المعلم إلى هذا الغزل الجديد الذى سميته بحق شعراً وجدانياً ، شعراً ينساب من معين تُرَّلا يزال يتدفق حاراً دون أى تكلف أو تصنع . وإن نار الحب لتتقد فى قلبه وتسيل دموعه أنهاراً فقد فارقتة صاحبه إلى رامة ، وهو لا يملك إلا أن يرسل إليها

(١) قَدْح الزناد : استخراج النار منه بضرب حجرين . (٣) رامة : موضع بالبادية .

(٢) الوجناء : الدقة الشديدة . (٤) الدعج : اشتداد السواد والياض فى العز .

بتحية رقيقة ، وإنه ليدكر سهام عينيها الفاتنتين ويتضرع إليها مستعظفاً لكبده التي أحرقتها
بجمرة خدّها الوقاد ، ونحس دائماً كأنما يتوجع حقاً من حريق فكل شيء من صاحبتة
يلهب صدره وقلبه بنار لا تحمد أبداً حتى الرضاب أو الريق ، يقول :

ويلاه من برِّدِ رُضَابٍ لها أشكو إلى العُدَّالِ منه الحريقُ

وهو في أثناء هذا الحريق الذي يأخذ فؤاده من كل جانب بلتاع لوعات ممضة ، كان
يربِّوع منها دائماً ، فيهتف منشداً أشعاره الوجدانية التي تكثظ بالحنين إلى رؤية صاحبتة في
رامة وغير رامة من منازل نجد والحجاز ، مثل قوله :

إنَّ الألى رحلوا غداةَ مُحَجَّرٍ ملثوا القلوبَ لواعجَ الأحزانِ
نزلوا برامةَ قاطنينَ فلا تَسَلْ ما حلَّ بالأغصانِ والغزلانِ
فلا بعثنَّ مع النسيمِ إليهمُ شكوى تَميلُ لها غُصُونُ البانِ
يا عاذلى فيمن أحبُّ جهالةً عنى إليك فليس شأنك شأنى
لم لا أحنُّ إلى الحجازِ صبايةً ويمجودُ دمعُ العينِ بالهملانِ

فقد رحلت صاحبتة عنه وتركته بحاجر يشكو آلام حبه ولواعج حزنه وأوجاعه ، ونزلت
رامة فأخجلت بقدها وجمال عينيها الأغصان والغزلان ، ولم يعد له إلا أن يبعث إليها
بالسلام مع النسيم ، لعلها ترقُّ له وتذكره ، ويلتفت إلى عدوله بنهاه أن يتعرض له فليس
من دربه ، وليس ذلك من شأنه ، ويتساءل إن كل محب ليصوب قلبه إلى الحجاز ونازليه ،
ويذرف الدمع مدراراً . لغة سهلة هي لغة الشعر الوجداني الذي ينساب في النفس
انسياباً . وله قصيدة تفيض بحنين رائع صور فيها تصويراً بديعاً حزنه لفراق صاحبتة كأقوى
ما عرف الناس من الحزن للفراق بين المحبين قائلاً :

أأحببنا بثم عن الحيف فاشتكتُ لبُعدكمُ آصالها وضُحاهها
كأنكم يومَ الرحيلِ رحلتُم بنومى فعننى لا تُصيب كراها (١)
رعى الله ليلاً بطيب حديثكم تقصت وحيها الحيا وسقاها
فا قلتُ إيه بعدها لمسامر من الناس إلا قال قلبى آها
متى تنقضى أيامُ ذلّى وأجتنبى ثمارَ وصالٍ قد حرمتُ جنّاهها
وأستحبُّ القومَ الذين بمهجتي لفقدهمُ نارٌ يشبُّ لظاهها

فهو لا يشكو فراقهم بل تشكوه معه الطبيعة ، وإنه ليشكو من سهاده ، فالنوم لا يلمُّ ليلاً بطرفه ، وهو يذكر ليالات سمره مع صاحبتة ويدعو لها مديبا في دعائه حيننا حاراً ، ويصور نفسه ، فهو مع سمره أحياناً لا يزال قلبه يتوجع ، وهو مع ابتساماته تملأً الهموم أحشاءه ، وإنه ليتمنى أن يجتمع بصاحبتة ويقتطف ثمار وصاله ويطفى النار التي تستعر بفؤاده .

وله بجانب هذه الأشعار الوجدانية البديعة مخمسات بنفس الروح ونفس المعاني والوجد والصبابة كقوله في فاتحة مخمس :

خِليلى عوجاً بالغوَيْرِ وكُتِبِهُ ولا تمنعا المشتاق من لثَمِ تَرْبِهِ
هو الصبُّ يُصْبِيهِ الهوى دون صَحْبِهِ خُذاً من صَبَا نَجْدٍ أماناً لقلْبِهِ
فقد كاد رِيَّاهَا يطير بِلْبِهِ

والغوَيْر : ماء في بادية الشام ، والديوان يفتح بأسماء المواضع والمنازل في نجد والحجاز . وفي ديوانه رباعية يُذِيب فيها وجده وجبَّ قائلاً :

حَيًّا وَسَقَى الحِمَى سَحَابٌ هَامِي ما كان أَلَدَّ عامُهُ من عامِ
يا علوةُ ما ذكرتُ أيامكمُ إلا وتظَلَّمتُ على الأيامِ

وقد نوه القدماء طويلاً بما في شعره من انسياب موسيقى رائع ، وبلغ من إعجابهم به أن سما ديوانه « بلبل الغرام الكاشف عن لثام الانسجام » وفي دار الكتب المصرية مخطوطة شعرية له باسم : « القصائد الحجازيات في مدح خير البريات » وهي مجموعة من المدائح النبوية ، لم بضمن ديوانه منها شيئاً .

التَّلَعْفَرِيُّ (١)

هو شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف المعروف بالتَّلَعْفَرِيُّ نسبة إلى « تل أعفر » بين سنجار والموصل ، ويروى ابن خلكان عنه أنه ولد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ وبها كانت نشأته وتربيته الأدبية . وتفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، فرأى أن يمدح الحكام والأمراء على عادة الشعراء في عصره ، ولم يكتف بأمراء موطنه ، فقد اتجه بمدحيه أيضاً إلى أمراء الشام ،

(١) انظر في ترجمة التلعفري ابن خلكان ٤٠/٧ ، ٤٥ ، وشذرات الذهب لابن العماد ٥ / ٣٤٩ وديوانه طبع قديماً وفوات الوفيات لابن شاعر ٥٤٦/٢ والنجوم الزاهرة في القاهرة وبيروت .

٢٥٥/٧ ، ٣٧٢ ، والفلاحة والفلوكون ص ٢٦٥ .

ولزم كثيرين منهم وخاصة الملك الأشرف موسى الأيوبي الذي ظل مستولياً على صولجان الحكم في دمشق من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٦٣٥ وكان يسبغ عليه كثيراً من العطاء الجزل ، غير أن التلعفري كان مغرّياً بشرب الخمر والقمار ، وكان الأشرف موسى يراجعه في ذلك كثيراً ، ولم يكن يصبر عليهما أو يستطيع شيئاً من الصبر ، وفي ذلك يقول :

أقلعتُ إلا عَنِ العُقَارِ وَثُبْتُ إِلَّا مِنَ القَهَارِ
فالكأسُ والقَمَرُ ليس يخلو منها يميني ولا يساري

ولما أُعيت الحيل الأشرف موسى معه أمره بمغادرة دمشق ، فتركها إلى حلب وصاحبها الملك الناصر الأيوبي ، فقربه منه ، وجعله من جلسائه ، وقرّر له راتباً ، راجياً أن يتوب ويتوب ، غير أنه سرعان ما عاد إلى سيرته السيئة في دمشق ، فكان يشرب ويقامر بكل ما يحصل عليه من مال ، حتى قيل إنه قامر بثيابه ونعليه . وعرف ذلك الملك الناصر ، فأمر أن ينادى في حلب من قِبَل السلطان : « مَنْ قامر مع الشهاب التَّلعْفِرِيِّ قطعنا يده » فضاقت عليه حلب وأرضها بما رحبت وعاد إلى دمشق ، وكان الملك الأشرف موسى قد توفي ، وظل بها يستجدي ويقامر حتى ساءت حاله سوءاً شديداً . ورحل إلى مصر في هذه الأثناء إذ يقول ابن خلكان إنه لقيه بها سنة ٦٣٨ وعاد منها لا إلى دمشق ولا إلى حلب ، بل إلى حماة وصاحبها الملك المنصور ، فاحتفى به وأضفى عليه عطاءً وفيراً أتاح له بأخرة من حياته عيشاً كريماً . وظل بحماة حتى وفاته سنة ٦٧٥ وكان آخر ما تلفظ به من شعره قبيل موته .

إذا ما باتَ من تُرْبِ فِرَاشِي وَبَتُّ بِمَجَاوِرِ الرَّبِّ الكَرِيمِ
فَهَتُّونِي أَصْحَابِي وَقَوْلُوا لَكَ البُشْرَى قَدِمْتَ عَلَى رَحِيمِ

وليس في الديوان مدحة من مدائحهم ، إلا ما قد بشر إلى بعضها في الأبيات التي مجتمت بها ما احتفظ به من يتشس مطالعها ، وبذلك يصبح الديوان كله غزلاً ، وهو غزل من طراز غزل الحاجري ، أو هو بعبارة أدق شعر وجداني يسيل رقة وعذوبة وسلاسة ، وكأنه الماء النخير حلاوة وصفاء ورشاقة ونعومة حتى ليشفع له فيما أبطل به من القمار ، وهو فيه يجرى على هذا النمط الوجداني الرائع :

أَيَّ دَمْعٍ مِنَ الجَفُونِ أَسْأَلُهُ إِذْ أَتَتْهُ مَعَ النِّسِيمِ رِسَالَةٌ
سَلُّ عَقِيقَ الحِمَى وَقُلْ إِذْ تَرَاهُ خَالِيًا مِنْ ظِلَائِهِ المِخْتَالَةِ

أين تلك المرافف العسلياً ت تلك المعاطف العسالة (١)
 وليالي قضيتها كلالٍ بغزالٍ تغارُ منه الغزاة (٢)
 بابلي الألاحظ والرقي والأد فاظٍ كلُّ مُدامةً سسالةً
 وسقيم الجفون والخصر والعهد يد فكلُّ تراه يشكو اعتلالةً
 أوقع الوهم حين يرمى فلم ند ر يده أم عينه النبالة

والقصيدة كلها تموج بهذه الرقة والعدوية مع الانسياب والتدفق ، وكأننا بإزاء جدول يسيل شعرا ووجداء وهياما ، مع جبال القافية وحسن الألفاظ وطواعيتها للشاعر ، وكأن كلا منها تجذب صاحبها تريد أن تعانقها عناق ذوى الرحم والقرباة . وتلك الألاحظ والرقي والألفاظ لصاحبه جميعا كأنها رحيق مسكر ، وما أجمل جمعه بين سقم الجفون وفنورها وهو جمال وحسن فيها ، وبين الخصر وسقمه أو نحوه وهو يستحب فيه ، وأخيرا بين هذين السقمين وسقم عهد صاحبه فهي تُدلُّ عليه ولا تقي بوعدها ، وهكذا يشكو كلُّ سقمه واعتلاله . ودائما يذكر الشعراء سهام العيون وكيف تصمى الأفئدة ، وهو يضم إليها سهام الأيدي الفاتنة ، فلا يدري أحد من أين يأتي النبل أمن الأيدي أم من العيون ، ويكرر كثيرا أن حاجبي صاحبه قوسان كبيران لا يزالان يرسلان النبل والسهام ويصوبانها إلى العاشقين المفتونين . وله يصور ألم الفراق .

إني لأعجب من محبٍ مُشغفٍ عيشا له من بعد حثّ الأيتني
 يابها الحادى بعودك سالماً ألا رثيتَ لشملا المتترقي
 أريح المطىّ وها فؤادى فاقبس وامتن علىّ وها دموى فاستقي
 ليس التعجب من رقادى - إذ مضى - فيه ولكن من جميعى إذ بقى
 لدلاله ذلّى به ولحبه وهواه ما يلقيّ الفؤاد وما لقي

فهو يعجب من أن يعيش العاشق الوهان بعد فراق صاحبه ، وإنه ليهتف بالحادى أن يريح مطيه ، وإذا كان يريد نارا فليقتبسها من فؤاده ، أو ماء فليستقي من دموعه التى تندافع سيلا مدرارا . ويأسى لبخته أو حظه إزاء صاحبه ولا يعجب من سهاده فيها ، بل يعجب من أن يظل جميعه حيا يتنفس ، وإنه ليتذلل ويضرع أسى ووجداء . وكل ذلك شعر وجدانى وقف عليه التلعفري - مثل أستاذه الحاجرى مواطنه - حياته وشعره ، وله موشحة وحيدة مدح بها العزّازى الشاعر الوشاح المصرى احتفظ الديوان بها تامة وهى من

(١) العسليات : النسوية إلى العسل ، وأراد بالمعاطف (٢) الغزاة : الشمس .

القوام . العسالة : اللينة .

نفس المعين الذى يستمد منه شعره الوجدانى ، على نحو ما يتضح من قوله فى مطلعها :
 ليس يُرَوِّى ما بقلبي من ظمًا غيرُ بَرِّقٍ لائحٍ من إضْمٍ^(١)
 إن تبدى لك بانُ الأجرع^(٢)
 وأثيلاتُ النَّقا من لَعَلع^(٣)
 يا خليلي قِفْ على الدارِ معي
 وتأمّلْ كم بها من مَصْرَعٍ
 واحتزّرْ واحتزّرْ فأحداقُ الدُمى كم أراقتْ فى رُبّها من دَمٍ

وللحاجرى موشح فى ديوانه ، ولكنه لا يبلغ جمال هذا الموشح فى موسيقاه وورصف ألفاظه . وليس معنى ذلك أن التلعفري يتفوق على الحاجرى فى روعة شعره ، فالحاجرى هو الأستاذ وهو الذى مهد الطريق وعبّدها للتلعفري ، وهما جميعا يجليان فى غزلها تجلية بدیعة . ويقول ابن تغرى برّدى عن التلعفري إنه كان يتشيع ، ولكنه لم يفسح لنحلته فى شعره .

٢

شعراء اللهو والمجون

مرّ بنا فى حديثنا عن المجتمع فى الفصل الأول كيف أن الطبقة المترفة من الحكام والوزراء وعلية القوم كانت تنغمس فى الترف ، وكيف كان كثيرون منها يقبلون على اللهو واحتساء الخمر فى مجالس أنس كانت لا تزال تنعقد فى بغداد . وذكرنا من بين هذه المجالس مجلس الوزير المهلبى ومن كان يحضره من القضاة والفقهاء وكيف كانوا يطرحون الحشمة والوقار ويقبلون على القصف والخلاعة والرقص ، وفى يد كل منهم طاس مملوء خمرا يعب منه عبّاً . ولم يكن جميع الوزراء مثل المهلبى ، ولكن كثيرين منهم كانوا يقيمون هذه المجالس وإن لم يتسعوا مثله فى اللهو والعبث ، ويصور محمد بن أبى المطهر الأزدى فى كتابه «حكاية أبى القاسم البغدادى» - الذى عرضنا له فى غير هذا الموضع - بعض هذه المجالس فى القرن الحامس الهجرى وكيف كانت تعبق بالطيب على بساط الرياحين

(١) إضم : الوادى الذى فيه المدينة المنورة . (٢) أثيلات : شجر . النقا : القطعة من الرمل .

(٣) البان : شجر . والأجرع : الرملة الطيبة المنبت لعلع : ماء بالبادية .

والرود وكيف كانت تهبّ للأنس رياح ، سحابها الأقداح ، وبرّقها الراح ، وقد نطقت ألسنة العيدان والنايات تسند غناء الجوارى والمغنّين بألحانها الشجية ، ويطلق في وصف الخمر وأن منها ما كأنه عُصر من حُدِّ الشمس ، وما هو أصنى من الماء ، وأرق من دمة العاشق المهجور^(١) . والكتاب إنما كتب في وصف المجون ببغداد لعصر مؤلفه ، ويتبغى أن لا نظن أنه يمثل صورة الحياة العامة ، إنما هي صورة حياة طبقة خاصة هي الطبقة المترفة ، وكان وراءها الشعب يكدح ويتصبّبُ جبينه عرقاً كي تملأ هذه الطبقة بطونها وتملاً مجالسها بالشرب من الطاس والكاس . وحقا كانت للشعب مواسم للهو والعبث ، غير أنها قلما تعدّت أعياد المجوم والنصارى مما عرضنا له في غير هذا الموضع .

على كل حال ينبغي أن لا نبالغ في تصور ما كان ببغداد من اللهو والمجون ، وأن نقصر ذلك على الفئة الأرستقراطية أما الشعب فحسبه منها ما كان يستمتع به من هو في بعض الأعياد وخاصة أعياد الربيع ، وظل ذلك طوال العصر ومن خير ما يصوره مقامة لظهير الدين الكازروني المتوفى سنة ٦٩٧ عرض فيها لهذا الجانب من هو البغداديين وخروجهم إلى الرياض وتزهمهم في الحدائق والأنهار قائلا : « أما زمان الربيع وأيام الوشى البديع فإنهم كانوا يصطحبون ويتجمعون ويتألون (كأنهم إلى نُصْب يُوقضون) فيتلون الجوارى (السفن) في رهط من الجوارى ، ويدخلون نهر عيسى ويباكرون إلى قَصده . . ويحترقون أشجاره ويقطفون ثماره وتواره ، ويفترشون رياضه وأزهاره ويتزلون غيطانه وأنهاره ، ثم تعزف القيان وتصطخب العيدان ، وتصفّق العُدران ، وترقص الأغصان ، وتميد الأفتان ، وكلما دَسَع (امتلأ) الرَّأووقُ (دَنّ الخمر وطاسه) طاب المشوق . . وكلما طرب العود ، زجمرت الرعود ، وقد انتظموا في سلك الراحة ، واجتمعوا للاستراحة ، كذلك أياما لا يطعمون مناما^(٢) » ولم تكن حانات بغداد في الكرخ ولا حانات المنتزهات وحدها هما اللتان يجد فيها عشاق المجون ما يصبون إليه من الخمر بل كانوا يجدونها أيضا في الأديرة .

وبذلك كله ظلت الخمرية تتردد على ألسنة الشعراء ، وظلوا يصوغونها ، وكل منهم يحاول أن يأتي فيها بمقطوعة أو قصيدة بديعة ، وقد نُظمت كثير من الخمريات في مجالس الوزير المهلبى ، ولعل جليسه القاضي أبا القاسم التنوحي كان المجلّى بين ناظميها بمثل قوله في

(١) حكاية أبي القاسم البغدادى ص ٤٥ وما بعدها . ص ٢٧ .

(٢) انظر مقامة ظهير الدين الكازروني (طبع بغداد)

إحدى خمرياته^(١) .

وراح من الشمس مخلوقة بدت لك في قدح من نهار
هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
وهو تصوير يدعي أن يجعل الخمر شمسا أو قطعة منها وماء غير جار والكأس نهارا وهواء
جامدا . وكان كثيرون من أهل بغداد رجالا ونساء يحفظون الخمرية لجمال تصويرها ، يدل
على ذلك ما حكاه ابن خلكان - في ترجمة صاحبها - عن الحسن بن عسكر الصوفي
الواسطي قال : كنت ببغداد في سنة إحدى وعشرين وخمسمائة جالسا على دكة باب أبرز
للفرجة إذ جاء ثلاث نسوة فجلسن إلى جانبي ، فأشدت متملا :

هواء ولكنه جامد وماء ولكنه غير جار
وسكت ، فقالت إحداهن : هل تحفظ لهذا البيت تماما ؟ فقلت : ما أحفظ سواه ،
فقالت : إن أشدك أحداً تمامه وما قبله ماذا تعطيه ؟ فقلت ليس لي شيء أعطيه ،
فأشدتني الخمرية وزادت بعد البيت السابق :

إذا ما تأملتها وهى فيه تأملت نورا مُحيطاً بنارِ
فهذا النهاية في الابيضاض وهذا النهاية في الاحمرارِ

فحفظت البيتين منها . وإنما روينا ذلك لندل على ظرف الجوارى في بغداد وأن سوق
الخمريات كانت راحة ، ولذلك كان الشعراء يحاولون الإبداع فيها والإتيان بالمعاني المبتكرة
الطريقة كقول البيهقي في عتق الخمر^(٢) :

وعريقة الأنساب والشيم موجودة والخلق في العدم
هى آدم الكرم المولد فى الـ مدنيا وحوأ الخمر فى القدم
ظهرت ونور الشمس فى فلك من قبل خلق الصبح والظلم
واشتق معنى اسم السلاف لها من كونها فى سالف الأمم

ويون بعيد بين هذه الخمرية وخمرية التنوخى فى بعد الخيال والتصوير . ومن قديم يمزج
الشعراء فى الخمرية بين الحب ونشوة الخمر . ومن طريف ما كان يطرب الناس ببغداد لعهد
أبى حيان التوحيدى غناء سندس جارية ابن يوسف صاحب ديوان السواد ، وهى تشاجى
وتتدل وتتايل وتكسر متغنية بهذه الخمرية^(٣) .

(١) انظر ترجمة القاضى التنوخى فى ابن خلكان (٢) البيهقي ٢٦٢/١ .

(٣) ٣٦٦/٣ والجواهر المضية ومعجم الأدباء ١٦٢/١٤ (٣) الإمتاع والمؤانسة ١٧٣/٢ .

مجلسُ صَبِينِ عَمِيدَيْنِ لِيَا مِنْ الحَبِّ بِخُلُوبَيْنِ
 قد صَبْرًا رُوحِيهَا واحداً واقتسامه بين جِسْمَيْنِ
 تنازعا كأسا على لَذَّةٍ قد مزجها بين دَمْعَيْنِ
 والكأسُ لا تحسُنُ إلا إذا أدْرَتْهَا بين مُحَبِّبَيْنِ

ومن قديم أيضا يمزج الشعراء بين النشوة بالخمر والنشوة بالطبيعة ، إذ كانوا فعلا كما مر بنا يشربونها على أبسطه الربيع وبين آسه وورده وزهره ، ونقلوا الأزهار إلى مجالسها ، حتى تعبق بروائحها أو قل نقلوا الربيع بكل ما فيه نقلا يأخذ بمجامع القلوب ويمتزج بالنفوس . فكان طبيعيا أن يتحدث الشعراء في خمرياتهم عن جمال الطبيعة وجمال الورد والرياحين في الربيع ، وقرنوا إلى ذلك سقوط الثلج في الشتاء كقول الوزير المهلب في إحدى خمرياته (١) :

الوردُ بين مضمَّخٍ ومضْرَجٍ والزهرُ بين مكلَّلٍ ومتموِّجٍ (٢)
 والثلجُ يهبطُ كالنَّثارِ فقمُ بنا نلنذُ بابتةِ كرمِ لم تمزج (٣)

وكان الغناء يرافق الخمر ، كما أشرنا إلى ذلك ، فعرضت لخمرات كثيرة للغناء والخمر معا ، كما عرضت أخرى للغزل بالسقاة من الغلمان ، وكثير منه كان يقصد به إلى التندر والدعابة في أثناء السكر . وكان الغزل بالغلمان لونا من ألوان التماجن في العصر ، وهو - لاشك - وصمة معيبة في جبين أصحابه .

ودفع التماجن إلى ظهور أشعار لا يستحي أصحابها من ذكر العورات والإسراف في الفحش ، ونعجب الآن أن يتخذ ذلك ضريا من الهزل والتسرية عن الناس ، وكأنما أعيامهم أن يسروا عن أنفسهم ، فالتمس بعض الشعراء هذه التسرية التي تؤذى النفوس الكريمة . وكان شعراء هذا الهزل الماجن يمزجونه بفكاهات ونوادير ودعابات كثيرة ، وكأنهم أحسوا أنه يجب تخفيف حدته ، وأنى لهم ؟ ! فقد كان يمتلئ بسخف كثير ، وسخفه ليس ناشئا عن التورط في الخمر فحسب وإنما أيضا عن التورط في وصف الفواحش والتصريح بالآثام في غير استحياء . وكان الذي دفع إلى ذلك ابن سكرة وابن الحجَّاج في القرن الرابع ، غير أن شعراء الخمر أنفسهم من حولها ومن بعدهما كانوا يترفعون عن هذا الدرك

(١) اليتيمة ٢/ ٢٣٧ . (٢) النثر : ما ينثر في حفلات العرس والسرور من

(٢) مضمخ : ملطخ بالطيب ، مضرج : ملطخ نقود أو حلوى .

بالحمرة .

الأسفل من التصريح بالآثم على نحو ما نرى في خمريات عبد الصمد^(١) بن بابك المتوفى
بعدهما سنة ٤١٠ وله من خمرية :

عُقَارٌ عَلَيْهَا مِنْ دَمِ الصَّبِّ نَفْضَةٌ وَمِنْ عِبْرَاتِ الْمَسْتَهَامِ فَوَاقِعُ
مَعُودَةٌ غَضَبَ الْعُقُولِ كَأَنَّمَا لَهَا عِنْدَ أَلْبَابِ الرِّجَالِ وَدَائِعُ
تَحْيِرٌ دَمَعُ الْمُزْنِ فِي كَأْسِهَا كَمَا تَحْيِرٌ فِي وَرْدِ الْخُدُودِ الْمَدَامِعُ
وقد أبدع في تصوير فواقعها في كأسها بأنها عبرات شارها العاشق الوهان ، ويقول إنها
استردت منه ودعبتها ، ففارقه عقله . ويصل بين امتزاج الماء بالخمرة المحمرة في كأسها وبين
الدموع وتحدوها على خدود المحبوبة الموردة ، وله من أخرى :

يَا صَاحِبِي امزُجَا كَأْسَ الْمُدَامِ لَنَا كَمَا يُضِيءُ لَنَا مِنْ نُورِهَا النَّسَقُ
خَمْرًا إِذَا مَا نَدِييَ هَمٌّ يَشْرِبُهَا أَخْشَى عَلَيْهِ مِنَ اللَّأَلَاءِ يَحْتَرِقُ
لَوْ رَامَ يَجْلِفُ أَنَّ الشَّمْسَ مَا غَرَبَتْ فِي فِيهِ كَذِبُهُ فِي وَجْهِهِ الشَّفَقُ
وخوفه على نديمه من الاحتراق في لألاء الخمر غريب ، وأغرب منه دعواه أن الشمس
غربت في فمه بدليل ما تتضرج به خدوده من حمرتها ، وكأنها تركت عليها شفقها أو
بصاتها الحمراء . ويظل الشعراء بعد ابن بابك ينظمون في الخمر متفتنين في معانيها محاولين
بكل جهدهم أن ينفذوا فيها إلى طرائف جديدة ، على نحو ما يلقانا عند سبط ابن
التعاويذى والحاجرى والتلعفري وصنى الدين الحلبي . وانحصرت موجة المجون والفحش
بذلك عند ابن سكرة وابن الحجاج وتراجعت عند خالقيم وكادت تنحصر في شعر هزلي
مضحك على نحو ما هو معروف عند صريع^(٢) الدلاء المتوفى بمصر سنة ٤١٢ من مثل
قوله :

مَنْ مَضَعِ الْأَحْبَارَ أَدَمَتْ فَكَّهُ فَالضَّرْسُ لَمْ تُخَلِّقْ لِتَلِينِ الْحَصَى
مِنْ قَطْعِ النَّخْلِ وَظِلِّ رَاجِيًا ثَمَارَهَا فَذَاكَ مَقْطُوعُ الرَّجَا
وقد يحاول شاعر من باب الدُعابة محاكاة ابن حجاج أو ابن سكرة ، غير أنه يخفف
جدا من تماجنه وتعايشه بحيث لا يستخدم شيئا من ألفاظ الفحش ، إنما يكتب بيان عكوفه
على الخمر وأنها كل لذته في دنياه ، حتى إنه لا يستطيع أن يهجرها في ليالي رمضان

(١) انظر في ترجمة عبد الصمد البيهقي ٣٧٤/٣ وابن خلكان ١٩٦/٣ وعبر الذهبي ١٠٢/٣ والنجوم الزاهرة ٢٤٥/٤ والشذرات ١٩١/٣ . وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان مخطوط . انظر بروكلمان ٢٥/٥ .

(٢) انظر في ترجمة صريع الدلاء تمة البيهقي للثعالبي ١٤/١ وابن خلكان ٣٨٣/٣ وعبر الذهبي ١١٠/٣ والشذرات ١٩٧/٣ وله ديوان مخطوط . انظر بروكلمان مخطوط . انظر بروكلمان ٦٥/٢ .

قبل سحوره ، وفي ذلك يقول ابن السّوادي (١) من شعراء القرن السادس مهاجنا :
 الصُّبُوحُ الصُّبُوحَ فِي شِعْبَانٍ لَا تُخَلُّوا بِهِ مَعَ الْإِمْكَانِ
 وَاسْتَقْبَيْهَا يَوْمَ الثَّلَاثِينَ فِي الشُّبَّانِ وَبَعْدَ السُّحُورِ قَبْلَ الْأَذَانِ

وبعد أن تماجن طويلا في القصيدة راجع نفسه وعاد يعلن حسن إسلامه وطاعة ربه
 وأنه براء من كل ما يصف به نفسه ، قائلا :

يُنِّي غَيْرَ مَا سَمِعْتَ وَمَا كَانَتْ لِسَانِي عَنْ يَتِي تَرْجَانِي

ومضى يذكر أن عُدته في معاده شفاعة الرسول عليه السلام وعلى وفاطمة الزهراء
 والحسين ، وبذلك محا كل ما جاء به في قصيدته من تماجن ، مصرحا بعقيدته الشيعية
 وما يعتقده الشيعة في شفاعة علي والسيدة فاطمة والحسن والحسين . وما دمتا بصدد التماجن
 فحرى بنا أن نتوقف قليلا عند علميه في العصر : ابن سكرة وابن الحجاج .

ابن سُكْرَةَ (٢)

هو أبو الحسن محمد بن عبد الله المعروف بابن سكرة البغدادي الهاشمي ، وهو من
 سلالة علي بن المهدي بن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي المشهور ، ويبدو أنه كان في
 يسار وسعة من المال وأنه عاش للمجون والخلاعة . ولسنا نعرف شيئا عن نشأته وتربيته
 وحياته إلا ما يصفه به الثعالبي في اليتيمة من قوله : « هو شاعر متسع الباع ، في أنواع
 الإبداع ، فائق في قول الملح والطُرف ، أحد الفحول الأفراد ، جارٍ في ميدان المجون
 والسخف ما أراد . . . ويقال إن ديوانه يربو على خمسين ألف بيت ، منها في قينة سوداء
 يقال لها خمرة أكثر من عشرة آلاف بيت ، وكانت عرضة نوادره ومُلحه . وحكى بعض
 معاصريه أنه حلف بطلاق امرأته - وهي ابنة عمه - أنه لا يخلى بياض يوم من سواد شعره
 في هجاء خمرة ، ولما علمت امرأته بالقصة كانت كل يوم إذا انفصل زوجها من صلاة
 الصبح تجيئه بالدواة والقرطاس وتلزم مصلاه لزوم الغريم غير الكريم ، فلا تفارقه - ما لم
 يقرض ولو بيتا في ذكرها وهجائها . وتدل الأشعار التي أنشدها له الثعالبي على شاعرية
 خصبة في الغزل وغير الغزل من مثل قوله :

(١) راجع في ترجمة ابن السوادي وشعره الخريدة وتاريخ بغداد ٤٦٥/٥ والمتنظم ١٨٦/٧ وعبر الذهبي
 (قسم العراق) ٣٦٩/١/٤ وابن خلكان ٤٨١/٣ .
 (٢) انظر في ترجمة ابن سكرة وأشعاره اليتيمة ٣/٣ الجنان لليافعي ٤٢٧/٢ والواقف ٢٠٨/٣ .

حَذَارٍ مِنْ وَضَلٍ مَنْ بَلَيْتُ بِهِ فَقَدْ لَقِيتُ الرَّدَى بِجَفْوَتِهِ
دَنُوتٌ مِنْهُ كَمَا أَقْبَلُهُ فَلَمْ تَدَعْنِي نِيرَانُ وَجْتِهِ

فقد جعل النيران المشتعلة في وجنات محبوبته وخطودها تدفعه دفعا وترده ردا عنيفا ،
ومن هذا النمط قوله متزلا :

مَنْعَتِي مِنْ مُقْبَلِهِ حِينَ أَدْنُو مِنْهُ عَقْرَبُهُ
وَاسْتَدَارَتْ فَهِيَ تَحْرُسُهُ مِنْ فِي بُخْلًا وَتَرْقُبُهُ

وكانت النساء تلوي على أصداعها خصلة من شعرها في شكل عقرب تزينا ونحملا ،
فاستغل ذلك حتى النهاية ، إذ الخصلة مثل العقرب تستدير وترتفع في طرفها ، وكأنها تراقب
صاحبها وتستعد للدغ من يقرب من حدودها . ولن نستطيع أن نروى شيئا من فحشه في
الغزل ، ونكتفي بذكر بعض أبيات تصور مجونه دون أن تؤذى الذوق ، من ذلك قوله :

وَيَوْمٍ لَا يِقَاسُ إِلَيْهِ يَوْمٌ يَلُوحُ ضِيَاؤُهُ مِنْ غَيْرِ نَارِ
أَقْنَا فِيهِ لِلذَّاتِ سُوقًا نَبِيحَ الْعَقْلِ فِيهَا بِالْعُقَارِ

فهو يعيش للإكباب على اللذات والانهاك في المجون والعب من الخمر وإنه ليقم
للمجون سوقا يبيع فيه عقله ببيع وكس يدن زهيد من الخمر يفقده رشده ، ومن قوله :
اشرب فليوم فضل لو علمت به بادرت باللهو واستعجلت بالطرب
ورد الحدود وورد الروض قد جمعا والغيم مبتسم والشمس في الحجب
لأتحبس الكأس وأشرتها مشعشة حتى تموت بها موتا بلا سبب

وقد جعل كل شيء في الزمان والمكان يحث على اللهو والطرب ، فقد اجتمعت الخمر
وورد الحدود كما يقول وورود الرياض في يوم من أيام الشتاء الغائمة الباسمة . ويذكر أن
ذلك كله يدعو لاحتساء الخمر حتى الموت موتا بلا سبب ، دعابة مقصودة ، ومن قوله :
قد بدا الصبح مؤذنا بسفور وفرى الفجر حلة الديجور^(١)
فأسقني قهوة ترجم بالرق عن دمع عاشق سهجور

فالخمر رقيقة رقة دمع العاشق لكثرة حباته المتساقطة من مآقيه . ولو عرف قيمة الملثة
الشعرية التي رزقها لحفظها حقها ولم يسقط في شعر الفحش والمآثم ، ولا لطح أشعاره
بهذا الدنس . وله هجاء كله سخرية ووخز كوخز الإبر . وكان واسع الخيال إلى درجة
الوهم على نحو ما نرى في قوله :

(١) فرى : شق . الديجور : الظلمة .

قيل : ما أعددتَ للبرِّ دٍ فقد جاء بشدَّة
قلت : دُرَاعَةٌ عُرِيَتْهَا جُبَّةٌ رِعْدَةٌ

والدراعة : ثوب من صوف ، وبلغ من وهم خياله أن جعل للعرى دراعة وللرعدة من برد الشتاء جُبَّةً . وما أظنه كان يصور شبتا من حقيقة حياته ، فقد كان على غير قليل من اليسار . وكأنه في البيتين استعار من معاصريه هذا اللون من التفافر وإظهار الخِصاصة ، وكان لها شعراء معروفون هم شعراء الكُذبية ، فجارهما في بيته نظرفا ودعابة . وقد توفي سنة ٣٨٥ للهجرة .

ابن الحجاج^(١)

هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد ، نسب إلى جدِّ له يسمى الحجاج ، ويبدو أن أباه كان من العمال ، وعُني بترية ابنه ، فاختلف إلى مجالس الفقهاء والعلماء فضلا عن مجالس الأدب ، والتحق بالداوين كاتباً ثم أصبح ضامنا لقرائض الصدقات بسقي الفرات مدة ، ثم تولى حِسبة بغداد فترة إلى أن عَزَل بأبي سعيد الإصطخرى المقبه الشافعي . وكان أكبر شعراء زمانه في التهاجن والتعابث ، وهو يخطو فيها خطوات بعيدة بالقياس إلى ابن سكرة ، حتى زعم الرواة والنقاد أنه « فرد زمانه في فنّه الذي شُهر به وأنه لم يُسبق إلى طريقته ، ولم يُلحق شأوه في نمطه » وفيه يقول أبو حيان : « سخيّف الطريقة بعيد من الجدِّ ، قريعٌ (فحل) في الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له في قرّضه مثال ، على أنه قوم اللفظ سهل الكلام ، وشمائله نائية بالوقار ، عن عاداته الجارية في الخسار ، وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة ، وإذا جدَّ أقمي^(٢) ، وإذا هزل حكى الأقمي » ويقول صاحب اليتيمة : « هو وإن كان في أكثر شعره لا يستتر من العقل بسجف^(٣) ، ولا يبنى جُلَّ قوله إلا على سُخف ، فإنه من سحرة الشعر ، وعجائب العصر . وأشعاره مشوبة بلغات الخُلديين (أصحاب الحرف) والمكذّبين (أدبائية العامة) والشطار . وكلامه يمدُّ يد المجون فيعرك بها أذن الحرّم ، ويفتح جراب السخف فيصفع قفا العقل ، ولكنه على علته تفككه الفضلاء بئثار شعره ، وتستملح الكبراء بنات طبعه . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء . . وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام ، موفور

(١) انظر في ترجمة ابن الحجاج وأشعاره اليتيمة ٣٠/٣ والشذرات ١٣٦/٣ .

وتاريخ بغداد ١٤/٨ ومعجم الأدياء ٢٠٦/٩ والإمتاع (٢) أقمي هنا : تعد ولم يتم جده .

والمؤانسة لأبي حيان ١٣٧/١ وابن خلكان ١٦٨/٢ (٣) سجف : ستر .

الحظ من الإكرام والإنعام ، مجاب إلى مقترحه من الصّلات الجسام . . وكان طول عمره يتحكم على وزراء الوقت ورؤساء العصر . تحكّم الصبي على أهله ، ويعيش في أكتافهم عيشة راضية ، ويستثمر نعمة صافية ضافية . وإلى ذلك يشير في شعره مرارا ، وأنه بناء على التهاجن والفحش للضحك والدعابة طلبا للكسب به ، يقول :

لوجدتُ شعري رأيتَ فيه كواكبَ الليلِ كيف تَسرى
وإنما هَزَلُهُ مجونٌ يمشى به في المعاشِ أمرى

وقد عاش عيشة رفقة ويسار حتى توفي سنة ٣٩١ . وكان يكثر من نظم هذا الشعر الماجن حتى قالوا إن ديوانه يبلغ عشرة مجلدات ، وكان يباع في حياته بخمسين دينارا إلى سبعين ، ولكثرة ما ملأه به من ذكر العورات والمقادير قال فيه ابن سكرة الماجن حين سئل عن قيمته إن « قيمته بربخ » أي بالوعدة تحمل القاذورات وما يضاف إليها . وإذا كان هذا حكم ابن سكرة فما بالناس يحكم الناس وراءه في عصره وبعد عصره . وقد دعا بعض أصحاب الحسبة في كتبهم إلى منع الغلمان والصبيان من حفظ أشعاره وأخذهم بالضرب إن هم حاولوا ذلك . وينبغي أن نشير إلى ما ذكره أبو حيان من أنه كان فيه وقار يخالف هذا الإغراق في التهاجن ، وكأنه كان تماجنا مقصودا به إلى الإضحاك : إضحاك الرؤساء والكبراء ، غير أنه تجاوز فيه حده . وكان حسبه ما لديه من القدرة على الفكاهة ليضحك الناس دون الردى في بالوعات الفحش وقاذوراته ، ويصور تماجنه من بعض الوجوه قوله في مديحه لبختيار الحاكم البويهى لبغداد في عصره :

فَدَيْتُ وَجَهَ الْأَمِيرِ مِنْ قَمَرٍ يَجْلُو الْقَدَى نَوْرَهُ عَنِ الْبَصْرِ
فَدَيْتُ مَنْ وَجْهَهُ يُشَكُّنِي فِي أَنَّهُ مِنْ سُلَالَةِ الْبَشْرِ
إِنْ زُلَيْخَا لَوْ أَبْصَرْتُكَ لَمَا مَلَّتْ إِلَى الْحَشْرِ لَذَّةَ النَّظْرِ

ويستمر في مثل هذا التماجن . وهو لا يطبق الصبر حتى مع بختيار في تماجنه ، إذ يمضي فيلطح المدحة في أواخرها بشيء من قاذوراته . وكان شيعا إماميا ، وكان يشوب تشيعه أحيانا بشيء من الغلو ، وكان قريبا من نفس الشريف الرضى ، فاختر من شعره قطعة تخلو من قدره وسخفه . ورثاه حين توفي رثاء حارا ، ومن خمرياته التي تخلو من فحشه وبداعته قوله :

يا صاحبي استيقظا من رقدة تزرى على عقل اللبيب الأكييس

هذى المجرة والنجوم كأنها نهر تدفق في حديقة نرجس
 قوما اسقياني قهوة رومية من عهد قيصر ذنّها لم يُنَسَسِ
 صرفاً تُضيف إذا تسلط حكمها موت العقول إلى حياة الأنفس

والصورة في البيت الثاني جيدة إذ جعل نهر المجرة يتدفق في حديقة نرجس ، وجعل
 الخمر في البيت الأخير تيمت العقول في رأيه ، ولكنها تحيي النفوس . وله خمرية قالها في
 عيد المهرجان ، وهي تخلو من مقادير غير أن فيها تبجحا شديداً باعترافه بعصيانه لربه لشربه
 الخمر مع ما جاء من تحريمها في الذكر الحكيم .

وكل ذلك كان يريد به التماجن والتعابث والإضحاك ، وقد عاد في هذه القصيدة أو
 الخمرية يعلن أن رأس ماله كله خسران إلا ما كان من حبه لآل البيت وللرسول عليه
 السلام والإمام علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين . وتكثر في أشعاره الكلدية أو
 الشحاذا الأدبية . فهو يكثر من بيان فقره وحاجته ، وأنه لا يجد المرق فضلا عن اللحم ،
 وأنه دائماً يأكل الخبز بالملح دون إدام فيجرح حلقه من خشوته ، ودائماً لا يجد صوفاً يقيه
 برد الشتاء ولا خيشاً يقيه حر الصيف . وكل ذلك دعاية وفكاهة ، فقد كانت الدنانير
 والدراهم تنسكب عليه من كل جانب .

٣

شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

منذ ظهور الإسلام يُعدّ الزهد والتقشف من صميم حياة المسلم ، زهد في طيبات الحياة
 ومتاعها وإقبال على ما عند الله من ثواب الآخرة ، وهو إقبال يوازن فيه المسلم بين نسكه
 وتعبده لربه وبين السعي لرزقه ، فهو يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ويعمل لآخريته كأنه
 يموت غداً . وهو يضع ثقته في الله ويتوكل عليه حق التوكل . ولا يرى في سعيه لكسب
 قوته ما يقلل من هذا التوكل أو تلك الثقة . وتلقانا في العراق مع العصر الأموي طوائف
 من السالك والعباد الزهاد ، فالزهد والنسك قديمان في هذه البيئة ، وأخذت تسع موجة
 الزهد مع العصرين العباسي الأول والثاني . وظلت حادة في هذا العصر . ولا شك في أنها
 كانت أحدًا وأكثر اتساعاً وجمهوراً بل جماهير من موجة اللهو والمجون . فقد كانت هذه

تكاد تكون خاصة بالطبقة المترفة في الأمة ومن حَفَّ بها من المغنين والمغنيات والشعراء وأهل العبث . وكان الشعب لا يشترك في اللهو إلا في مواسم خاصة كأعياد المجوس والنصارى . أما موجة التقشف والنسك فكانت عامة يشترك فيها كثير من الطبقة العامة وجمهور أوجهاير الأمة ، إذ كانت تغدو صباح مساء إلى المساجد تتلو القرآن وتسبح الله وتذكره ليلا ونهارا . وكان يغذى هذه الروح في المساجد وعاظ يزدحم الناس على مجالسهم .

ومن كبار الوعاظ ابن سمعون ^(١) المتوفى سنة ٣٨٧ ويقول ابن خلكان : كان وحيد دهره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة « ومن قوله : « سبحان من أنطق باللحم ، وبصّر بالشحم ، وأسمع بالعظم » إشارة إلى اللسان والعين والأذن . وإياه عنى الحريري في المقامة الرازية الحادية والعشرين بقوله في أوائلها : « رأيت بالرئى ذات بُكرة ، زمرة في إثر زمرة ، وهم منتشرون انتشار الجراد ، ومستنون ^(٢) استنان الجياد ، ومتواصفون واعظا يقصدونه ، ويحلون ابن سمعون دونه » ولم يكن له نظير في زمنه . وكانت تعاصره ميمونة ^(٣) بنت ساقولة الواعظة البغدادية المتوفاة سنة ٣٩٣ وكان لها لسان حلو في الوعظ . وكان قبلها وبعدها كثيرات زاهدات ، وكان بعضهن يعظن وبعضهن يُحمَل عنهن الحديث وقد ترجم ابن الجوزي في كتابه « صفة الصفوة » لطائفة كبيرة منهن . وفي سنة ٤٩٦ توفى ببغداد واعظ كبير هو أردشير بن منصور « وبوعظه حَلَّقَ أكثر الصبيان رموسهم ولزموا المساجد وبددوا الخمر وكسروا الملاهي » ^(٤) ومن كبار الوعاظ الزهاد أبو الوفاء بن عقيل الحنظلي المازي ذكره ويقول ابن رجب : « من معاني كلامه يستمد أبو الفرج بن الجوزي » . وفي كل بلدان العراق نلتقى بأخبار هؤلاء الوعاظ مثل محمد بن عبد الملك الفارقي ^(٥) المتوفى سنة ٥٦٤ وقد ترجم له العماد ترجمة ضافية ، ذكر فيها مواعظه ومناجياته لربه ، وكان يضمنها أشعارا في الزهد والوجد مثل قوله :

(١) انظر في ترجمة ابن سمعون ابن خلكان ٣٠٤/٤
 وتاريخ بغداد ٢٧٤/١ وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى
 ١٥٥/٢ وصفة الصفوة ٢٦٦/٢ والواق ٥١/٢ .
 (٢) مستنون من استن : جرى .
 (٣) النجوم الزاهرة ٢٠٩/٤ .
 (٤) النجوم الزاهرة ١٨٦/٥
 (٥) انظر ترجمة محمد بن عبد الملك في الحريفة
 (قسم الشام) ٤٣١/٢ ومابعدها والمتنظم ٢٢٩/١٠
 والواق ٤٤/٤ .

مَنْ كَانَ فِي ظِلْمَاءٍ لَيْلٍ سَارِيًّا رَصَدَ النُّجُومَ وَأَوْقَدَ الْمِصْبَاحَا
 حَتَّى إِذَا مَا الْبَدْرُ أَشْرَقَ نُورُهُ تَرَكَ السَّرَاجَ وَرَاقَبَ الْإِصْبَاحَا
 حَتَّى إِذَا انْجَابَ الظَّلَامُ جَمِيعَهُ وَرَأَى الضِّيَاءَ بِأَفْقِهِ قَدْ لَاحَا
 هَجَرَ الْمَسَاجِحَ وَالْكَوَاكِبَ كُلَّهَا وَالْبَدْرَ وَارْتَقَبَ السَّنَا الْوَضَاحَا

وهي قطعة صوفية رمزية إذ يشير إلى أن من أظلمت عليه الدنيا في مطلبه الأسمى من الاتصال بربه ، يلجأ إلى نجوم فهمه ومصباح قريحته وسراجها ، حتى إذا بَدُرُ الدراية والمعرفة أشرقَ على نفسه هجر ذلك السراج وتلك النجوم وانتظر الإصباح والسَّنا الوضاح فرأى عين اليقين ونهل من معين الحب الإلهي ورحيقه المصني . وربما كان أكبر واعظ عرفته العراق في هذا العصر ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وقد وصف مجلس وعظه ابن جبير سنة ٥٨٠ هـ وصفا مسهباً قائلاً « شاهدنا صبيحة يوم السبت الثالث عشر من شهر صفر مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحيد جمال الدين أبي الفضائل عبد الرحمن بن علي الجوزي بإزاء داره على الشطِّ بالجانب الشرقي في آخره على اتصال من قصور الخليفة . . وهو مجلس به كل يوم سبت ، فشهدنا مجلس رجل . . آية الزمان وقرة عين الإيمان رئيس الحنبلية والمخصوص في العلوم بالرتب العليا إمام الجماعة ، وفارس حلبة هذه الصناعة (يريد الوعظ) والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة . مالك أزمة الكلام في النظم والنثر ، والغائص في بحر فكره على نقائص الدر ، فأما نظمه فرضى الطباع مهيارى الانطباع ، وأما نثره فيصعد بسحر البيان ، ويعطل المثل بقسِّ وسجبان ، ومن أهر آياته وأكبر معجزاته أنه يصعد المنبر ويتدبَّرُ القراء بالقراءة وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القرآن يتلونها على نسق بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات . . فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلاً مبتدراً ، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررا ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته قِترًا . . ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها . . وحَدَّثُ ولا حرج عن البحر ، وهيئات ليس الخبر عنه كالحبِّير . ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برفائق من الوعظ وآيات بينات من الذكر طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفوس احتراقا ، إلى أن علا الضجيج وتردد النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقتوا عليه تساقط الفراش على المصباح ، كل يلقى ناصيته بيده فيجزئها ويمسح على رأسه داعيا له ، ومنهم من يُقشَى عليه ، فُيرْقَعُ في الأذرع إليه ، فشهدنا هولاً بجلأ النفوس إنابة وندامة ، ويزكُّرها هول يوم القيامة ،

فلو لم نركب ثَبِجَ (وسط) البحر ، ونعتسف مفازات القمر، إلا لمشاهدة مجلس من مجالس هذا الرجل لكانت الصفقة الرابعة، والوجهة المفلحة الناجحة . فالحمد لله على أن مَنْ بقاء مَنْ تشهد الجمادات بفضله ، ويضيق الوجود عن مثله (١) .

وطبيعي أن يَنْهَى هذا الوعظ الذي كانت تتدفق جداوله في المساجد الناس عن ارتكاب المعاصي وأن يدفع كثيرين دفعا إلى الزهد في متاع الحياة وخيراتها فضلا عن قمع النفس عن الشهوات وارتكاب المآثم . وكما كان للوعاظ فضل كبير في سريان هذه الروح كذلك كان لفقهاء الحنابلة نفس الفضل ، فقد كانوا يؤلفون جمهورا كبيرا ببغداد ، وكثيرا ما كانوا يثورون طالبين إلى الدولة قلع المواخير وتتبع المفسدين ومن يبيع النيذ . وكثيرا ما نهضوا بأنفسهم فكبسوا الدور وأراقوا الأنبذة (٢) وكانت الدولة لا ترى بدا من التزول على إرادتهم . وسيرهم كما يمثلها كتاب طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى وذيله لابن رجب تفوح دائما بشذى الزهد والتشفي والإعراض عن الدنيا وملذاتها ، ويستحيل ذلك عند كثيرين منهم إلى أشعار زاهدة وأخرى تفيض بوجد ملتاع . وكان هذا الوجد يصل بين الزهاد والمتصوفة على نحو ما مر بنا آنفا في مقطوعة واعظ ميا فارقين وزاهدا محمد بن عبد الملك . وتمتلى كتب طبقات المتصوفة بأشعارهم الصوفية الخالصة التي يصورون فيها عشقهم الإلهي ومكابدتهم معطلين لحواسهم وعقولهم بينما يتجلى الله في كل الموجودات ، وهم ساجدون في بحار الوجد وبين أواجه ، غارقون في آلام حبيهم وأشجانه ودموعه ، على نحو ما يصور ذلك الشيخ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية المشهورة في قوله : (٣)

إذا جنَّ ليلي هامَ قلبي بذكركم أنوحُ كما ناحَ الحمامُ المطوقُ
وفوقى سحابٌ بمطرهم والأسي وتحتي بحارُ بالآسي تندققُ

وسبق أن عرضنا لشهاب الدين الشهروردي البغدادي في الفصل الأول . وهو إمام صوفية بغداد ومقدمهم في القرن السابع الهجري ، وولّى عدة رُبط للصوفية ، وكان فقيها عالما واعظا ، عقد مجلس الوعظ سنين ، ويروى أنه أنشد يوما في تضاعيف وعظه (٤) :

لا تسقني وحدي فما عودتني أني أشحُّ بها على جلاسي
أنت الكريمُ ولا يليقُ تكرُّمًا أن يعبرَ التُدْماءَ دُورُ الكاسي

(٢) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٤/١ .

(٣) ابن خلكان ١٧٢/١ .

(٤) ابن خلكان ٤٤٦/٣ .

(١) انظر رحلة ابن جبير وزيارته فيها لبغداد (طبع

ليدن) ص ٢٢٠ ومصادر ترجمة ابن الجوزي مذكرة

في صفحة ٣١٨ .

فتواجد الناس بذلك ، وقُطعت شعور كثيرة وتاب جمع كبير ، وواضح أنه عبر بالخمر عن النشوة بالعشق الإلهي . ومن غزله الصوفي :

تَصَرَّمَتْ وَحَشَّةُ اللَّيَالِي وَأَقْبِلَتْ دَوْلَةُ الْوَصَالِ
تَقَاصَرَتْ عَنْكُمْ قُلُوبٌ فَيَالَهُ مُورِدًا حَلًّا لِي

وهو يعبر عن فرحته الهنيئة بصلته أو اتصاله بربه ، وكأنه تحقق له عالم الشهود أو عالم الفناء ، فانجذب عنه الحجاب ، وأضاعت مِسْكَاة قلبه بنور ربه . وانبثقت من الشعر الصوفي منذ ابن دريد في أوائل القرن الرابع الهجري مدائح نبوية عطرة بالسيرة الذكية . وما نصل إلى القرنين السادس والسابع حتى يتكاثر هذا المديح ويزدهر ، ونظن ظنا أنه كان للحروب الصليبية أثر في ذلك ، فقد رأى المسلمون تعظيم الصليبيين لعيسى عليه السلام واهتمامهم بمولده وحرهم للدين الخفيف وصاحبه . وعرف الشعراء أنها حرب دينية يشنها الغرب على الرسالة النبوية ورسولها الكريم ، فاستحثوا الناس للدفاع عن دينهم ، بل لقد مضوا يستصرخونهم للذود عن وطنهم الإسلامي محاولين - بكل ما وسعهم - أن يحيلوهم شعلا آدمية تشوى وجوه الصليبيين وتأتى عليهم كأن لم يكونوا شيئا مذكورا . وفي الوقت نفسه مضوا يمدحون النبي الكريم بعرض سيرته وشذاها العطر ورفعوها شعارات بل لواءات ، ليتجمع من حولها أبطال الإسلام والعرب ويقضوا على الصليبيين قضاء مبرما . ولم يكف بعض الشعراء بمدحيتين أو مدائح معدودة للرسول ، بل نظم في ذلك ديوانا مثل محمد بن أبي بكر بن رشيد الواعظ البغدادى فقد نظم في مديح الرسول عليه السلام ديوانا سماه القصائد الوترية في مدح خير البرية وهي تسع وعشرون قصيدة متقفاة على حروف المعجم ، ونختار ثلاثة من الشعراء يمثلون الزهاد والمتصوفة ومداح الرسول عليه السلام ، وهم على الترتيب ابن السراج البغدادى والمرضى الشهرزورى والصَّرَصْرَى .

ابن السراج البغدادى^(١)

هو جعفر بن أحمد بن الحسين السراج البغدادى المقرئ المحدث الأديب ، ولد ببغداد سنة ٤١٧ أو في أول سنة ٤١٨ وقرأ القرآن وتلقن قراءته وأقرأه سنين ، وعنى بالحديث النبوى ورحل في طلبه إلى مكة والشام ومصر ، وخرَّج له الخطيب البغدادى خمسة أجزاء تسمى

(١) انظر في ترجمة ابن السراج وشعره كتاب الذيل على ومعجم الأدباء ١٥٣/٧ وابن خلكان ١/٣٥٧ .

طبقات الحنابلة لابن رجب ١/١٢٣ والمتنظم ٩/١١١

السراجيات ، وله مصنفات مختلفة وكان شاعراً مطبوعاً ، واستغلَّ موهبته الشعرية في نظم كتب الفقه مثل كتاب المبتدى وكتاب مناسك الحج وكتاب الخرق وكتاب التنبية . وأهم كتبه وأشهرها كتاب مصارع العشاق ، وهو في أخبار العباد والنسك ، وبه أشعار كثيرة تفيض بوجد مبرح . وكان حنبلية حُمل عنه الحديث كما حملت القراءات ويقول ابن الجوزي « حدثنا عنه أشياخنا ، وآخر من حدثنا عنه شهدة بنت الإبري ، قال : وقرأت عليها كتابه المسمى بمصارع العشاق بسماها منه » ويقول ابن خلكان عن شهدة : « بغدادية المولد والوفاة كانت من العلماء ، وسمع عليها خلق كثير ، واشتهر ذكرها وبعد صيتها^(١) . » وقد جعل السراج كتابه « مصارع العشاق أجزاء . وكتب على كل جزء أبياتا ، من ذلك قوله على الجزء الأول :

هذا كتابُ مصارعِ العشاقِ صرَّعَتْهُمُ أَيْدِي بُوَيْ وَفِرَاقِ
تصنيفُ مَنْ لَدَغَ الفِرَاقُ فَوَادَهُ وَتَطَلَّبَ الرَاقِي فَعَزَّ الرَاقِي

وكان تقياً ورعاً يغلب عليه الزهد مع حسن الطريقة ومع الظرف ولطف الأخلاق . وأكثر أشعاره في نظم كتب الفقه كما مرَّ بنا وفي الزهد ، والتخلص من درك الهوى إلى ذرى الهدى ، والرفع عن اللذات البدنية ، والشهوات الدنيئة ، ومن قوله :

أَفْلَحَ عَبْدٌ عَصِي هَوَاهُ وَفَاقَ فِي دِينِهِ وَكَاسَا^(٢)
وَلَمْ يَرُحْ مُدْمِنًا لِحَمْرِ يَتَهَلُّ طَاسًا يَعْلُ كَاسَا^(٣)

فهو يدعو الإنسان إلى عصيان هواه وأن يكون كئيباً فلا يقع في الخطايا والزلات ويحفظ نفسه من الخمر أو المنكرات ، وبذلك يرتقي في درجات الهدى بقمعه لشيطانه وأمانه من غائلته . وله شعر وجداني من مثل قوله بصور حنين ناqqته لمنازلها في نجد والحجاز :

قَضَتْ وَطَرًا مِنْ أَرْضِ نَجْدٍ وَأَمَّتْ عَقِيقَ الحِمَى مُرَخِي لَهَا فِي الأَرْمَةِ^(٤)
وَخَبَّرَهَا الرَوَادُ أَنَّ لِحَاجِرِ حَيًّا نَوَّرَتْ مِنْهُ الرِيَاضُ فَحَنَّتِ^(٥)
وَلَاحَ لَهَا بَرَقٌ مِنَ الغُورِ مَوْهِنًا كَشَعْلَةَ نَارٍ لِلطَوَارِقِ شَبَّتِ^(٦)

(٤) أمت : قصدت .

(١) ابن خلكان ٤٧٧/٢ .

(٥) حاجر : من منازل الحجاز . حيا : غيثاً .

(٢) كاس : أصبح كئيباً حكيماً حصيفاً .

(٦) الغور : غورتهامة وهو ما انحدر منها غرباً . موهناً :

(٣) النهل : الشرب الأول . انطاس : إناه

بعد نصف الليل . الطوارق : الضيوف .

الحمر ومثله الكاس . العلل : الشرب الثاني .

وغنى لها الحادى فأذكرها الحمى وأيامها فيه وساعاتٍ وجرة^(١)
وقد شركتني في الحنين ركائبي .وزدن علينا رنةً بعد رنةً^(٢)
ألا ليت شعري هل تعود رواجعاً ليالى الصبا من بعد ما قد تولت

والحنين يجرى في الأبيات كما يجرى الماء والخضرة في الأغصان. النضرة ، وقد جعل ناقته أو دابته نفسها نحن حيننا لا ينقطع إلى منازلها ، وهو حنين يضاعفه في نفسها ما يلوح لها من برق ليلا صادرا من جانب العُور . وكأنه شعلة نار تستدعيها وتناديها من بعيد . كما يضاعف هذا الحنين شدو الحادى وغناؤه ، فتذكر أيامها في وجرة وغير وجرة . ويصرح بأن ناقته وركائبه تشركه في الحنين : بل تزيد عليه رنة بعد رنة ، فأسى لها ولنفسه ، ويتمنى لو عادت ليالى الصبا وكيف تعود وقد تولت إلى غير مآب ، ولم يبق إلا الوجد والحنين الذى يتقد في فؤاده بمثل قوله :

حبداً نجدُ بلاداً لم نجدُ راحةً للقلب في أرضٍ سواها
فإذا ملاح منها بارقٌ هاج أشواقى أو هبت صباها
لست أنسى إذ سلى جارةً تبذل الودَّ وتُصفينا هواها
أرسلت طيفَ كرىٍ لكته زارنا والعين قد زال كراها^(٣)

فنجد راحة نفسه ومسرة قلبه ، وإنه ليذكر أيامها وما كان يغمره فيها من متاع وسعادة ، حتى إذا لاح برق أو هب نسيم صباً هاجت به أشواقه ، وأعدت إليه ذكرى حبه لسليبي حين كانت تبادل الهوى والود . وقد ضاع كل هذا الحلم منه وضاع منه النوم ، فلم يعد يستطيع أن يراها أو يرى طيفها ، وهو يتجشم أهوال وجدده ويحتمل آلامه ، باكياً ذارفاً دموعه كما يقول :

بان الخليلُ فأذمى وجداً عليهم تستهل^(٤)
وحداً بهم حادى الفيرا ق عن المنازل فاستقلوا^(٥)
قل للذين ترحلوا عن ناظرى والقلب حلوا
ما ضرهم لو أنهلوا من ماء وصلهم وعلوا

فأجاباه رحلوا وحبأت دموعه لا تزال تساقط على خدوده ، وهل يملك سوى البكاء

(٤) تستهل : تنصب .

(٥) استقلوا : ارتحلوا .

(١) وجرة : موضع بنجد .

(٢) الركائب : الإبل .

(٣) الكرى : النوم .

والدموع الغزيرة ، لقد كان في حلمٍ غمره وملاً عليه فؤاده ، وأفارق منه على فراق أحبائه ، وإنه ليعلم إن كانوا قد رحلوا وبعثوا عن مرأى عينه فسيظل وفيا للعهد ، وسيظلون يحلّون في سويداء قلبه . ويفضّى إلى اليأس قائلاً : ما ضرهم لو أذاقوه وصلهم وجعلوه ينعم به مرارا . ومع ذلك فسيظل يذكّرهم بل سيظل حبه في قلبه قويا حارا . وله وراء ذلك أشعار مختلفة في مديح إمامه أحمد بن حنبل وأصحابه . توفي ببغداد سنة ٥٠٠ للهجرة .

المرضى الشهرّ زورى^(١)

هو أبو محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر الشهرزوري المنقب بالمرضى ، وُلد بالموصل سنة ٤٦٥ وتوفى بها سنة ٥١١ في أرجح الأقوال . أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه ، ورجع إلى الموصل وتولى بها القضاء بجانب ما كان ينهض به من الوعظ والتذكير . وكان صالحا تقيا ناسكا متعبدا ، ولم يلبس خرقه الصوفية ولا لزم رباطا من رُبطهم ، ومع ذلك كان صوفيا كبيرا . صوفيا سنيا ، يدل على ذلك أكبر الدلالة ما تبقى من أشعاره واحتفظت به الخريدة للعماد ووفيات الأعيان لابن خلكان ، وروى له الأخير قصيدة صوفية رائعة ، يقول في تضاعفها :

لمعت نارهم وقد عسعس اللدّ لُ وملّ الحادى وحارّ الدليل^(٢)
فتأملتها وقلت لصحى هذه النار نار ليل فيملوا
وهي تعلق ونحن ندنو إلى أن حجرت دونها طول محول^(٣)
فدوننا من الطلول فحالت زفرت من دونها وغليل
قلت : من بالديار؟ قالوا جريح وأسير مكبل وقيل^(٤)
فحططنا إلى منازل قوم صرعتهم قبل المذاق الشمول^(٥)
قلت : أهل الهوى سلام عليكم لى فؤاد عنكم بكم مشغول
جئت كى أضطلى فهل لى إلى نا ركم هذه الغداة سبيل

إنه لا يزال ساريا طوال الليالى يبحث عن نار الذات الإلهية ، أو قل إنه يتخذ النار رمزا للمنازل على عادة الشعراء الغزلين ، ويراها من بعيد في الظلام الدامس وقد كلّ الحادى

(١) انظر في ترجمة المرضى وأشعاره الخريدة (قسم (٣) محول : مجدية .

الشام) ٣٠٨/٢ وابن خلكان ٤٩/٣ والشذرات ١٢٤/٤ (٤) مكبل : مقيد .

ومرأة الزمان ١٢١/٨ والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ . الشمول : الحمر .

(٢) عسعس : أظلم .

لطول السرى وحرار الدليل المرشد ، وإذا النار أو قَبَسٌ منها يظهر فجأة ، فينادى صحبه : رأيت نار ليلي فيلوا ، وكلما جد في السرى إليها ودنا منها علت وارتفعت إلى أن امتدت بينه وبينها طول محول ، ويحاول الدنو من الطلول وتحول بينه وبينها دموعه وزفراته الحارة . ولا يجد في الديار سوى العشاق ، وهم كثيرون بين جريح ومغلول في القيود وقتيل . وينزل بين قوم شغفهم الحب الرباني ، بل لقد صرعهم قبل أن يتشوا به ويذوقوا خمره . ويسلم ، ويقول إنه جاء يصطلي بالنار : نار الحب المشتعل ، ويقولون له إن أحدا لا يبلغها ولا يصل إليها ، فدونها أهوال وأمواج تجرفهم إلى طولها . إنها نار تضيء للسارى بالليل ولا تنال ، ومنتهى الحظ أن يتروذ للحظ منها ، وهم حيارى وقوف قد أصبحوا أشباحا ناحلة وأنفاسا متلاشية ، وكلما ذاقوا كأس يأس مريرة لمعت لهم كأس رجاء حلوة ، فيقولون : صبر جميل .

والقصيدة من أروع ما خلف الصوفية على مر الحقب ، وقد أنشدها بكاملها ابن خلكان ، وقال إنما أثبتتها كاملة ، لأنها قليلة الوجود وهي مطلوبة ، ويقول العماد في الخريدة : « وجدت من كلام القاضي المرتضى أبي محمد الشهرزوري رسالة سلك بها مسلك الحقيقة ، وسبق أهل الطريقة ، مشحونة بأبيات في رقة السلسال والشمول » وكأنه لم ينظم في التصوف فحسب ، بل كتب أيضا ، غير أن العماد لم يُعَنَ بأن يروى شيئا مما كتبه ، إنما عني بما جاء في الرسالة من رقائق الغزل الصوفي من مثل قوله :

وعاودتُ قلبي أسأل الصبرَ وقفةً عليها فلا قلبي وجدتُ ولا صبري
وغابتُ شمسُ الوصلِ عني وأظلمتُ مسالكهُ حتى تحيرتُ في أمري

والبيتان طريفان ، فقد وقف بالديار فضاغ منه قلبه وعزَّ صبره ، وغربت شمس الوصل وأصبحت جميع المسالك حوله مظلمة ، وهو حائر لا يبتدى ولا يجد من ينقذه . إنه محب مهجور قد حُرِمَ وصله وخُطفَ منه أو أُسر قلبه ، ويقول :

يا لَيْلُ ما جئتكمُ زائراً إلا وجدتُ الأرض تُطوى لي
ولا نثيتُ العزمَ عن بابكمُ إلا تعثرتُ بأذيالي

فهو دائماً على عتبات الباب لا يدخل ولا ينعم بوصل ولا لقاء ، ويمتلِّ الوقوف والانتظار ، ولكنه لا يستطيع الإياب ، كأنما شيء يسلك بتلايه ، فكلمة حاول الانصراف وأعياء الانتظار ورغب في الرجوع تعثر في أذياله فتسمَّر في مكانه ، ومن قوله : شكوتُ إليها ما بقلبي من الجوى فقالتُ : وهل أبقى الفراقُ له قلباً

فقلت : فهل لي في وصالك مطعمٌ
فقلت : فهل من زورةٍ يَجْتَنِي بها ثَمَارَ المني ظمَانٌ قد مُنِعَ الشُّربَا
فقلت إذا ما غاب عن كلِّ مشهدٍ وخاضَ حياضَ الموت واستسهل الصُّعبَا
وأصبحَ فينا حائراً ذا ضلالةٍ يُواصلنا بُعداً ونهجره قُرْبَا
وهي محاورةٌ بديعةٌ بينه وبين محبوبته رمز بها إلى حبه الرباني ، فن يحب الذات العلية
يفقد قلبه ولا يصبح له مطعم حقيقي في وصال ولا في زورة يقتطف فيها ثمار المني وينهل
معها من الماء ما يطفى ظمأه إلا إن غاب عن كل مشهد في الوجود واقتحم حياض الردى
لايبالي ، وحتى إن فعل فسيصبح حيران ضالاً الطريق يواصل من بعيد ويُهجر من قريب .
ومن قوله يشكو آلامه وعذابه في حبه الإلهي .

بقلبي منهم حرقٌ لها الأحشاء تحترقُ
ولا وصلٌ ولا هجرٌ ولا نومٌ ولا أرقُ
فليتهمُ وقد قطعوا ولم يُبتقوا على بقوا
فأنفي في محبتهم وريحُ محبتي عبقُ
كمثل الشمع يُنزع من ينادمه ويمحِقُ

فأحشاؤه تحترق ، ولا وصل ولا هجر ، ولا يأس ولا طمع ، ولا نوم ولا أرق ،
ولا صبر ولا جزع ، وإنه ليكونى بنيران هذا الحب مؤملاً - على طريقه الصوفيين - أن
تسحق حواسه وأحاسيسه ، حتى يفنى فناء مطلقاً في الذات العلية ، فناء ينعدم فيه وجوده
البشري انعداماً تاماً ، كما ينعدم الشمع المضيء ، وينمحق انمحاقاً خالصاً .

الصَّرَصِرِيُّ^(١)

هو جمال الدين أبو زكريا يحيى بن يوسف الصَّرَصِرِيُّ ، نسبة إلى صَرَصَر : قرية قريبة
من بغداد ، ولد سنة ٥٨٨ وحفظ القرآن واختلف إلى دروس العلماء والفقهاء والمحدثين ،
وكان حنبلياً ، وبصفه ابن تغرى بردى في كتابه النجوم الزاهرة بالإمام الأديب الرباني ،
ويقول كان من العلماء الفضلاء الزهاد العبَّاد ، كانت له اليد الطولى في النظم وشعره في
غاية الجودة ، ويقول الصفدي عنه « صاحب المدائح النبوية السائرة في الآفاق ، ولا أعلم

(١) انظر في ترجمة الصرصرى ومدائمه النبوية ذيل مرآة
الزمان للقطب اليوناني (طبع حيدر آباد) ٢٥٧/١ -
والشذرات ٢٨٤/٥ . ٦٦/٧ والذيل على طبقات الخبابة لابن رجب
٣٣٢ ونكت الحميان للصفدي ص ٣٠٨ والنجوم الزاهرة

شاعرا أكثر من مدائح النبي ﷺ أشعر منه ، وشعره طبقة عليا . . بدخل شعره في ثمان مجلدات وكله جيد» ويقول القطب اليوناني وابن تغرى بردى : إن مدائحه في النبي ﷺ تقارب عشرين مجلدا . ولا يزال الديوان غير منشور وفي دار الكتب المصرية مخطوطة منه . ويذكر الصفدى أن بين مدائحه النبوية قصيدة التزم في كل حرف منها ظاءً وثانية التزم في كل حرف منها ضادا وثالثة التزم في كل حرف منها زايا ، وبالمثل بقية الحروف الصعبة ، وقصيدة كل بيت منها يشتمل على حروف المعجم أو عبارة أخرى الحروف الهجائية يقول الصفدى : وهذا دليل القدرة والاطلاع والتمكن .

والصرصرى في المدائح النبوية يعرض السيرة النبوية العطرة مع بيان معجزات الرسول عليه السلام وانتصاراته على أعدائه ويشيد بصحابته وخدماتهم للإسلام وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . ويتوه بزوجاته أمهات المؤمنين وفي مقدمتهم السيدة خديجة والسيدة عائشة والسيدة حفصة . وهو يتراءى في نبوياته سنياً حنبلياً حتى ليعرض في بعضها لمديح ابن حنبل وأتباعه ، ويروى له ابن تغرى بردى أبياتا من همزية نبوية يقول فيها :

يا هلال السرور يا قمر الأندلس ونجم الهدى وشمس البهاء
يا ربيع القلوب يا قرّة العيون وباب الإحسان والتعماء

وهو يصدر في القصيدة عن محبة للرسول عليه السلام شغقت قلبه ، حتى ليراه كل جمال في الوجود فهو الهلال والقمر والنجم والشمس والربيع وقرّة العين ومسرة النفوس وباب الإحسان والعطاء وكل نعماء ، ويروى له الصفدى قطعة طويلة من مدحة خائية يقول في تضاعيفها :

يا خاتم الرسل الكرام وفاتح الـ
يا من رست وسمت قواعد دينه
يا خير من شد الرحال لقصده
يا عطفاً على عبد تعلق بكم
خيرات يا متواضعا شامخا
وبه هوى أمر الضلال وساخا
حادي المطى وفي هواه أناخا
طفلا وفي صدق المحبة شاخا

وهو يكثر من المناجاة للرسول عليه السلام مستعطفاً ومتشفعا به . ويبدو من القطعة الطويلة من أشعاره التي رواها القطب اليوناني أنه كان يصدر أحيانا عن نظرية الحقيقة الحمديّة المعروفة ، إذ ذهب إلى أنبوية وجود الرسول وأنه مبدأ الوجود ومركزه . وليس في يدنا الديوان لنحكم على الصرصرى حكما دقيقا في هذا الجانب غير أن هناك بعض إشاعات من الفكرة نلتقى بها عند اليوناني مثل قول الصرصرى عن الرسول :

هو سابقُ الأعيانِ إذ كُتِبَ اسْمُهُ بِالْعَرْشِ ثُمَّ اسْتَوْدَعَ الْأَلْوَاحَ
فإذا كان قد أراد بسبقه الأعيان أن نوره يسبق الموجودات جميعاً من قبل أن تخلق
أو تخرج إلى الوجود فإنه يكون مستمداً حيثئذ من نظرية الحقيقة المحمدية ، وبالمثل ما نجد
عنده من الحديث عن قدم نور الرسول عليه السلام ، وأنه تنقل في صلب آدم والأنبياء من
بعده ، إذ يقول :

حَلَلَتْ صُلْبَ أَيْنَا عِنْدَ مَهْبَطِهِ وَصُلْبَ نُوحٍ وَقَدْ غَشَى الْوَرَى الزُّبْدُ^(١)
وَكُنَتْ فِي صَلْبِ إِبْرَاهِيمَ مُسْتَرَا وَنَارُ نُرُودِ أَشَقَى الْخَلْقِ تَتَّقِدُ^(٢)
وَحَازَ نُورَكَ إِسْمَاعِيلُ يُودِعُهُ أَبْنَاءُهُ الْعَرَّ حَتَّى حَازَهُ أُودُ^(٣)
ويعضى الصرصرى فيذكر أن عدنان نال بهذا النور المترلة الرقيقة ، وما زال النور يتنقل
حتى انتقد به على رأس هاشم إكليل فخر لا يشبهه إكليل . واتصل النور بعدد المطلب
وابنه عبد الله ، ولم تلبث أضواء النور أن انبثقت في المشارق والمغرب . .
وكانت وفاة الصرصرى سنة ٦٥٦ دخل عليه التتارفي اكتساحهم لبغداد ، وكان
ضرباً ، فظمن بعكازه بطن واحد منهم فقتله ، وقُتل شهيداً .

٤

شراء الفلسفة والشعر التعليمي .

يكثر الشعر على ألسنة المتفلسفة منذ الكِنْدِي ، وفي الكتب الخاصة بتراجمهم من ذلك
أسراب غير قليلة ، وكثيراً ما كانوا ينظمون بعض معارفهم الفلسفية أو الطيبة . وتلقانا في
كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة بعض وصايا طيبة طريفة^(٤) ،
وكثيراً ما كانوا يعرضون للنفس والجسم والعلاقة بينهما في الحياة وبعد المات ، على شاكلة
ما أنشده أبو النقيس^(٥) أحد متفلسفة القرن الرابع الهجري :

في النفس والجسم إن فكرت معتبرٌ بل دون ذلك ضلُّ الرأي والفكر
وحار كلُّ لبيبٍ في اتحادهما وتلك عينٌ وهذا حكمه الأثر

- (١) غشى الورى الزبد : يشير إلى الطوفان المشهور
زمن نوح عليه السلام .
(٢) التروود : الملك الوثني الذي ألقى إبراهيم الخليل
في النار فكانت عليه برداً وسلاماً .
(٣) أود : أبو قبيلة عربية ، رمزه إلى العرب .
(٤) ابن أبي أصيبعة ص ٣٩٠ .
(٥) صوان الحكمة لأبي سليمان المنطق السجستاني
(بتحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي - طبع طهران)
ص ٣٥٩ .

يَا لَيْتَ شَعْرِي إِذَا الْأَبْدَانُ أَضْمَرَهَا
 هَلْ لِلنَّفُوسِ التَّنْفَاتُ نَحْوَ عَالِمِهَا
 يَحْصِلُ الْغَوْزُ فِي دَارِ الْخُلُودِ لَهَا
 أَمْ تَضْمَحَلُّ كَمَا قَدْ بَانَ هَيْكُلُهَا
 هَذَا الَّذِي صَدَيْتُ مِنْهُ خَوَاطِرُنَا
 يَدُ الْبَلْبَى وَحَوَاهَا التُّرْبُ وَالْمَدْرُ
 كَمَا تَلَفَّتْ نَحْوَ الْمَرْكَرِ الْحَجْرُ
 وَتَسْفَى دُونَهَا الْآفَاتُ وَالغَيْرُ
 وَلَا يَحْسُ لَهَا وَرْدٌ وَلَا صَدْرُ
 وَلَيْسَ يَجْلُو صَدَأَهَا الْعِلْمُ وَالخَيْرُ

والآيات تعرض مشكلة خلود النفس بعد الموت ، فهل تفتى كما يفنى الجسد ، أو تفصل عنه إلى عالمها : عالم الخلود ، وهي مشكلة حارت فيها من قديم العقول ، فهذا الجسم مادي محسوس يفنى بموت صاحبه ، وهذه لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا بأثرها وببُتِّ الحياة في الجسم ، حتى إذا فارقت انتقل إلى عالم العدم والفناء ، فهل يكون مصيرها نفس مصيره ، أو أنها تحيا حياة جديدة خالدة في الملأ الأعلى . إنها مشكلة محيرة في رأى أبى الفيس يطبق عليها ظلام غامر لا يرفعه عِلْمٌ ولا خبرة ، والآيات تمضى فتجعل علم الحقيقة بذلك للواحد الأحد . وإذا تصفحنا كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة وجدنا به مفسلين عراقيين كثيرين يجيدون نظم الشعر ، مثل ابن التلميذ^(١) المتوفى سنة ٥٦٠ ومن شعره في ابنه سعيد :

حَبِّي سَعِيداً جَوْهراً ثَابِتٌ وَحُبُّهُ لِي عَرَضٌ زَائِلٌ
 بِهْ جِهَاتِي السَّتُّ مَشْغُولَةٌ وَهُوَ إِلَى غَيْرِي بِهَا مَائِلٌ

والجهات الست هي اليمين واليسار والأمام والخلف والأعلى والأسفل ، يريد أنه مشغوله بابنه بكل كيانه وكل عواطفه ومشاعره ، وقد جعل حبه له جوهراً ثابتاً بينما حبه سعيد ابنه له عرض زائل ، ومن قوله :

كَانَتْ بُلْهَيْنَةُ الشَّيْبَةِ سَكْرَةً فَصَحُوتُ وَاسْتَأْنَفْتُ سِيرَةَ مُجْمِلٍ
 وَقَعَدْتُ أُرْتَقِبُ الْفَنَاءَ كِرَاكِبٍ عَرَفَ الْمَحَلَّ فَبَاتَ دُونَ الْمَنْزِلِ

والصورة في البيتين بدیعة ، فقد صحا من سكرة الشباب واستأنفت سيرة معتدل فاضل ، وقعد يتظر دوره ومماته ، وكأنما هو راكب يعرف منزله ويبيت دونه بقليل ، ولا بد من الوصول . وكان ابن التلميذ يكثر من الشعر ومثله البديع الإصطرابي وهبة الله ابن الفضل ومحمد بن المجلي المعروف بالعتري وابن هبل .

(١) انظر في ابن التلميذ وشعره معجم الأديباء ٦٩٦/٦ .

٢٧٦/١٩ وابن أبى أصيبعة ص ٣٤٩ وابن خلكان

ومرّ بنا في كتاب العصر العباسي الأول كيف أن كثيرين من شعراء بغداد عنوا باستحداث نخط شعري جديد هو الشعر التعليمي ، في مقدمتهم أبان بن عبد الحميد الذي ترجم كليله ودمنة شعرا ونظم قصائد طويلة في الفقه والمنطق والتاريخ ومبدأ الخلق . ويستمر هذا النمط الجديد في العصر العباسي الثاني على لسان ابن الجهم وابن المعتز وابن درّيد ، حتى إذا كنا في هذا العصر اتسعت موجهته وشملت جميع أنواع المعارف والعلوم . ومرّ بنا في ترجمة ابن السراج أنه نظم أربعة كتب فقهية . ويذكر ابن الجزري في كتابه طبقات القراء أن أبا الخطاب بن الجراح على بن عبد الرحمن المتوفى سنة ٤٩٧ نظم كتابا في القراءات^(١) ، ونظم الحريري صاحب المقامات ملحمة الإعراب في النحو وأبوابه وقواعده وهي مطبوعة . ونظم ابن أبي الحديد فصيح ثعلب وهو مطبوع . ونظم فخر الدين بن الفصيح مدرس العربية في المستنصرية المتوفى سنة ٧٥٥ كتاب الكنز في الفقه والسراجية في الفرائض وقصيدة طويلة في القراءات^(٢) ، وهو باب يطول ويتسع إن نحن حاولنا حصر ما نظم من العلوم والمعارف على مرّ الحقب لهذا العصر . ونقف قليلاً عند شاعر متفلسف وشاعر تعليمي ، وهما على الترتيب ابن الشبل البغدادي وابن الهبارية .

ابن الشبل البغدادي^(٣)

هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد بن الشبل ، مولده ومنتشؤه ببغداد وبها توفي سنة ٤٧٤ ومن المؤكد أنه اختلف إلى مجالس المتفلسفين في زمنه ، من أمثال يحيى ابن عدى ، وأخذ عنهم كل ما كانوا يعرفونه من فلسفة وطب وفلك وتنجيم ، ويقول يا قوت : « كان متميزا بالحكمة والفلسفة خيرا بصناعة الطب أديبا فاضلا وشاعرا مجيدا . . . وهو صاحب القصيدة الرائية التي نسبت إلى الشيخ الرئيس ابن سينا وليست له . وقد دلت على علو كعبه في الحكمة والاطلاع على مكنوناتها وقد سارت بها الركبان . وتداولتها الرواة » وهو يستهلها بقوله :

يربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنا في أي شيء فني أفهامنا منك أنبهار

(١) غاية النهاية في طبقات القراء ٥٤٨/١ .
(٢) النجوم الزاهرة ٢٧٧/١٠ والغازي ٣٢٧/١ .
(٣) انظر في ترجمة ابن الشبل وشعره ندية ٣٥٢/١ .
والمعجم الأدباء ٢٣/١٠ وابن أبي أصعبه ٣٢٣ . وقرات

الوفيات ٣٩٣/٢ وسماء محمد بن الحسن بن عبد الله
ابن شبل وذكر أن وفاته كانت في سنة ٤٧٣ وراجع
الوفيات ١١/٣ .

وفيك تَرَى الفضاء وهل فضاءً سوى هذا الفضاء به تُدَارُ
وعندك تُرْفَعُ الأرواحُ أم هل مع الأجساد يُدْرِكُهَا البَوَارُ
وموجُ ذى المجرَّة أم فرندُ على لُجَجِ الدروع له مدارُ
وَطُوقُ للنجوم إذا تَبَدَّى هلاكُك أم يدُ فيها سوارُ
وأفلاذُ نجومك أم حَبَابُ تُولَفُ بينه لُجَجُ غَزَارُ
وتُنشَرُ في الفضا ليلاً وتُطوى نهاراً مثلها يُطوى الإزارُ

ومعروف أن من الفلاسفة من كانوا يذهبون إلى أن العالم يديره الفلك دورة مقصودة له ، وكان هناك من يذهبون إلى أن للكواكب تأثيراً بعيداً في حياة الناس وكل أحوال العالم . وواضح أن ابن الشبل يصور حيرة لا قرار لها حول الفلك وحركته ، فهل هي اضطرارية من قبل الذات العلية أو هي اختيارية . ويتساءل في أى شيء مداره وحركته . وهل تُرْفَعُ الأرواح إلى عالمه العلوى أو تفتنى مع الأجساد في العالم السفلى ، وهذه المجرة التي تتدفق ليلاً في السماء بالنور هل هي موج من الأضواء كموج البحر أو هي أثر تجمجات ضوئية تُدَلِّحُ كما يلمح تلمح الضوء في صفحة الفرند أو السيف ، وهل الهلال طوق معلق للنجوم أو سوار يلمع في يد على صفحة السماء . والنجوم هل هي أفلاذ وأرواح أو هي حَبَاب طاف على سطح السماء كحباب الماء ، إنها تُنشَرُ ليلاً وتُطوى نهاراً . فما أعظم ذلك من لغز كبير ، بل ألغاز كبيرة ، يقف الإنسان إزاءها مبهوتا بتملكه الدهش وتملكه الحيرة ، حيرة يضل بين لججها ولا يمكنه أن يرسو على شاطئ ، لأن أحداً لا يملك الجواب ولا يعرفه ، ويمضى ابن الشبل في عرض هذه الألغاز :

ودهرٌ ينثرُ الأعمارَ نثرًا كما للوردِ في الروضِ انتشارُ
ودنيا كلها وضعتُ جينياً غَدَّتُهُ من نوائبها طَوَارُ (١)
هي العشواءُ ما حَبَطْتُ هَشِيمُ هي العجماءُ ما جَرَحَتْ جَبَارُ (٢)
فمن يومٍ بلا أمسٍ ويومٍ بغيرِ غدٍ إليه بنا يُسَارُ
فهذا الدهر . يُسْقَطُ الأعمارَ كما تَسْقَطُ الوردُ في الروض وتفارقها النضرة والحياة ، وهذه الدنيا كلها وضعتُ جينياً لم تُرَضِعْهُ ، بل تركته لظوار أو مرضعة ترضعه النوائب والخطوب ، وما الدنيا ؟ إنها عشواء لا تبصر ، وكل ما تحبظه من الأنفس يصبح هشياً ، إنها لعجماء خرساء كل ما تجرحه يُهدرُ ولا يُصلِحُ أبداً . وما الحياة في رأى ابن الشبل إلا يوم بدون أمس يسبقه ويوم بدون غد يلحقه ، إنها مأساة كبرى ، سببها ذنب آدم

(٢) جبار : هدر لاقتصاص فيه ولا غرم .

(١) طوار : المرضعة لابن غيرها .

وعصيانه ربه وأكله من الشجرة . فأخرج من الفردوس ثم أهبط إلى الأرض . ويصور ذلك ابن السبيل قائلا :

لقد بلغ العدو بنا مناهُ وحلَّ بآدمِ وينا الصغارُ (١)
 فيالك أكلةً ما زال منها علينا نعمةٌ وعليه عارُ
 نُعاقبُ في الظهور وما ولدنا ويُدبِحُ في حشَا الأُمِّ الحوارُ (٢)
 ونخرجُ كارهين كما دخلنا خروجَ الصَّبِّ أخرجهُ الوجارُ (٣)
 وكان وجودنا خيراً لو أنا نُحَيِّرُ قبله أو نستشارُ
 أهذا الداءُ ليس له دواءُ وهذا الكسرُ ليس له انجبارُ

وهو يقصد بالعدو إبليس وأنه بلغ في بني الإنسان كل مناه من الغواية والضلال فحلَّ بآدم وبهم الهوان والصغار ، فيالها أكلةٌ إثمٌ وياله ذنبٌ جرمٌ ! . ويعود ابن السبيل إلى أساه وحزنه على أبناء جنسه ، فقد يعاقبون وهم أجنة في أحشاء أمهاتهم فيموتون ، ومن يولد وتمتد به الحياة يخرج منها كرها خروج الصَّبِّ من جحره . وهكذا نجىء ونخرج دون اختيار ، وإن هذه الحياة كلها بأسرارها وألغازها لداء يعز دواؤه ، وهذا الموت إنه لكسر لا يمكن انجباره . ويمضي فيتحدث عن انقضاء الحياة الدنيا وتحطمها كما يصور ذلك القرآن الكريم إذ تتكور الشمس وتتناثر الكواكب وتنفطر السموات وتذهل كل مرضعة عن ابنها وتسير الجبال وتسجر البحار ، ويقول إن في ذلك كله لعبرة وعظة لأولى الألباب . وله مرثية بديعة في أخيه أحمد يقول في تضاعيفها :

يا أخى عاد بعدك الماء سُمًّا وسُموماً ذاك النسيمُ الرُّخاءُ
 كيف أرجو شفاء ما بي وما بي دون سُكُنَى في ثراكِ شفاء
 شَطْرُ نَفْسِي دَفَنْتُ وَالشُّطْرُ باقٍ يَتَمَنَّى ومن مناهُ الفناءُ
 إن تكن قدَّمته أيدى المنايا فإلى السابقين تَمَضِي البِطَاءُ
 إنما الناس قادمٌ إنَّ ماضٍ بدئُ قومٍ للآخرين انتهَاءُ

والمرثية كلها بكاء وأنين ، وتفكير في الموت ، موت الأحباب واندلاع الحزن بعدهم والبكاء ، مع ما يخلِّقون من غُصَصٍ تعترض بالشجي في الخلق . ويقول إنما نحن بين ظفر وناب من خطوب كأنها سباع ضارية ، ويأسى للإنسان وغدر الدنيا به واستردادها في المساء ما وهبت في الصباح ، وكان الإنسان يعيش في حلم أو كأنما يعيش بدون عقل ،

(١) الصغار : الذل والهوان .

(٢) الحوار : ولد الناقة لحظة وضعه ويريد الجنين .

(٣) الوجار : جحر الضب وغيره . والصب : من

جنس الزواحف ، يكثر في صحراء الجزيرة العربية .

فليست تُعَقَل الدنيا إزاء هذا الفساد الذي يعم كل شيء في الكون من أحياء وغير أحياء .
وفي الحق أن الفلسفة عمقت تفكيره ، وقد جمع إليها شاعرية خصبة وحيّاً دقيقاً مرهفاً .

ابن الهَبَّارِيَّة (١)

هو أبو يَعْلَى محمد بن محمد بن صالح بن الهَبَّارِيَّة العباسي ، نسب إلى هَبَّار جده
لأمه ، ولد ونشأ ببغداد ، وفتحت موهبته الشعرية مبكرة ، وكان خبيث اللسان ، فلم
يكذ يسلم من هجائه أحد ، وفيه يقول العماد الأصبهاني : « من شعراء نظام الملك (وزير
ألب أرسلان وابنه ملكشاه) غلب على شعره الهجاء والهزل والسخف ، وسبك في قالب ابن
الحجاج وسلك أسلوبه وفاقه في الخلاعة والهجون ، والنظيف من شعره في نهاية الحسن »
ويقول ابن تغرى بردى : « كان فيه إقدام بالهجو على أرباب المناصب » . ومرت بنا في
حديثنا عن الهجاء في الفصل السابق إشارة إلى قصيدة له في هجاء أرباب الدولة في عهد
ملكشاه السلجوقي . وحتى راعيه نظام الملك لم يسلم من لسانه ، ويقال إنه حين سمع هجاءه
له أمر بأن يُصَرَّفَ رسمه أو راتبه مضاعفاً ، وعُدَّتْ نك مِتَّة من نظام الملك دالَّة على مكارم
أخلاقه وسعة حلمه . وأشعاره مليئة بالهجو إلى حد الإقذاع ، حتى ليهجو الإنسانية جميعاً
قائلاً :

خَذْ حِمْلَةَ البَلْوَى وَدَعْ تَفْصِيلَهَا مَافِي البرَّة كُلَّهَا إِنْسَانُ

وجعلته صلته بنظام الملك يقيم بجواره مدة طويلة في أصبهان عاصمة ألب أرسلان
وملكشاه ، ويبدو أن مقامه لم يستمر بها طويلاً بعد وفاة نظام الملك سنة ٤٨٥ . ولم يعد إلى
بغداد ، بل اتجه إلى كَرْمَانَ وأقام بها إلى أن توفى سنة ٥٠٤ .

ولسنا نريد الحديث عن ابن الهبارية وهجائه ومدحيه ، وإنما نريد الحديث عن شعره
التعليمي فقد نهض بعمليتين كبيرتين فيه : أولها نظمها لقصص كليلية ودمنة ، وقد سماها
« نتائج الفطنة في نظم كليلية ودمنة » وهو على غرار نظم أبان من وزن الرجز المزدوج ،
فكل بيت فيه يتفق شطراهما في قافية واحدة . وفي فوائحه ما يدل على أنه نظمها في كَرْمَانَ ،
وقد نوه بنظم أبان للقصص ، وأبان يتفوق عليه في جودة شعره وإن كان عمله سقط من
يد الزمن إلا ما رواه منه الصولي في ترجمته له بكتابه الأوراق . ونتائج الفطنة مطبوع في
بومباي من قديم .

(١) انظر في ترجمة ابن الهبارية وأشعاره كتاب خريدة والنجوم الزاهرة ٢١٠/٥ والوافي ١٣٠/١ ولسان الميزان
القصر (قسم العراق) ٧٠/٢ وابن خلكان ٤٥٣/٤ ٣٦٧/٥ والشذرات ٢٤/٤ .

والعمل الثاني من شعره التعليمي ديوان الصادح والباغم ، والصادح : رافع صوته بالطرب والباغم خافض الصوت في لين . والديوان أراجيز قصصية مزدوجة ، أو قل أكثرته قِصَصٌ ثم يليها وعظ خلقي وحكمٌ متعاقبة . وقد طُبِعَ الديوان في القاهرة وبيروت ولكن في الهند . وهو يستهل بالحمد لله والصلاة على رسوله ﷺ ، ويقول :

هذا كتابٌ فيه علمٌ وأدبٌ يفوق أنواع القريض والخُطْبُ
عملته لسيد الملوك وموثل الملهوف والصُّعْلُوكِ
فجاء مثل الذهب المسبوكِ سلكتُ نَهْجًا ليس بالمسبوكِ
وضعته مخترعاً معناه لملكٍ ما خاب مَنْ رجاه

ويصرح باسم الملك وهو صدقة بن منصور الأسدي صاحب الحلة المتوفى سنة ٥٠١ . وقد مضى يمدحه طويلا ، حتى إذا تمَّ الديوان سَّيره إليه من كَرَمَانٍ مع ولده فأجزل صلته وأسنى جائزته . ويمضى ابن الهبَّارية في الديوان بعد تقديمه لصدقة ومدحها فيذكر مناظرة بين هندي وفارسي استمع إليها في أحد أسفاره ، وفيها يفتخر كل منهما لوطنه . أما الهندي فافتخر باختراع بلاده للشطرنج ووضعها لكليلة ودمنة ، وأما الفارسي فافتخر باختراع بلاده للترد . وتتوالى القصص ، وقليل منها الذي يشبه كليلة ودمنة في جريانه على ألسنة الحيوانات والطيور . ونقرأ قصة الناسك واللص الفاتك ، والبعير والجمال والتاجر ، وامرأة الراعي ، وامرأة التاجر ، والذئب والغزالة . إلى غير ذلك من قصص تعليمية أراد بها ابن الهبَّارية العظة والعبرة . غير أن هذا الصوت القصصي في الديوان لا يلبث أن يقطع ، ويحل محله صوت آخر ، ليس فيه شيء من القصص ، إذ يتحول ابن الهبَّارية مربيًا يقدم النصائح في السياسة ومعاملة الناس وفي الزهد وعلو الهمة والنهي عن الظلم والأمر بالعدل ، وكأن ابن الهبَّارية نفسه فقد إيمانه بعمله القصصي الأدبي ، ولعل ذلك ما جعل الأدباء بعده ينصرفون عن مجاراته في هذا العمل الفني ، وكان حريا أن تأخذ القصص مجرى كبيرا في الشعر العربي ، غير أن النموذج الذي وضعه ابن الهبَّارية كان من الضعف - في رأبي - بحيث لم يمهّد تمهيدا حسنا لهذا الاتجاه الكبير . ونراه يختم الديوان بقوله :

هذا كتابٌ حَسَنٌ تحار فيه الفِطْنُ
أنفقتُ فيه مُدَّةَ عشرَ سنينَ عِدَّةَ
بيوته ألفانٍ جميعها معاني

ولعل ابن الهبَّارية بالغ في قصة السنوات العشر . ومع ذلك كله لا بد أن نبقى له على

شئ من الإحسان ، فقد كانت ملكته الشعرية خصبة ، وساق له العباد وابن خلكان كثيرا من الأشعار البديعة . وحقا ليست من الأشعار التعليمية . ولكنها تدل على براعته الشعرية .

٥

شعراء شعبيون

قد يُظنُّ من هذا العنوان أن من شعراء العصر من كانوا شعبيين ومن كانوا غير شعبيين ، والحق أن صفة الشعبية هذه تشمل كل فنون الشعر وكثرة الشعراء ، أما فنون الشعر فإنها جميعا كانت تصوِّر حياة الشعب ، فالمدح يصوِّر انتصاراته ويصور مطامحه في الحاكم العادل . ويصور المهجاء الأخلاق الذميمة التي يرى الشعب تنحيتها عن المجتمع وأفراده . وشعر الغزل كان يصوِّر في كثير من جوانبه العلاقة الخالدة بين الرجل والمرأة ، بينما شعر الزهد كان يصور من بعض جوانبه حياة الشظف والحرمان . وحتى شعر اللهو كان يصور أيضا من بعض جوانبه قُصْف الشعب في أعياده .

فليس هناك انفصال بين فنون الشعر العربي والشعب ، وكذلك ليس هناك انفصال بين الشعراء والشعب ، فقد كان جمهورهم من طبقاته الدنيا ، وكانوا يحمونون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها ، ويصدرون عنها في أشعارهم . ولا بد أن نلاحظ أنه كانت هناك عوامل مهمة عملت على وصل الشعر العربي بشعوبه في بغداد وغير بغداد وفي مقدمتها أن الثقافة كانت عامة ، وكانت حقا للجميع ، إذ كانت تُلقَى في المساجد يوميا ، يلقيها كبار العلماء ، والناس يتحلّقون من حولهم . وكلُّ ما يريد من لغة ونحو ومن فقه ومن قراءات ومن حديث نبوي ومن دروس أدبية يُروى فيها الشعر ويعرض العلماء لما فيه من فنون البلاغة والنقد .

لم تكن هناك حواجز ولا أسوار تفصل بين أي فرد من أفراد الشعب وبين الغذاء بكل ما يريد من ألوان الثقافات شعرا وغير شعر . وقد أتاح ذلك لكثيرين في مراحل متأخرة من حياتهم أن يصبحوا علماء في هذا الفن أو ذاك . ولم يكن يُشترطُ فيمن يحضّر حلقات العلماء والأدباء أي شرط ، ولذلك كان يحضرها كثير من الأميين ، وأتاح ذلك لغيرهم أن يصبحوا شعراء . ومن يرجع إلى كتب التراجم يصادفه من حين إلى آخر شاعر أمي أو شاعر من أصحاب الحرف والصناعات ، نذكر منهم الخباز الموصلي ، وله ترجمة في كتاب

اليتيمة^(١) للثعالبي ، وفيه يقول : « من عجيب شأنه أنه كان أميا . وشعره كله ملح وتحف وغرر وطرف » . وانتظامه في اليتيمة يدل على أنه كان من شعراء القرن الرابع للهجرة ، وقد أشار إلى أميته في بعض شعره قائلا لبعض خصومه :

بَالَعَتَ فِي شَتْمِي وَفِي دَمِّي وَمَا خَشِيتَ الشَّاعِرَ الْأُمِّيَّ
جَرَّبَتَ فِي نَفْسِكَ سُمًّا فَمَا أَحَدَّتَ تَجْرِبِكَ لِلْسُّمِّ
وكان يحفظ القرآن الكريم . فاقتبس من آياته مرارا وتكرارا . وكأما جعل ذلك

خاصة فنية له تميزه من نظرائه ، كقوله متغزلا :

كَأَنَّ يَمِينِي حِينَ حَاوَلْتُ بَسْطَهَا لِتَوْدِيعِ الْبَنِي وَالْهَوَى يَذْرِفُ الدَّمْعَا
بَيْنَ ابْنِ عِمْرَانَ وَقَدْ حَالَتِ الْعَصَا وَقَدْ جَعَلْتَ تِلْكَ الْعَصَا حَيَّةً تَسْعَى
وَقَائِلَةً هَلْ تَمْلِكُ الصَّبْرَ بَعْدَهُمْ فَقُلْتَ لَهَا : لَا (والذي أخرج المرعي)

وهو في البيت الثاني يقتبس قوله تعالى في سورة طه عن عصا موسى بن عمران عليه السلام حين ألحها فحالت أو تحولت : « فإذا هي حية تسعى » واقتبس في البيت الثالث آية سورة الأعلى : (والذي أخرج المرعي) . ويقول الثعالبي إنه « كان يتشيع ويتمثل في شعره بما يدل على مذهبه » وينشد طائفة من أشعاره الشيعة . ويلقانا في الحريدة شاعر أمي ثان هو نباته^(٢) الأعور الأبري ، وكان هجاء خبيث اللسان شغوفاً بهجو أحد العلويين وفيه يقول :

شَرِيفٌ أَصْلُهُ أَصْلُ حَمِيدٍ وَلَكِنْ فَعْنُهُ غَيْرُ الْحَمِيدِ
وَلَمْ يَخْلُقْهُ رَبُّ الْعَرْشِ إِلَّا لِتَنْعُفَ الْقَنُوبُ عَلَى يَزِيدِ

وهو يريد يزيد بن معاوية عدو العلويين والشيعة . ويلقانا كثيرون من أصحاب الحرف يشغفون بالشعر ويصادف فيهم ملكات خصبة فيصبحون من شعرائه النابهن مثل السري الرفاء الذي تقدمت ترجمته في الفصل الماضي ، ومثل الزاهي أبي القاسم علي بن إسحق بن خلف البغدادي وكان قطّانا وكانت دكانه في قطيعة الربيع ، وقد عرضنا له بين شعراء التشيع في الفصل الماضي ، وأنشد له ابن خلكان البيتين التاليين المعروفين في كتب البلاغة وفيها يصف البنفسج^(٣) :

وَلَا زَوْرَدِيَّةٌ تَرَهُوْهُ يَزْرُقُهَا
بَيْنَ الرِّيَاضِ عَلَى زُرُقِ الْيَاقِوتِ

(١) انظر ترجمة الحجاز البلدي وأشعاره في اليتيمة (قسم الشام) ٣٠٦/٢ .

(٢) ٢٠٨/٢ وقد حقق شعره ونشره ببغداد صبيح رديف . (٣) ابن خلكان ٣٧٢/٣ .

(٢) راجع ترجمة نباتة الأعور وأشعاره في الحريدة

كانها فوق قاماتٍ ضَعُفْنَ بها أوائلُ النارِ في أطرافِ كِبْرِيتِ
وَقَرْنُ البنفسجِ الذى ترفُّ أوراقه الرطبة وتترقق الماء في غصنه بلهب نار في أعواد
كبريت جافة يدل على قدرة خيالية بديعة . وما أنشده له ابن خلكان قوله :

ويضيُّ بالحاظِ العيونَ كأنما هَزَزْنَ سيوفاً واستلَّزْنَ خَنَاجِرا
سَفَرْنَ بدوراً وانتَقَبْنَ أهلةً ومِسْنَ غصونا والتَفَتْنَ جَآذِرا (١)
وأطلَعْنَ في الأجيادِ بالدرِّ أنجماً جُعِلْنَ لِحَبَاتِ القلوبِ ضَرائِرا

والتقسيم في البيت الثانى بديع فقد جعلهن حين سفرن عن وجوههن بدورا وحين
انتقبن وظهرت جباههن أهلة ، وحين تبخترن غصونا وحين التفتن جآذر ، وبذلك ومثله
عدُّ شاعراً مبدعاً . ولا ريب في أن مشاركة ذوى الحرف والأمين في شعر العصر دليل قوى
على صلته بالشعب ، فأبناؤه جميعاً يشاركون فيه حتى الأميون الذين لا يقرءون
ولا يكتبون .

ولم تقف مشاركة العامة في الشعر عند هذا الحد ، فقد أخذ يظهر بينهم شعراء
لا ينظمون شعرا فصيحاً . وإنما ينظمون شعرا ملحونا بلغتهم العامية ، وأخذ ذلك يظهر
بوضوح منذ القرن السادس الهجرى ، وخير كتاب يصور هذا الجانب كتاب العاطل الحالى
والمرخص الغالى لصنى الدين الحللى ، وفيه يتحدث صنى الدين بالتفصيل عن الفنون
العامية ، المواليا والزجل والقوما والكان وكان ، ويقول إن الثلاثة الأخيرة ملحونة أبداً ،
أما الموالياً فقد تكون معربة وقد تكون ملحونة ، ويقول إن أول من اخترعها أهل واسط
اقتطعوها من بحر البسيط وجعلوها معربة مثله ، ومعروف أن وزنها « مستعلن فاعلن
مستعلن فعلن » وهى أربعة شطور بقافية واحدة ، ويقول صنى الدين إن أهل واسط
تزلوا بها ومدحوا وهجوا ، والجميع معرب ، إلى أن وصل إلى البغاددة فلطّفوه ولحنوه
وسلكوا فيه غاية لا تدرك ، ويذكر من أمثلة المواليا المعربة قول الخباز البغدادى فى مديح
الصاحب بن الدبّاهى (أحد متولّى الخراج فيما يبدو) :

يَكم قُرَى نَهْرِ عَيْسى أَصبحتْ كالمَدَن
أى باذلين القَرى أى عاقرين البُدُن (٢)
ولو تشاءوا بأطرافِ الرماحِ اللدُن
صَيَّرْتُمُ الأَسدَ تحرثُ فى مكانِ الفُدُن (٣)

(١) سهرن : كشف عن وجوههن - انتقبن : لبس
النقاب . مسن : تبخترن . الجآذر جمع جؤذر وهو ولد
البقرة الوحشية .
الثيران .

(٢) أى : يا . القرى : الضيافة . البدن : التوق

ومع أن صني الدين يعدّ هذه المواليا من الجزل المعرب إلا أنها لم تخل من اللحن كما هو واضح في جزم الفعلين المضارعين « تشاءوا وتحمرث ». ويتحدث صني الدين بالتفصيل عن الزجل وظهوره في الأندلس وكبار أعلامه ويطيل في بيان ما يدخله من اللحن عادة أو ضرورة ، ويقول لأهل بغداد خاصة أزجال رقيقة بألفاظ لطيفة على اصطلاح لغتهم وجارى ألسنتهم على قاعدة اللحن المختص بهم ، ويذكر طائفة من زجالي بغداد على رأسها على بن المراغي ، ويذكر مطلع زجل له على هذا النمط :

لما أسرتم فؤادي أطلقتُ دمعى المصُونُ
وصرتُ فيكم أغالى جهدي ولي ترخصونُ

وواضح أن المطلع غير ملحون . والفن العامي الثالث الذي تحدث عنه صني الدين فن الكان وكان ، وهو يتكون من أدوار كل دور أربعة شطور ، وتشترك شطور المنظومة الثانية والرابعة بكل دور في قافية واحدة مُردّفة قبل حرف الروى بأحد حروف العلة وداثماً الشطر الأول في كل بيت أطول من الثاني . اخترعه البغداديون كما يقول صني الدين ثم تداوله الناس في البلاد . ويذكر أنه سُمّي بذلك لأن البغداديين أول ما اخترعوه لم ينظمو فيه سوى الحكايات والخرافات ، فكان قائله يحكى ما كان وكان . واتسع طريق النظم فيه على يد كبار الوعاظ من أمثال ابن الجوزي في أواخر القرن السادس وشمس الدين محمد بن أبي بكر بن رشيد صاحب القصائد الوترية وشمس الدين محمد بن أحمد الكوفي في القرن السابع . ويقول صني الدين إنهم نظموا فيه المواعظ والرقائق والزهديات والأمثال والحكم فتداولها الناس وصارت حتى عصره تُستَحْضَرُ في المذاكرات ويذاكر بها في المحاضرات ، ويُشَدُّ من الكان وكان غزلية موجهة في الطيور ، وفي تضاعيفها :

طَيْرِي الَّذِي كَانَ الْفَى لَوْ رِدَّتْ مِثْلُو مَا حَصَلُ
وَهُوَ عَلَيَّ مَعُوذٌ وَاَنَا عَلَيْهِ مَعْتَادُ
إِذَا قَلَعُ مِنْ عِنْدِي فَا تَرَالِ عَيْنِي مَعُو
وَاعْرِفْ مَطَارُو وَأَقْعُدْ فِي الْبُرْجِ بِالْمُرْصَادُ

والمنظومة طويلة والشاعر يتخذ لغزله رمزا : طَيْراً نصب له شبكا فصاده وفرح واتخذهُ الْفَأْ لَهُ . ويمضى فيصور كيف أن طيره أو طائرهُ إذا حطَّ في بُرْجٍ لغيره لا يزال يرقبه ، ومع أنه يعرف من يتزل عندهم كما يعرف جميع رفاقه يساعده ، وحين يأتيه يرضى عنه وبنسى خصاله ، ويقول إن الماضي : ماضى الناس جميعا لا يعود . وربما شرد منه أسبوعا بطوله ، ثم أتاه ليلة الجمعة فاستقبله خيرا استقبال . والمنظومة طريقة كما هو واضح .

والفن العامي الرابع القوما ، ويقول صني الدين إن له وزنين : وزناً مثل الرباعية يتكون من أربعة شطور ، يتحد أولها وثانيها ورابعها في القافية ويختلف الثالث ، ومعروف أن هذا الوزن يخرج من بحر البسيط ، وأن الشطر فيه إما مستفعلن فَعْلَن وإما مستفعلن فاعلن . أما الوزن الثاني فيقول صني الدين إن الدور فيه يتكون من ثلاثة شطور أو كما يسميها ثلاثة أقفال مختلفة الوزن متفقة القافية ، والشطر الأول أقصر من الثاني ، والثاني أقصر من الثالث ، ويذكر أن البغداديين اخترعوه في دولة العباسيين برسم السحور في شهر رمضان واشتقاق اسمه من قول المسحّرين في آخر كل دور منه : « قوما للسحور » ينيهون بذلك ربّ المنزل ويمدحونه ويدعون له ، فأطلق عليه اسم « قوما » وصار علماً له . ويذكر صني الدين إنه قيل إن أول من اخترعه ابن نقطة برسم الخليفة الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) ويعود فيقول : الصحيح أنه اخترع من قبله وكان الناصري يطرب له وجعل لابن نقطة رسماً في كل سنة وحدث أن توفي وكان له ابن يحسن القوما ، فأخذ أتباع والده في أول ليلة من ليالي رمضان وتغنّى على مسمع من الناصر :

ياسيد الساداتُ لَكَ بالكرم عاداتُ
أنا بُنيُّ ابنِ نُقْطَةَ واني تعيش انت ماتُ

فأعجب الخليفة منه هذا الاختصار واستحضره وخلع عليه وفرض له ضعف ما كان لأبيه . والقوما هنا من الوزن الأول الذي ذكره صني الدين ، وقد ذكر منه منظومات تحتوي أكثر من عشرين دوراً . ومثل للنوع الثاني من القوما بقوله .
داوى عَضالِكَ^(١) بَعْدنا وإتْرِكْ نضالِكَ بالرَّغمِ كانَ تَرَكَكْ لنا لا بالرُّضا لَكَ
دام العنا لَكَ إيش تَرى في العشق نالَكَ ما نال احدٌ من بَعْد أحبّابو متالِكَ

وينبغي أن نعرف أن هذه الفنون الأربعة العامية لم يكتب لها أن تكون الترجان الدقيق عن مشاعر الشعوب العربية في بغداد وغير بغداد ، فقد ظلت في مرتبة دانية ، وظل يُنظَر إليها على أنها إنما تصلح للهزل أكثر منها للجد ، وبذلك ظل الصولجان للشعر الفصيح وظل مهوى أفئدة العرب في كل مكان ، كما ظل ترجاناً صادقاً عن كل ما يأملون ويألمون وكل ما يلم بهم من ابتهاج وابتئاس ، حتى لنجد أصحاب الكُذْبَة والشحاذة الأدبية يؤثرونه على الشعر العامي ، لما له من تأثير بعيد في نفوس السامعين ، ونقف قليلاً عند الأحنف العكبري كبيرهم في بغداد .

(١) الداء المضال : الذي لا طب له ولا دواء .

الأحفف العكبىرى^(١)

هو أبو الحسن عقيل بن محمد الملقب بالأحفف العكبىرى ، ظريف الشعراء المكدين ببغداد وهم شعراء كانوا ينسبون أنفسهم إلى بنى ساسان الفارسيين نظرفا ، ويعيشون على الكؤدية أو الشحاذة الأدبية ، يطوفون من بلدة إلى بلدة . وفيه يقول الصاحب بن عباد :
 « لوأنشدتك ما أنشد نيه الأحفف العكبىرى لنفسه ، وهو فرد بنى ساسان اليوم بمدينة السلام (بغداد) لامتلأت عجباً من ظرفه وإعجاباً بنظمه » . ومن قوله يفتخر بمهنته وما اختاره لنفسه من الكدية والشحاذة :

ألا إني بحمد اللد ه في بيت من المجد
 ياخوانى بنى ساسا ن أهل الجد والجد^(٢)
 لهم أرض خراسان فقاشان إلى الهند
 إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
 قطعنا ذلك النهج بلا سيف ولا عمد
 ومن خاف أعاديه بنا في الروع يستعدى

وهو يفتخر بانتسابه إلى هذا البيت الكبير بيت بنى ساسان أو بيت الشحاذة الأدبية ويصور تطوافه وتطواف إخوانه الساسانيين ، فقد قطعوا البلدان من خراسان وقاشان في إيران إلى الهند ، ومن أرض الروم والبلغار إلى أرض الزنج والسند ، كل ذلك بدون أى عدة حربية ، لأن أحداً لا يعترضهم ، إذ هم شحاذون لا يملكون شيئاً . وتنبه الصاحب بن عباد إلى ما يشير إليه البيت الأخير . فقال : لهذا البيت معنى بديع : يريد أن ذوى الثروة وأهل الفضل والمروءة إذا وقع أحدهم في أيدى قطاع الطريق وأحب التخلص قال : أنا مكدي (أى لا يملك شروى تقير) فانظر كيف غاص ، وأبرز هذا الم من المعتاص . ويشكو الأحفف الفقر وتطوافه في الأرض مراراً في شعره بمثل قوله :

عشت في ذلة وقلة مال واغتراب في معشر أنذال
 بالأمانى أقول لا بالمعاني فعدائى حلاوة الآمال

. وطبيعى أن تمر عليه أوقات رخاء وتعقبها أوقات شدة حين يقل ماله ولا يجد حوله من يسعفه فيشعر بالغبرة ونكدها ومرارتها وما يداخلها من حرمان ، ويحس كأنه يعيش ويتغذى

(١) انظر في ترجمة الأحفف وأشعاره تاريخ بغداد (٢) الجد بفتح الجيم : الحظ .

والبيمة ١١٧/٣ والنجوم الزاهرة ١٧٣/٤ .

بالآمال ، وقد ضُيِّقَ عليه الخناق . وكثيرا ما يشكو همه وبؤسه وتعاسته حتى ليقول :

العنكبوتُ بنتٌ بيتاً على وهنٍ تأوى إليه ومالى مثلهُ ووطنُ
والخنفساءُ لها من جنسها سكنُ وليس لى مثلها إلفٌ ولا سكنُ

فليس له بيتٌ حتى ولا بيتٌ واه كبيت العنكبوت ، بيت يجعله يشعر أن له وطناً يأوى إليه ، فهو شريد ، وحتى الخنفساء لها سكن ولها إلف ، وهو لا إلف له ولا سكن . وهذه الأبيات وما يماثلها كان يتخذها وسيلة لترقُّ له القلوب وتُمدِّ إليه الأيدي بالعطاء . وشعره كشعر أمثاله من هذه الطائفة يخلو من التتميق والمحسنة البديعية ، إذ هو شعر الطبيعة والقطرة ولذلك لا يلقانا فيه أى حلية أو زينة . وقد توفى سنة ٣٨٥ . وفى رأى أن شعر الكُذبة والشحاذة الأدبية هبط بعد زمنه ، إذ شغلت مكانه المقامات عند بديع الزمان والحريرى .

الفصل الخامس

النثر وكتابه

١

تنوع النثر

رأينا في العصرين العباسي الأول والثاني كيف تنوع النثر تنوعاً واسعاً ، فكان هناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر الأدبي ، وكانت هناك المناظرات والمواعظ والقصص وكتب الأدب التهذيبي ، وكانت هناك الرسائل الشخصية والسياسية ، وكل هذه الأنواع مضت تزدهر في عصر الدول والإمارات بالعراق وخاصة في القرنين الرابع والخامس للهجرة . ولا نبالغ إذا قلنا إنها كانا أزهى القرون في العصر بالقياس إلى النثر وفنونه ، فقد بلغ العقل العربي كل ما كان يرجى له من نصج ، إذ ظل المترجمون يتقلون إليه قبل ذلك كل ما كان عند الأمم القديمة من معارف ، وظل يتغذى بها وينمو ولم يلبث أن شارك فيها وأصبح للعرب علماء وهم ومتفلسفتهم ، وظل يتقطع أشواطاً ومراحل حتى بلغ القمة في مطالع هذا العصر .

وكانت قد بقيت للترجمة بقية ، وهي تدل بوضوح على ما نقوله ، فقد كانت انتقلت من الترجمة الحرفية إلى الترجمة بالمعنى على نحو ما صورنا ذلك في كتاب العصر العباسي الثاني ، وإذا رجعنا إليها وإلى أصحابها في هذا العصر لاحظنا أنهم انتقلوا بها نقلة واسعة نحو العناية بالأداء والصيغة ، حتى لكأن المترجمات توضع في العربية ابتداء ، فلا عوج ولا أمت في صيغة ، بل مع الروتق وحسن الأداء ، ونضرب مثلاً للمترجمين عيسى بن زُرعة البغدادي المتوفى سنة ٣٩٨ وفيه يقول أبو سليمان المنطقي السجستاني : « هو آخر من يُرْتَضَى نقله لكتب الحكيم أرسططاليس : البسائط والجوامع . . وكتاب جالينوس « منافع الأعضاء وغيره من الكتب » . ويذكر مثلاً لما ترجمه من كلام أرسططاليس على هذا النمط ^(١) :

(١) انظر في الفقرة التالية المترجمة كتاب منتخب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطقي السجستاني (طبع طهران) ص ٣٣٣

«الإنسانية أفق ، والإنسان متحرك إلى أفقه بالطبع ، ودائرته إلى مركزه . إلا أن يكون مؤوفاً (معلولاً) في طبيعته ، مخلوقاً بأخلاق بهيمة . ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيب هواه في مرعاه ، ولم يضبط نفسه عما تدعوه إليه طبيعته ، وكان لبين العريكة لاتباع الشهوات الرديئة ، فقد خرج عن أفقه ، وصار أزدل من البهيمة بسوء إشاره» .

ولو أننا لم نعرف أن هذه الفقرة مترجمة عن أرسططاليس ما تنبهنا إلى ذلك لصياغتها العربية المحكّمة ، وما يجري فيها من رونق الصياغة الأدبية كما هو واضح في مثل قوله : «ومن رفع عصاه عن نفسه ، وألقى حبله على غاربه ، وسيب هواه في مرعاه» . وهي استعارات وكتابات بيانية . وأرسططاليس في الفقرة يشير إلى ما ذهب إليه من أن الإنسان مكوّن من طبيعة هي البدن وما يتصل به من المذات ، وهي تصلح وتفسد ، وأيضاً من النفس التي لا تبلى والتي يترقى بها الإنسان ويكمل . وابن زرعة يترجم حقه ، ولكنها ترجمة أشبه بأن تكون من إنشائه ابتداءً ، ولذلك تصيح الفقرة ، وكأنها وصية أو نصيحة لواعظ - كما لاحظ أبو سليمان المنطقي السجستاني - يريد بها للإنسان أن يصلح من طبيعته الأمانة بالسوء ولا يستجيب إلى شهواتها ومآربها المادية . ولم ينقلها مترجم يعرف العربية فحسب ، بل ترجمها أديب يتذوق أساليب العربية ويفقه دقائقها وخصائصها البيانية . ويشيد ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ببلاغة كثيرين منهم ومن العلماء بالرياضيات والطبيعات ، ويسوق لهم أشعاراً كثيرة .

وشملت هذه الصياغة المحكّمة الفلسفة ، ونخيل إلى الإنسان أنها كانت قد أصبحت في القرنين الرابع والخامس للهجرة قوتاً أو غذاءً عاماً للشعب ، بحيث لم تقتصر على الطوائف العليا والوسطى في المثقفين ، بل اتسعت حتى احتوت الطوائف الدنيا ، وذكرنا في الفصل الثاني دليلاً قوياً على ذلك هو أن جماعة إخوان الصفا السريّة التي كانت تدعو في البصرة إلى المذهب الإسماعيلي لجأت إلى الفلسفة والعلوم في صنع رسائل اتخذتها وسيلة لنشر هذا المذهب ، ولو أنه استقر في نفسها أن العلوم والفلسفة معاً يرتفعان عن مدارك العامة ما لجأت إلى هذه الوسيلة ولعرفت منذ أول الأمر أنها وسيلة قاصرة فكفّت عنها ، أما وقد تمادى إخوان الصفا فيها ومضوا يدسّون رسائلهم في دكاكين الوراقين ببغداد والبصرة فإن ذلك دليل حى على تعلق العامة بمعرفة الفلسفة ، وسرى عما قليل مناظرة بين زعيمهم المقدسي والحريرى في دكان حمزة الوراق بشارع الوراقين في بغداد ، تناول الأسس

والغايات التي من أجلها كُتبت رسائل إخوان الصفا ، وقد عمل المقدسي ورفيقه زيد بن رفاعه على إذاعتها ونشرها ببغداد .

وأخرى ألمنا بها في فصل الثقافة وهي تدل على أن الفلسفة أصبحت في القرن الرابع الهجري شائعة مشتركة بين الناس أو قل بين البغداديين ، وهي كثرة المتديات التي كانت تثار فيها مسائلها ، ومثلنا لذلك بندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني ، وذكرنا من كان يؤمها من عليّة المتفلسفة ، وكان وراءهم آخرون دونهم في الرتبة ، يؤمون داره كل يوم . وكان كثيراً ما يُلقى سؤال وتدور حوله محاوره كبيرة ، كل متفلسف يرى فيها رأياً يُدلى به ، ثم يكون الرأي الأخير لأبي سليمان ، وكأنه المنارة الهادية . وقد استطاع أحد تلاميذه وهو أبو حيان التوحيدى - كما مرّ بنا - أن يجمع طائفة كبيرة من هذه المحاورات الفلسفية ، سماها المقابسات أى المحاورات ، وكأنما ارتضى لها كلمة المقابسة لتدل على أن كل من كان يحضر الندوة ويحاور فيها كان يقتبس من فكر صاحبه . وكأنما استحال بينهم الفكر الفلسفى إلى ما يشبه ناراً كل يقبس منه حسب استطاعته . وقد بلغت المقابسات مائة وستا في نحو أربعائة صفحة كبيرة ، وهي أشبه بدائرة معارف فلسفية تضم مباحث عميقة في الإلهيات والطبيعيات والنفس والعقل والأخلاق والأدب والبلاغة . ويمكن أن ندخل متفلسفة القرن الرابع في هذه الندوة وغيرها في دائرة الفارابى وتلاميذه ، فقد مضوا جميعاً في إثره يُعنونَ بالإلهيات ويمتدحونَ أرسطو والنفس والعقل متأثرين بنظرية الفيض التي بثّها الأفلاطونية الحديثة ، وهي مبثوثة في كلام أبي سليمان وتلميذه التوشجاني ، وقد عرض لها الأخير في المقابسة السادسة والثلاثين ولا نرى أحداً يراجعها مما يدل على إيمانهم بها جميعاً . وفي مواضع كثيرة من المقابسات نرى أبا سليمان وغيره من تلاميذه يرفعون من شأن الدين ، وقد حاول هو وبعض مربيه مراراً وتكراراً أن يدفعوا الفكرة أو النظرية التي قامت عليها رسائل إخوان الصفا ، وهي الوصل بين الفلسفة والشريعة ، كما مرّ بنا في فصل الثقافة ونقضوها عليهم نقضاً ، وصوّر أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة ردّ أبي سليمان عليهم^(١) ، وهو رد مفحم رائع أوضح فيه أن مرد الشريعة إلى الله والوحى ومرد الفلسفة إلى الرأى والعقل ، ونعرض جانباً من رده لنرى قدرته البيانية ، يقول :

« الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ بواسطة السفير بينه وبين الخلق من طريق الوحى وباب المناجاة ، وشهادة الآيات وظهور المعجزات ، على ما يوجبه العقل تارة ، ويجوزّه

(١) الإمتاع والمؤانسة ٦/٢ - ١٨ وانظر في أبي سليمان ص ٢٨٥ السابقة .

تارة ، لمصالح عامة متقنة ، ومرشدة تامة مبيّنة ، وفي أثنائها مالا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه (كالبعث) ولا بد من التسليم للداعي إليه والتمسك عليه ، وهناك يسقط لِمَ؟ ويظل كيف؟ ويزول : هَلْأ ، ويذهب لو وليت في الريح ، لأن هذه المواد عنها محسومة واعتراضات المعارضين عليها مردودة ، وارتباب المرتابين فيها ضار ، وسكون الساكنين إليها نافع .. وأساسها على الورع والتقوى ، ومنتهها إلى العبادة وطلب الرزق . ليس فيها حديث النجم في تأثيرات الكواكب وحركات الأفلاك . . ولا حديث صاحب الطبيعة الناظر في آثارها . . ولا فيها حديث المهندس . . ولا فيها حديث المنطق . . فعلى هذا كيف يسوغ لإخوان الصفا أن ينصبوا من تلقاء أنفسهم دعوة تجمع حقائق الفلسفة في طريق الشريعة . . وكما لم نجد في هذه الأمة من يفرع إلى أصحاب الفلسفة في شيء من دينها ، كذلك أمة عيسى عليه السلام ، وهي النصارى ، وكذلك المجوس . . فأين الدين من الفلسفة ؟ وأين الشيء المأخوذ بالوحي النازل من الشيء المأخوذ بالرأى الزائل ؟ . . وبالجملة النبي فوق الفيلسوف والفيلسوف دون النبي ، وعلى الفيلسوف أن يتبع النبي وليس على النبي أن يتبع الفيلسوف ، لأن النبي مبعوث والفيلسوف مبعوث إليه . ولو كان العقل يُكْتَفَى به لم يكن للوحي فائدة ولا غناء ، على أن منازل الناس متفاوتة في العقل وأنصباؤهم مختلفة فيه ، فلو كنا نستغني عن الوحي بالعقل كيف كنا نصنع ؟ وليس العقل بأسره لواحد منا وإنما هو لجميع الناس . . والنبي يقول أمّرت وعلمت وقيل لي وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي ، والفيلسوف يقول رأيت ونظرت واستحسنت واستقبحت ، والنبي يقول : معى نور خالق الخلق أمشى بضيائه ، وهذا يقول معى نور العقل أهتدى به ، والنبي يقول : قال الله تعالى وقال الملكُ ، وهذا يقول قال أفلاطون وسقراط . . » .

وواضح أن أسلحة أبي سليمان من المنطق والفلسف أسلحة حادة ، فقد فصل بوضوح بين الدين أو الشريعة وبين الفلسفة ، فالدين مرجعه الوحي والفلسفة مرجعها العقل ، والدين مرجعه الله والفلسفة مرجعها آراء الفلاسفة ، وهي متفاوتة وتختلف باختلافهم ، والشريعة مستغنية عن الفلسفة بكل فروعها . والنبي فوق الفيلسوف ، والشريعة تدعو إلى التقوى والورع ولا شأن للفلسفة بذلك . ولعل وصل إخوان الصفا بين الشريعة والفلسفة هو الذي دفع أبا سليمان وغيره من أفراد مدرسته إلى مهاجمة المتكلمين ، لأنهم صدروا في مباحثهم الكلامية كثيراً عن هذا الوصل وما يتصل به من التوفيق ، وكان أبا سليمان أحسنّ أنهم هم المسئولون عن هذا العمل المغرض الذي يراد به الدعوة إلى المذهب الإسماعيلي الشيعي العالي غلواً شديداً ، ولذلك مضى يهاجمهم مهاجمة عنيفة - كما نقل عنه أبو حيان

في المقابسات - قائلاً إنهم يعتمدون على الجدل والمغالطة ومحاولة إسكات الخصم والإيهام مع قلة تأله وسوء ديانته . ومن المؤكد أن وصفهم بقلة التأله وسوء الديانة فيه مبالغة ، وقد يكون اتفق له منهم من رأى فيه انحرافاً عن الدين ، وكان ينبغي أن لا يعمم حكمه . على كل حال إنما أردنا بما اقتبسناه من كلامه عن إخوان الصفا والوصل بين الشريعة والفلسفة أن ندل على أن لغة المتلصفة في العصر صبغت بأصباغ أدبية واضحة ، إذ يعرف أبو سليمان كيف يصطنى ألفاظه ، وكيف يجرى فيها ترادفاً بديعاً يجعل لوقعها على الآذان جمالاً ، وكيف ينسق عباراته ويأتي بها قصيرة متلاحقة . ونقرأ في المقابسات قطعاً فلسفية أدبية للكثيرين من تلاميذه ورفاقه مثل النوشجاني الذي نراه يستدل على الحياة بعد الموت على هذا النمط (١) :

« إذا كان صنف من أصناف الموجود في حكم المعدوم لحساسته ، ونقصه وتماته ، وفساد طبيعته ، وطموس ضيائه ، وقبح صورته ، وانحفاء بهجته ، وخمود شعاعه ، وفقد تمامه ، وتقطع نظامه ، واستيلاء رذيلته ، وبطلان فضيلته ، فلا تنكر أن يكون في مقابله وبإزائه صنف آخر من المعدوم في حكم الموجود لصحة صورته ، ونفاضة جوهره ، وكإل فضيلته ، وظاهر عفنه ، وبهاء هيئته ، وغلبة عدالته ، ونقاء سنخه ، وصفاء سوسبه (٢) ، وظهاره ذاته ، وظاهر زيته ، ودوام نضرته ، وتناسب جملمته وتفصيله ، وسائر ما لا يحيط القول به . فإنك متى حويت هذه المعاني . . . اكتفتك الخيرات عاجلاً ، والسعادات آجلاً . فتكون حينئذ موجوداً وإن عدمت ، وباقياً وإن فنت ، وحاصلاً وإن فقدت ، وثابتاً وإن نُفيت ، وحياً وإن مت . وظاهراً وإن بطنت ، وجلياً وإن خفيت ، وواضحاً وإن أشكلت ، وشاهداً وإن غبت ، وقادراً وإن عجزت . . . هنالك تصل إلى غنى بلا قنية (٣) ، وتنطق بلا عبارة . وتفعل بلا آلة ، وتصيب بلا مشورة ، وتعقل بلا مقدمة ، وتبقي بلا آفة . . . وتسعد بلا شوب . إلهية ورثتها من البشرية . وربوبية وصلت إليها بالعبودية . »

ويمضى النوشجاني فيقول لنكر الحياة بعد الموت إنك إنما تنكرها حين تنظر إلى شخص في إفسار الحس وقشور البدن مع فساد العقيدة والعكوف على الشهوات المهلكة . فنقول متى يكون لهذا رجوع وحياة بعد الموت ؟ وكان حربياً به أن يبين هواه ويختار الحق ويؤثر الخير إذن تكون السعادة غايته ، والأبد نعتة ونهايته . وصياغة النوشجاني رائعة بما فيها من

(١) المقابسات (طبعة بغداد) : المقابلة السادسة (٢) السوس والسنخ : الأصل .
والأربعون وانظر في النوشجاني المقابسات ٢٩ ، ٣٦ ، (٣) القنية : ما يكسب من المال ويقبني .

جمال الجرس في الأداء الناشئ عن قصر العبارات وحسن انتخاب الألفاظ وما يجري فيها من ترادف بديع وقدرة على التماسق في الكلمات والصيغ وسيلانها . بل تدفقها ، بالفكر الصافي الخالي من الشوائب . وهو ما نقوله إن النثر الفلسفي في هذا العصر التقى بالأدب والتنع في أثنائه وعلى حواشيه ، فعدا يروع السمع كما يروع الفكر والذهن .

وطبعي في هذه الأثناء أن تزدهر المناظرات ، وأن تشيع في كل مجلس وبين العلماء والأدباء ، وقد اشتهر مجلس المهلبي ببعض مناظرات بين الحاتمي والمنتبي على نحو ما يوضح ذلك الحاتمي في رسالته « الموضحة » واشتهر عضد الدولة البويهى بما كان يُعقد من مناظرات بين العلماء في مجالسه ، ومحدثنا القاضي عياض في ترجمته^(١) للباقلاني عن مناظرته بخصرة عضد الدولة للأحدب رئيس معتزلة بغداد حول تكليف ما لا يطاق ، ومناظرته بخصرته أيضاً لأبي إسحق التَّصِينِي رئيس معتزلة البصرة حول رؤية الذات العلية . وكانت المناظرت لا تزال ناشئة بين أصحاب الطب وغيره من علوم الأوائل حتى لنجد طبيباً بغدادياً في القرن الخامس الهجري هو ابن بطلان يرحل إلى مصر لمناظرة ابن رضوان الطيب المصري والحوار معه^(٢) . ومالنا نذهب بعيداً وممتدى أو ندوة أبي سليمان المنطقي السجستاني في القرن الرابع الهجري كانت تعج بالحوار والجدال في كل فروع الفلسفة ومسائلها الدقيقة . ولم تكن المناظرات تقتصر على الندوات أو على المساجد ، بل كانت أيضاً تجرى في الأسواق وخاصة سوق الوراقين حيث يلتقي أصحاب المذاهب والآراء ، فتنشب بينهم معارك الجدل والمناظرة ، من ذلك المناظرة الطريفة التي حكاهها أبو حيان بين شخص يسمى الحريري كان يأخذ بشيء من الفلسفة والفكر الدقيق وبين المقدسي أبي سليمان محمد بن معشر البيهقي الرازي مخرج رسائل إخوان الصفا كما أسلفنا في فصل الثقافة ، ولذلك نسبها إليه أبو سليمان المنطقي السجستاني كما مرَّ بنا . وكان لا يزال يرى ببغداد في ندوته . وفي شارع الوراقين . وكان الرأي العام السائد هناك يعارض نظريته في التوفيق بين الشريعة والفلسفة ، ولعلهم كانوا يعرفون مقصده الذي نهينا إليه مراراً ، وكانوا يتعرَّضون له فلا يراهم أهلاً للجواب ، حتى كان يوم - وهو يتجول في الوراقين - تعرَّض له فيه الحريري غلام ابن طرارة وهيَّجه بما أورد عليه من أدلة ، مما جعله يندفع قائلاً^(٣) الشريعة طيب المرضى والفلسفة طب الأصحاء ، فالأنبياء يُطَبِّون للمرضى حتى

(١) انظر هذه الترجمة في نهاية كتاب التمهيد للباقلاني

(نشر دار الفكر العربي بالقاهرة) ص ٢٤٦ .

(٢) راجع القفطى ص ٢٩٨ ، ٤٤٤ ، وابن أبي أصيبعة

ص ٣٢٥ وما بعدها .

(٣) الإمتاع والمؤاساة ١١٠٢ وما بعدها .

لا يتزايد مرضهم أو حتى يزول بالعافية ولا شيء وراء العافية ، وأما الفلاسفة فيطوبون للأصحاء وبذلك يفيدونهم كَسَبَ الفضائل التي تؤهلهم للحياة الإلهية . وإن كَسَبَ المريض بعض الفضائل فليست فضائله من جنس فضائل الصحيح ، إذ الأولى (فضائل المريض) تقليدية والثانية برهانية ، والأولى مظنونة والثانية مستيقنة ، والأولى جسمية والثانية روحانية ، والأولى دهرية والثانية زمانية . وقال إننا جمعنا بينها لأن الشريعة لا تعترف بالفلسفة بينما الفلسفة تعترف بها لأن الشريعة عامة والفلسفة خاصة فجمعنا بينها لأن العامة قوامها بالخاصة ، كما أن الخاصة تمامها بالعامة .

وأخذ الحريري ينقض أفكاره فكرة فكرة مبيناً ما فيها من فساد ، فقال له إن كلامك يخالف الواقع ، إذ لا يوجد طبيبان : طيب للمرض وطيب للصحة ، بل ذلك شيء خارج عن العادة ، فدائماً الطيب يُعنى بحفظ الصحة ودفع المرض ، وإذن سقطت تلك الفكرة المضللة . ونقض عليه ما زعمه من أن الفضيلة الدينية تقليدية والفلسفة برهانية ، فقال له إن الدينية برهانية لأنها صادرة عن الوحي ولذلك تستقيم مع أي برهان ، أما الفضيلة الفلسفية فهي التقليدية ، لأن مدارها على رأى الشخص فيوافقه أو يخالفه آخر ، فهي لا تثبت ولا تستقر بحال . ويعجب الحريري أشد العجب من جعل المقدسي الشريعة من باب الظن وهي بالوحي ، والفلسفة من باب اليقين وهي من الرأى . ويقول له : إنك غالطت وموهت إذ زعمت أن الفضيلة الدينية جسمية والفضيلة الفلسفية روحانية ، إذ الصحيح العكس لأن الشريعة وحى من الله والفلسفة من قبل أشخاص ذوى أجسام ، وهي تناقض الأجسام والأعراض . ويسأله إنك تقول إن الفلسفة للخاصة فلماذا تحاولون جمع العامة لها ، بينما تقولون الشريعة للعامة ، فلم تجمعون بين متفرقين ؟ إنه لجهل أي جهل . وبالمثل يقول له إنك تذكر أن الشريعة تجحد الفلسفة ، فلماذا تريدون حملها عليها قسراً . وبذلك أخرسه . وقد عاد يسأله أى شريعة تريدون وصلها بالفلسفة ، ولماذا تعنون بالتوفيق بينها وبين الدين الحنيف ، بينما في المتفلسفة نصارى ومجوس ويهود . ويصارحه بأنه لا يرى من إخوان الصفا من يقوم بأركان الدين ويتقيد بالكتاب والسنة ويراعى معالم الفريضة ووظائف الناقله ، ويتساءل أين كان الصحابة والتابعون من الفلسفة ؟ ويعلم إليه أن هذه المحاولة من التوفيق بين الشريعة والفلسفة إنما هي كيد للدين القويم ، حاوله من قبلهم كثيرون فباءوا بالخذلان والخسران المبين . ويذكر له طائفة كبيرة من معجزات الرسل ، ويدعو المقدسي وصحبه إلى الإيمان بالشريعة دون تأويل ولا تدليس ولا تعليل ولا تلبيس .

والحريري إنما هو شخص أشبه بأن يكون من العامة ، ولذلك عرضنا مناظرته مع المقدسي لندل على مدى ما حظي به العقل العربي في القرن الرابع من قدرة على الاستنباط والتعليل وتحليل الأفكار وتشعبها وتفحصها من أساسها نقضاً . واستمرت هذه الحركة الفكرية الفلسفية خصبة مثمرة حتى منتصف القرن الخامس ، ثم أخذت تراجع موجاتها إلى الوراء ، أو قل أخذت جِدَّتْها تحف ، بسببين : أولاً لانتشار التصوف وتعلق العامة به ، وخاصة بعد أن وجهه أبو نصر السراج الطوسي والقشيري نحو التصوف السني ، وبعث هذا التصوف منذ القرن السادس الهجري بعد ظهور الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ الرفاعي ، ولا يلبث الدراويش أن يتشروا في العراق وغير العراق . وثانياً لأنه أتيح للسنة ونصرتها على الفلسفة عالم كبير هو الغزالي الذي كان لحمالاته العنيفة على الفلسفة والمتفلسفة أكبر الأثر في انصراف الناس عنها ، وكان هو نفسه صوفياً سنياً ، فدعم التصوف السني إلى أقصى حد ، وأصبحت كفته هي الراجحة طوال قرون متطاولة .

وقد مضت خطابة الوعظ تزدهر في العصر على نحو ما مررنا في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وأخذت تكثر أدعية ومناجيات مختلفة للذات العلية ، ويكفي أن نذكر من كتبها كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ، وهو مطبوع ، وجميعه دعاء واستغفار وتضرع إلى الله وتوبة وطلب للهداية واتباع سبيل الرشاد . وتلقانا من حين إلى آخر أدعية ومناجيات بديعة ، من ذلك دعاء^(١) لمحمد بن عبد الملك الفارقي المار ذكره في الفصل الماضي . وأخذت توضع كتب كثيرة في التصوف وفي القصص والحكايات عن أصحابه ، من أهمها كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الملقب بطاووس الفقراء المذكور آنفاً المتوفى سنة ٣٧٨ وهو من طوس وحين ورد على بغداد أفردت له غرفة خاصة في جامع الشونيزية وأعطى رئاسة الدراويش ، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب^(٢) المكّي الوافد على بغداد المتوفى بها سنة ٣٨٦ . ويلقانا من كتب القصص كتاب حكايات المشايخ الجعفر^(٣) الخلدی المتوفى سنة ٣٤٨ ومررنا في حديثنا عن ابن السراج البغدادي بين شعراء الصوفية كتابه « مصارع العشاق » وهو يزخر بأخبار وأفاصيص عن العباد والنسك .

(١) خريدة القصر (قسم الشام) ٤٣٣/٢ . الجنان ٤٣٠/٢ .

(٢) راجع في أبي طالب تاريخ بغداد ٨٩/٣ وابن خلكان ٣٠٣/٤ والواق ١١٦/٤ وميزان الاعتدال ٧٥/٤ .

٦٥٥/٣ والشذرات ١٣٠/٣ ولسان الميزان ٣٠/٥ ومراة

وأخذت تُولف كتب قصص عامة . على نحو ما نرى عند أبي علي المحسن^(١) التتوخي المتوفى سنة ٣٨٤ وله ثلاثة كتب قصصية ، هي : كتاب « المستجاد من فعلات الأجواد » وهو أقاصيص عن مجموعة كبيرة من الأجواد أو الكرماء الماضين ، وهو مطبوع ، و « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » وهو أقاصيص وأخبار عن معاصره وهو أيضاً مطبوع ، ثم كتاب الفرج بعد الشدة وهو مطبوع ، وهو أقاصيص ونوادر وأخبار وأمثال ولابن مسكويه كتاب أقاصيص سماه « أنس الفريد » سقط من يد الزمن . وأخذ بعض الكتاب يحاولون تقليد بديع الزمان الهمداني في مقاماته ، وفي مقدمتهم أبو القاسم عبد الله بن محمد بن ناقي الذي ذكرناه في فصل الثقافة بين علماء البلاغة في القرن الخامس الهجري ، وهو سابق للحريري ، وقد ألف تسع مقامات بطلها واحد وهو الشكري ، ورواها متعددون ، وتدور على الكدية أو الشحاذة الأدبية ، وهي مطبوعة من قديم في إستانبول مع ثلاثين مقامة لأبي العلاء أحمد بن أبي بكر بن أحمد الرازي من أدباء القرن السادس وقد حاكى بها مقامات الحريري وأهداها إلى أبي حامد الشهرزوري المتوفى سنة ٥٨٦ ، وكان يعاصره ابن الجوزي الذي مر ذكره في غير موضع . وله خمسون مقامة ، غير أنه لم يجعل لها بطلاً من الأدباء الشحاذين أصحاب الكدية ، وإنما نحا بها نحو الوعظ ، على طريقة الزمخشري في مقاماته الوعظية . وربما كانت أهم المقامات التي ألفت في القرن السادس بعد مقامات الحريري مقامات يحيى بن سعيد بن ماري النصراني البغدادي المتوفى سنة ٥٨٩ وتسمى المقامات المسيحية لنصرانيته ، وهي ستون مقامة ضاهى بها مقامات الحريري . وولتقى في أواخر القرن السابع بالمقامات الزينية لمعد بن نصر الله ابن رجب الجزري المعروف بابن الصيقل المتوفى سنة ٧٠١ وهي خمسون مقامة ، فرغ من تأليفها سنة ٦٧٢ . ويخلفه كثيرون يؤلفون مقامات مفردة أو بضع مقامات مجموعة . وتظل مقامات الحريري في الذروة ، لا يبلغ شأوه فيها أي أديب بعده . وسنفرده كلمة نعرض فيها لمقاماته .

وتكثر في العصر كتب الأدب التهذيبي ، وتتخذ مجريين : مجرى فلسفياً فكرياً على نحو ما نرى في كتاب تهذيب الأخلاق لمسكويه ، ومجراً عملياً تربوياً مثل كتاب أدب الدنيا والدين لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي المار ذكره وهو مقسم إلى خمسة أبواب : باب في فضل العقل وذم الهوى ، وباب في أدب العلم ، وباب في أدب الدين . وباب في

(١) راجع ترجمته في البيهقي ٣٤٥/٢ وتاريخ بغداد وابن خلكان ١٥٩/٤ والنجوم الزاهرة ١٦٨/٤
١٣٠١٣ ومعجم الأدباء ٩٢/١٧ والمتنظم ١٧٨/٧ والشذرات ١١٢/٣ .

أدب الدنيا ، وباب في أدب النفس ، وكل باب ينقسم إلى فصول ، وفي كل فصل تذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار التي نَحَث على الفضائل وتنهى عن الرذائل . وكان هذا الكتاب مقروءاً للمطالعة في المدارس الثانوية وما أجدره أن يعود إليها لتربية النشء على الأخلاق القويمة . وتكثر كتب الأدب التهذيبي بعد هذا الكتاب ولكنها لا تبلغ مبلغه في النفع والفائدة .

وتعوج البيمة والخريدة بالرسائل الشخصية أو الإخوانية ، وتتكاثر كثرة مفرطة ، في الشكر والثناء والتهنئة والعتاب والاعتذار والاستعطاف والتهادى والتعزية ، وعادة تدور حول معان محدودة ، ولكن الكتاب يتفنون في تطويلها ، وبذلك يستحيل المعنى الضئيل النحيل إلى ما يشبه خيطاً أو حبلاً تعلق عليه سجوف من السجع والجناس وفنون البديع تكدّس فيها أكداً ، وتكدّس معها تعقيدات بصور كثيرة تارة يجلب بعض المصطلحات العلمية وخاصة منذ القرن الخامس وما بعده ، وتارة باتخاذ حرف واحد تبنّى عليه الرسالة . وللحريري رسالتان إحداهما سينية كل كلماتها من ذوات السين ، والثانية شينية كل كلماتها من ذوات الشين ، وقد قلده الحَصْكَفِيُّ (١) يحيى بن سلامة خطيب مياً فارقين المتوفى سنة ٥٥١ فصنع رسالة سينية ، وحاول الإغراب أكثر فصنع رسالة من الحروف المهملة وخطبة لبس في حروفها حرف منقوط ، وكان شغوفاً بالجناس وصُنِع المنعكس منه بحيث تشتق كل كلمة من أختها على هذه الشاكلة :

« النفس بعقود التذرع حائلة ، ولقعود التعذر حائلة ، ومن الودائع المعجزة مالية ، وإلى الدواعي المزعجة مائلة ، وفي بحار الحمد راسية ، وفي رحاب المدح سارية » .
ويستمر بهذه الصورة ، فكل كلمة في السجعة الأولى تعود في السجعة الثانية مقلوبة معكوسة في هيئتها وبنيتها وصورتها ، فعقود تتحول إلى قعود والتذرع إلى التعذر وحالية إلى حائلة . وهي مهارة تحيل الرسالة إلى ما يشبه العمل المطبعي الذي يؤدّبه عمال المطابع من جمع الحروف بعضها إلى بعض من أول الكلمة إلى آخرها تارة ومن آخرها إلى أولها تارة ثانية جمعاً يصور مهارة ، ولكنها مهارة لفظية أشبه باللعب . ونلتقى بمعاصر للحصكفي ، هو الحَيْصُ بَبِصُ البغدادي المارّ ذكره بين الشعراء وفيه يقول العماد الأصبهاني : « له رسائل ومكاتبات معدول بها عن الفن المعتاد والأسلوب المعروف » يقول : وهي كثيرة ، وسأورد

(١) انظر في الحصكفي الخريدة (قسم الشام) ٤٧١ / ٢ ومذاهبه في النثر العربي (الطبعة الثامنة بدار المعارف) وما بعدها والمتنظم ١٨٣ / ١٠ والسبكي ٣٣٠ / ٧ وابن خلكان ٢٠٥ / ٦ ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٠ وكتابتها الفن رسائله .

منها نبذاً يستدلّ بها على الباقيات . وتدلُّ النُّبذُ على أنه كان يحشد فيها أوابد اللغة وشواردها وشواذها متقراً فيها أبعد تقعر ، وهو تقعر لا يفيد حسناً ولا جلالاً ، وإنما يضيف صعوبات لغوية ، وكأن الرسالة مجموعة من الألغاز ، وكلما فك القارئ فيها لغزاً لقيه لغز جديد ، لا يقل عنه تكلفاً وإغراباً . وقد استطاع أبو السَّمْح^(١) سعيد بن سَمْرَةَ أن يؤلف على نمط الحريري لا رسالة سينية أو شينية ، بل أن يؤلف رسائل كل رسالة منها كلماتها على حرف من حروف المعجم . ونصبح منذ القرن السادس حقاً بإزاء رسائل شخصية معقدة غاية التعقيد ، وحتى المحسنات البديعية مثل الجناس استحالت بدورها عقداً ، وكأنما فارقت كل ما كانت تزدان به من حسن وجمال . وحرى بنا أن نتحول إلى الحديث عن كُتَّاب الرسائل الديوانية .

٢

كُتَّاب الرسائل الديوانية

كانت الدواوين طوال هذا العصر كثيرة ومتنوعة ، فكان هناك ديوان الخليفة وديوان الزمام الخاص بالشئون المالية وديوان الضياع والعقار وديوان الجيش وديوان النفقات وديوان الأوقاف وديوان التركات وديوان الجوالى أو الجزية الخاص بأهل الذمة وديوان السلّة الذى تحفظ فيه الكتابات الديوانية . وأهم من هذه الدواوين جميعاً ديوان الإنشاء الخاص بالرسائل الصادرة عن الخليفة وحاكم بغداد العام ، وعُنى البويهيون بهذا الديوان منذ استيلائهم على بغداد فاتخذوا له بعض النابهين من الأدباء ، وكثيراً ما كان يقوم عليه وزيرهم ، وأول من نهض بأعبائه في عهدهم وكان له ذكر حسن أبو محمد المهلبى^(٢) الذى ورر لمعز الدولة البويهى منذ سنة ٣٣٩ وكان شاعراً كاتباً وأنشد الشعالبى فى يتيمة طائفة من شعره ، أما نثره فاكثرت فيه بفصول قصيرة تدل على أنه كان يسجّع فى كتاباته ، والسجّع فى ديوان بغداد قديم منذ عصر المقتدر كما مر بنا فى كتاب العصر العباسى الثانى ، وقد مضى كُتَّاب الدواوين بعد عصره جميعاً يسجعون . ويظل المهلبى ناهضاً بالوزارة والكتابة حتى وفاته سنة ٣٥٢ . وأهم كتاب البويهيين ببغداد بعده أبو القاسم عبد العزيز^(٣) بن يوسف ،

(١) انظر فى ترجمته الخريدة (قسم العراق) ٩/٧ ومعجم الأدباء ١١٨/٩ والشذرات ٩/٣ وكتب التاريخ العامة فى سنة وفاته . ٢٦٣/٢ .

(٢) انظر فى المهلبى وترجمته البيمة ٢/٢٢٣ والمتنظم (٣) راجعه فى البيمة ٢/٣١٢ .

وفيه يقول الثعالبي : « كان أحد المقدمين في الآداب والكتابة والبراعة والكفاية وجميع أدوات الرياسة ، وكان مع تقلده ديوان الرسائل لعضد الدولة طول أيامه معدوداً في وزرائه ، وتقلد الوزارة بعده دفعات لأولاده » . ويورد الثعالبي مقاطع من رسائله السلطانية يشيع فيها السجع على عادة كتاب الدواوين في عصره . وبدون ريب أكبر كاتب للرسائل الديوانية زمن البويهيين أبو إسحاق الصائبي وسنخسه بكلمة عما قليل . وعنى السلجوقيون مثل البويهيين بديوان الإنشاء وحين دخلوا بغداد وجدوا عليه العلاء ابن الموصلا يافتقد كان كاتب الديوان العزيز أو ديوان الخلافة منذ سنة ٤٣٢ ورأوا أن يظل عليه ، ومضت عشرات من السنين وهو على ديوان الإنشاء حتى قضى نحبه ، وسنخسه هو الآخر بكلمة مفردة . وأهم من تولوا الديوان بعده في العصر السلجوقي سديد الدولة أبو عبد الله محمد ^(١) بن عبد الكريم الأنباري منشى ديوان الخلافة لعصر خمسة من الخلفاء هم المستظهر والمسترشد والراشد والمقتنى والمستجد الذين تولوا الخلافة من سنة ٥٠٣ إلى سنة ٥٥٨ وهي سنة وفاة سديد الدولة ، وبذلك ظل كاتب الإنشاء نيفاً وخمسين سنة ويقال إنه عمّر حتى قارب التسعين ، ولم يسجل العباد ولا أصبح الأعشى للقلقشندى شيئاً من نثره . وخلفه على ديوان الإنشاء ابنه محمد ^(٢) بن محمد بن عبد الكريم ، وظل قائماً عليه حتى توفي بدوره سنة ٥٧٥ . وربما كان أهم من ولوا هذا الديوان في عهد الخليفة الناصر لدين الله يحيى ^(٣) بن زيادة المتوفى سنة ٥٩٤ وقد أشاد به ابن خلكان ونوّه طويلاً قائلاً : « انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك . . . وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات ، وكان مليح العبارة في الإنشاء جيد الفكرة حلو التصريح لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة » . وقد احتفظ القلقشندى برسالة ^(٤) له كتب بها عن الخليفة الناصر إلى الطواشي طغرل صاحب إقطاع البصرة ، وقد بلغ الخليفة أنه نزع عنها مفارقاً لطاعته عندما طلب من ديوانه بعض المال ، وهو في الرسالة يحاول إثناؤه عن خلع الطاعة ويذكر أن الخليفة سيتلقاه بالصفح والقبول ، وفيها يقول :

- (١) انظر الحريرة (قسم العراق) ١٤٠/١ والمتنظم
٢٠٦/١٠ والنجوم الزاهرة ٣٦٤/٥ والشذرات
١٨٤/٤ .
- (٢) انظره في الحريرة (قسم العراق) ١٤١/١ وابن
الأنير في وفيات سنة ٥٧٥ .
- (٣) انظر ترجمة ابن زيادة في معجم الأدباء ١٦/٢٠
وابن خلكان ٢٤٤/٦ ومرآة الجنان ٢٤٤/٦ والشذرات
٣١٨/٤ .
- (٤) صبح الأعشى (طبع دار الكعب المصرية)
٢٦٩/٨ .

«ولولا أن الأيام صحائفُ العجائب ، ولا يأنس بمتجدداتها إلا من حنكته التجارب ، لم أصدّق هذه الحركة ، وإني ما أراها إلا عثرة من جواد وعورة على كماله ، وإلا فمن أين يدخل الزلل على ذلك الرأى السديد والعقل الراجح والفكر النصاب . . . والفائتُ لا كلام فيه ، غير أن العقل يقضى باستدراك الممكن وتلافيه ، بالانحراف عن الهوى إلى الرأى الصادق ، والرجوع عن تأويل النفس إلى مراجعة الفكر الناضج» .
 وتمضى الرسالة على هذا النحو ، لا يدخل السجع فيها عن تكلف أو تعمل ، بل لا بأس بما يأتي منه عفواً دون تعمد الإتيان به ومحاولة تجلّبه مع كل عبارة وصيغة . وأكبر الظن أن ابن زيادة كان شذوذاً بين كتاب الإنشاء قبله وبعده ، فقد كانوا غرقى في السجع ومحسنات البديع إلى آذانهم . ولم نعرض للعباد الأصبهاني ، وكان كاتباً بليغاً ، لأن حياته الأدبية إنما تتكامل له في ظل نور الدين وصلاح الدين ، إذ عمل في دواوينهما - فحري أن يوضع بين كتاب الرسائل الديوانية في الشام ومصر ، مع من عاشوا في ظل هذين البطالين العظميين . وتمضى إلى أيام المعول ويلقانا عطا منك الجويني المتوفى سنة ٦٨١ وكان رئيس الديوان ببغداد ، وقد اهتم به ، فوظّف فيه طائفة من الكتاب المجيدين ، منهم بهاء^(١) الدين الإربلي المتوفى سنة ٦٩٢ وشرف^(٢) الدين علي بن أميران المتوفى سنة ٦٩٣ . ويلقانا في صبح الأعشى كاتبان يكتب كل منهما رسالة باسم بوكدار بن هولكو الذي مرّ بنا في الفصل الأول أنه أسلم في سنة ٦٨١ وحسن إسلامه . وتسمّى باسم أحمد . أما الرسالة الأولى فكتبها الفخر بن عيسى الموصلى عن السلطان أحمد إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية في جمادى الأولى سنة ٦٨١ يخبره فيها بما أتمّ الله عليه من نعمة الإسلام ، وهو يفتتحها على هذا النمط^(٣) :

«إلى سلطان مصر ، أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى بسابق عثايته ، ونور هدايته ، قد كان أرشدنا في عُثفوان الصّبا ورّيعان الخداتة إلى الإقرار بربوبيته ، والاعتراف بوحدانيته ، والشهادة لمحمد عليه أفضل الصلاة والسلام بصدق نبوته ، وحسن الاعتقاد في أوليائه الصالحين من عباده وبرّيته (فمن يُرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) فلم نزل نميل إلى إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلام والمسلمين ، إلى أن أفضى إلينا بعد أئينا الجليل وأخينا الكبير نوبة الملك ، فأضنى عيننا من جلايبب أطفاه ولطائفه ،

(١) انظر ترجمته في فوات الوفيات ١٣٤/٢ وعند جواد - طبع ببغداد - ص ٤٨٠ وعند الغزوى ١/٢٦٠ .

الغزوى ١/٢٥٩ . (٢) مسج الأعشى ١/٦٥٨ .

(٣) راجعه في الحوادث الجامعة (تحقيق مصطفى

ما حَقَّق به آمالنا في جزيل آلائه وعوارفه» .

وتمتضي الرسالة بهذه الصورة من السجع والصيغة الجيدة . والرسالة مؤرَّخة بأواسط جادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستائة وكتب الرد في رمضان سنة ٦٨١ ناصر^(١) الدين شافع بن علي بن عباس كاتب الإنشاء عن السلطان المنصور قلاوون . وقد ذكر السلطان أحمد بن هولاء كوفي رسالته - كما هو واضح - إسلامه وأيضاً أنه حرَّم على عساكره الغارات على البلاد ، وتقول الرسالة إن في اتفاق السلاطين صلاح العالم . ومن كُتاب الإنشاء في القرن الثامن ينجي^(٢) بن عبد الرحمن الجعبري الملقَّب بنظام الدين المتوفى سنة ٧٦٠ وكان يكتب عن السلطان بوسعيد (٧١٦ - ٧٣٦ هـ) . ويبدو أنه رحل إلى مصر ودمشق بعد وفاة السلطان ، ثم عاد إلى بغداد ، وأُعيد إلى وظيفته في كتابة الإنشاء عن حكامها إلى وفاته . ويلقانا في أواخر القرن التاسع الغياث^(٣) البغدادي عبد الله بن فتح الله كاتب الإنشاء ببغداد ، ولا نعود نسمع عن كاتب مهم في هذا العصر ، فسرعان ما دخلت العراق في حكم الدولة العثمانية . وكانت لاهتم بديوان الإنشاء في بغداد ، فضعف شأنه إلى أبعد حد . ولعل من الخير أن نتوقف قليلاً عند أهم كتاب الدواوين في العصر : أبي إسحاق الصائى والعلاء بن الموصلايا وضياء الدين بن الأثير .

أبو إسحاق^(٤) الصائى

هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زَهْرُون الصائى المكنى بأبي إسحاق ، أصل أبائه من حرَّان ، وُلد ببغداد سنة نيف وعشرين وثلثمائة ، وبها نشأ وتثقف وتأدب ، ولزم فيها مواطنيه الحرَّانيين وأخذ ما عندهم من الطب والرياضة والهندسة وعلم الفلك ، ويقول القفطى : له مؤلف في المثلثات . ويبدو أنه أحسن في نفسه مبكراً بنزوع شديد نحو الأدب وأن يصبح من كُتاب الدواوين ، فأخذ يكبِّ على النصوص الشعرية والنثرية ، وحفظ القرآن الكريم ، وكان شاعراً ففتحت له الأبواب وتعرَّف عليه الوزير المهلبى ، وأعجب به ، فاصطنعه لنفسه ، وأحضره مجالس أنسه ، ولم يلبث أن قلَّده ديوان الرسائل سنة ٣٤٩

- (١) صبح الأعشى ٧/٢٣٧ .
 (٢) ترجمته في الدرر الكامنة لابن حجر ١٩٢/٥ .
 (٣) العزوى ١/٢٧٧ .
 (٤) انظر في ترجمة الصائى اليتيمة ٢/٢٤١ وما بعدها ومعجم الأدباء ٢/٢٠ وابن خلكان ١/٥٢ ، ٤٤٥ .
 وصوان الحكمة ص ٣٤٢ وتاريخ الحكماء للقفطى ص ٧٥ والشذرات ٣/١٠٦ والإمتاع والمؤانسة ١/٦٨ والمقابس لأبي حيان (انظر الفهرس) وصبح الأعشى ٦/٤٨٣ و١٤/٣٦٠ (راجع الفهرس) وكتابتنا الفن ومذاهبه في النثر العربى (الطبعة الثامنة) ص ٢١٧ .

حتى إذا توفى المهلب سنة ٣٥٢ وصادر معز الدولة البويهى أمواله قبض على أبى إسحاق الصائى فيمن قبض عليه من أصحابه وخلصائه . واستعطف معز الدولة بقصائد جعلته يعفو عنه ويعيده إلى عمله فى ديوان الرسائل . وظل قائماً عليه طوال عهد ابنه عز الدولة بختيار ، وكان قد نشب خلاف بينه وبين ابن عمه عضد الدولة البويهى ، وكان الصائى فى أثناء ذلك يكتب باسمه مكاتبات إلى عضد الدولة تؤمّله ، وحدث أن تقرّر الصلح بينهما ذات مرة ، فطلب بختيار إلى الصائى أن يكتب نسخة يمين يستوفى فيه الشروط على عضد الدولة حتى الاستيفاء ، ولم يجد عضد الدولة حينذاك بُدأً من حلف اليمين ، وعرف أن أبى إسحاق الصائى كاتبه ، فحقد ذلك عليه . وتطورت الظروف ، ونشبت حرب بين بختيار وعضد الدولة سنة ٣٦٧ وسقط بختيار فى ميدانها صريعاً واستولى عضد الدولة على بغداد والعراق . ومرعان ما اعتقل الصائى وزجّ به فى غياهب السجون . ومازال بعض كبار رجال الدولة يشفعون له ، فقال عضد الدولة : ليصنّف كتاباً فى أخبار آل بويه ، فأخذ فى تصنيف كتاب «التاجى» وهو فى السجن، ونُقل إلى عضد الدولة أنه سُئل عما يصنع ، فقال : أباطيل أنمّقها وأكاذيب ألّفّقها ، فحقت عليه حنقاً شديداً ، وصمم أن يرميه تحت أرجل القبيلة ليقتل أشنع قتلة ، وعاد كبار رجال الدولة يشفعون له ، فعفا عنه إلا أنه ظل مبعداً فى أيامه . حتى إذا توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ عاد إلى تولى ديوان الإنشاء وظل يلبه إلى وفاته سنة ٣٨٤ . وقالوا إنه كان يتولى نقابة الصابئة فى بغداد وإنه كان شديد الإيمان بدينه الوثنى ، وحاول عز الدولة مراراً أن يدخله فى الدين الخنيف فكان يعتذر . وكان يصوم شهر رمضان مع المسلمين . وظل الحكام البويهيون ووزراؤهم يرتضون أن يكون على رأس الديوان أحد الصابئة عبدة الكواكب والنجوم ، وكأنهم تسامحوا معه لتفوقه فى الكتابة ، يقول الثعالبي إنه «أوحد العراق فى البلاغة ومن به تُنقى الخناصر فى الكتابة ، وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية فى البراعة والصناعة» ويقول أبوحيان التوحيدى : «نظمه منثور ، ومشوره منظومه ، إنما هو ذهب إبريز كيفما سُبك فهو واحد . وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد ، وما مائله فيها إنسان» وقد نشر شكيب أرسلان مختارات من رسائله بلبنان فى مجلدين ، وهى مطبوعة بطوابع السجع والمحسنات البديعية ، وفيها يقتبس كثيراً من آى القرآن الكريم ، ويضمنها أحياناً بعض الأحاديث النبوية وبعض الأشعار القديمة والحديثة ، وكان يطيل فى التحميدات أول الرسائل حتى ليظن قارؤه أنه من جلة المسلمين ، كقوله فى مطلع إحدى رسائله :

«الحمد لله العلى العظيم ، الأزل القديم ، المتفرد بالكبرياء والملكوت ، المتوحد

بالعظمة والجبروت ، الذى لا تحده الصفات ، ولا تحوزه الجهات ، ولا تحصره قرارة مكان ، ولا يغيره مرور زمان ، ولا تتمثله العيون بنواظرها ، ولا تتخيله القلوب بنواظرها ، فاطر السموات وما تظلل ، وخالق الأرض وما تُقِلّ .

وهو يستمر في هذا التحميد طويلاً ، ولولم نعرف أن الصائغ كاتبه لظنناه أحد الكتاب المسلمين المثقفين بثقافة الاعترال ، المؤمنين بوحداية الله وتتربيه عن الشبه بالمخلوقات ، فلا يحصره مكان ولا زمان ولا تحده جهات ولا صفات ، إذ ليس بجسم ولا عرض ، فالعيون لا تتمثله والنواظر لا تتخيله ، مبدع السموات والأرض . وفي هذه السطور من التحميد ما يوضح قدرته على السجع ، وهو لا يكتفى فيه بالروى الذى يجمع بين نهايتى السجعتين ، بل يحاول أن يوازن بين ألفاظ كل سجعتين في عدد حروفهما وحركاتهما وسكناتهما ، وكأن الرسالة صفوف موسيقية متقابلة ، فكلمة « العلى العظيم » يليها « الأزل القديم » وكلمة « المتفرد بالكبرياء والملكوت » يليها « المتوحد بالعظمة والجبروت » وتتوالى السجعات ، فكل سجعة تسمع في تاليها جرسها الموسيقى ، مع المهارة في اصطفاء الألفاظ . وقرأ له هذه القطعة من رسالة على لسان عز الدولة . . حاول فيها أن يستعطف عضد الدولة وأن يرده إلى ما بينها من صلة الرّجيم :

« إن من أعظم محن هذا البيت أن تزول منابت فروعه عن منابت أصوله ، وأن تُوتَى مراسى أوتاده من ذوائب عروشه ، وأن تدبّ بينهم عقارب المشاحنة ، وتسرى إليهم أرقام المناقشة ، وتنبث الدواهي فيهم من ذاتهم ، وقد كانت محسومة من أضدادهم وعداتهم . وإنما تمثلنا بهذه القطعة لنشير إلى أنه كان في أحيان قليلة لا يلتزم السجع بين كل عبارة وتاليها ، ومع ذلك كان يلتزم فيها الموازنة الصوتية الدقيقة بين كلمات الصيغتين المتجاورتين حتى يتلافى ما نقصهما من تماثل الروى في نهايتها . ومرّبنا أن أبا حيان أشار إلى أن له فنوناً من الكلام لم يسبقه إليها أحد ، ولعله يشير بذلك إلى بعض رسائل هزلية له ، وهى ليست رسائل سلطانية ولا إخوانية جادة ، إنما هى رسائل أراد بها إلى الإضحاك وإدخال شىء من السرور والسعادة على قارئه ، من ذلك رسالة رواها ابن خلكان كتبها رداً على رقعة وصلت إليه من شخص ، كان أهدى إليه جملاً ، وذكر ذلك في رقعته ، وفيها يقول : « ذكرت حملاً (كباشاً) جعلته جملاً ، . . فلما أن حضر رأيت كبشاً متقادماً الميلاد ، من نتاج قوم عاد ، قد أفنته الدهور ، وتعاقبت عليه العصور . . فبان دمامته ، وقصرت قامته ، وعاد ناحلاً ضئيلاً ، باليا هزيباً ، بادى الأسقام ، عارى العظام . . لا تجد فوق عظامه سلباً ، ولا تلقى يدك منه إلا خشباً ، قد طال للكلا ففقهه ، وبعد بالمرعى عهده ،

لم ير القتَّ إلا نائمًا ، ولا الشعرَ إلا حالمًا . . . وقلت أدبجه ليكون وظيفة للعبال . . . فأنشدني وقد أضمرت النار ، وحُدَّت الشَّفَار :

أعيدها نظراتٍ منك صادقةً أن تحسب الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمٌ^(١)
ثم قال : وما الفائدة من ذبجي . ولست بذى لحم فأصلح للأكل لأن الدهر قد أكل لحمي ، ولا ذى جلد يصلح للدِّبَاغ لأن الأيام قد مزقت أدمي ، ولا ذى صوف يصلح للغزل لأن الحوادث قد حصَّت (أذهبت) وِبَرِي .

وليست الفكاهة شيئاً سهلاً ، فقليلون هم الذين يعمَلون هذه الروح . وهي تدل على ظرفه وأنه كان لطيف المحضر حلو الحديث ، ولذلك قرب من نفوس معاصريه . وسجعه في هذه الرسالة التي يجدر بنا أن ندخلها في حيز الرسائل الأدبية مكتمل الأداء الموسيقي ، وهو قصير قصرًا تُسرى فيه العذوبة والرشاقة . وقد تطول السجعة كما في السجعات الثلاث الأخيرة ، ولكنه يخال عليها باكتمال الملاءمة الصوتية بين كلمات كل سجعة وتاليها وكأننا بإزاء معادلات موسيقية تامة . وللصائغ رسالة أدبية هزلية أخرى تختل في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى ست^(٢) صفحات كبيرة، وهي صورة عهد بالتطفل كتبه على لسان متطفل بغدادى كبير في عصره كان يسمى عَلَيْكَا إلى متطفل ناشئ ، يسمى على بن عرس الموصلى ، وهو يستهله بأن عليكَا عهد إلى تلميذه بإحياء سُنَّه وحفظ رسومه من التطفل على أهل بغداد وما يتصل بها من أُرْباضها (ضواحيها) وأكنافها في سوادها وأطرافها لما توسَّمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ، وكثرة اللقْم ، وجودة الهضم ، ويأخذ في سرد وصاياها في شكل أوامر وفرائض يجب أن يتبَّعها ابن عرس ، من ذلك أنه :

« أمره أن يعتمد موائد الكبراء والعظماء بفزايها ، وسُمطُ الأمراء والوزراء بسراياها . . . وأمره أن يتبع ما يعرض لموسرى التجَّار ، ومجهزى الأمصار ، من بِنان الدار ، والعُرس والإعذار (الختان) . . . وربما صَبَرُوا على تطفيل المتطفلين ، وأَغَضُوا على تهجم الواعِلين (الممعنين في التطفل) ليتحدَّثُوا بذلك في محافلهم الرَّذْلة ، ويمعدُّوه في مكارم أخلاقهم النَّذْلة . . . وأمره أن يصادق قَهَّارمة الدور ومدبريها ، ويرافق وكلاء المطايخ وحمَّالها ، فإنهم يملكون من أصحابهم أزيمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم . . . وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين ، ومواسم المتبايعين ، فإذا رأى

(١) البيت للمتنبي من قصيدته التي عاتب فيها سيف الدولة الحمداني . والضمير في أعيدها يعود إلى نظرات مودته نموحا وخذاعا .

يقول له : أعيذ نظراتك البصيرة أن تخدعك فلا تفرق بين (٢) صبح الأعشى ٣٦٠/١٤ .

وظيفةً قد زيد فيها ، وأطعمة قد احتشد مشتريها ، أتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل الحاوي لها ، واستعلم ميقات الدعوة . . وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ، فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم ، ومأذبة تغمهم . . حمل عليها حاملة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ، والليث الهاصر ، والعقاب الكاسر . . وأمره أن يروض نفسه ، ويغالط حسه ، ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً ، ويطوى دونه كشحاً ، فإن أته اللكزة في حلقة ، صبر عليها في الوصول إلى حقه ، وإن وقعت به الصفة في راسه ، صبر عليها لموقع أضراره ، وإن لقيه لاق بالجفاء ، قابله باللطف والصفاء .

والعهد بديع ، وهو يصور حياة المتطفلين المتسكعين ببغداد ، وكانت قد نشأت منهم طبقة كبيرة احترفت الأدب واتخذته وسيلة للشحاذة الأدبية ، وهم أهل الكدنية ، وقد تحدثنا عنهم في غير هذا الموضع مصورين كيف كانوا يتخذون الشعر الفكه لتصوير إفلاسهم وبؤسهم تصويراً يبعث السرور في نفوس سامعيهم . ولا ريب في أن أهل بغداد ظلوا يضحكون طويلاً كلما قرءوا عهد أبي إسحق الصائبي السالف أو تذكروه ، وسجعه فيه مكمل الأداء الموسيقي ، سواء قصره أو طوله ، إذ يبغي به دائماً أن يلد الآذان ، حين تنصت إليه لذة موسيقية بديعة .

العلاء^(١) بن الموصلياً

هو أمين الدولة أبو سعد العلاء بن الحسن بن وهب بن الموصلياً البغدادي ، ولد سنة ٤١٢ ببغداد وبها كان منشود ومرباه ، ونشأ نصرانياً ، وأقبل على دراسة الأدب وحفظ نصوصه من الشعر والنثر . كما أقبل على حفظ القرآن الكريم حتى يعد نفسه مثل أبي إسحاق الصائبي ليكون موظفاً بالدواوين ، وسرعان ما بهر الناس بأدبه ، ولم يلبث الخليفة القائم (٤٢٢-٤٦٧ هـ) أن جعله كاتب الإنشاء بدار الخلافة سنة ٤٣٢ هـ وظلت له هذه الوظيفة في عهد المقتدى (٤٦٧-٤٨٧ هـ) والمستظهر (٤٨٧-٥١٢ هـ) حتى توفي سنة ٤٩٧ هـ وبذلك شغلها خمسا وستين سنة . وأتم الله عليه في أثناء ذلك نعمته ، فأسلم وحسن إسلامه ، واختلف من ترجموا له في زمن إسلامه ، فالعماد الأصمعي يقول إنه كان في زمن القائم ، ويقول ابن خلكان إنه كان في زمن المقتدى ويعين السنة بأنها كانت سنة ٤٨٤ .

١ (١) انظر في ترجمته وما استشهدنا به من نصوصه

الخريدة (قسم العراق) ١٢٣/١ والملتزم ١٤١/٩

٤٥٣ ، ٣١/١٠ ، ٢٣٤ ، ٢٩٤ .

ونكت الهيمان ص ٢٠٦ والنجوم الزاهرة ١٨٩/٥ وابن

ونُغِيل إلى الأخذ برأى العباد لأنه ظل طويلاً ببغداد . وقد كُفِّ بصر العلاء في آخر حياته فكان ابن أخته هبة الله بن الحسن يكتب الرسائل عنه . وظل جاهه يزيد عند المقتدى كل يوم حتى صَمَّ إلى رياسته لديوان الرسائل النيابة في الوزارة وظل يضمهما في عهد المستظهر . ويقول العباد عنه : « كان بليغ الإنشاء ، سديد الآراء ، رسائله تعبر عن غزارة فضله ووفور علمه » ويقول الصفدى : « أحد الكتاب المعروفين الذين يُضْرَب بهم المثل » .

وقد احتفظ كتابُ صبيح الأعشى للعلاء في جزئه السادس بثلاث رسائل : رسالة بشارة بالنصر على البساسيرى في منتصف القرن الخامس حين قضى عليه طُغْرُبُك ، وهي موجهة من الخليفة القائم إلى صاحب عَزَّة ، ورسالة ثانية موجهة من الخليفة القائم أيضاً إلى شخص عيَّنه وزيراً له ورسالة ثالثة موجهة منه إلى أَسْر . وبالمثل احتفظ صبيح الأعشى في جزئه العاشر بثلاث رسائل أخرى ، أولها عهد ليوسف بن تاشفين بسلطنة الأندلس وبلاد المغرب ، وهو موجه إليه من الخليفة القائم ، ومعروف أن يوسف ابن تاشفين إنما تسلطن على الأندلس في سنة ٤٨٥ بعد وفاة القائم بنحو ثمانية عشر عاماً ، فإما أن يكون العهد خاصاً بسلطته على بلاد المغرب ، وإما أن يكون موجهاً إلى يوسف من الخليفة المقتدى الذى تسلطن يوسف على الأندلس في عهده أو من الخليفة المستظهر تاليه في الخلافة منذ سنة ٤٨٧ والعهد طويل ، إذ يقع في نحو أربع عشرة صفحة ، ويشتمل على عشرين آية قرآنية ، مما يدل بوضوح على حفظ ابن الموصلايا للقرآن وأنه كان يقبس من أضوائه في رسائله مثل الصائى . والرسالة الثانية موجهة من القائم إلى ابن جهير حين استوزره وأرَّخ القلقشندى الرسالة بسنة ٤٧٢ وكان القائم قد توفى منذ خمس سنوات ، ومعروف أن القائم استوزر ابن جهير مرتين : مرة سنة ٤٥٥ ومرة سنة ٤٦١ وظل في الوزارة حتى توفى القائم ، وأقره الخليفة المقتدى على الوزارة سنين ، ثم عزله . وبذلك يكون التاريخ الذى أرَّخ به القلقشندى هذه الرسالة الثانية غير دقيق .

والرسالة الثالثة موجهة من القائم إلى جاثليق النصارى النسطوريين في صورة عهد بجياطته هو وأهل ملته في نفوسهم وأموالهم ويبيعهم وديارهم ومقارَّ صلاتهم ، على أن تؤخذ الجزية - وكانت أشبه بضريبة دفاع - من رجالهم ذوى القدرة دون النساء ومن لم يبلغ الحلم ، ولا تؤخذ إلا مرة واحدة في السنة . والعهد يجعل الجاثليق النسطورى لا رئيساً للنساطرة المسيحيين الشرقيين فحسب ، بل أيضاً للروم واليعاقبة في بغداد وسائر البلدان الإسلامية ، فهو بطرك النصارى العام . ويلفتنا في العهد لابن تاشفين وفي الرسالة الموجهة إلى ابن جهير وكذلك في الرسالة التى تبشر بالنصر على البساسيرى أن ابن الموصلايا يطيل

في الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، وتجرى الصلاة في رسالة البساسيري على هذا النمط :

« الحمد لله الذي اختص محمداً ﷺ برسالته وحباه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضل وحواه ، وبعثه على حين فترّة من الرسل ، وخلاء من واضح السبل ، فجاهد بمن أطاعه من عصاه ، وبلغ في الإرشاد أقصى غايته ومداه . . إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا ، وسلكوا في نصرتة جدداً (طريقاً) واضحاً ومنهاجاً ، وغدت أنوار الشرع ضاحكة المباسم ، وآثار الشرك واهية الدعائم ، ومناهل الهدى عذبة صافية ، فضلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين وأصحابه المنتخبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ، وسلّم تسليمًا .
ولعلّي لا أخطئ إذا قلت إنه أسلم مبكراً على الأقل في منتصف القرن الخامس حين كتبت هذه الصلاة في رسالة البساسيري لا كما ذهب ابن خلكان إلى أنه أسلم سنة ٤٨٤ .
وواضح أن السجع كان يسيل على قلمه ، وكان يعنى فيه باصطفاء ألقاظه وأن تروع بجرسها الأسماع على نحو ما نرى في الفقرة التالية من عهد يوسف بن تاشفين :

« وأمره الخليفة أن يعدل في الرعايا قبّله ، ويحلّهم من الأمن هضابه وقلّه ، ويمنحهم من الاشتمال ، ما يحمى به أمورهم من الاختلال . . ويضنى على المسلم منهم والمعاهد (الذمى) من ظل رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويلحق التليد منهم بالطريف ، ليكون الكل وادعين في كنف الصّون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون ، وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل في مطاويه . . مليناً لهم في ذلك جانبه ، ومبيناً ما يظل به كاسب الأجر وجالبه ، جامعاً لهم بين العدل والإحسان ، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان ، قال الله تعالى : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .

وهو يلتزم السجع على هذا النحو في رسائله ، محاولاً بكل ما استطاع أن يصفى ألقاظه من الشوائب ، ويخلّجها من جميع الأدران حتى تروق السامع ، وحتى يبلغ من التأثير فيه كل ما يريد ، وهو يستم تأثيره بما يختم به فقره في هذا العهد وفي غيره من رسائله بما يورد من آيات الذكر الحكيم التي ترضى بأشعتها الكلام وتجذب إليه القلوب والأفئدة .

ضياء^(١) الدين بن الأثير

هو ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري ، ولد بجزيرة ابن عمر شمالي العراق سنة ٥٥٨ لأسرة تُعنى بعلوم الشريعة واللغة ، ووجهه أبوه لحفظ القرآن الكريم ، وفرَّغه للدراسة كما فرَّغ أخويه : المبارك وعز الدين صاحب كتاب الكامل في التاريخ . وانتقل ضياء الدين مع أبيه إلى الموصل سنة ٥٧٩ وفيها أتمَّ دراسته للعلوم الإسلامية واللغوية والبلاغية ، وأكبَّ على حفظ الأحاديث النبوية والأشعار القديمة والحديثة وخاصة أشعار أبي تمام والبحترى والمتنبي . ولما أحسنَّ أنه كملت له أدواته في الكتابة قصد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٧ ووصله به القاضي الفاضل وزيره ، فعمل في دواوينه نحو أربعة أشهر ، ثم طلبه الأفضل نور الدين من أبيه صلاح الدين ، ولَبَّى طلب ابنه ، فانتقل إلى العمل معه بنفس راتبه ، واتخذَه لنفسه مستشاراً ووزيراً . وتوفَّى صلاح الدين ، فصارت دمشق للأفضل ، وكَلَّف ضياء الدين بتدبير شئونها ، فأساء التدبير والمعاملة مع أهلها ، حتى هَمُّوا بقتله . وتطور الظروف ويصبح الأفضل سلطاناً على مصر ، فيلحق به سرّاً في صندوق مقل عليه خوفاً من الدمشقيين أن يقتلوه . ويظل نور الدين في مصر عاماً ويأخذها منه عمه العادل ويعوضه منها قلعة على الفرات تسمى سُمَيْسَاط . ويخرج ضياء الدين وراءه مستتراً إلى ولايته الجديدة ، ويقم عنده مدة ، ثم يفارقه إلى غير مأب في سنة ٦٠٧ ويرحل إلى أخيه السلطان الظاهر صاحب حلب ، ولا يطول مقامه عنده ، فيولى وجهه نحو الموصل ، ولا تستقيم حاله ، ويفارقها إلى إربل سنة ٦١١ ولا يستقر بها ، بل سرعان ما يخرج منها إلى الموصل ، وبها يلقي عصاه منذ سنة ٦١٨ إذ يصبح كاتب الإنشاء لصاحبها ناصر الدين محمود حتى نهاية حياته ، ويحدث أن يرسله في سنة ٦٣٧ إلى بغداد في بعض المهام ، فيدرکه بها الموت .

وحظيَّ ضياء الدين عند الأسلاف بشهرة عظيمة لروعة أسلوبه في رسائله ويقول ابن خلكان إنها كانت تشغل مجلدات ، والمختار منها - كما يقول - مجلد واحد . وربما كان أهم منها في سبب شهرته كتابه : « المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر » وفيه صور الصناعة اللفظية وما يتصل بها من المحسنات البديعية ، والصناعة المعنوية وما يتصل بها من

(١) انظر في ضياء الدين وترجمته ابن خلكان ٣٨٩/٥ والحوادث الجامعة (طبع بغداد) ١٣٦ وعبر الذهبي والشذرات ١٨٧/٥ وانظر كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ (طبع دار المعارف) ص ٣٢٣ .
١٥٦/٥ ومرآة الجنان ٤/٩٧ والنجوم الزاهرة ٦/٣١٨

صور البيان ، موضحاً توضيحاً تاماً ما يحتاج الكاتب إلى العكوف عليه واستيعابه وتمثله من العلوم اللغوية والبلاغية والأشعار وأمثال العرب وحفظ القرآن الكريم والحديث النبوي مع معرفة الأحكام السلطانية وخاصة أحكام الخلافة والولايات وما يتصل بذلك من الفقه . وبلغ من إعجاب بعض الأسلاف بالكتاب أن قالوا : « إن المثل السائر للنظم والنثر بمنزلة أصول الفقه لاستنباط أدلة الأحكام » . وله بجانبه كتب أخرى ، منها كتاب الوشئ المرقوم في حلّ المنظوم ، وقد أفرد فيه فصلين لبيان الاستعانة بآيات القرآن الكريم والحديث النبوي في الرسائل .

وكتاب المثل السائر يضع تحت أعيننا طريقته وخصائصه في رسائله الديوانية ، وهو يُعنى فيها قبل كل شيء بالسجع وتوشيته بالصور البيانية والمحسنات البديعية ، مع نثر ألفاظ القرآن للكريم والحديث النبوي فيها وحلّ آيات الشعر . وعادة يسوق في الكتاب أمثلة كثيرة من كتاباته يصور بها جوانب من صناعته في رسائله ، من ذلك استيحاؤه آيات سور الرعد والذاريات والصفافات ، وهى : (الله الذى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا) (وفى السماء رِزْقِكُمْ وما توعدون) (وحفظاً من كل شيطان ماردٍ لا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ من كل جانب) إذ يقول في إحدى رسائله واصفاً غبار الحرب :

« وَعَقَدَ العَجَاجُ^(١) شَفَقاً فَاثَقَدَ ، وَأَرَانَا كَيْفَ رَفَعُ السَّمَاءِ بِغَيْرِ عَمَدٍ ، غَيْرَ أَنهَا سَمَاءُ بُنِيَتْ بِسَنَابِكِ الجِيَادِ ، وَزُيِّنَتْ بِجُجُومِ الصَّعَادِ^(٢) ، فَفِيهَا مَا يُوعَدُ مِنَ المَنَابِئِ لا مَا يُوعَدُ مِنَ الأَرزَاقِ ، وَمِنهَا تُقَدِّفُ شِيطَانِ الحَرْبِ لا شِيطَانِ الأَسْتِرَاقِ .

ويعرض علينا أمثلة من اقتباسه للحديث النبوي وألفاظه في رسائله ، فن ذلك ما روى عن الرسول عليه السلام من أنه في غزوة حُتَيْنِ أخذ قبضة من التراب وألقاها في وجوه الكفار قائلاً : « شأهت الوجوه » . ونقل ذلك ابن الأثير إلى إحدى رسائله واصفاً الانتصار على العدو وسحق جنوده قائلاً : « أخذنا بسنة رسول الله ﷺ في النصر الذى نرجوه ، ونبذنا فى وجه العدو كفاً من التراب ، وقلنا : شأهت الوجوه » . ويورد ضياء الدين أمثلة كثيرة من حله للأشعار ، من ذلك بيت المتنبي الذى يصف فيه استفزاز سيف الدولة لقلعة الحَدَث من الروم وتجديد بنائها وتمزيق العدو شر ممزق ، إذ يقول :

وكانَ بها مثلُ الجنونِ فأصبحتُ
ومن جثِّ القَتلى عليها تَمائمٌ

وقد نثره ضياء الدين فى وصف معركة ماثلة قائلاً : « وكانما كان بالبلدة جنون ، فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلّق عليها من رموس القتلَى تَمائمٌ » . ومن ذلك بيت البحترى :

(٢) الصماد : الرماح .

(١) العجاج : الغبار .

سُلبوا وأشرقَتِ الدماءُ عليهمُ محمَّرةً فكانَهم لم يُسلبوا
فقد نثره في فصل من جملة رسالة تتضمن البشرية بهزيمة الكفار ومحقهم محققاً لم يثبت
منهم ولم يذُر. والفصل يجري على هذا النمط :

«سُلبوا وعاضتهم الدماء عن اللباس ، فهم في صورة عار وزئيم زى كاس ،
وما أسرع ما خيط لهم لباسها المحمَّر ، غير أنه لم يُجيب^(١) عليهم ولم يُزِرَّ ، وما لبسوه حتى
ليس الإسلام شعار النصر ، الباقي على الدهر ، وهو شعار نسجه السنَّان الحارق ،
لا الصَّنعُ الحاذق ، ولم يَعِبْ عن لابسِه إلا ريثما غابت البيض^(٢) في الطلِّي والحام^(٣) ،
وألف الطَّعنُ بين ألف الخط واللام .»

والفصل يدل على مهارة ضياء الدين في السجع ، وهي مهارة كتب بها مجلدات ، كما
أسلفنا من الرسائل الديوانية . وزراه في المثل السائر يحمل على الأسجاع العتنة التي تحيل
الكلام رصفاً لألفاظ وحشداً لكلمات دون أن تحمل شيئاً من المعاني الطريفة المبتكرة ،
بمحيث لا يبلذ السجع الفكر كما لا يبلذ السمع .

وينوه ابن خلكان ببعض صوره واستعاراته في أسجاعه ، ويضرب لذلك بعض
الأمثلة ، منها قوله في وصف النيل وقت زيادته وفيضانه في رسالة من رسائله : «وعَدَبَ
رُضَابُه فضاهاى جَنَّا النَّحْلُ^(٤) ، واحمَرَّ صَفِيحُه فَعَلِمْتُ أَنه قَتَلَ المَحَلَّ^(٥)» . ويقول ابن
خلكان : «وهذا بديع غريب نهاية في الحسن ، ولم أقف لغيره على أسلوبه» . وضياء الدين
يشير به إلى طمى النيل ، وكأنه في رأيه دماء الجذب ، وهي حقاً صورة رائعة . وجعلته
عنايته بالمعاني والصور المبتكرة يؤلف كتابه «المعاني المخترعة في صناعة الإنشاء» كما جعلته
عنايته بجل الشعر والاقباس من آيات القرآن والأحاديث النبوية يؤلف كتابه : «الوشى
المرقوم» .

وفي الحق أن ضياء الدين بن الأثير كان من الكتاب المجيدين ، ولم تحظ العراق بعده
بكتابت ديوانى على مثاله أو مثال أنداده السابقين . وحرى بنا أن نترك كتاب الدواوين إلى
أدباء العصر النابهنين : أئى حيان التوحيدى ، وابن مسكويه ، والحريرى .

(١) جيب الثوب : جعل له جيباً وهو فتحته العليا . (٤) الرضاب : الريق ورغوة العسل . جنا النحل :

عسله .

(٢) البيض : السيف .

(٣) الطلِّي : الحام .

(٤) الأعتاق ، والحام : الروس .

(٥) المحل : الجذب .

أبو حيان^(١) التَّوْحِيدِيّ

هو أبو حيان علي بن محمد بن العباس التَّوْحِيدِيّ ، وقد اختلف في مسقط رأسه وتاريخ مولده ووفاته ، فقبل مسقط رأسه شيراز بفارس ، وقيل نيسابور بخراسان ، وقيل واسط بجنوب العراق ، وقيل بغداد ، وهو القول الراجح في رأينا ، إذ ذكر كثير من مترجميه أن أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد يعرف باسم التوحيد ، وعليه حمل شرح المتنبي قوله :

يترشَّن من في رشفاتٍ هنَّ فيه أخلَى من التوحيد
وكانه هو وأباه نُسبا إلى هذا التمر . وخطأ ما ذهب إليه ابن حجر وغيره ممن ترجموا له من أن نسبه إلى التوحيد تعنى أنه من أهل العدل والتوحيد أى من المعتزلة ، إذ القداماء لا يُنسبون إليهم هذه النسبة ، وإنما يقولون هذا معتزلى وذلك غير معتزلى ، وسرى عما قليل أبا حيان من ألد خصومهم وخصوم المتكلمين عامة ، فليس بصحيح أنه منهم ولا أنه منسوب إليهم ، إنما هو ابن بائع متجول ببغداد كان يبيع تمر التوحيد . وفي هذا ما يشير بوضوح إلى أنه كان بغداديا ومن أسرة متواضعة . وتاريخ مولده بالدقة غير معروف ، إنما يعرف بالتقريب ، إذ روى ياقوت رسالة له مؤرخة بشهر رمضان سنة ٤٠٠ ذكر فيها أنه في عشر التسعين ، وإذن فيغلب أن يكون مولده في العقد الثاني من القرن الرابع بين سنتي ٣١٠ و ٣٢٠ . ويقال إنه في السنة المذكورة كان قد ألقى عصاه في شيراز وظل بها حتى توفى ، ويتأخر بعض مترجميه بوفاته إلى سنة ٤١٤ . وليس في المصادر القديمة نص على جنسيته أو على أصله ، واختلف المعاصرون من قائل إنه فارسي ، ومن قائل إنه عربي ، ويرجح عرويته اعترافه - كما جاء في ترجمه ياقوت له - بأنه لم يكن يعرف الفارسية ، وكرّر ما يشير

وزكريا إبراهيم ومحمد كرد علي في الجزء الثامن من مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق وأحمد أمين في تقديمه لكتاب الهوامل والشوامل وزكي مبارك في كتابه النثر الفني وإبراهيم الكيلاني في مقدمته لثلاث رسائل ولكتاب مثالب الوزيرين ومحمد توفيق حسين في تقديمه لكتاب المقاييس وبيروكلمان ٣٣٥/٤ ودائرة المعارف الإسلامية .

(١) انظر في أبي حيان وترجمته معجم الأدباء ٥/١٥ وابن خلكان ١١٢/٥ وشد الإزار لمعين الدين الشيرازي ٥٣ والمتنظم ١٨٥/٨ والسبكي ٢٨٦/٥ وتهذيب الأسماء واللغات ٢٢٣/٢ وميزان الاعتدال للذهبي ٣٥٥/٢ ، ٥١٨/٤ ولسان الميزان لابن حجر ٣٦٩/٦ وروضات الجنات ٧١٤ وكتبت عنه في العصر الحاضر مؤلفات وبحوث كثيرة لعبد الرزاق عجي الدين وإحسان عباس

إلى ذلك في المقابلة الثانية من كتابه «المقابسات» وفي المسألة الرابعة والثلاثين من كتابه «الهوامل والشوامل». وأيضاً فإنه يدافع عن العرب بقوة - دفاع العربي الأصيل - ضد الشعوبيين من معاصريه أمثال الجيّهاني ، ويرفعهم مكاناً عالياً ، كما يرفع لغتهم على كل اللغات لبيانها الرائع على نحو ما يلقانا في الليلة السادسة من ليالى كتاب الإمتاع والمؤانسة . وليس بين أيدينا شيء واضح عن طفولة أبي حيان ومرباه ومنشئه ، وطبيعي أن تكون طفولته عادية وأن يختلف إلى الكتاب مثل لداته يحفظ القرآن الكريم والشعر ويتعلم الخط والحساب ، وأكبر الظن أن أباه لاحظ فيه مخايل ذكاء منذ نعومة أظفاره ، مما جعله يدفعه إلى حلقات العلماء في المساجد ، وكانت مفتوحة ومهيأة لكل من أراد لونا من ألوان المعرفة . ويذكر أبو حيان طائفة كبيرة من أساتذته في كتاباته ، منهم في النحو واللغة أبو سعيد السيرافي المتوفى سنة ٣٦٨ وفي البلاغة والبيان على بن عيسى الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ وفي الفقه أبو حامد المروزي المتوفى سنة ٣٦٢ وفي الحديث أبو بكر الشافعي صاحب الغيلانيات المتوفى سنة ٣٥٤ ، وفي التصوف جعفر الخلدی تلميذ الجنيد المتوفى سنة ٣٤٨ وفي الفلسفة وعلوم الأوائل يحيى بن عدى تلميذ الفارابي المتوفى سنة ٣٦٣ وأبوسليمان المنطقي السجستاني الذي مر ذكره ، وقد تعرّف به في مجلس يحيى بن عدى وانعقدت بينها صداقة وثيقة ، حتى إذا استقل أبوسليمان بندوة أو مجلس كمجلس يحيى بن عدى أصبح أبو حيان من رواده ، بل من ملازميه ومسجّلي ما يدور بحضرته . وكان من أكبر الأسباب في اتساع ثقافته وأنها شملت كل علم وفن احترافه الوراقة أو نسخ الكتب بالأجرة للناس ، فقد قرأ وكتب بيده كثيراً من الكتب في كل فن وفي كل علم ، وانطبع كثير مما كتبه في ذهنه وحافظته سواء أكان نثرأ أو شعراً . واشتهر بشغفه بكتب الجاحظ وتوفره على تصحيحها وخاصة كتاب الحيوان ، فكان ما يكتبه منه يُعدّ نسخاً نفيسة في عصره ويُدرّ عليه مكافأة جزيلة ، كما جاء في مقدمة كتاب الإمتاع والمؤانسة ، بل لاشك في أن كل ما كان يكتبه كان يُجزى عليه الجزاء الحسن .

وتظل حياة أبي حيان مجهولة لنا حتى أوائل العقد السادس من القرن ، إلا ما نعرفه عنه من أنه كان ورّاقاً ، يعيش من نسخ الكتب ، ونراه يذهب إلى الحج في سنة ٣٥٣ ويتعرف في مكة على جماعة من الصوفية ، منهم ابن الجلاء والحُرّاني ، وفي كتاباته روايات وأخبار نسبها إليها . وعاد إلى بغداد في سنة ٣٥٤ والتقى فيها ببعض المتصوفة . ويبدو أنه أنس في نفسه شيئاً من القدرة الأدبية ، فرأى أن يقصد إلى ابن العميد في السرى لعله يجد لنفسه عملاً عنده ، أو لعله يوصي به أولى الأمر في خراسان . وبظل بعيداً عن بغداد منذ سنة

٣٥٥ حتى سنة ٣٥٨ إذ عاد إليها خالي الوفاض بعد أن طال وقوفه بباب ابن العميد . وكان تعرف في هذه الرحلة الطويلة إلى ابن مسكويه ويعلم من أعلام الهندسة والرياضة هو أبو الوفاء المهندس . وطبيعي أن يعود أبو حيان إلى عمله في الوراقة ونسخ الكتب . ويحدث في سنة ٣٦٣ أن تشتد مظالم الدولة للرعية بما ترهقها به من الضرائب وأن تثور الطبقات البائسة المحرومة ، واستفحل أمر العيارين وسيطروا على بغداد ونهبوا كثيرا من الدور خاصة دور الأغنياء ، وكان مما نهبوه دار التوحيدى ، فقد أخذوا كل ما كان بها من ذهب وثياب وأثاث وكل ما كان جمعه منذ أيام صباه كما يقول هو نفسه في الجزء الثالث من كتابه الإمتاع . ولعل هذا ما جعله يهاجم العيارين لا في هذا الكتاب وحده ، بل أيضا في كتاب الصداقة والصديق ، بل إنه يهاجم العامة جميعا حتى يقول في الليلة السادسة عشرة من كتاب الإمتاع : « طلب الرفعة بينهم ضعةً والتشبه بهم نقيصة » . وهو استعلاء غريب على العامة من رجل أسرته منهم ونشأ بينهم . وأهم من ذلك أنه يعترف بما أكسبته الوراقة من ذهب وثياب وأثاث ، ومع ذلك نراه هاجيا لهذه المهنة أشد الهجاء ثالبا لها أشد الثلب حتى ليسميا « حرقه الشؤم » . وهو يضيف إلى ذلك شكوى مرة من البؤس ، مما جعل كل من كتبوا عنه في هذا العصر يرثون لبؤسه وفقره ، معللين ذلك بأنه كان يعيش على الوراقة ، مع أنه كان يعيش منها في عصره بعض كبار العلماء دون شعور بالبؤس ، بل كان منهم من يكتبنى بالقليل مما ينسخ في حدود حاجته على نحو ما يرورى ياقوت في ترجمته للسريانى أستاذ أبى حيان في النحو واللغة من أنه كان لا يخرج إلى مجلسه في القضاء بين الناس أو في محاضرة طلابه حتى ينسخ عشر ورقات بعشرة دراهم بقدر مئوته يوميا . وطبعا لم يكن أبو حيان وأمثاله من المحترفين للوراقة يكتبنى بمثل هذه الورقات القليلة . وكان يحيى بن عدى أستاذه في علوم الأوائل وما يتصل بها من الفلسفة يحترف الوراقة على نحو ما يروى القفطى في ترجمته ، كما مر بنا ، وكان يكتب في اليوم واللييلة مائة ورقة . فالوراقة لم تكن مهنة بائسة كل هذا البؤس الذى تصوّره المعاصرون من شكوى أبى حيان المستمرة من الضنك وضيق العيش . وفي رأينا أن بؤسه كان بؤسا نفسياً أكثر منه بؤسا ماديا ، فقد كان يرى كثيرين ارتفعوا في الحياة وهم دونه في الثقافة والمعرفة والأدب والكتابة ، فكان يشعر بضجر شديد وبشقاء لا حد له يملاً قلبه حسرة ولوعة ، وظل هذا الشعور يلازمه حتى الأنفاس الأخيرة من حياته .

على كل حال لم تمنحه الوراقة راحة ولا رضا ولا طمأنينة ، ولعله من أجل ذلك فكر أن يضيف إليها بعض مؤلفات يكتبها أو يهديها باسم بعض الأعيان أو بعض ذوى المناصب

الكبرى ، وأيضاً فإن ذلك لم يُعدّ عليه بشيء من طمأنينة النفس وراحة الفؤاد فظل يشعر بالتعاسة والقلق المضنى . . . ومن أوائل ما ألفه كتابه « البصائر والذخائر » الذى نشره الدكتور إبراهيم كيلانى بدمشق فى ستة أجزاء : ويقول التوحيدى فى مقدمته إنه ابتدأ فيه سنة ٣٥٠ وانتهى منه فى سنة ٣٦٥ كما يقول إنه استقاه من كتابات الجاحظ وابن قتيبة والمبرد وغيرهم من أعلام الأدب فى القرن الثالث الهجرى . والكتاب على طريقة الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين ، ويحمل كثيراً من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال النساك وأشعار الشعراء وكلام حكماء الفرس واليونان والهند ، مما قرأه أبو حيان فى أثناء نسخه للكتب من كل لون وللدواوين القديمة والحديثة وفيه كثير مما سمعه من أساتذته ومعاصريه . وليس له فيه إلا جودة الاختيار وإلا مقدمته التى يدعو فيها إلى الزهد فى الحياة الدنيا الزائلة . وهى نزعة كانت تمس نفسه فى الأربعينيات على ما يظهر ، وكذلك فى الخمسينيات من عمره وبعده ذلك ، وهى التى دفعته إلى الحج ، غير أنها لم تكن تعمقه ، ولذلك نراه يطلب الدنيا فيذهب إلى الرىِّ وأرجان وافداً على أبى الفضل بن العميد ، ويرجع بجنح حنين . ويدور الزمن ويتولى الوزارة ابنه أبو الفتح ، ويزور بغداد ويتناقل الناس أخبار عطايه للعلماء وفى مقدمتهم السيرافى وأبوسليمان المنطقى ، ويشد أبو حيان الرحال إليه فى الرىِّ سنة ٣٦٦ راجياً أن يعرضه ما نهيه منه العيارون منذ ثلاث سنوات ، ويقدم إليه رسالة رواها ياقوت تكتظ بملق مسرف غاية الإسراف وإلحاح شديد فى السؤال وطلب النوال ، حتى لكأنه من أهل الكدبية والشحاذة الأدبية . وما كان أغناه عنها ، فإن أبا الفتح قابلها بالإعراض ، وكان أبو حيان يسرع دائماً إلى الهجاء والذم ، فرمما بلغه عنه شيء منها على الأقل يتصل بأبيه أبى الفضل بن العميد الذى ازورَّ عنه . وتتطور الحوادث سريعاً ، ويفتلك مؤيد الدولة البويهى أبى الفتح ويخلفه صاحب بن عباد ، فيعرض عليه أبو حيان خدماته ، ويكلفه بالوراقة له والنسخ ، ويظل ناسخاً له مدة ثلاث سنوات حتى سنة ٣٧٠ . وكان يُحضره مجالسه وعلى موائده ، فيتدخَّل فيما يكون من حديث بيجاجة وزهو وتعلم مما ملأ نفس صاحب عليه حنقاً وموجدة ، فبرم به صاحب برما شديداً ، وأبو حيان لا يتراجع ، بل يزداد وقاحة . ولا يبعد أن يكون أبو حيان قد أخذ يسلُّ عليه لسانه ، وأن شيئاً من ذمه نُقل إليه . على كل حال فسد ما بينها فساداً من الصعب إصلاحه أورتقه . وأخذ صاحب يحفوه ويصدُّه عن مجالسه صداقياً . وليس ذلك فحسب فقد حرمه من مكافأته على ما ينسخ ، إذ حبس عنه أجرته ، وكلماً لقيه تهمُّه له ، مما اضطر أبا حيان أن يرحل عنه بعد عمل متواصل لمدة ثلاث سنين دون أن يأخذ منه كما قال درهما

أوما قيمته درهم . وبمجرد أن عاد أبو حيان إلى بغداد انتقم منه ومن أبي الفضل بن العميد شر انتقام بتأليفه فيها كتابه « مثالب الوزيرين » الذى نشره بدمشق الدكتور إبراهيم الكيلانى ، وهى صحف هجاء لاذعة أشد اللذع للوزيرين الكاتبين المشهورين ، إذ تحامل عليهما تحاملاً مسرفاً وتجنّب عليهما تجنّباً قبيحاً ، محاولاً بكل ما استطاع أن يسليهما ما اشتهرا به فى الناس من الفضائل . ونصيب الصاحب فى هذا الهجاء المقذع أكثر من نصيب أبي الفضل بن العميد ، لأن جرح أبي حيان منه كان أبعد غوراً وأشدّ إيلاماً .

ويعود أبو حيان جريحاً كسيراً إلى بغداد وإلى حرفته فى الوراقة ، ويشفق عليه ابن مسكويه وصديقه أبو الوفاء المهندس ، لما تجرّع من حرمان مرير ، ومدّ إليه يد العون أبو الوفاء . أما ابن مسكويه فإنه ارتضى منه أن يؤلف معه كتابه « الهوامل والشوامل » والهوامل أسئلة لأبي حيان فى الفلسفة والطبيعة والسلوك واللغة ، والشوامل إجابات بديعة لابن مسكويه ، وقد نشره أحمد أمين والسيد صقر فى القاهرة ومعروف أن ابن مسكويه كان يلازم عضد الدولة ، فلا بد أن يكون قد نزل معه بغداد حين استولى عليها من ابن عمه بختيار سنة ٣٦٧ وكان أبو حيان غائباً فى الرىّ ، حتى إذا عاد وجد ابن مسكويه وكان قد تعرف به قديماً حين نزل الرىّ زمن أبي الفضل بن العميد . والمظنون أن حوار الهوامل والشوامل لم ينعقد بينهما حينئذ ، وإنما انعقد فى بغداد بعد مجيء أبي حيان من لدن الصاحب كاسف البال مقروح الكبد ، يؤكد ذلك أننا نجد ابن مسكويه يحاول أن يفرّج عنه الغم الذى ملأ قلبه وما انطوى عليه من الإحساس باليؤس واليأس المرير من الزمان والإخوان ، إذ لاحظ مسارب ذلك فى حنايا نفسه وجوانب أسئلته ، فقال له فى مطلع أجوبته : « انظر حفظك الله إلى كثرة الباكين حولك وتأسّ ، أو إلى الصابرين معك وتسلّ ، فلعمر أيبك إنما تشكو إلى شاك وتبكي على باك ، فى كل حلق شجىّ وفى كل عين قذىّ . فالتاس كلهم شاكون باكون مثل أبي حيان ، وكلهم يعترض فى حلقه ما يكاد يعضّ به ، وحسبه أن يكون له فى الناس قدوة وأسوة . وكأن ابن مسكويه أراد بالكتاب أن يكون فيه سلوان لأبي حيان ، ينسيه همومه ولو إلى حين . ومع تقديمه هذه الهدية الفكرية لأبي حيان تجده يهاجمه فى الليلة الثانية من كتابه الإمتاع ، ويبدو أن سبب تهجمه عليه ما نعته به أبو حيان من أنه كان شحيحاً شحاً شديداً ، وكأن أبا حيان لم يجد عنده ما كان يأمله من العون على ما كان يتجرّعه من الصاب والعلقم .

أما أبو الوفاء المهندس فكان نعم الصديق لأبي حيان ، وكان قد تعرف عليه قديماً ووعده بالسعى فى صلاح حاله ، وحين لقيه بعد عودته من لدن الصاحب أرعاه بصره كما يقول أبو

حيان وأعاره سمعه ، وبدأ فتوسط له عند القائميين على بيارستان بغداد ، فعينوه راعيا لبعض شئونه . وأهم من ذلك أنه قربة من ابن سعدان أحد كبار رجال الدولة البويهية ، فكلفه بنسخ كتاب الحيوان للجاحظ ، وأخبره زيد بن رفاعة في سنة ٣٧١ أن أبا حيان يفكر في صنع رسالة عن الصداقة والصدق ، فشجع ابن سعدان أبا حيان على إنجازها غير أنه لم ينجزها توا ، بل ظل يراجعها ويزيد فيها حتى نشرها سنة أربعمائة ، وهي أقوال وأشعار مجموعة على طريقته في كتابه البصائر والذخائر ، ولا يكاد يكون له فيها سوى المقدمة وحديث عن ندماء ابن سعدان وحسن اختياره للمادة التي كَوَّن منها الموضوع ، والرسالة طُبعت بإستانبول والقاهرة . ويتسم الزمن فترة لابن سعدان من سنة ٣٧٢ حتى سنة ٣٧٥ إذ يصبح وزيرا لضمصام الدولة البويهى ويتخذ له مجلسا علميا فلسفيا أدبيا للحوار ليلا في كل ما يتصل بالإلهيات والطبيعات والأخلاق وعلم الكلام واللغة والشعر وقد ذكر أبو حيان العلماء والمتفلسفة الذين كانوا يتحاورون في هذا المجلس بكتابه « الإمتاع والمؤانسة » وقد نشره أحمد أمين وأحمد الزين في ثلاث مجلدات بالقاهرة . وجعل ابن سعدان أبا حيان واسطة عقد هذا المجلس ، فأزال من نفسه غشاوات الكتابة التي كانت قد تراكمت فيها طوال سنوات وقوفه بأبواب الوزراء : أبى الفضل بن العميد وابنه أبى الفتح والصاحب بن عباد ، وسأله صديقه أبو الوفاء أن يسجل في كتاب أطرف المسائل التي تناوفا حوارا مع ابن سعدان ، فألف له كتاب الإمتاع مقتصرًا فيه على ما دار في سبع وثلاثين ليلة ، وعادة يعرض الوزير سؤالًا ويأخذ أبو حيان في الإجابة ، وقد يطلب إليه في موضوع أن يكتب فيه رسالة حتى يوفيه حقه ، وقد ينقل إليه مناظرة طويلة دارت في سوق الوراقين أو دارت في عهد وزير آخر مثل مناظرة السيرافي ومتى بن يونس في النحو والمنطق بمجلس الوزير ابن الفرات سنة ست وعشرين وثلثمائة ، وقد رواها أبو حيان كاملة في الليلة الثامنة . وعرض الحوار جوانب من حياة البغداديين كجانب الغناء واللهو . وليس في الكتاب ما يدل على أنه أُلّف بعد فتك ضمصام الدولة البويهى بابن سعدان سنة ٣٧٥ ويغلب أن يكون أبو حيان ابتداء تأليفه في حياة الوزير ، وأتمه بعد وفاته ، ذكرى عزيزة له ولجلسه العلمى الفلسفى الرائع الذى لم يبلغ مبلغه مجلس أى وزير أو حاكم بويهى في زمنه .

وعلى نحو ما سجل أبو حيان حوارا مع ابن سعدان في الإمتاع والمؤانسة سجّل في كتاب المقابسات أطرف ما دار من حوار في ندوة أبى سليمان المنطقى السجستانى ، ومرّ بنا في غير هذا الموضوع حديث طويل عن المقابسات وعن أبى سليمان ، ونرى أبا حيان يصرحُ

في المقابلة الخامسة والثلاثين أنه يكتبها ووراءه خمسون عاما ويذكر في المقابلة الحادية والستين أنه قرأ على أبي سليمان كتاب النفس ببيعداد سنة ٣٧١ ، ويتحدث في للمقابلة الثانية والخمسين عن شخص توفي سنة ٣٨٦ وهناك مقابلة هي المقابلة الثانية والثمانون اختلفت المخطوطات في تاريخ إملاء أبي سليمان لها على تلاميذه ، هل هي سنة إحدى وسبعين أو هي سنة إحدى وتسعين . وإن صح التاريخ الأخير كان زمن المقابسات وإقامتها يمتد طويلا من نحو سنة ٣٧٠ حتى سنة ٣٩١ وإلا فقد امتد يقينا حتى سنة ٣٨٦ .

وليست المقابسات جميعها من إملاء أبي سليمان فكثير منها من إملاء من كانوا يحضرون ندوته من المتفلسفة ورجال الفكر . ويذكر أبو حيان في المقابسات الثانية والرابعة والواحدة والتسعين أنه حرر كلام أبي سليمان وغيره من أهل الندوة فأخلاه مما كان فيه من اضطراب اللفظ وزين التأليف ، ويقول إنه استفد الطاقة في تنقية الألفاظ من الشوائب ، حتى يسلّم التعبير . وجعل ذلك بعض المعاصرين يتسع في الظن ، فيقول إن صياغة المقابسات وغيرها من النصوص التي يحكيها أبو حيان عن المتفلسفة إنما هي من صنيعه ، وإن أبا سليمان وغيره من جلسائه إنما لهم المعنى وحده . وقد يؤكد ذلك بالقياس إلى أبي سليمان خاصة ما وصفه به أبو حيان في الليلة الثانية من كتابه « الإمتاع » بأن في لسانه لُكْنَةٌ ناشئة عن عجمته وما ذكره عنه من أن في عبارته تقطعا في السياق ، غير أن ما نعرفه عن أبي حيان من أن أحدا لم يسلّم من لسانه يجعلنا نشك فيما قاله عن أستاذه . ولعلّي لا أجاوز الحق إذا قلت إن المقابسات في جملتها من كلام أبي سلمان ورفاقه نصًّا ولَفْظًا . ومما يؤكد ذلك أن من يرجع إلى المقابلة السابعة عشرة المنسوبة لابن سوار المشهور باسم ابن الحمار المتفلسف يجدها بنصّها ولفظها في كتاب صوان الحكمة لأبي سليمان المنطوق ص ٣٣٥ ومثلها المقابلة الثانية والأربعون المنسوبة إلى نفس المتفلسف فإنها بنفس اللفظ والنص في صوان الحكمة ص ٣٥٣ . والمقابلة التاسعة والعشرون المنسوبة إلى النوشجاني موجودة بلفظها ونصها في صوان الحكمة ص ٣٤١ . ونفس أبي سليمان في كتابه صوان الحكمة وفي رسائله التي ألحقها به الدكتور بدوي يملك بوضوح زمام العربية ويصدر عن ملكة بيانية جيدة . ونحن لا ننفي عن أبي حيان جهده في تنسيق المقابسات وتصحيحه أو إصلاحه بعض عباراتها ، ولكن هذا لا يعنى ما قبل من أن اللفظ أو الصياغة في المقابسات له ، والمعنى لأبي سليمان وصحبه ، فصياغتها ولفظها أيضاً لهم إلا ما أدخله أبو حيان في بعض التغييرات وبعض الحذف أو الزيادات أحيانا . وقد طبع كتاب المقابسات طبعت مختلفة في بومباي والقاهرة وبغداد .

وتمضى مع أبي حيان بعد وفاة ابن سعدان ، ويبدو أنه عاد بعده إلى عملين : الوراقه وتأليف بعض الكتب والرسائل وأهم كتاب أخرجه بأخرة من حياته كتاب الإشارات الإلهية المطبوع في القاهرة وبيروت ، وأكثره مكتوب في صورة رسائل موجهة إلى بعض الضالين عن طريق الهداية الإلهية وإلى بعض السالكين وإلى مجموعة من المتصوفة . وتتخلل ذلك مناجيات وأدعية وابتهالات تصوّر استشرافه إلى الملأ الأعلى . وقد يهبط من هذا الملكوت إلى تصوير ما استشره سنوات طويلا من الضياع والحرمان والشكوى من الناس شكوى مريرة حتى ليتجه إلى ربه في رسالته رقم « به » قائلا : « اللهم إليك أشكو ما نزل بي منك ، وإياك أسأل أن تعطف عليّ برحمتك ، فقد - وحققك - شددت الوثاق ، وضيقت الخناق ، وأقت الحرب بيني وبينك » . ومثل هذا الإحساس بالتردد على الخالق إنما بلغ ذروته ، حتى أصبح إحساسا بالحرب كما يقول ، في عهد ووقوفه بأبواب الوزراء : أبي الفضل بن العميد وابنه أبي الفتح والصاحب بن عباد . ولذلك نظن ظنا أن الإشارات الإلهية مثلها مثل كثرة كعبه لم تolf في عام واحد ولا في أعوام قليلة ، فبعضها يرجع إلى الستينيات من حياته إن لم يكن إلى الخمسينيات ، وبعضها متأخر في السبعينيات من حياته وبعد السبعينيات يدل على ذلك ما يجري في كلامه من هجر للدنيا وترهاتها وتعلق بالله ووقوف طويل بيابه في طلب العفو والرجاء في نعيمه ، وعيناه تعترضها الدموع ، وقلبه يتحرق شوقاً لاكتحال بصره بنور ربه .

وحاول الدكتور عبد الرحمن بدوى في تقديمه للكتاب أن يربط بين مناجيات أبي حيان في الإشارات وبين مزامير داود وبعض آيات الأنجيل وأولى من ذلك في رأينا الربط بين مناجياته والمناجيات المبثوثة في عيون الأخبار لابن قتيبة ، فصادرهما عنده مصادر إسلامية لا أجنبية . وهى تدل بقوة على تعمق الدين الخفيف في قواده وصفاء جوهره الروحي . أما ما رده ابن الجوزى والذهبي وغيرهما - ونقله عنهم السبكي في طبقاته - من أنه كان زنديقا كبيرا ، فهو بهتان عليه أى بهتان ، وقد دافع عنه السبكي ، وقال إن الذهبي حمل عليه ، كما حمل على المتصوفة جميعاً ، وهى حملة ظالمة .

والحق أنه كان سنيا شديد التمسك بالسنة ولعل هذا هو السبب المهم الذى جعله يهاجم المعتزلة والأشاعرة والمتكلمين مهاجمة عنيفة ، حتى ليقول فيهم عامة في الليلة الثامنة من كتابه الإمتاع : « لم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية أو دمعت عينه خوفاً أو أقلع عن كبيرة رغبة . . . جدّ الله عروقهم واستأصل شأفتهم » ويفضّل الأميين عليهم ويقول إنهم أتى لله عز وجل وأذكر للمعاد وأيقن بالثواب والعقاب ، ويسلّق الباقلاني الأشعري العظيم

بلسان حاد . وهى طبيعةُ أئى حيان حين يهجوُ سَيْفٌ فى هجائه إسفافاً شديداً ، حتى لراه يصف الباقلانى بأنه على طرائق الملحدة . وربما كان من أسباب حملته على المتكلمين - بجانب أنه سنى - ما أشرنا إليه فى غير هذا الموضع من أنهم كانوا يصلون بين الفلسفة والدين ، وكان هو وأستاذه أبو سليمان يرون الفصل بينهما ، حتى لا يتسلل الإسماعيلية وغيرهم عن طريق هذا الوصل ، كما مرَّ بنا ، إلى مذاهيم ونحلهم الباطلة . وكان يهاجم الشيعة كما هاجم المتكلمين وكانت الدولة البويهية الحاكمة لبغداد شيعية ، فلم يهاهم بالمهجوم ، بل اتبع طريقة أخرى : أن يكتب رسالته التى سماها رسالة السقيفة ، وينسبها إلى أئى بكر وعمر زاعماً أنها وجهها بها إلى على بن أئى طالب لبيان أنه دون أئى بكر منزلة فى استحقاق الخلافة . وقد نشرها بدمشق إبراهيم الكيلانى مع رسالتين أُخريين : أولاهما فى علم الكتابة والثانية فى بيان أنواع الحياة على نحو ما كان يتصورها المتفلسفة فى عصر أئى حيان . وله رسالة فى بيان ثمرات العلوم نشرت ملحقة بكتاب الصداقة والصدىق المطبوع فى القاهرة وبها تعريفات للعلوم المختلفة .

ووراء كل ما قدمنا لأئى حيان كتب ورسائل أُخري سقطت من يد الزمن ، فلم تصلنا ، منها رسالة سماها «الحج العقلى إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعى» وأكبر الظن أنه يقصد بها - إن صححت نسبتها إليه - النسك والعبادة لمن لا يستطيعون إلى الحج سبيلا . وذكر ياقوت رسالة له كتبها إلى أحد أصدقائه سنة أربعمئة وفيها يذكر أنه أحرق كتبه ، لما فقد من الولد النجيب والصدىق والحبيب والتابع الأديب ، ونظن ظنا أنه لم يحرق جميع كتبه ، وإنما أحرق طائفة منها يريد أن ينشرها فى الناس ، ولعله لم يرتض أن تنسب إليه . وعلى كل حال كتبه المهمة كانت قد ذاعت وشاعت نُسَخُها فى الناس ، فلم يؤثر إحراقه لها - إن كان قد أحرقها - شيئاً . وكان هذا الإحراق كان معلماً قوياً على طريق حياته التى أخذ يفضيها فى شيراز منذ هذا التاريخ متجهاً بكيانه وروحه إلى بارئه ، مناجياً له وداعياً ، مع اتخاذه لنفسه حلقة يروى فيها الناسُ عنه - كما ذكر السبكي - الحديث النبوى حتى وفاته .

وأبو حيان يُعدُّ أكبر أدباء العراق فى هذا العصر من القرن الرابع الهجرى إلى القرن الثالث عشر ، ويمتاز أدبه بتنوع موضوعاته ، إذ تناول فيه - كما فى كتابه الإمتاع والمؤانسة - كثيراً من جوانب التفلسف والفكر العميق فى الإلهيات والطبيعات والإنسان والأخلاق والنفس ، فأدبه ليس لفظياً ، قَعْمَةً ولا طِحْنً ، بل هو أدب يحمل زادا كبيراً من المعانى ، وقد أشار مراراً فى الإمتاع وغيره من كتبه إلى أن واجب الكاتب أن يعنى بالمعانى كما يُعنى بالألفاظ ، وهو شىء طبيعى لمن تمثل مثله ثقافة زمنه على اختلاف ألوانها ، فقد

استوعبها استيعاباً رائعاً، وصدر عنها في كتاباته صدوراً طبيعياً، كما يصدر الضوء عن الشمس. وأداه ذلك إلى أن يفصل عن موجة السجع التي سادت الكتابات الأدبية في أيامه، إذ رأى فيها طلباً للفظ أو الألفاظ واستعلاء لها على المعاني، بل قل تحيُّفاً وانتقاصاً، فازورَّ عنها. وكانت المكتبة العربية قد ألفت بكنوزها بين يديه في أثناء وراقته ونسخه، فراعها أسلوب الجاحظ وأدبه، إذ رآه يوازن موازنة دقيقة بين الأداء الصوتي والمعاني، مستخدماً أسلوب الازدواج الذي عُرف به، وقد يتخلله في الحين البعيد بعد الحين السجع، ولكن دون الترامه ودون الإكثار منه، فاستقر هذا الأسلوب في نفس أبي حيان وأصبح جزءاً لا يتجزأ من أدبه وكتاباته. ويبلغ فيه ذروة من الجمال الصوتي لعلها لا تقل جمالاً وروعة عن نظيرتها عند الجاحظ. وهو يتسع اتساعاً واضحاً في أسلوبه بالترادف وما يتبعه من التقطيع الصوتي، ولنقرأ هذه الفقرة في فاتحة الرسالة التي توصل بها إلى أبي الفتح بن العميد.

« اللهم هبني لي من أمرى رشداً، ووفقني لمرضايتك أبداً، ولا تجعل الحرمان عليَّ رصداً، أقول وخير القول ما انعقد بالصواب، وخير الصواب ما تضمن الصدق، وخير الصدق ما جلب النفع، وخير النفع ما تعلق بالمزيد، وخير المزيد ما بدا عن شكر، وخير الشكر ما بدا عن إخلاص، وخير الإخلاص ما نشأ عن اتفاق، وخير الاتفاق ما صدر عن توفيق. »

وقد بدأ أبو حيان الرسالة بالسجع وسرعان ما انصرف عنه إلى أسلوب الازدواج، معادلاً بين كل عبارة وتاليها معادلة صوتية دقيقة، وليس ذلك فحسب، فإنه يستغل قدرته الفكرية في تفریع الجمل بعضها من بعض. إذ بدأ بالصواب وجعله ينتهى بالتوفيق. ونحس كثيراً إزاء ازدواجيات أبي حيان وتفرعاته كأنما يريد أن يكتسح بها قارته اكتساحاً، دون أن يستطيع تخلصاً أو إفلاتاً. وكان عجباً له أن هذه الرسالة التي كتبها لأبي الفتح لقيت منه إعراضاً، وعرف أن السبب في ذلك أنها لم تكتب بلغة السجع لغة معاصره، إنما كتبت بأسلوب الجاحظ، فرأى أن يدافع عن هذا الأسلوب بقوة مما جعله يكتب رسالة في تفریع الجاحظ يشيد فيها به ويفته. ولا يروعننا عنده ظاهر هذا الأسلوب وما يتخلله من السجع أحياناً إنما يروعننا فيه أيضاً ما شفعه به من تلوينات عقلية تتداخل في جميع أوعيته الصوتية، ونقصد الشراب السائع الذي تحمله هذه الأوعية من المعاني الغزيرة حين يتحدث عن موضوع من الموضوعات، فإذا هو يستقصيه من جميع أطرافه، ولا يكاد يترك فيه فكرة ولا خاطرة. ويكنى لبيان ذلك كتابه «مثالب الوزيرين» الذي

يقع في نحو ثلثائه وستين صحيفة ، إذ لم يترك جانباً فيها إلا مزقه تمزيقاً ، وخاصة
الصاحب بن عباد ، وإنه ليعتذر عن ثلثه وذمه بمثل قوله في الكتاب :

« رمانى عن قومه مُعْتَرَقاً^(١) فأفرغت ما كان عندى على رأسه مغيضاً ، وحرمنى
فازدريته ، وحقرتنى فأخزيتته ، وخصصنى بالخبية التى نالت منى ، فخصصته بالغيبة التى
أحرقته ، والبادى أظلم ، والمتصف أعذر ، وكنت كما قال الأول :

وإن لسانى شهدهُ يُشْتَفَى بِهِ أَجَلٌ وَعَلَى مَنْ صَبَّهُ اللهُ عَلَقَمُ
ولئن كان معنى ماله الذى لم يبق له ، فما حظ على عرَضه الذى بقى بعده ، ولئن كنت
انصرفتُ عنه بِخَفَى حَيْنٍ ، لقد لصق به من لسانى وقلمى كل عار وسُنار^(٢) وشَيْنٍ ،
ولئن لم يرني أهلاً لثالته^(٣) وبرّه ، إني لأراه أهلاً بقول الحق فيه ، ونث^(٤) ما كان اشتمل
عليه من مخازيه ، ولئن كان ظن أن ما يصير إلى من ماله ضائع ، إني لأوقن الآن أن ما
يتصل بعرضه من قولى شائع . والمنصف فى الحكم يعُذّر المظلوم ، ويلوم الظالم .

وواضح فى الفقرة أن أبا حيان يعتمد فى أسلوبه المزدوج على المقابلات ، فهو يقابل
بين صنيع الصاحب به وصنيعه بالصاحب فى كل عبارتين متواليتين . وهو يتسع فى ذلك
هنا وفى كثير من جوانب كتاباته ، يرفده فى ذلك ذهن خصب حافل بالمعاني المتقابلة فلا يكاد
المعنى يدونه قلمه حتى يسيل معه مقابله . وشيء من ذلك كان عند الجاحظ وقد صورناه
فى حديثنا عنه بكتابنا « الفن ومذاهبه فى النثر العربى » ولكن الجاحظ لا يبلغ فيه هذا المبلغ
الذى نجده عند أبى حيان فقد كانت ثقافته ، وخاصة الثقافة الفلسفية ، أوسع بحكم تقدم
العصر ، فغزر فكره إلى أقصى حد ، وكان لسانه يطاوعه ولا يتأبى عليه شيء من التعبير ،
فانسعت المقابلات عنده واتسع توليد المعانى بل فيضانها من نبع متدفق لا يتوقف رفدُهُ ولا مدده .
وزراه فى الإشارات يصور إحساسه فى أواخر حياته بالغبرة التى طالما أمضته والتى
وصفها فى مقدمة رسالته : الصداقة والصديق ، إذ لم يبق له مؤنس ولا صاحب
ولا مشفق إلا الوحشة والوعدة ، وكادت شمس الحياة تغرب ، وماء الحياة ينضب . وإنه
ليطيل فى الإشارات فى « نغم للغريب إذ يمتد فى ست صفحات لَبَّتْ فيها الألفاظ ولَبَّتْ
المعاني بمثل قوله :

« قد قيل الغريب من جفاه الحبيب ، وأنا أقول : بل الغريب من واصله الحبيب ،

(١) معترقا: أى حتى نفذ السهم من اللحم إلى

(٢) نازل : عطاء .

(٣) نث : نشر .

العظم .

(٤) سنار : شتعة .

بل الغريب من تغافل عنه الرقيب ، بل الغريب من حابه الشَّريب^(١) ، بل الغريب من نودى من قريب ، بل الغريب من هو في غربته غريب ، بل الغريب من ليس له نسيب ، بل الغريب من ليس له من الحق نصيب . . والغريب من غربت شمس جماله ، واغترب عن حبيبه وعدَّاله . . والغريب مَنْ إن حَضَرَ كان غائبا ، وإن غاب كان حاضرا . . والغريب من إذا ذُكر الحق هُجر ، وإذا دعا إلى الحق زُجر ، وإذا قعد لم يُرر . . الغريب مَنْ إذا قال لم يسمعوا قوله ، وإذا رأوه لم يدوروا حوله . . الغريب من إذا أقبل لم يوسَّع له ، وإذا مرض لم يُسأل عنه . . الغريب من إن زار أُغلق دونه الباب ، وإن استأذن لم يُرْفَع له الحجاب . . الغريب ليله أَسَف ، ونهاره لَهْف ، وعَدَاؤه حَزَن ، وعَشاؤه شَجَن ، وسيره عَلَن ، وخوفه وطن . .

وهي كلمات من سيل الغربة الذي تدفق في صفحات الإشارات ، وكأنا هو سيل ليس له آخر من المعاني التي صيغت في أسلوب الازدواج . وغَلَبَ السجع في هذه الكلمات ، وهو يكثر في الإشارات كثرة لا تراها في كنه الأخرى ، مما يدل على أنها حقا آخر كتاباته . ونجد فيها نفس الحرارة التي لا تغيب أبدا عن كتابات أبي حيان لا في شبابه ولا في هرمه . وارجع إلى فكر أبي حيان الخصب في هذه الكلمات وما يصوره من ضروب الغربة ، حتى لتشمل الغربة النفسية لمن لم يغترب ، بل لمن يواصله الحبيب وينعم بوصله . وبذلك بثَّ في كلامه معاني إنسانية عميقة ، وهي تجرى في كتاباته ، وقد ختم حديثه عن الغريب بقوله : « دع هذا كله . الغريبُ من أخبر عن الله بأنباء الغيب داعيا إليه ، بل الغريب من تمالك في ذكر الله متوكلا عليه ، بل الغريب من توجه إلى الله قاليا لكل من سواه ، بل الغريب من وهب نفسه لله متعرضا لجدواه » . فحتى الصوفي غريب ، ولعله أولى بالشفقة والعطف من جميع الغبراء حوله . ومن أروع الأشياء حقا أدعيته ومناجياته لربه في الإشارات من مثل قوله :

« اللهم رَوِّحْ صدورنا بنسيمِ وَدِّك ، واغمرُّ أرجاء قلوبنا بغوامر من رِفْدِك ، وأذُقنا حلاوة بِرِّك ، وجدِّ علينا بك ، واخلِّ بيننا وبينك ، وجلِّ أبصارنا إليك . . واجعل أرواحنا مغارس معرفتك ، وألستنا قواطف وصفك ونعتك ، في قدرتك وحكمتك ، وإذا عطشنا قرونا ، وإذا ضعفنا فقرونا ، وإذا عوججنا فسونا ، وإذا اعتلنا فداونا ، وإذا كدرنا فصفنا ، وإذا دسنا فنقنا . . وإذا بنا منك فصلنا بك » .

• وخصائصه التي صورناها واضحة في هذا الدعاء ، فهو يعتمد فيه على الازدواج

(١) الشريب : المشارك في الشرب .

ومعادلاته الموسيقية ، هو وما قد يلتحم معه من السجع ، كما يعتمد على التفرجات في المعاني والتوليدات والمقابلات والاستعارات مما يروع قارئه روعة شديدة ، بل مما يتمتع سمعه وعقله وقلبه متعة هنيئة .

٤

ابن (١) مسكويه

هو أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب بن مسكويه ، واضطرت المصادر القديمة في مسكويه هل هو اسم جده أو هو اسمه ، فذكر ياقوت في ترجمته وكذلك القفطي في تاريخ الحكماء أن مسكويه اسمه ، وقال ابن خلكان في ترجمة ظهير الدين الروذراوري إنه أبو علي أحمد بن محمد المعروف بمسكويه . وجعلت المصادر الأخرى لترجمته مسكويه اسم جده ، وهو الذي يتبادر من اتفاق المصادر على أن اسمه أحمد بن محمد ، وكأن اسم جده غلب عليه أحياناً . ويقول ياقوت إن مسكويه كان مجوسياً وأسلم وكان عارفاً بعلوم الأوائل معرفة جيدة ، وكأنه خلط بين الحفيد والجد ، فالمجوسية للجد والمعرفة بعلوم الأوائل للحفيد .

وليس بين أبدينا شيء واضح عن نشأة ابن مسكويه ومرباه فضلاً عن مولده ومسقط رأسه ، وأكبر الظن أنه ولد حوالي سنة ٣٢٠ للهجرة لا سنة ٣٣٠ كما ظن مرجليوث في مقدمته لكتاب تجارب الأمم ، إذ نراه يعمل مع المهلبى وزير معز الدولة البويهى منذ سنة ٣٤٥ حتى وفاته سنة ٣٥٢ والمقول أن يلتحق بالعمل في دواوينه وهو في نحو العشرين على الأقل . ونسبه بعض من ترجموا له إلى الرى ، وقد تكون مسقط رأسه وموطن آبائه . ويبدو من صلته المبكرة بالمهلبى وعمله معه ببغداد أنه إما أن يكون منشؤه ومرباه فيها بحيث أتاحت له فرصة تعرفه على المهلبى ، وإما أن يكون قد نزلها في شبابه لاستكمال ثقافته . وتدل كتبه ومؤلفاته على أنه كان فيه نزوع للاطلاع على كتب الأدب والتاريخ وعلوم الأوائل ، ولا بد أنه اختلف في بغداد إلى كثير من أساتذة هذه العلوم . ونظن ظناً أنه

الإسلام لدى بورص ١٥٨ ومقدمة مرجليوث لكتاب تجارب الأمم والتراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية ترجمة د . بدوى ص ٩٠ ودائرة المعارف الإسلامية فى مادة ابن مسكويه وكتاب ابن مسكويه : فلسفته الأخلاقية ومصادرها لعبد العزيز عزت (طبع القاهرة) ومقدمة د . عبد الرحمن بدوى لكتابه الحكمة الحالدة .

(١) انظر فى ابن مسكويه وترجمته تمة البيهية ٩٦/١ ومعجم الأدياء ٥/٥ وابن خلكان ١٣٧/٥ وروضات الجنات للخوانسارى ٣٦ وتاريخ الحكماء للقفطي ٣٣١ وابن أنى أصيبعة ٣٣٠ ورسائل الخوارزمى وصوان الحكمة ص ٣٤٦ وما بعدها والإمتاع والمؤانسة لأنى حيان ٣٥/١ ومقدمة أحمد أمين للمهاول والشوامل وتاريخ الفلسفة فى

اختلف مع لداته إلى يحيى بن عدى وجماله التي كان يحاضر فيها تلاميذه في تلك العلوم ، كما اختلف إلى حلقات شيوخ مختلفين في اللغة والتاريخ ، ثم التحق بالعمل مع المهلبى . ونراه في كتابه تهذيب الأخلاق يصرح بأنه مرت عليه فترة كان يعكف فيها على اللذات الجسمانية ويستكثر من المطاعم والملابس والزينة وأنه تدرج إلى فطام نفسه بعد الكبر واستحكام العادة وأنه جاهد نفسه جهادا عظيما حتى استخلصها من مطالب النفس الشهوانية وارتقى بها إلى مطالب النفس الناطقة أو العاقلة من الفضائل . وأغلب الظن أن هذا الاسترسال في اللذات إنما كان في عهد المهلبى الذي مر بنا انهاكه في الغناء والقصف وشرب الخمر وأنه كان يعقد بقصره لذلك ليلتين في كل أسبوع . ولا بد أن ابن مسكويه كان يحضر هذا المجلس من حين إلى آخر ، واندفع فيما اندفع فيه المهلبى من اللهو ، حتى إذا توفى وصادر معز الدولة أمواله وقبض على بعض حواشيه ولّى ابن مسكويه وجهه نحو الرىّ ووزير ركن الدولة هناك أبى الفضل بن العميد ، فأقامه خازنا على مكتبته . وربما كان في ذلك ما يدل على أنه عُرِف بثقافة واسعة تشمل كل علم وكل فن ، ولذلك اتخذ ابن العميد مشرفاً على مكتبته ينظّمها ويضيف إليها روائع الكتب لزمته في مختلف العلوم والفنون . وتعرّف عليه أبو حيان التوحيدى حين وفوده على ابن العميد . وقال إنه رآه يهتم بعلم الكيمياء دون غيره من علوم الأوائل . وأكبر الظن أن أبا حيان بالغ في قوله ، فقد كان ابن مسكويه يهتم بعلوم الأوائل جميعاً كما يتضح من مديحه لأبى الفضل بن العميد في الجزء السادس من كتابه تجارب الأمم ، إذ يقول عن شغفه بهذه العلوم : « فأما علم المنطق وعلوم الفلسفة والإلهيات منها خاصة فما جسر أحد في زمانه أن يدعيها بمحضته » وطبعى وابن مسكويه خازن كتبه أن يكون له بها نفس اهتمامه . وكان يعهد إليه بتربية ابنه أبى الفتح وتعليمه . ولما توفى أبو الفضل سنة ٣٦٠ وتحوّل مقاليد الوزارة إلى أبى الفتح ظل خازنا لكتبه وأعلى منزلته . ويُقبَضُ على أبى الفتح سنة ٣٦٦ ويتحول ابن مسكويه إلى عضد الدولة البويهى ، مؤملا العمل عنده فيتحذه خازنا لكتبه ، ويجعله من ندمائه المقربين إليه ، حتى إذا استولى على بغداد سنة ٣٦٧ تحوّل معه إليها . وأخذ يُعنى - منذ هذا التاريخ على الأقل - بمجالس المتفلسفة ومصاحبهم ، فكان لا يكاد يفترق عن ابن الحمار المتفلسف الذى مرّ ذكره ، كما كان يلم أحيانا بمجلس أبى سليمان المنطقى السجستانى ويستمتع إلى ما فيه من محاورات بين متفلسفة عصره . أما زعم أبى حيان بأنه أعطاه شرحاً لإيساغوجى وقاطيغورياس لأبى القاسم غلام أبى الحسن العامرى سنة ٣٧٢ فلا يغض من شأنه كما أراد ، بل لعله يدل على رغبته في الاطلاع على كتب الفلسفة . وظل بعد وفاة عضد الدولة

في السنة المذكورة يعمل مع ابنه صمصام الدولة (٣٧٢ - ٣٧٦ هـ) ثم مع ابنه الثاني بهاء الدولة (٣٧٩ - ٤٠٣ هـ) ويبدو أنه تحول مع صديقه ابن الخمار إلى بلاط خوارزم شاه مأمون بن مأمون إذ يُذكر أنها خدماته مع جملة من الأطباء منهم ابن سينا ، ويغلب أن يكون ذلك في أوائل القرن الخامس الهجري . وحدث بينه وبين ابن سينا شيء من الجفوة ، حتى ليذكر القفطى أن ابن سينا قال إنه حاضره في مسألة فاستعاده كرات دون أن يفهمها ، ويصفه بأنه كان عسر الفهم . وفي رأينا أن ابن سينا تجنّى عليه ، كما تجنّى عليه أيضاً أبو حيان في كلمته عنه بكتابه الإمتاع إذ قال إنه «مَيْمَى بَيْنَ أَيْبَاء» . وكتبه تشهد بفصاحته وذكائه . وبأخرة من حياته ترك خوارزم إلى أصفهان وعاش حتى بطلت حركته وبلغ من الكبر عتياً ، فقد توفي عن نحو مائة عام سنة ٤٢١ . وكان شيعياً إمامياً يعتقد بعصمة الإمام علي نحو ما ذكر ذلك في خواتيم كتابه الفوز الأصغر .

وابن مسكويه يُعدّ في الصفوة من فضلاء عصره وأجلّائه ، يقول الثعالبي في وصفه : «إنه في الذروة العليا من الفضل والأدب والبلاغة والشعر» ويذكر له طائفة من أشعاره تدل على براعته الشعرية وإحسانه في صنع الشعر ونظمه ، غير أنه لم يتفرغ له ولم يجعله وكدّه وهمة . وكان ناثراً بليغاً كما يتضح من ترأسله مع الخوارزمي وبديع الزمان . وفي رسائل الخوارزمي رسالة يعزيه فيها عن زواج أمه بعد وفاة أبيه ، مما يؤكد أن صداقة كانت ناشبة بينها ، وربما رجعت إلى أيام شبابه . وفي ترجمة ياقوت له رسالتان متبادلتان بينه وبين بديع الزمان ، يتصلّ البديع في أولاهما من شيء بلغ ابن مسكويه عنه بعد مودة وثيقة كانت بينهما ، وردّ عليه ابن مسكويه فاسحاً في تنصّله ومشيداً ببلاغته . ولم يجعل ابن مسكويه التراسل الأدبي صناعته ، إذ كان يهتم بالتأليف ورسالة خلقية كبرى جرد نفسه لها في معظم كتاباته وتأليفاته ، ويذكر له القفطى من كُتبه المتصلة بالطب كتاباً في الأدوية المفردة ، وذكر له كتاباً في الأطعمة .

وأول ما نقف عنده من كُتبه كتابه «تجارب الأمم» وهو في التاريخ العام من الطوفان حتى سنة ٣٦٩ مع أنه عاش بعد ذلك طويلاً كما مرّ بنا ، ويقال إنه وصل به حتى وفاة عضد الدولة صاحبه سنة ٣٧٢ . ويبدو من مقدمة الكتاب ومن نفس اسمه أنه أراد به أن يتخذة الناس وخاصة الملوك والحكام والقواد عظة وعبرة ، مما يرون فيه من أحداث التاريخ وتجاربه ، فقصده مقصد أخلاق ، وهو المقصد الأسمى الذي ابتغاه في تأليفه على نحو ما سنرى عما قليل . وللكتاب أهمية تاريخية بعيدة ، وقد سقط من يد الزمن أكثر أجزائه ، ونُشر منه القسم الأخير الخاص بالقرن الرابع الهجري وهو فيه يعرض تاريخ البويهيين الذين خدم في

دولتهم عرضاً عادلاً منصفاً دون تحيز ، ومما يدل على ذلك موقفه من صديقه أبي الفضل ابن العميد حين كَفَّ يده عن مساعدة المتطوعين لجهاد الروم الذين أقبلوا من خراسان في حماسة بالغة حين جاءهم النبأ المشؤم باستيلاء الروم على ثغرى المصبية وطرَسوس في شمالي الشام ، إذ وفدوا على أبي الفضل بن العميد في الرى سنة ٣٥٤ يطلبون المال للميرة والسلاح ، فردَّهم ردّاً منكراً ، وكأنه خشى منهم مكيدة فسَلَطَ عليهم جنوده ، ففرَّقوا جمعهم ، وبأسى لذلك ابن مسكويه قائلاً : « لو أن هؤلاء المتطوعين لجهاد الروم - وكانوا يبلغون نحو عشرين ألفاً - أعطاهم ابن العميد المال الذى طلبوه لانضمت إليهم في الطريق أعداد ضخمة من الغزاة المجاهدين ولنكَلُوا بالروم نكالاً شديداً ، لكن لله أمراً هو بالغه . فصداقته لأبي الفضل بن العميد لم تمنعه من تسجيله عليه هذه الوصمة في تاريخه ، ويبدو أن ابن مسكويه فرغ من تأليفه لهذا الكتاب التاريخي الذى كان يقع في ست مجلدات إما في حياة عضد الدولة وإما بعد وفاته مباشرة لأنه لم يذكر فيه شيئاً عن خلفائه من أبنائه .

وهذا المقصد الأخلاقى من العبرة والعظة الذى دفعه إلى تأليف هذا الكتاب التاريخي الضخم دفعه أيضاً إلى تأليف كتابه « جاويدان خرد » أى العقل الأزلى ، وقد اختار له اسماً فارسياً ، مما يدل على أنه ألف مبكراً ، وهو لا يزال في الرى بخدمة أبي الفضل بن العميد وابنه ، وربما كان أول مصنفاته ، وقد نشره الدكتور عبد الرحمن بدوى باسم الحكمة الخالدة ، وهو بصور في ابن مسكويه منزعاً إنسانياً واضحاً ، إذ يجعل العقل الإنسانى وما يتجه من الحكم فوق كل جنس وكل أمة ، بدليل ما جمعه في الكتاب من حكم الفرس والهند والعرب والروم الشرقيين ، مما يثبت أن العقل الإنسانى واحد مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة بالإنسان ، ومهما اختلفت الظروف الطبيعية والاجتماعية .

وقد شغل ابن مسكويه نفسه بالأخلاق حتى عدَّ من أئمة نظرياتها ومباحثها ، وهو يعرض لها في ثلاثة كتب ، هى الفوز الأصغر وتهذيب الأخلاق والهوامل والشوامل . أما الفوز الأصغر فقد تناول فيه ثلاث مسائل كبرى ، وجعل كل مسألة في عشرة فصول ، والمسألة الأولى تتصل بالإلهيات ، وهى في إثبات الصانع وأنه واحد أزلى ليس يجسم وأنه واجب الوجود ليس بمتركب ولا متكرر ولا متحرك مما يؤكد أنه إنمَّا يُعْرَفُ بطريق السلب دون الإيجاب ، وأيضاً فإن الله أبدع الأشياء لا من شىء . والمسألة الثانية تتصل بالنفس وأحوالها وأنها ليست يجسم ولا عرض وأنها تدرك المحسوسات والمعقولات وأنها ليست الحياة بل هى التى تعطى الحياة ، وهى لا تبطل ولا تموت ، ولها حال من الكمال تكون بها سعادة

الإنسان عن طريق الحكمة النظرية والأخرى العملية التي تحصل بها الهيئة الفاضلة التي تصدر عنها الأفعال الجميلة . وإذا عاق هذه الحكمة عائق فإنه يتدنى في حال من النقص يكون فيها شقاؤه . ويوضح هنا توضيحاً رائعاً كيف أن الإنسان خلق مديناً بالطبع ، إذ لم يخلق خلقاً من يعيش وحده من الوحش والبهائم والطيور وحيوان الماء ، فكلها تتم لها حياتها خلقة وإلهاماً ، أما الإنسان فلا تتم له حياته إلا بالتعاون والتعاقد في كل ما يتعلق به من المطعوم والملبوس والمشروب . ويحمل على الزهاد الذين يحرمون المكاسب لأنهم يعتمدون على الناس في ضرورات أبدانهم ويطلبون معونتهم ولا يعاونونهم بشيء ، وهم بذلك - في رأيه - جائرون ظالمون . والمسألة الثالثة في النبوات ، وقد بدأ فصولها بالحديث عن مراتب الموجودات في العالم التي تسرى فيها الحكمة ويظهر التدبير المتقن ، وهي النبات والحيوان والإنسان . وكل نوع في هذه الموجودات الثلاثة لا يزال يترقى حتى يصل إلى صورة النوع الذي يليه ، فالنبات لا يزال يرقى حتى نرى أرفعه يقبل صورة الحيوان على نحو ما يرى في أشجار النخيل ففيها الذكر والمؤنث وتحتاج إلى التلقيح كالسفاد في الحيوان ، والحيوان لا يزال يرقى حتى يقبل صورة الإنسان في القرود وما يماثلها في الحلقة الإنسانية . وهي تقرب في التمييز وقبول المعارف من الزنج وأشباههم . وبالمثل لا يزال يرقى الإنسان حتى يبلغ وجوداً أعلى من الوجود الإنساني وهو وجود الملائكة . ومن هنا أو في هذه الدائرة يظهر الأنبياء . وواضح أن فكرة ترقى الموجودات عند ابن مسكويه تشبه نظرية أهل النشوء والارتقاء ، مما يدل على روعة تفكيره وأصالته .

وخصَّ ابن مسكويه نظريته الأخلاقية بكتاب مفرد هو تهذيب الأخلاق ، وهو كتاب نفيس إلى أقصى حد ونظريته فيه تقوم على المزج بين الروح الإسلامية كما يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية وبين آراء فلاسفة اليونان : أرسطو وجالينوس وأفلاطون وكذلك آراء الكندي والفارابي وما قرأه من حكم الفرس والهنود والعرب وما تلقفه من تجارب الحياة . وهو يستهله بتعريف النفس وأنها ليست جسماً ولا جزءاً من جسم ولا عرضاً ، ويستدل على أنها ليست جسماً بأنها تقبل صور الأشياء المتناقضة بينما الأجسام لا تقبل إلا صورة واحدة كالطول والعرض والبياض والسواد ، ثم هي تدرك المحسوسات والمعقولات وتميز المدركات الحسية والعقلية الصحيحة والخطئة . ويلاحظ - كما لاحظ الفلاسفة قبله - أن للنفس ثلاث قوى : قوة شهوانية وقوة غضبية وقوة عقلية . ويقول إن الغرض من كتابه إصابة الخلق الشريف الذائق لا العرضي عن طريق المال أو السلطان أو المكائفة والمغالبة . ويمضى فيما وضع الكتاب من أجله وهو بيان نظريته الخلقية عن الخير

وكيف أنه غاية الإنسان من وجوده حتى يحصل على الفضائل ، وهو لا يحصل عليها إلا إذا طهّرت نفسه من الشهوات الجسدية والتزوات البيهيمية ويفرق بين الخير والسعادة ، فالخير عام للبشر جميعاً والسعادة خاصة بكل إنسان حسب ما يحقق لنفسه من المآرب العقلية وغير العقلية . ولما كان الخير كثيراً ولم يكن في طاقة الإنسان الواحد القيام بجميعة وجب أن تنهض به جماعة كثيرة ، حتى يتوزعوه ، ولذلك يجب على الناس أن يحب بعضهم بعضاً لأن كلا منهم لا يتحقق كماله إلا بغيره . ويرى أن الأجناس الكبيرة للفضائل أربعة هي الحكمة والعفة والشجاعة والعدل ، ويأخذ في بيان أنواع كل جنس من هذه الأجناس ملاحظاً نظرية الأوساط الأخلاقية عند أرسطو ، وهي أن الفضيلة دائماً تقع بين رذيلتين . ويأخذ برأى جالينوس القائل بأن الناس أقسام ثلاثة : أختيار بالطبع وهم قلة ، وأشرار بالطبع لا يمكن أن يتحولوا أختياراً وهم كثرة ، ووسط بين الطرفين ، وهم قابلون لأن يكونوا أختياراً بالتأديب أو أشراراً أيضاً بالتعليم ، وقد ينتقلون إلى الخير بمصاحبة الأختيار وبالمثل إلى الشر بمصاحبة الأشرار . وينقل عن أرسطو أن الشرير قد ينتقل إلى الخير بالتأديب . ويعرض للشرعية وأنها هي التي تقوم الناشئة وتعودهم الأفعال الحيرة ، ويقول إن كمال الإنسان في اللذات المعنوية لا في اللذات الحسية ، وإن من الواجب أن تُربى الناشئة على أحكام الشرعية ثم تنظر في كتب الأخلاق حتى تتأكد تلك الأحكام والآداب في أنفسها . ويدل بفصل طويل في تأديب الناشئة والصبيان يقتبس أكثره من بروسن ويتحدث عن طائفة من الآداب في المطاعم وغيرها ، ويطلب في الحديث عن الخير والسعادة وفرق ما بينهما مما أشار إليه . ويفيض في بيان الفضائل . ثم يتحدث عن التعاون والاتحاد ، وفي رأيه أنه لا يمكن أن تقوم جماعة بدون المحبة ، وأن علم الأخلاق إنما هو علم الإنسان بما يجب عليه في الجماعة ، وبها تفسر الأخلاق ، فليس هناك خلق فاضل لا يكون محوره الجماعة ، ومن هنا كانت الأفعال الدينية لا توصف بأنها خلقية وكانت العبادة تخرج عن علم الأخلاق . ومن آرائه الطريفة أن أحكام الدين الحنيف تؤلف مذهباً خلقياً يقوم على محبة الإنسان للإنسان ، ولذلك كانت العبادات دائماً تتطلب الجماعة على نحو ما هو معروف عن الندب لصلاة الجماعة وفرض صلاة الجمعة واشتراك الناس في أداء فريضة الحج . وهكذا تقوم شريعتنا على الأئس والمحبة ، وفي الدرورة من المحبة محبة الله وتليها محبة التلاميذ لأساتذتهم ثم محبة الأبناء لآبائهم . ويقف عند الصداقة طويلاً مبيناً آدابها ، ثم يتحدث أحاديث طريفة عن أمراض النفس وأسبابها وعلاجها وكيف أن الإنسان في حاجة إلى أن يعرف عيوب نفسه ، ويعرض طائفة من الرذائل كالتهور والغدر والغضب .

وكان هذا الكتاب النفيس يُدرّسُ للناشئة في كثير من البلدان العربية في هذا العصر وشطر من العصر الحديث ، وحرى بنا أن نعود إلى دراسته لهم في المدارس الثانوية ، حتى ندهم بخير زاد لتقوم سلوكهم وتربيتهم تربية خلقية سديدة . وكثيرون يظنون أن قوام نثرنا الرسائل الرسمية والشخصية !

وحسبنا هذا الكتاب ليزى منه خطأ هذه الفكرة وأن في العربية كتباً نثرية نفيسة لا تمتد صفحاتها في أسجاع قلما تحوى غذاء فكرياً ، بل تمتد في أسلوب مرسل وتشتمل على زاد من غذاء خلقى تربوي رائع .

ومر بنا أننا نظن ظناً أن ابن مسكويه ألف هذا الكتاب قبل أن يعرض عليه أبو حيان أسئلته الكثيرة التي أجاب عنها في الهوامل والشوامل ، وظننا أن ابن مسكويه أجاب أبا حيان عن أسئلته الكثيرة بعد رجوعه بجنى حنين من لدن الصاحب ترويحاً عن نفسه الجريح ، ونقول الآن إن كتاب تهذيب الأخلاق هو الذى دفع أبا حيان إلى أن يعرض أسئلته الكثيرة على عالم الأخلاق وفيلسوفها كما اتضح في هذا الكتاب ، وأيضاً كما اتضح في الفوز الأصغر ، فقد ألفه ابن مسكويه هو الآخر قبل الهوامل والشوامل بدليل أنه ذكره في بعض صحفه .

ويكمل كتاب الهوامل والشوامل نظرات ابن مسكويه الأخلاقية . والكتاب مجموعة من المسائل الهوامل التي تحتاج إلى إجابة ، جمعها أبو حيان ، وقد بلغت مائة وخمسا وسبعين مسألة ، وجهها إلى الفيلسوف الأخلاقي ابن مسكويه ، فأجاب عليها إجابات شوامل ، وهي موزعة بين مسائل خلقية ولغوية وأدبية وعلمية . وإجابات ابن مسكويه تصوره حقاً متفلسفاً ومفكراً كبيراً ، وقد أعجب الأستاذ أحمد أمين في تقديمه للكتاب بإجابة بديعة من إجاباته رد بها على سؤال أبي حيان هل تأتي الشريعة بما يخالف العقل ويأباه كذبح الذبائح مثلاً؟ فقد ردّ على هذا السؤال قائلاً :

« ليس يجوز أن تردّ الشريعة من قبل الله تعالى بما يأباه العقل ويخالفه ، ولكن الشاك في [مثل] هذه المواضع لا يعرف شرائط العقل وما يأباه ، فهو أبداً يخلطه بالعادات ، ويظن أن تأتي الطباع من شيء هو مخالفة للعقل . والعقل إذاً أي شيئاً فهو أبدى الإباء له لا يجوز أن يتغير في وقت . . . وأمر العادة قد يتغير بتغير الأحوال والأسباب والزمان . . . وذبح الحيوان ليس من الأشياء التي يأباه العقل وينكرها بل هو من الأشياء التي تأبأها بعض الطباع والعادة . »

ويذكر ابن مسكويه أن ما يعرض للإنسان من كراهية ذبح الحيوان إنما هو لمشاركته له

في الحيوانية وأنه يخطربباله أنه ربما أصابه نفس المكروه بجماع الحيوانية بينه وبين الحيوان . ولا يزال ابن مسكويه يتعمق في الإجابة موضحاً أن الشريعة لا تخرج عن مقتضى العقل بحال . وتذكر طرفاً من إجابة ابن مسكويه عن مسألة خلقية سألتها أبو حيان ، وهي إذاعة الأسرار مهما ضُرب عليها من حُجب الكتمان ، يقول :

« قد تبين في المباحث الفلسفية أن للنفس قوتين إحداهما معطية والأخرى آخذة . فهي بالقوة الآخذة تستيب (تسرجع) المعارف وتشتاق إلى تعرف الأخبار ، وبها يوجد الصبيان أول نشوئهم محيين لسماع الخرافات ، فإذا اكتهلوا أحبوا معرفة الحقائق . وهذه القوة هي انفعال وشوق إلى الكمال الذي يخصُّ النفس . وهي بالقوة المعطية تُفيض على غيرها ما عندها من المعارف ، وتفيده العلوم الحاصلة لها ، وهذه القوة ليست انفعالاً بل فاعلة . وهاتان القوتان موجودتان للنفس بالذات لا بالعرض . فكل إنسان يحرص بإحدى قوته على الفعل ، وهو الإعلام ، وبالأخرى على الانفعال ، وهو الاستعلام . . فقد ظهر السبب الداعي إلى إخراج السر ، وهو أن النفس لما كانت واحدة واشتاتت بإحدى قوتها إلى الاستعلام ، واشتاتت بالأخرى إلى الإعلام لم ينكتم سرٌّ بتة . وهذا تدبير الهى عجيب ، ومن أجله نقلت الأخبار القديمة وحفظت قصص الأمم ، وعنى المتقدمون بتدوين ذلك وحرص المتأخرون على نقله وقراءته » .

ويمضى ابن مسكويه فيذكر أن صاحب السرينبغى أن لا يستودع إلا القادر على نفسه والقاهر لزوجاتها ، وأن إخراجها من جملة شهوات النفس وأن حفظه لذلك يحتاج بمجاهدة شديدة . وهذه الإجابة توضح كيف كان عقل ابن مسكويه خصباً وكيف كان حافلاً بالآراء الطريفة ، وهو يعرضها في أسلوب جزل مصقول ليس فيه أى صعوبة ولا أى عوج أو التواء . وقد روى ياقوت في ترجمته نسخة وصية له طريفة يعاهد فيه الله على العفة والشجاعة والحكمة وما يتفرع عن ذلك من شيم نبيلة رفيعة .

٥

الحريري^(١)

هو أبو محمد القاسم بن علي الحريري ، كان أبوه من أثرياء « المشان » ، وهي قرية قريبة

(١) انظر في الحريري وترجمته الأنساب للسمعاني وشذرات الذهب ٥٠/٤ واللباب ١/٢٩٥ ومرآة الجنان ١٦٥ ب وخريدة القصر (قسم العراق) ٥٩٩/٢ ٢١٣/٣ والعير في خير من عبر ٣٨/٤ والنجوم الزاهرة . ومعجم الأدياء ٢٦١/١٦ وابن خلكان ٦٣/٤ وإنباه الرواة ٢٣/٣ وتذكرة الحفاظ والسبكي ٢٦٦/٧ الأنباري ص ٣٧٩ وشرح الشريشي على المقامات =

من البصرة ، وقد ولد له سنة ٤٤٦ وبها كان منشؤه ومرباه . ثم سكن البصرة في حى بنى حرام الفزاريين ، وأخذ يختلف إلى علماء عصره ، يأخذ عنهم الحديث والفقه والأدب ، ويسميه ، ويعتدهم ، السبكي في طبقاته . ويذكر مترجموه أنه تولى وظيفة الخبز في ديوان الخلافة بالبصرة ، وهي وظيفة تشبه وظيفة مصلحة الاستعلامات في عصرنا ، ولا يعرف بالضبط متى تقلدها ولا متى عهد إليه بها ، وظل في هذه الوظيفة إلى وفاته سنة ٥١٦ وظلت بعده في أبنائه حتى آخر عهد المتقي بالله (٥٣٠-٥٥٥ هـ) . ولم تمنعه الوظيفة من أن يعكف على الأدب واللغة ، بل أن يفرغ لها ، فيكتب مجموعة من الرسائل ، وآيته الرائعة : المقامات ، وينظم من الشعر ما يتيح له أن يكون من أصحاب الدواوين ، ويؤلف كتابه المعروف «درة القوَّاص في أوهام الخواص» وهو مطبوع مراراً وواضح من عنوانه أنه فيه يسجل أغلاط المتأدبين مما يشيع على ألسنة العامة ، وإن كان قد بالغ في ذلك حتى عدَّ بعض الكلمات الفصيحة غير صحيحة . ولشهاب الدين الخفاجي شرح عليه طبع في إستانبول ، ومرَّبنا في غير هذا الموضوع أن لتلميذه الجواليقي تكملة ألحقها بالكتاب وهي مطبوعة . ويؤلف الحريري أيضاً مُلحة الإعراب ، وهي منظومة في النحو شرحها شرحاً جيداً ، وهي مطبوعة في القاهرة مراراً . وكان لا يزال يختلف بين عمله في البصرة وضياعه في المشان وبين بغداد دار الخلافة وملتقى العلماء والأدباء . ومما يدل على أنه كان يختلف إلى بغداد منذ أواخر القرن الخامس ما أنشده له العماد الأصبهاني في مديح سعد الملك وزير السلطان محمد شاه السلجوقي الذي صلبه وقتله سنة ٥٠٠ للهجرة . ويقول السبكي إنه حدَّث في بغداد بجزء من حديثه وبمقاماته .

وكان الحريري لا يبارى في الأدب والبلاغة والفصاحة ، وتعدُّ مقاماته آية براعته التي ليس لها لاحقة ماثلة وكأما أغلق الأبواب بكتلتنا يديه بعده ، فلم يستطع أحد أن يجاربه أو يبلغ مبلغه في تلك المقامات ، ويشهد بذلك الزمخشري قائلاً :

أقسم بالله وآياته ومشعر الحج وميقاته
إن الحريري حرىُّ بأن نكتب بالتبرِّ مقاماته

ويقول السمعاني عنه : «لم يكن له في فنه نظير في عصره ، ولو قلت إن مفتاح الإحسان في شعره كما أن مختم الإبداع في نثره ، وأن مسير الحسن تحت لواء كلامه ، كما أن

= الحريرية ، وهو مطبوع في مصر مراراً ، وهو شرح نفيس المعارف ص ٤٤ والفن ومذاهبه في النثر العربي وتكثف رفوف المكتبات بشروح للمقامات لا تزال ص ٢٩٢ .
مخطوطة . وراجع فيه وفي مقاماته كتابنا (المقامة) طبع دار

حَيِّمَ السحر عند أقلامه ، لما زَلَقْتُ من شائق الإنصاف ، إلى حضيض الاعتساف .
ويقول العباد الأصهباني : « طلعت ذُكاء^(١) ذكائه في المغرب والمشرق ، وامتلات ببضائع
فوائده ، ونواصع فرائده ، حقائبُ المشيم والمعرق . . حريرى الوشمى ، عراقى
الوشم^(٢) ، لؤلؤى النظم ، كلامه يتيمة البحر ، وتيممة النحر ، ودرة الصدف ، ودرى
السدف^(٣) . . قد أعجز الفصحاء بصناعته ، وأبر^(٤) على البلغاء ببراعته » . ويقول الرواة
إنه كان بجيلاً دميم الخلق والهيئة ، تقتحمه العين ، وكان يعتاد نتف لحيته ، والناس على
الرغم من ذلك يزدحمون عليه لسماح مقاماته وإجازتهم بروايتها . ويقال إنه أجاز لسبعائة
طالب أن يرووها عنه ، وفي ذلك ما يدل على ما كان يحظى به هو ومقاماته في عصره من
منزلة أدبية رفيعة .

والمقامات أقاصيص قصيرة تصور مواقف متنوعة لأديب متسول يحتمل بيانه وفصاحة
لسانه على الناس ، فيلقون إليه بالدرهم والدنانير . وهى تزخر بحركة تمثيلية ، غير أنها
لا تتسع لتصوير حياة مجتمعا ، فقد كانت غاية الحريرى منها غاية بيانية بلاغية فحسب ،
واستطاع أن يحقق هذه الغاية إلى أبعد مدى . ويزعم الرواة أن سبب صَوَّغِهِ لها ما حكاها
عن نفسه من أنه كان جالساً في مسجد بنى حرام في البصرة فدخل شيخ رث الهيئة ، كان
شحاذاً أديباً فسلم ثم سأل ، فأعجبت الحاضرين فصاحته وحسن بيانه ، فسألوه عن كنيته
فقال أبو زيد ، وسألوه عن موطنه ، فقال من سروج ، وهى بلدة قرب حران شمالي
العراق ، فعمل الحريرى المقامة المعروفة باسم الحرامية ، وهى المقامة الثامنة والأربعون ،
ونسبها إلى أبى زيد السروجى المذكور ، واشتهرت فبلغ خبرها - فيما يقال - أنوشروان
ابن خالد وزير الخليفة المسترشد (٥١٢-٥٢٩ هـ) . فأشار عليه أن يضم إليها غيرها ،
فأتمها خمسين مقامة . ويقال بل إنه حين عاد إلى البصرة صنع أربعين مقامة ، ورجع إلى
بغداد ، فأعجب بها الأدباء ، وطلبوا إليه أن يؤلف على غرارها مقامة امتحاناً له ، فظل
أربعين يوماً لا يُفْتَحُ عليه بشيء ، فعاد إلى البصرة ، وألف عشر مقامات ، وأصعد بها إلى
بغداد فعرف الأدباء فضله . وقال بعض حساده إنها من صناعة شخص كان استضافه ،
فأت عنده . وقال حساد آخرون إن البدو أخذوا جراباً مغربى من بعض القوافل كانت به
هذه المقامات ، وتصادف أن اشتراه منهم الحريرى فنسبها إلى نفسه !

وكل ما قدمنا قصص غير صحيحة ، وفي مقدمتها قصة تشجيع أنوشروان بن خالد له

(٣) السدف : الظلم .

(٤) أبر : غلب .

(١) ذكاء : شمس .

(٢) الوشم : القش .

وبعثه على تأليفها ، فإنه تولى وزارة المسترشد بعد وفاة الحريري ، وكذبها ابن خلكان بطريق آخر إذ قال إنه رأى نسخة من المقامات بخط الحريري نفسه كتب بخطه على ظهرها إنه صنفها للوزير جلال الدين بن صدقة وزير المسترشد وقد وزر له في أول خلافته سنة ٥١٢ وكان هو الذى أشار إليه في مقدمة المقدمات بقوله : « فأشار من إشارته حكم وطاعته غم إلى أن أنشئ مقامات أتلو فيها تلو البديع » يريد البديع الهمداني ومقاماته . وتوقف الشريشي في شرحه إزاء هذه العبارة ، وكأنه أراد أن يدحض كل ما قيل من أن المقامات ألقت في عهد المسترشد بإشارة أحد وزيريه : ابن صدقة أو ابن خالد ، فقال إنها إنما ألقت بإشارة الخليفة المستظهر (٤٨٧ - ٥١٢ هـ) وبدأ الحريري تأليفها سنة ٤٩٥ واستغرقت منه نحو عشر سنوات حتى سنة ٥٠٤ .

واتسعت الأسطورة بأبي زيد ، أديب المقامات الشجاع ، فقيل إنه نحوى يسمى المطهر ابن سلالر ، ونرى كتب تراجم النحاة تترجم له ذاكراً أنه صاحب الحريري الذى أنشأ المقامات على لسانه ، وتقول إنه روى عنه أرجوزته « ملحة الإعراب » وربما كان المطهر شخصية حقيقية ، ودخل الوهم منه على النحاة ، فظنوا أنه أبو زيد السروجي . ومن المؤكد أن أبا زيد في المقامات شخصية خيالية اخترعها خيال الحريري ليحوك من حولها حيل أديب متسول . وقد سمي راويته الحارث بن همام يعنى به نفسه أخذاً من الحديث النبوي : « كلكم حارث وكلكم همام » أى كاسب كثير الاهتمام . ومن المؤكد أيضاً أنها بناء متكامل ، لم يُعدَّجزاً ولا قطعة تلو قطعة ، ويتضح ذلك من طريقة الحريري في عرضه المقامة الأولى ، إذ جعلها لتعريف أبي زيد براويته ، بينما جعل الأخيرة ، وهى ذات الرقم الخمسين ، لتوبة أبي زيد من حرفة الشحاذة وحيلها الكاذبة وندمه على ما تقدم من ذنوبه ، وبغيب عن راويته ، ولا يزال يبحث عنه حتى يجده في بلدته سروج وقد تحول ناسكاً متصوفاً مستغرقاً في عبادة ربه . وسمى المقامات فيما عدا ثلاثاً منها باسم البلدان التى تنقل فيها أبو زيد من مشرق العالم الإسلامى إلى مغربه . ونرى الحريري يذكر في مقدمتها مقصده منها إذ يقول : « أنشأت خمسين مقامة تحتوى على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغرر البيان ودرره ، وملح الأدب ونوادره ، إلى ماوشحها به من الآيات ، ومحاسن الكتابات ورضعته فيها من الأمثال العربية ، واللطائف الأدبية ، والأحاجى النحوية ، والفتاوى اللغوية ، والرسائل المتكررة ، والخطب المحببة ، والمواعظ المبكية ، والأصاحيك الملهية » . ومعنى ذلك أنه لم يقصد فيها إلى القصص لذاته ، وإنما قصد فيها إلى أفنانين من النثر فضلاً عما التزمه من السجع . وكان ذوق التصنع عم في الكتابة ، فلم يقف الكتاب عند السجع

والمحسنات البديعية ، بل أخذوا يضيفون إلى ذلك عقداً غريبة يصعبون بها المرور إلى السجع ، حتى يثبتوا براعتهم الأدبية ، وما نكاد نلمُّ بالمقامة السادسة ، حتى نراه يجلب ألباب الناس برسالة تتوالى كلماتها : كلمة حروفها منقوطة وكلمة حروفها غير منقوطة ، حتى إذا كانت المقامة المغربية السادسة عشرة عرض عقدة أو لُعبة غاية في العسر تسمى مالا يستحيل بالانعكاس كقوله . «لَمْ أَخَا مَلَّ» فإن العبارة تُقرأ طرداً وعكساً فلا تتغير حروفها ، ومضى يعرض طائفة كبيرة من مثل هذه العبارة نثراً وشعراً ، مما ملأ الحاضرين به إعجاباً شديداً . وفي المقامة القهقرية التالية جاء بطائفة كبيرة من الحكم تُقرأ الألفاظ فيها لا الحروف طرداً وعكساً مثل «مع اللجاجة تُلغى الحاجة» فإنها يمكن أن تُقرأ «الحاجة تلغى مع اللجاجة» . ويسمى المقامة السادسة والعشرين باسم الرِّقْطاء لأنها تتألف من كلمات تتوالى حروفها بالتبادل بين النقط وعدمه مثل «نائل يديه فاض ، وشُحُّ قلبه غاض» . وفي المقامة الثامنة والعشرين نرى أبا زيد يخطب خطبة كل كلماتها غير منقوطة ، ويعود إلى نفس اللعبة في المقامة التالية . وكل هذه عقد غريبة كان يمكن أن تحتق المقامات خفياً لولا ما امتاز به نسج الحريري من عذوبة ورشاقة . وكانت لُعبة الألفاظ شاعت في العصر ، فأفرد لها مقاماته : السادسة والثلاثين والثانية والأربعين والرابعة والأربعين . وخصَّ النحو بالمقامة الرابعة والعشرين ، إذ عرض فيها اثنتي عشرة مسألة نحوية ، وأفرد للفقه مقامتين : الخامسة عشرة والثانية والثلاثين . وقلما يُعنى بعرض شئون عصره السياسية والاجتماعية إلا أشياء طفيفة هنا وهناك ، فقد كان مشغولاً بعرض الأمثال والكنائيات وألفاظ اللغة الغريبة ، على أن تكون مقبولة لا تُصكُّ الأسماع ولا تستقلها الأفواه . وهو يُكثر في مقاماته من الآيات القرآنية ومن أشعاره الجيدة ومن المحسنات البديعية وخاصة الجناس . وطبيعي أن تتعدد فيها المواقف ويتنوع معها وصفه ، فتارة يصف روضة أوفلاة أو بحراً أو سوقاً ، وتارة ثانية هو زاهد متعبد يكثر من وعظه بمثل قوله :

«ابن آدم ما أغراك بما يغرك ، وأضرارك (أجرأك) بما يضرُّك ، وأهيجك بما يُطنِّيك ، وأبهجك بمن يُطْرِك . . لا بالكفاف تقتنع ، ولا من الحرام تمتنع ، ولا للعظاات تستمع ، ولا بالوعيد ترتدع . . يعجبك التكاثر بما لديك ، ولا تذكر ما بين يديك . . أتظن أن سترُّك سُدى ، وأن لا تحاسب غداً . . كلا والله لن يدفع المنون ، مالٌ ولا بنون ، ولا ينفع أهل القبور ، سوى العمل المبرور ، فطوبى لمن سمع ووعى ، وحقق ما ادعى (ونهى النَّفسَ عن الهوى) وعلم أن الفائز من ارعوى (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى) .»

والمواعظ والأدعية الإلهية كثيرة في المقامات ، وداثماً تُعرض في مثل هذه الأسجاع الخفيفة التي تطير عن الأفواه في عذوبة ورشاقة . وبيننا يلقانا أبو زيد في بعض النوادي واعظاً إذا هو يتحول من حين إلى حين ماجنا مع ندامى يحسبى العقار ويخلع الوقار . ولكن من الحق أن ذلك قليل في المقامات ، وقد أراد به الحريري إلى الفكاهة والدعابة ، وهما واضحتان عنده في مقامات عدّة ، وخاصة حين يظهر أبو زيد مع ابنه أو مع زوجته مختصمين إلى أحد القضاة أو الحكّام على نحو ما نرى في المقامة الإسكندرانية ، إذ تنكر في زي شيخ هرم خبيث تجرّه بعنف امرأة معها طفل نحيل ضئيل ، وتقدما إلى القاضي وكانا قد عرفا أنه أحضر مال الصدقات ليوزعه على الفقراء وذوى الحاجات ، ولم تلبث المرأة أن بادرت إليه قائلة :

«أبدي الله القاضي ، وأدام به التراضي ، إني امرأة من أكرم جرثومة ، وأطهر أرومة ، ميسمى الصون . . . وخلقى نعم العون ، وبينى وبين جارأتى بون ، وكان أبى إذا خطبني بناء المجد ، وأرباب الجدد ، سكّتهم وبكّتهم ، وعاف وُصلّتهم وصلّتهم ، واحتجّ بأنه عاهد الله تعالى بحلفه ، أن لا يباهر غير ذى حِرْفة ، فقيّض القدر لنصبي ووصبي ، أن حضر هذا الخدعة نادى أبى ، فأقسم بين رهطه ، أنه وفق شرطه ، وأدعى أنه طالما نظم درّة إلى درّة ، فباعها بيدرة (مال كثير) فاغترّ أبى بزخرفة محاله (كيد) وزوجنيه قبل اختبار حاله ، فلما استخرجنى من كيناسى (بيتى) ورحلنى عن أناسى ، ونقلنى إلى كِسره (بيته) وحصلنى تحت أسره ، وجدته قعدة جثمة (لا يفارق البيت) وألفيته ضجعة (عاجزاً) نومة . . . ومزق مالى بأسره ، وأنفق مالى فى عسره . . . ولى منه سلالة ، كأنه خلالة ، وكلانا ما ينال منه شبة ، ولا ترقأ له من الطوى (الجوع) دمة ، وقد قدته إليك ، وأحضرته لديك ، لتعجم (لتختبر) عود دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله .»

وتخصى المقامة على هذا النمط الفكاهة ، ويردّ الشيخ بقصيدة طويلة يدعى فيها أنه لا يُشترى غباره في العلم والشعر ، وأنه طالما اكتسب الأموال بدرر كلامه ، غير أن سوق الأدب كسدت ، لانقراض جيل الكرام ، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك هو وزوجته ، حتى لقد باع - كارهاً والدموع تترقق في عينيه - جهازها وكل ما دخلت به من أثاث ورياش أو ثياب فاخرة . وتنتهى المقامة بعطف القاضي على الشيخ وزوجته وفرضه لها في الصدقات حصّة .

والمقامات يشيع فيها الجناس والمحسنات البديعية ، كما تشيع فيها العذوبة ، ويحيل إلى قارئ الحريري في مقاماته كأنما جمع العربية كلها في كناية أو حقيية ثم نثر أفاظها بين

يديه ، وأخذ يختار منها ويتخب أروع ما عرفت لغتنا من أساليب مسجوعة . وكأنما كان يعزفها على قيثارة عَزَفَ ملحن مبدع ، مما جعل معاصريه ومن جاء بعدهم يتخذونها النموذج النثرى الذى لا يجارى فى عَرَسِ ذوق العربية فى نفوس الناشئة وكل ما يُطَوَّى فى هذا الذوق من إحساس بجمال الصياغة الأدبية النثرية . ومَرَّبنا فى الفصل الثانى من هذا القسم الخاص بالعراق أن لابن الخشاب البغدادى المتوفى سنة ٥٦٧ مبحثاً لغوياً فيما زعمه من أغلاط الحريرى فى مقاماته وأن لابن بَرِّى اللغوى المصرى المتوفى سنة ٥٨٢ م رداً عليه انتصر فيه للحريرى .

وكان للحريرى بجانب مقاماته مجموع رسائل ، لم تحتفظ به يد الزمن ، غير أن العباد فى خريدته وياقوت فى معجمه احتفظا ببعض رسائله ، وأطال العباد الأصبهاني فى قطف منتخبات كثيرة من هذه الرسائل شغلت منه فى ترجمته له نحو أربعين صحيفة ، وقد سجل منها هو وياقوت رسالتين اشتهرتا فى عصر الحريرى وبعد عصره ، اختار كلمات الأولى منها من ذوات السين ولذلك سميت السينية ، واختار كلمات الثانية من ذوات الشين ، ولذلك سميت الشينية . والتكلف فيها واضح لالتزام كلمات بعضها ، وكأنه فيها يحجل فى قيود ثقيلة . غير أن ما وراءها من رسائل يشهد له بسلاسة سجع وحسن رصفه فى رسائله شأنه فى مقاماته ، كقوله فى وصف جواب أو رسالة من أحد أصدقائه :

«وصل الجواب . . وخلصته كتاب الأمان ، من الزمان ، فتلقيته كما تلقى يد الإنسان ، صحف الإحسان ، وصيكاك العطايا الحسان . لا : بل كما تلقى أنامل الرّاح (الكف) كاسات الرّاح (الخمر) من أيدي الصّباح (الفاتنات) فى نسبات الصّباح ، ومازلت أتمتع بخليّ ودّرر ، ووشىّ وجبر (حرير) وملّح وزهر . فله ما جمع فيه من أنوار ونوار (زهر) ونضير (جميل) ونضار (ذهب) وتحسين وإحسان ، ومعين (ماء عذب) ومعان .»

وواضح مافى هذا السجع من خفة ورشاقة بما يحتويه من مهارة فى انتخاب ألفاظه وتقصير عباراته بحيث يمتع الألسنة كلامه حين يجرى عليها متدفقاً فى عذوبة ، كما يمتع الآذان حين تستمع إلى جرسه ونبراته ، حتى ليشعر قارؤه أن متاعاً موسيقياً خلاّباً يصبّ فى حنايا سجعه ، متاعاً يلد الآذان والقلوب والأفئدة .